الكسندر دوماس الكبير

عِقْدُ المَلِكَة

تعريب
فيليب عطا الله

الجزء الثاني

دار الجيل
بيروت

Bibliotheca Alexandrina
01497736

عِقْدُ المَلِكَةِ
(٢)

كتب للمعرّب

١ – زوجات الفراعنة
٢ – السلطان الأحمر (عبد الحميد)
٣ – حياة بوذا
٤ – كابيتان (رواية)
٥ – نبوخذنصر (ملك بابل)
٦ – عقد الملكة – الجزء الأول
٧ – عقد الملكة – الجزء الثاني
٨ – بطرس الأكبر (قيصر روسيا الشهير)
٩ – كليوباتره (رواية)

الكسندر دوماس الكبير

عقد الملكة

تعريب

فيليب عطا الله

الجزء الثاني

دار الجيل
بيروت

جَميع الحقوق محفوظة لِدَار الجيل

الطبعة الأولى

١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م

حبّان ومطمحان

★

وجانّ أيضاً كانت امرأة، دون أن تكون ملكة.

فهي ما كادت تجلس في عربتها حتى أخذت تقابل بين قصر فرساي الجميل وأثاثه الفاخر، وبين منزلها في الطابق الرابع في شارع سان جيل. بين الخدم الملكيين بمظهرهم الأنيق وبين خادمتها العجوز.

ولكن بيتها المتواضع وخادمتها العجوز كانا قد أصبحا، تقريباً، في عالم النسيان، وباتت جانّ لا تنظر إلا الى منزلها الصغير في ضاحية سان - انطوان، وهو منزل يمتاز بجمال هندسته وبما يحتويه من أسباب الراحة، بالإضافة الى خدمه المطيعين اللائقين، وإن كانت ثيابهم أقل تطريزاً من ثياب خدم قصر فرساي.

فهذا المنزل وهؤلاء الخدم كانوا فرساي ثانٍ بالنسبة للسيدة لاموت، ولم تكن جانّ في «فرسايها» هذا أقل من الملكة ماري انطوانيت. فرغباتها كلها، شرط أن تكون محقة، كانت تنفَّذ بسرعة وكأنها تمسك بيدها الصولجان.

لذا دخلت جانّ الى منزلها الصغير هذا منشرحة الصدر متهللة الأسارير. وكان الوقت ما زال باكراً، فتناولت قلماً وورقة وكتبت عدة أسطر، ثم وضعت الورقة في ظرف ناعم ومعطَّر، وكتبت العنوان وقرعت الجرس.

وللحال فُتح الباب وانتصب على عتبته خادم، فدمدمت جان: «كنت على حق، فالملكة ليست أفضل مني.» ثم مدت يدها وقالت للخادم:

– هذه الرسالة لسيادة الكردينال دي روهان.

فتقدم الخادم صاغراً وتناول الرسالة وخرج دون أن ينبس ببنت شفة، وذلك على طريقة خدم القصور.

واسترسلت الكونتس بكليتها الى هواجسها، ولم تكن هذه الهواجس جديدة، بل امتداداً لتلك التي شغلتها وهي في طريق عودتها من فرساي.

ولم تمضِ خمس دقائق، إلا وقُرع الباب، فقالت السيدة دي لاموت:

– أدخل!

فظهر في الباب نفس الخادم، مما جعل السيدة دي لاموت تتأكد بأن أمرها لم ينفَّذ، فسألته بحركة تدل على نفاد صبرها، فأجاب الخادم:

- في اللحظة التي خرجت فيها لتنفيذ أوامرك يا سيدتي، كان سيادة الكردينال ينتظر نتيجة قرع الباب، فأخبرته أني ذاهب الى قصره، فتناول رسالة سيدتي الكونتس وقرأها، ثم هبط من عربته ودخل وقال لي: «حسناً، أعلن عن وصولي.»

- وبعد ذلك؟

- إن سيادته هنا، ينتظر من سيدتي السماح له بالدخول.

فانفرجت شفتا الكونتس عن ابتسامة خفيفة، وقالت بعد دقيقتين بلهجة اتسمت بالرضى:

- ليدخل!

فهل كان قصدها من هاتين الدقيقتين، أن تجعل أمير الكنيسة ينتظر أوامرها في غرفة الانتظار، أو أنهما كانتا ضروريتين للسيدة دي لاموت كي تنتهي من رسم خطتها؟

الواقع أن جانّ دي لاموت عندما عادت الى منزلها وأرسلت تستدعي الكردينال، كانت لديها خطة، ولذلك شعرت بالفرح الكبير عندما حضر.

فالرغبة المجنونة لدى الملكة في اقتناء العقد، قد أيقظ كل المطامح الدفينة في نفس الكونتس المتآمرة.

وطوال المدة التي استغرقتها الطريق الطويلة بين فرساي وباريس، كان شيطان الجشع يرافقها ويهمس في أذنها بأعذب الكلمات المشجعة على العمل الجريء، للحصول على الثروة.

فمليون ونصف المليون من الليرات تتألق في حبات من الماس على «الساتان» الأبيض في علبة مجوهرات السيدين بوهمير وبوسانج، هو رقم قد أسكر الكونتس، لأنه في الواقع ثروة عظيمة بالنسبة إلى امرأة فقيرة، كانت منذ شهر تمدُّ يدها مستعطية صدقات الكبار.

وهذه الثروة التي اشتهتها جانّ، لم تكن وهماً ككلمة في صك تعاقدي، او كامتلاك قطعة أرض، بل كانت ثروة منظورة وملموسة.

لذا باتت أحلامها كلها منصبة على هذا العقد. والكردينال الذي وحده باستطاعته أن يحقق لها أحلامها، كانت له هو الآخر أحلامه، كانت له مطامحه المخبأة تحت قناع من الملاطفة والتظاهر بالحب.

وبهذا التظاهر الذي يخفي وراءه ما يخفي، قال الكردينال عندما دخل الى غرفة الكونتس:

– آه ! أهذا أنت أيتها العزيزة جانّ ، إنك فعلاً قد أصبحت ضرورة كبيرة لحياتي . فالتفكير بأنك غائبة عني ، قد جعل نهاري كله مظلماً . هل عدت بصحة جيدة من فرساي على الأقل ؟

– كما ترى يا سيدي .

– ومسرورة ؟

– بل مسحورة !

– إذن، استقبلتك الملكة ؟

– لقد أُدخلتُ إليها فور وصولي .

– إنك مغتبطة ، فهل حدثتك الملكة ؟

– لقد أمضيت في غرفة جلالتها ثلاث ساعات تقريباً !

فارتعش الكردينال ، وكاد أن يردد بلهجة الإعجاب عبارة «ثلاث ساعات» ، إلا أنه تمالك نفسه وقال :

– إنك فعلاً ساحرة ، وليس باستطاعة أحد مقاومة سحرك .

– أوه ! أوه ! إنك تفرط في تعظيمي يا أميري .

– لا ، أبداً . إذن ، قلت بأنك بقيت ثلاث ساعات لدى الملكة ؟

فأجابت جانّ إيجاباً بحركة من رأسها .

فقال الكردينال مردداً ومبتسماً :

- ثلاث ساعات !.. كم من أمور باستطاعة امرأة ذكية مثلك، أن تبحثها في مدى ثلاث ساعات !

- أوه ! إني أؤكد لسيادتك بأني لم أُضع وقتي.

فقال الكردينال مجازفاً :

- إني أشارط بأنك خلال الساعات الثلاث هذه، لم تفكري بي ولو دقيقة واحدة؟

فأجابته جانٌ :

- يا لك من عقوق !

فصاح الكردينال :

- صحيح !

- لقد عملت أكثر من التفكير بك.

- ماذا عملت؟

- لقد تحدثت عنك.

فأخذ قلب الحبر يخفق خفقاناً شديداً وسأل بصوت حاول فيه عبثاً أن يخفي تأثره :

- تحدثت عني ... ولمن؟

- لمن، إن لم يكن للملكة؟

وعندما تلفظت جانٌ بهذه الكلمات العزيزة على قلب الكردينال، استعملت مهارتها كي لا تنظر اليه وجهاً لوجه،

وكأنها قلقت قليلاً من النتيجة التي ستحدثها هذه الكلمات في نفسه. فقال الكردينال بصوت متلجلج:

– آه! هيّا وحدثيني عن ذلك أيتها الكونتس العزيزة. في الحقيقة، إن ما جرى يهمني جداً، ولا أريد أن تعفيني حتى من التفاصيل التافهة.

فابتسمت جانّ، إذ إنها كانت واقفة على ما يهمّ الكردينال أكثر من الكردينال نفسه.

ولما كان ما ستقصه عليه قد تهيأت له سلفاً، وكانت على استعداد لأن ترويه له حتى وإن لم يطلبه منها، فقد بدأت حديثها بتؤدة، مشددة على كل مقطع، مقدِّمة الدليل على أنها باتت صديقة ماري انطوانيت التي لا يستغنى عنها.

لكن الكردينال دي روهان لم يكترث في كل ما روته جانّ عمّا قالته الملكة بشأنها، وجانّ بدورها لم تشدد إلا على ما قالته الملكة بشأن الكردينال.

وما كادت الكونتس تنتهي من سرد قصتها، حتى أقبل الخادم نفسه معلناً أن العشاء بات حاضراً.

فدعت جانّ الكردينال بغمزة من عينها، قبلها الكردينال بإشارة منه، وتأبط ذراع سيدة المنزل وانتقلا معاً الى قاعة الطعام.

وعندما انتهى العشاء، كان الحبر قد شرب نخب الأمل والحب جرعات كبيرة في القصص التي استعيدت عشرين مرة والتي قوطعت عشرين مرة من قبل تلك الفاتنة التي سحرت قلوب ذوي السلطان.

ولاحظ الكردينال بدهشة مرعبة، أن الكونتس عوضاً عن أن تظهر مزاياها كما تفعل كل امرأة يسعون وراءها لحاجتهم إليها، كانت تذهب إلى أبعد من أمنيات مخاطبها، وبطيبة خاطر تختلف كل الاختلاف عن غطرستها الأسدية في العشاء الأخير الذي تناولاه معاً في المكان نفسه والمنزل ذاته.

فجانّ دي لاموت هذه المرة، كانت تتصرف لا كامرأة سيدة نفسها وحسب، بل أيضاً كسيدة على الآخرين. فلم يكن هناك أية حيرة في نظراتها، ولا أي تحفظ في صوتها. ولا غرو ولا عجب، ألم تعاشر طيلة النهار نخبة الطبقة النبيلة الفرنسية؟ ألم تنادِها أعظم ملكة على الأرض بـ «عزيزتي الكونتس؟»

لذلك لم يحاول الكردينال، رغم أنه رجل سيد ومطاع، أن يقاوم هذا التعالي الذي أُخضع له، بل قال للكونتس وهو يأخذ يدها:

– لقد أصبحت لك شخصية امرأتين أيتها الكونتس!

فسألته الكونتس:

- كيف ذلك؟
- شخصية امرأة الأمس، وشخصية امرأة اليوم.
- وأية امرأة تفضّل نيافتك؟
- لا أعلم. غير أن امرأة هذا المساء، هي امرأة لا تقاوم!
- لا أعتقد أن أميراً مثلك، خانته المقارنة في موقف من المواقف.

فانزلق الأمير عن مقعده، وسقط جاثياً على ركبتيه أمام السيدة دي لاموت، فقالت تسأله:

- هل تطلب صدقة؟
- وإني أنتظر أن تمنحيني إياها...

فأجابت جانّ:

- إن اليوم هو يوم توزيع الهبات فعلاً، فالكونتس دي فالوا قد استعادت مكانتها، وغدت امرأة بلاط. فقبل قليل، كانت في عداد النساء الأكثر اعتزازاً في فرساي. لذلك، أصبح بإمكانها أن تبسط يدها وتمدُّها إلى كل من يروق لها.

- وهل ستمدينها إلى أمير؟
- بل سأمدها الى كردينال...

ومدّت جانّ يدها، فطبع الكردينال عليها قبلة طويلة محرقة، رفع بعدها عينيه سابراً نظرة الكونتس وابتسامتها، ثم خرج الى غرفة الانتظار وقال لسائق عربته كلمتين.

وبعد عشر دقائق، سُمعت ضجة عربة تبتعد ... فرفعت الكونتس رأسها، فقال لها الكردينال:

- أقسم لك أيتها الكونتس، بأني قد صممت ألا أتراجع ...

فقالت له الكونتس:

- ولماذا القسم! ما دمت قد بلغت هدفك.

ظهور الوجوه تحت الأقنعة

★

بعد أن ابتعدت عربته ولم يعد يُسمع لها ضجيج، قضى الكردينال مع الكونتس ساعتين في الوضع الذي ذكرناه. وأخيراً استسلمت الكونتس وقضى الكردينال وطره، فأصبح هو العبد، وأصبحت هي المنتصرة.

وكما أن الرجلين قد يتصافحان ويخدعان بعضهما البعض، هكذا الرجل والمرأة قد يتبادلان القبل ويخدعان بعضهما البعض. ولكن هنا، لم يخدع الواحد منهما الآخر، إلا لأن هذا الآخر يريد أن يكون مخدوعاً.

فقد كان لكلٍ منهما هدفه، ومن أجل هذا الهدف، كانت المودة ضرورية. إذن، لقد بلغ كل منهما هدفه.

لذلك لم يجهد الكردينال نفسه ليخفي نفود صبره. فقد اكتفى بأن يتحول قليلاً عن الطريق المباشر، ليرجع الى الحديث عن فرساي وعمّا لقيته فيه من تكريم محظية الملكية الجديدة، فقال:

- إن الملكة من السخاء بحيث أنها لا تكترث لأي مبلغ تنفقه في سبيل الذين تحبهم. فهي ذات تفكير قلَّ نظيره، إذ إنها تعطي القليل للكثير من الناس، وتعطي الكثير للقليل من الأصدقاء.

فسألته السيدة دي لاموت:

- هل تعتقد بأنها ثرية؟

- إنها بكلمة، أو حركة، أو ابتسامة، تحصل على الثروات التي تريدها. ولا يستطيع أحد أن يرفض للملكة طلباً، باستثناء الوزير تورغو[1].

فقالت السيدة دي لاموت:

- غريب! فأنا قد تبين لي بأنها أقلّ غنى مما تعتقد. مسكينة الملكة، أو بالأحرى مسكينة هذه المرأة!

- ماذا تقولين؟!

١- كان الوزير تورغو شديد المحافظة على أموال الخزينة، وقد حاول تخفيض مخصصات العائلة المالكة، مما حمل لويس السادس عشر على إقالته.

– أقول بأنها كيف يمكن أن تكون ثرية ، وهي ملزمة بأن تفرض على نفسها الحرمان ؟

– الحرمان !.. قلت الحرمان أيتها العزيزة جانٌ ؟!

– أوه ! أنا قلت ما رأيت وشاهدت بأم العين ، لا زيادة ولا نقصان .

– وما الذي رأيته وشاهدته ؟ قولي ، فأنا مصغٍ اليك .

– تصور بأن هذه التعيسة ، قد عانت من عذابين مريعين .

– عذابان مريعان !.. وما هما ؟

– أنت تعلم أيها الأمير العزيز ، ماذا تعني أمنية امرأة .

– كلا ، ولكني أريد أن أعلم أيتها الكونتس .

– حسناً ! إن الملكة ليس باستطاعتها أن تحقق أمنيتها .

– مع مَنْ ؟

– ليس مع مَنْ ، بل بماذا .

– حسناً ! بماذا ؟

– بعقد ماسي ...

– آه ! لقد عرفت . ألا تقصدين عقد بوهمير وبوسانج ؟

– بالضبط .

– أوه ! إنها قصة قديمة أيتها الكونتس .

– قديمة أو جديدة ، أليس من المؤسف جداً أيها الأمير ، أن لا تستطيع ملكة ، امتلاك ما كادت أن تمتلكه محظية عادية ؟

خمسة عشر يوماً زيادة، قضتها جانّ فوبرنياي في عشرة لويس الخامس عشر، مكنتها من الحصول على ما لم تستطع أن تحصل عليه ماري انطوانيت!

- ولكن لا يخفى عن بالك أيتها الكونتس العزيزة، بأن الملكة استطاعت أن تحصل على هذا العقد خمس أو ست مرات، لكنها كانت دائماً ترفض.

- أوه!

- وإني أقول لك أكثر من ذلك. فالملك نفسه، قد قدّمه لها بيده، فرفضته!

وقصّ عليها الكردينال حكاية اليخت، فاستمعت إليها جانّ باهتمام كبير. وعندما انتهى الكردينال، قالت له:

- حسناً! على ماذا يدل ذلك؟

- ذلك يدل على أنها لا ترغب في هذا العقد.

فهزت جانّ كتفيها وقالت:

- أنت تعرف النساء أيها الأمير، وتعرف البلاط، وتعرف الملوك، ومع ذلك، تسمح لنفسك بهكذا جواب؟!

- سيدتي! أنا متأكد من رفضها.

- ذلك يؤكد شيئاً واحداً يا أميري العزيز، وهي أن الملكة كانت بحاجة لأن تطلق كلمة براقة، كلمة يستسيغها الشعب ويصفق لها، ففعلت.

فقال الكردينال :

- إذن ، أنت تشككين بفضائل الملوك ؟

- سواء كنت مشككة أم مؤمنة ، فأنا أؤكد لك شيئاً .

- ما هو هذا الشيء ؟

- هو أن الملكة ما أن رأت العقد ، حتى غدت كالمجنونة من فرط رغبتها في اقتنائه .

- أنت تتصورين ذلك أيتها العزيزة . فالحقيقة التي يجب أن تعرفيها ، هي أن الملكة رغم عيوبها، تتمتع بصفة عظيمة .

- ما هي هذه الصفة ؟

- هي عدم المبالاة . فالملكة لا تحب الذهب، ولا الفضة ، ولا الأحجار الكريمة . فهي توازن بين المعادن وقيمتها ، وفي معتقدها ، أن زهرة في صدرها ، تساوي ماسة في أذنها .

- أنا لا أقول لا ، ولكنها في هذه الساعة ، أنا أؤكد بأنها ترغب شديد الرغبة في وضع عدة ماسات في عنقها .

- أوه ! قدِّمي برهانك أيتها الكونتس .

- ليس هناك أهون من ذلك . فمنذ قليل ، رأيت العقد بنفسي .

- أنت ؟

- نعم . وليس فقط رأيته ، بل لمسته أيضاً .

- أين حدث ذلك ؟

- في فرساي، دائماً في فرساي.

- في فرساي؟!

- نعم، حيث جاء به الصاغة في محاولة أخيرة لإغراء الملكة.

- وهو جميل، أليس كذلك؟

- إنه مدهش!

- إذن، بصفتك امرأة كاملة الأنوثة، هل تعتقدين بأن هذا العقد يستهوي النساء؟

- إن المرأة التي تشاهده، يفقدها التفكير به شهية الأكل ولذة الرقاد.

- واحسرتاه! ليس لدي يخت أقدمه للملك.

- يخت؟

- نعم، فإذا ما قدمته إليه، وهبني العقد، وعند ذاك يصبح بأمكانك أن تأكلي وتنامي مطمئنة.

- أتمزح يا أميري؟

- لا، إني أقسم لك.

- حسناً! سوف أقول لك شيئاً يدهشك.

- قولي.

- أنا لا أريد هذا العقد.

- حسناً فعلت أيتها الكونتس العزيزة ، لأني لا أستطيع أن أهبك إياه .

- واحسرتاه ! لا أنت ولا أي شخص آخر . هذا ما تشعر به الملكة ، ولهذا السبب هي تتحرق عليه .

- ولكني أكرر عليك القول ، بأن الملك سبق له أن قدمه لها .

فقامت جانّ بحركة سريعة ، حركة تدل على الإنزعاج ، وقالت :

- وأنا أقول لك ، بأن النساء لا يقبلن مثل هذه الهدايا ، إلا إذا أُرغمن على قبولها .

- أوه ! لو كنت أنا الملك وكنت أنت الملكة ، لأرغمتك على قبول هذا العقد .

- حسناً ! أرغم الملكة على قبوله ، وإن لم تكن الملك ، فترى بأنها لن تكون متكدرة من هذا الإرغام .

فقال الكردينال بعد لحظة من التفكير :

- هل أنت أكيدة ولست مخدوعة ، بأن لدى الملكة رغبة في هذا العقد ؟

- ورغبة ملحاحة . إسمع أيها الأمير العزيز . ألم تقل لي مرة ، بأنك لن تكون متكدراً فيما لو أصبحت وزيراً ؟

- من المحتمل جداً ، أني قد قلت لك هذا القول أيتها الكونتس .

- حسناً! وها هي الفرصة مؤاتية أيها الأمير العزيز...

- ماذا تقصدين؟

- أقصد بأن الملكة على استعداد لأن تعمل وزيراً، من الشخص الذي يؤمن لها ضمّ هذا العقد الى مجموعة حلاها في خلال ثمانية أيام.

- أوه! كونتس!

- إني أعني ما أقول. وفضلاً عن ذلك، إن ما قلته لا يعنيك. فمن الواضح جداً، أنك لن تبدد مليوناً ونصف المليون في سبيل نزوة ملكية، لأن ذلك سيكون، في الواقع، ثمناً غالياً لحقيبة وزارية يجب أن تحصل عليها من دون أي مقابل. ولكن هذا العقد الذي سلب لبّ الملكة يا عزيزي، هو كالشمس في منتصف القبة الزرقاء، لا يستطيع أن ينظر إليها إلا من كانت له عيناك الشبيهتان بعيني النسر.

فلم يجاوب الكردينال، بل غرق في بحر من التفكير... إلى أن قالت له جانّ:

- يبدو أنك قد حكمت علي حكماً جائراً يا أميري، إذ اعتبرتني مبتذلة وحقيرة، ولم يعد يليق بك أن تتنازل وتكلمني.

- لا يا عزيزتي الكونتس، ولكني أحلل اعتقادك هذا

بالملكة، وأقارن بينه وبين رفضها للعقد عندما عرضه الملك عليها.

– صدقني يا عزيزي بأن الملكة تتحرق على هذا العقد. فقد ثبت لي ذلك من تأوهاتها عندما وقع بصرها عليه. واعذر ضعفي إذا قلت لك، بأني لو كنت أنا مكانها لشعرت الشعور نفسه.

– إنك امرأة عجيبة أيتها الكونتس! فقد تحالف فيك، بشكل لا يصدق، ضعف القلب مع رجاحة العقل، فجعل منك هذا التحالف امرأة مخيفة بعض المرات، وبعض المرات امرأة جديرة بالعبادة كما هي حالك الآن.

وقرن الكردينال القول بالفعل في غزله هذا، بقبلة حارة طويلة، ثم قال:

– هيّا، ولنتوقف عن الكلام على هذه الأمور.

فقالت جانّ في نفسها: «ليكن، لكني أعتقد بأن الصنارة قد غرزت في اللحم.»

ثم أكمل الكردينال يقول:

–هل تعتقدين بأن الذي أعاد الكرة، هو بوهمير؟

فأجابت السيدة دي لاموت ببراءة:

– نعم، وكان برفقته بوسانج.

فقال الكردينال وكأنه يبحث في ذاكرته:

- بوسانج ... بوسانج ... أليس هذا البوسانج شريكه؟
- بلى، وهو رجل ضامر.
- هو ذاك.
- وأعتقد أنه يقطن في منطقة الجسر الجديد.
- معك حق. فقد قرأت هذا الاسم فوق بوابة في تلك المنطقة، بينما كنت ماراً بعربتي.

فقالت جانّ في نفسها مرة ثانية:

«إن السمكة أخذت تعضّ الصنارة أكثر فأكثر.»

وقد كانت جانّ على حق، فالصنارة قد دخلت الى عمق الفريسة.

لذلك، عندما خرج الكردينال من منزل ضاحية سان انطوان في اليوم التالي، توجّه فوراً إلى مكتب بوهمير متنكراً. لكن صائغي التاج، بوهمير وبوسانج، ما أن فاه الكردينال بأول كلمة، حتى كلّماه بقولهما: يا صاحب النيافة.

فقال الكردينال مندهشاً:

- طالما أنكما عرفتماني، فحاولا على الأقل، أن لا يعرفني الآخرون.

فأجابه بوهمير:

- كن مطمئناً يا صاحب النيافة، ونحن رهن أوامرك.

فقال الكردينال :

- جئت بصدد شراء العقد الماسي الذي عرضتماه على الملكة .

- في الحقيقة ، نحن متأسفان ، لأن نيافتكم قد جاءت متأخرة جداً .

- كيف ذلك ؟

- ذلك أن العقد قد بيع .

- هذا مستحيل ! فالبارحة بالضبط قد عرضتماه من جديد على جلالتها .

فقال بوهمير :

- وقد كررت رفضها يا صاحب النيافة ، فاضطررنا الى بيعه .

فسأل الكردينال :

- ومع من تمت هذه الصفقة ؟

- ذلك سرٌ يا صاحب النيافة .

فنهض الكردينال ممتعضاً وقال :

- أعتقد يا سيدي ، بأنه كان من المفروض بصائغ التاج الفرنسي ، أن يبيع هذه الماسات في فرنسا . ولكنك قد فضّلت البرتغال على وطنك يا سيد بوهمير !

فصاح بوهمير متعجباً :

- إن نيافتك تعرف كل شيء!

- ولما العجب والدهشة؟

- ولكن، طالما أن نيافتك تعرف كل شيء، فمما لا شك فيه، أنها قد عرفت ذلك من الملكة ذاتها.

- لنفترض ذلك، فما الذي يغيّر في حقيقة الواقع؟

- هل تسمح يا صاحب النيافة أن نتكلم بحرية؟

- تكلم.

- حسناً! إن الملكة ترغب في عقدنا.

- هل تعتقدان ذلك؟

- بل نحن نؤكده.

- إذن، لماذا لم تشترِه؟

- لأنه سبق لها أن رفضته عندما عرضه الملك عليها، فإذا ما عادت عن قرارها السابق الذي نالت المدح والثناء عليه، أصبح ذلك نزوة غير مستحبة.

- إن الملكة فوق كل كلام.

- هذا صحيح، عندما يكون المتكلم هو الشعب، أو المالقون. أما عندما يكون المتكلم هو الملك...

- أنتما تعرفان جيداً، بأن الملك قد شاء أن يقدم هذا العقد للملكة.

- بدون شك، ولكن الملك بادر الى شكر الملكة عندما رفضته.

- أنتما مخدوعان أيها السيدان، فهذا لم يحدث إطلاقاً.

- على كل، إذا كان ذلك سبباً كافياً لنحنث بكلامنا مع سفير البرتغال، فإن هذا السبب قد جاء متأخراً.

فأخذ الكردينال يفكر...

فكائنة ما كانت دبلوماسية الدبلوماسيين من القوة، تبقى دبلوماسية التجار متفوقة ... فالدبلوماسي يحصر مفاوضته تقريباً في القيمة، بينما يحاول التاجر بكل الأساليب المغرية أن يثير فضول المشتري حتى ينتزع منه الثمن انتزاعاً، مهما كان هذا الثمن غالياً.

وقد شعر الامير دي روهان بتأثير بوهمير من هذه الناحية، فقال له:

- افترض يا سيدي، إذا شئت، بأن الملكة ترغب في عقدكما.

- أوه! عند ذاك يتغير كل شي يا صاحب النيافة. فعندما يتعلق الأمر بإعطاء الأفضلية للملكة، يصبح بإمكاني إلغاء كل الصفقات.

- كم تريدان ثمناً لهذا العقد؟

- مليون ليرة ونصف المليون!

- وكيف ستكون طريقة الدفع؟

- إن اتفاقنا مع البرتغالي يقضي بأن يدفع لنا عربوناً، ثم أحمل العقد بنفسي الى ليشبونة، حيث يتمّ الدفع بعد المعاينة.

- إن هذه الطريقة في الدفع ليست قابلة للتحقيق بالنسبة إلينا يا سيد بوهمير. أما العربون، فهذا حق من حقوقكما.

- مئة ألف ليرة يا صاحب النيافة.

- باستطاعتنا تأمينه. والباقي؟

فقال بوهمير:

- إن نيافتكم تريد بعض الوقت حتماً! وهذا ممكن طالما أن نيافتكم هي الكفيلة. إلا أن التأخير في الدفع سيوقعنا في خسارة يا سيدنا، لأن عملاً بهذه الأهمية، يجعل الأرقام تتضخم تلقائياً وبدون إنصاف، فالفوائد على مليون ونصف المليون من الليرات بمعدل خمسة في المئة، حصيلتها في السنة خمسة وسبعون ألف ليرة فقط، وذلك خراب علينا، فالفائدة المقبولة هي عشرة في المئة.

- تصبح الفائدة بموجب حسابك هذا مئة وخمسين ألف ليرة.

- نعم يا سيدنا.

- لنفترض أنكما ستبيعان هذا العقد بمليون وستماية ألف

ليرة يا سيد بوهمير، وأنكما ستقبضان عربوناً قدره مئة الف ليرة، والباقي سيقسط ثلاثة أقساط كل قسط قيمته خمسماية ألف ليرة تسدد في خلال سنة، هل توافقان؟

– بهذه الطريقة يا سيدنا نخسر في هذه الصفقة خمسين الف ليرة!

– لا أعتقد يا سيدي، فأنتما لو قبضتما غداً خمسماية الف ليرة، لوقعتما في حيرة، إذ من غير المعقول أن يشتري الصائغ أرضاً بهكذا مبلغ.

– ولكن نحن إثنان يا سيدنا، شريكي وأنا.

– ليكن. فستكونان أكثر سروراً بأن تقبضا خمسماية الف ليرة في كل ثلث من السنة، أي مئتين وخمسين ألف ليرة لكل واحد.

– ولكن فات سيدنا بأن هذه الماسات لا تخصنا. أوه! لو كانت تخصنا، لكنا في درجة من الغنى تجعلنا غير مكترثين، لا للدفع، ولا للتوظيف عند قبض المال.

– إذن، لمن تخصّ؟

– إنها تخصّ عشرة دائنين تقريباً. فقد اشترينا هذه الماسات بالتقسيط. لذلك نحن مديونون بواحدة إلى همبورغ، وبأخرى إلى نابولي، وبثالثة إلى بونس أيرس، وبرابعة إلى موسكو، إلخ... ودائنونا ينتظرون بيع العقد كي

نفيهم حقهم، وتبقى حصتنا نحن من الربح الذي نحققه. ولكن واحسرتاه يا سيدنا! فمنذ أن طرحنا هذا العقد برسم البيع حتى الآن، أي منذ سنتين، قد ترتبت علينا فوائد بلغت قيمتها مئة ألف ليرة. فاحكم إذا كان سيبقى لنا شيء من الربح ...

فقاطع الكردينال بوهمير بقوله:

– مع هذا كله، أنا لم أرَ هذا العقد بعد.

فقال بوهمير:

– صحيح يا سيدنا، ها هو!

وبعد أن اتَّخذ كل الاحتياطات التي اعتادها، أبرز الحلية الثمينة.

فصاح الكردينال بعد أن لامس بشغف المشابك التي لامست عنق ماري انطوانيت:

– رائع!..

وبعدما لامست أصابعه كل ماسة، وتملّت عيناه من روعة هذا العقد، قال:

– هل وافقت على الصفقة؟

فأجاب بوهمير:

– لا أستطيع إلا أن أوافق يا سيدنا، ولكن يتوجب علي الذهاب الى السفارة البرتغالية كي أفسخ الاتفاق.

- لا أعتقد أن هناك سفيراً للبرتغال في باريس في هذه الأيام.

- في الواقع يا سيدنا ، إن السيد سوزا موجود في هذه البرهة ، إذ إنه قد جاء متخفياً .

فقال الكردينال ضاحكاً :

- كي يتفاوض في موضوع العقد ؟

- نعم يا سيدنا .

- أوه ! يا لسوزا المسكين ! إني أعرفه جيداً. مسكين سوزا !

وأخذ الكردينال يضحك ضحكاً مرحاً ، فاعتقد بوهمير أن من واجبه مشاركته في السخرية على السيد سوزا ، ففعل ، واستمرا هكذا عدة دقائق ، همّ بعدها الكردينال بالخروج ، فاستوقفه بوهمير قائلاً :

- هل تريد نيافتك أن تقول لنا كيف سينفذ الاتفاق ؟

- بشكل طبيعي جداً .

- هل بواسطة معتمد نيافتكم ؟

- لا ، أبداً ، فلن يتعامل معكما سواي .

- ومتى ؟

- ابتداء من الغد .

- والمئة ألف ليرة ؟

- سأحملها اليكما غداً.

- وبقية المعاملات؟

- سوف أوقع عليها غداً أيضاً. وبما أنك رجل يؤتمن على السر يا سيد بوهمير، فتذكر جيداً بأنك مؤتمن على واحدٍ من أهمّ الأسرار.

- إني أعرف جيداً يا سيدنا، وتأكد بأني سأكون موضع ثقتك...

ثم أضاف قائلاً:

... كما أني سأكون موضع ثقة صاحبة الجلالة الملكة.

فاحمرّ الأمير روهان وخرج مرتبكاً، إلا أنه خرج سعيداً أيضاً، ككل رجل يكون في ذروة الغرام والشغف...

وفي صباح اليوم التالي، توجّه بوهمير الى السفارة البرتغالية متجهم الوجه.

وفيما كان يطرق الباب، كان السيد بوزير «السكرتير الاول» يجري جردة حساب مع موثق العقود السويسري، السيد ديكورنو، بينما كان الدوق مانويل، أي السفير سوزا، يشرح لشريكه، «خادم الغرفة»، الخطة الجديدة لغزوته.

وكانت قد طرأت على مقر السفارة تغييرات كثيرة منذ آخر زيارة قام بها السيد بوهمير الى شارع «الجيسيان». فكل «الموظفين» الذين جاؤوا بمركبتي خيل مخصصتين لنقل

المسافرين كما سبق وذكرنا، قد وزعوا في أرجاء السفارة كل بحسب حاجته.

ويجب القول، بأن الشركاء، باقتسامهم الأدوار التي اتقنوا تمثيلها، قد أُتيحت لهم الفرصة لأن يسهروا بأنفسهم على مصالحهم، مما منحهم بصورة دائمة بعض الشجاعة في المهمات الاكثر صعوبة.

والسيد ديكورنو الذي كان مندهشاً بذكاء كل هؤلاء «الموظفين»، كان في الوقت نفسه معجباً بقلة اهتمام السفير بالتعصب الوطني، وإصراره على اتخاذ مسكن له ذي طابع فرنسي صرف، ابتداء من السكرتير الأول حتى خادم الغرفة.

لذا اغتنم فرصة تثبت السيد بوزير من الأرقام، ليبدأ حديثاً معه كله مدح وثناء على وليّ أمر السفارة، فقال له بوزير:

– إن أفراد عائلة سوز ليسوا من هؤلاء البرتغاليين المتحجرين فكرياً والذين يعيشون بعقلية القرن الرابع عشر، بل هم نبلاء سائحون وأصحاب ملايين، وباستطاعتهم أن يكونوا ملوكاً لو كانوا يطمحون إلى ذلك.

– ولماذا لا يطمحون؟

– ليس من الضرورة يا سيد ديكورنو. ألا تساوي ملكاً، عدة ملايين ولقب أمير؟

فقال ديكورنو مندهشاً:

- أوه ! يا له من تفكير فلسفي هذا التفكير يا حضرة السكرتير الأول ، فهذه المعادلة الحقيقية لم أسمعها إطلاقاً من فم أي دبلوماسي .

فأجاب بوزير :

- نحن البرتغاليين شواذٌ من هذه الناحية ، ونختلف بعض الشيء عن الآخرين في نظرتنا للأمور. بالإختصار ، نحن واقعيون أكثر من غيرنا .

فصاح موثق العقود بحمية :

- هل تعلم بأنه من حسن حظكم أن تكون البرتغال دولة صغيرة ؟

- لماذا ؟

- لأنه مع هكذا رجال يديرون أمورها ، ستنمو بسرعة يا سيدي .

- أوه ! أنت تطرينا كثيراً يا عزيزي ديكورنو . لا ، نحن نتمشى على سياسة فلسفية ، والسياسة الفلسفية مموّهة ، لكنها قابلة للتطبيق . على كل ، لنتوقف عن المناقشة الآن . إذن ، هناك مئة وثمانية آلاف ليرة في الصندوق ، كما قلت ؟

- نعم يا حضرة السكرتير الأول ، مئة وثمانية آلاف ليرة .

- ولا يوجد ديون ؟

- إطلاقاً .

– إنه وضع مثالي. أعطني جدولاً مفصلاً لمضمون الحساب، إذا سمحت.

– ها هو: ولكن الى متى ستحتفظ به يا سيدي السكرتير؟ إني أقول لك ذلك، لأن هذا الجدول سيكون موضع فضول وتفسيرات لا نهاية لها، وقد تكون تفسيرات مقلقة.

– آه! آه!

– نعم، إنهم يشاهدون من وقت إلى آخر، أناساً يجولون حول السفارة، ويودون لو يكون بابها من زجاج.

فقال بوزير:

– أناس!.. أناس من الحي؟

– من الحي ومن سواه. فمهمة حضرة السفير السرية، قد جعلت الشرطة تهتم بسرعة لتقف على أسرارها.

فقال بوزير وقد انتابه القلق:

– أنت على حق يا عزيزي ديكورنو.

فقال ديكورنو مشيراً الى شعرية نافذة كانت تفتح وتغلق باتجاه مقرّ السفارة:

– أنظر يا سيدي السكرتير. أرأيت هذا الرجل الذي يرتدي معطفاً داكناً ووسخاً؟

– نعم، إني أراه. فمن تعتقد يكون هذا الرجل؟

- لا أعلم. ولكن ... ربما كان جاسوساً للسيد دي كروسن.

- هذا محتمل.

- على كل، إن السيد دي كروسن ليس قائد شرطة بمقدرة السيد دي سارتين. هل عرفت السيد دي سارتين؟

- لا يا سيدي، لا.

- أوه! قد كان يكشف الغيب بسرعة مدهشة!

وعند ذاك قُرع الجرس، فقال بوزير بسرعة، وقد بدأ الحديث يزعجه:

- إن سعادة السفير يستدعيني.

وفتح الباب بقوة، فدفع بمصراعيه إثنين من شركائه كانا يصيخان السمع الى المحادثة الطويلة التي شغلت بالهما، ولقد وضع الاول قلماً فوق أذنه، بينما أمسك الثاني بمكنسة. فاعتقد بوزير أنه مشكوك به، وعوّل على أن يضاعف من تيقظه.

ثم صعد الى مكتب السفير، بعد أن صافح، خفية، صديقيه وشريكيه.

ديكورنو آخر من يعلم

★

عندما دخل بوزير على الدون مانويل، أي السفير سوزا، كان هذا الأخير أقل شحوباً من العادة، أي أكثر إحمراراً، وقد انهمك في نقاش وتفسيرات شاقة مع خادم غرفته. فما أن أطل بوزير، حتى بادره خادم الغرفة بقوله:

– هات لنرى يا عزيزي بوزير، مع من الحق.

فسأله السكرتير وقد اتخذ لنفسه هيئة الحكم، بعد أن تبادل الغمزات مع السفير، حليفه الطبيعي:

– بأي شيء؟

فقال خادم الغرفة:

– أنت تعلم بأن السيد بوهمير سيحضر اليوم لإنهاء قضية العقد.

– نعم، أعرف.

– وأنه يتوجب علينا أن ندفع له المئة ألف ليرة.

– وأعرف أيضاً.

– حسناً! أليست هذه المئة ألف ليرة ملكاً للشركة؟

– ومن يقول العكس؟

فقال خادم الغرفة وقد استدار نحو الدون مانويل :

– آه ! لقد أعطاني السيد بوزير الحق .

فقال البرتغالي وهو يشير بيده إشارة الصبر :

– صبراً ! صبراً !

وقال بوزير :

– أنا لم أعطك الحق إلا في نقطة واحدة ، وهي أن المئة الف ليرة هي ملك الشركة .

– هذا يكفيني ، فأنا لم أطلب زيادة . وعليه إذن ، لا يجوز أن يوضع الصندوق الذي يحتوي هذا المبلغ ، في الغرفة الوحيدة في السفارة التي تتصل بغرفة السفير .

فقال بوزير : لماذا ؟

فأكمل خادم الغرفة يقول :

– ويتوجب على السفير أن يعطي كل واحد منّا مفتاحاً لهذا الصندوق .

فقال البرتغالي :

– لا ، أبداً ، لا يجوز .

– وما هي براهينك ؟

فقال البرتغالي وهو يعبث بلحيته:

– طالما أن البعض يحترس مني ، فلماذا لا يجوز لي أنا ، أن أحترس من هذا البعض؟ إن ظنهم بأني ربما سرقت

الشركة، مع أني رجل شريف، يحملني على الريبة والاعتقاد بأنهم هم قد يسرقوني.

فقال خادم الغرفة:

– أنا لا أشك فيك يا عزيزي، ولكن إذا شئت أن نحقق المساواة هنا، فعليك ان تعترف بأن كل واحد منًا يلعب دور السفير في المهمة التي أُوكلت إليه، وإن بدت مهماتنا أقل شأناً في أعين الغرباء.

فقاطعه بوزير بقوله:

– لست على حق يا عزيزي فيما تقول، فأنت لا تتصرف كرفيق محق وعادل. أليس للدون مانويل امتياز لا يقبل المنازعة، لكونه صاحب الابتكار؟

فقال السفير:

– آه! نعم ... والسيد بوزير يتقاسم معي هذا الامتياز.

فأجاب رئيس الغرفة:

– عندما يكون المشروع في طريق التنفيذ، لا يجوز التفكير بامتيازات.

فقال بوزير:

– أنا أوافقك، ولكن علينا الاستمرار في الحذر بالنسبة للأساليب.

فدمدم رئيس الغرفة بشيء من الخجل:

- لست الوحيد الذي يطالب بما طالبت به، فإن رفاقنا كافة يفكرون تفكيري.

فقال البرتغالي وبوزير معاً:

- ولكنهم أخطأوا.

فرفع رئيس الغرفة رأسه وقال مغتاظاً:

- وأنا أيضاً أخطأت لأني عملت برأي السيد بوزير. أما السكرتير، فلا يمكنه أن يخطئ في التفاهم مع السفير...

فأجاب بوزير برباطة جأش مدهشة:

- سوف أصلم أذنيك أيها النذل. هذا إذا كان لم يزل لديك أذنان، بعد أن قُصَّتا عدة مرات.

فقال خادم الغرفة وهو ينتصب:

- ماذا قلت؟

فأكمل بوزير يقول:

- نحن هنا في غرفة السفير، وباستطاعتنا أن نعالج أمورنا عائلياً، فجئت أنت تهينني بقولك، إني متفق مع الدون مانويل.

وقال البرتغالي ببرودة داعماً قول بوزير:

- وأنا أيضاً أهنتني.

فصاح خادم الغرفة بغضب:

- أنتما تستحقان الإهانة!

ثم أخذ يصيح : إليّ ! إلي ! وذلك بعد أن أمسك به عشيق الآنسة أوليفا ، وكاد البرتغالي يخنقه ...

ولكن في اللحظة التي أوشك فيها رأسا المؤامرة أن يصفّيا حسابهما معه ، قُرِع الجرس منبهاً بأن زائراً قد أقبل ، فقال الدون مانويل :

– لنتركه !

وقال بوزير : ليلزم غرفة الخدمة .

أما خادم الغرفة ، فقد قال وهو يصلح ثيابه :

– سوف أطلع الرفاق على ذلك .

فأجاب بوزير :

– قل لهم ما تشاء ، فسنعرف كيف نجاوبهم .

وتعالى صوت السويسري في الخارج يقول :

– السيد بوهمير !

فقال بوزير عند ذاك لخصمه بعد أن صفعه صفعة خفيفة على قفا رقبته :

– هوذا من سينهي كل شيء يا عزيزي .

وقال له الدون مانويل :

– لن يبقى هناك نزاع على المئة الف ليرة ، لأن هذه المئة ألف ليرة ستدفع إلى بوهمير ، وبذلك يروق الجو فيما بيننا يا صديقي .

فخرج خادم الغرفة وهو يدمدم متذمراً، ثم تظاهر بالتواضع ليدخل صائغ التاج بصورة ملائمة.

وبعد أن تبادل بوزير والبرتغالي النظرات وتفاهما على ما يجب عمله، دخل بوهمير متبوعاً بيوسانج، وقد اتخذا لنفسيهما هيئة الرجلين المغلوبين على أمرهما والعاجزين عن الوفاء.

فقدم اليهما بوزير مقعدين وأخذ، تارة ينظر اليهما متقصياً، وتارة ينظر الى الدون مانويل مستوضحاً.

أما الدون مانويل فقد احتفظ بكل جدِّيته كسفير لصاحبة الجلالة ملكة البرتغال.

وفي هذا الموقف الصعب، بدأ الكلام رجل المبادرات بوهمير، فقال:

– إن أسباباً سياسية ذات أهمية كبرى يا صاحب السعادة، قد حالت بيننا وبين متابعة التفاوض الذي بدأناه.

فرفع الدون مانويل صوته محتجاً، بحجة أن الصفقة قد تمت كما قال، وأن العربون قد حضر.

فتشبث بوهمير في رأيه، وتابع السفير يقول بعد أن تدخل بوزير داعماً وجهة نظره:

– إن حكومتي قد أُشعرت بالاتفاق على الصفقة، فنقضها

والحالة هذه، سيعرّض صاحبة الجلالة ملكة البرتغال الى ما يشبه العار.

فردَّ السيد بوهمير بقوله:

- إني أخذت بعين الاعتبار كل النتائج التي قد يسببها نقض الاتفاق، ولكني لم أستطع التصرف عكس ما تصرفت.

فلم يقبل بوزير التسليم بمنطق بوهمير، فقال له بصراحة:

- إن رجوعك عن كلامك، يعني أنك تاجر سيء، وأنك رجل لا قيمة لكلامه.

فاتخذ عندئذ الكلام بوسانج، في محاولة لردِّ التهمة عنه وعن شريكه في تجارتهما، لكنه لم يكن بليغاً في دفاعه، فأسكته بوزير بقوله:

- لا تحاول التمويه، فالقضية أنكما قد وجدتما مزايداً.

ولما كان الصائغان غير ملمين كفاية بالسياسة، وكان اعتقادهما أن السياسين البرتغالين أرباب السياسة، فقد احمرّا حتى آذانهما...

ورأى بوزير أنه قد أصاب الهدف. ولما كان يهمه أن ينهي هذه القضية بالتي هي أحسن، فقد استشار سفيره بالبرتغالية، وقال للصائغين:

- لقد قدمنا لكما أيها السيدان ربحاً هو أكثر من معقول.

مع ذلك ، فإن صاحبة الجلالة ملكة البرتغال ، ترفض صفقة قد تسبب بعض الضرر لتاجرين شريفين مثلكما ، وهي بالتالي لا تبخل عليكما بخمسين الف ليرة زيادة ، فهل توافقان ؟

فوضع الصائغان في حيرة ... وبعد أن تشاورا في هذا العرض ، قال بوهمير :

– لا يا حضرة السكرتير ، ونرجوك أن لا تحاول إغراءنا ، لأن هناك إرادة أقوى من إرادتنا تحتُم علينا أن نبيع هذا العقد في فرنسا . فنرجو أن تفهمنا وتقبل عذرنا ، لأننا لسنا نحن من رفض الصفقة ، فذاك الذي اعترض عليها ، هو واحد أكبر منا وأكبر منكم .

فلم يجد بوزير ومانويل ما يجيبان به ، لذلك قاما بما يشبه المجاملة نحو الصائغين ، مظهرين نفسيهما بمظهر اللامبالاة .

فاغتنم الصائغان الفرصة واستأذنا بالخروج . ولما فتح لهما الباب بوزير ، انزلق خادم الغرفة الذي كان يتنصت وراءه وسقط على الارض ، فانتهره بوزير وأمره بأن يرافق الصائغين الى خارج مبنى السفارة .

وما كاد الصائغان وخادم الغرفة يهبطان الدرج ، حتى تبادل بوزير والدون مانويل النظرات وتفاهما على عمل سريع ، فاقتربا من بعضهما البعض ، وقال الدون مانويل :

– إن المشروع قد فشل ، ولم يبق علينا إلا أن نتقاسم

الدراهم الموجودة في الصندوق. فإذا قلنا بأن الصندوق يحتوي على مئة الف ليرة، يكون نصيب كل واحد منَّا، ثمانية آلاف وأربعماية ليرة.

فأجابه بوزير:

- ليس من الضرورة أن تتمّ القسمة هكذا. فالصندوق يحتوي بالضبط على مئة وثمانية آلاف ليرة، أي أربعة وخمسون ألفاً لك، وأربعة وخمسون ألفاً لي...

فقال الدون مانويل:

- حسناً! حسناً! لنسرع ونتقاسم المبلغ.

- ولكني أخشى أن يبقى خادم الغرفة ملازماً لنا، بعد أن علم بفشل المشروع.

فقال الدون مانويل:

- ما العمل إذن؟

ففكر بوزير لحظة وقال:

- لقد وجدت وسيلة.

- ما هي؟

- إن خادم الغرفة سيعود بعد لحظات ليطالب بحصته وحصة بقية الشركاء، أليس كذلك؟

- حتماً.

– حسناً، إذهب واستدعه بحجة أني سأطلعه على سرّ، والبقية عليّ.

فقال الدون مانويل:

– يبدو لي أني قد عرفت هذا السر، إذهب واستدعه بنفسك.

– لقد طلبت اليك أن تذهب أنت، فاذهب ودعني أفكر قليلاً.

وهكذا استمرا يتجادلان في من يجب أن يذهب ويستدعي خادم الغرفة، وكل منهما لا يريد أن يترك الصندوق بعهدة الآخر، الى أن قال الدون مانويل:

– إن مركزي كسفير، يمنعني من القيام بهكذا عمل.

فأجابه بوزير:

– إنك لست سفيراً عليه. على كلٍ...

– ماذا؟ هل ستذهب؟

– لا، بل سأندهه من النافذة.

وفعلاً، نادى بوزير خادم الغرفة من النافذة، فأسرع هذا الأخير اليه بعد أن كان يتهيأ للحديث مع السويسري، فوجد، «الرئيسين» في غرفة مجاورة لغرفة الصندوق.

وكي يخفي بوزير حقيقة ما في نفسه، قال له مبتسماً:

– أراهن بأنك أطلعت السويسري على سرٍّ يتعلق بنا وحدنا .

– أنا ؟

– نعم ، أنت . لقد أخبرته بأن الصفقة مع بوهمير قد أخفقت .

– لا .

– كذاب !

– أقسم لك بأن لا .

– الحمد لله . لأنك لو أخبرته ، لكنت أرتكبت حماقة كبيرة أفقدتك مبلغاً من المال لا يستهان به .

فصاح خادم الغرفة بدهشة :

– كيف ذلك ؟ أي مبلغ من المال ؟

– أنت تعلم جيداً ، بأننا نحن الثلاثة فقط مطلعون على السرّ .

– هذا صحيح .

– وانه بالنتيجة ، ستكون لنا نحن الثلاثة فقط ، المئة والثمانية آلاف ليرة ، لأن بقية الشركاء قد اعتقدوا بأن هذا المبلغ قد أصبح في حوزة السيدين بوهمير وبوسانج .

فصاح خادم الغرفة وقد رقص قلبه فرحاً :

– يا لحظي ! يا لحظي !

فقال الدون مانويل :

وعليه تكون حصة كل واحد منّا نحن الثلاثة : ثلاثة وثلاثون ألفاً وثلاثماية وثلاث وثلاثون ليرة وثلث .

فصاح خادم الغرفة :

- أكثر ! أكثر ! هناك ثمانية آلاف ليرة كسوراً .

فقال بوزير :

- لا تجادل وقل ، هل تقبل ؟

فقال خادم الغرفة وهو يفرك يديه :

- نعم ، أقبل . الحمد لله ... هذا كلام شهم ما فهت به .

فقال بوزير بصوت صاعق :

- أما ما فهت به أنت ، فهو كلام نذل لئيم ! هيّا يا دون مانويل واقبض على هذا النصاب ، فأنت قوي ، ولنسلمه الى شركائنا الذين شاء أن يحرمهم أتعابهم ، كي يقتصوا منه .

فصاح التعيس :

- عفواً ! عفواً ! لقد كنت أمزح .

وأكمل بوزير يقول :

- هيّا ! هيا ! إلى غرفة التحميض لينال أقصى العقاب .

وفيما كان الدون مانويل يضغط بيديه الفولاذيتين على رقبة خادم الغرفة ، وهذا الأخير يصيح : العفو ! العفو ! قال بوزير موجهاً كلامه إلى السفير :

- لا تنس يا سيدي بأن ديكورنو لن ينتظر طويلاً.

عند ذاك قال خادم الغرفة:

- إذا لم تتركاني فسوف أفضحكم كلكم.

فقال له الدون مانويل بصوت غاضب وهو يدفع بالمسكين نحو الحمام القريب:

- وأنا سوف أخنقك.

ثم همس في أذن بوزير قائلاً:

- إذهب واصرف السيد ديكورنو.

فأسرع بوزير الى الغرفة المجاورة لغرفة السفير دون تردد، بينما كان الدون مانويل يوصد الباب على خادم غرفته في تلك الزنزانة الصامتة!

ولما انقضت دقيقة ولم يرجع بوزير، تحرك الشيطان في رأس الدون مانويل... فالصندوق على بعد عشر خطوات منه، وكي يفتحه ويستولي على المئة والثمانية آلاف ليرة ويفرّ من النافذة عبر الحديقة، لا يلزمه سوى دقيقتين إثنتين، وبوزير لن يرجع قبل خمس دقائق على الأقل.

فوثب الى باب الغرفة التي تحتوي الصندوق ... إلا أنه وجد الباب مقفلاً بالمزلاج. ولقد كان الدون مانويل قوياً وحاذقاً، فقال في نفسه: «لقد احترس مني بوزير لأني الوحيد

الذي بحوزته مفتاح الغرفة فوضع مزلاجاً للباب. حسناً! سوف أُريه.»

ثم استلَّ سيفه وضرب به المزلاج ضربة قوية جعلته يقفز من مكانه، وإذ ذاك دفع الدون مانويل الباب وبقفزة واحدة كان قرب الصندوق... ثم أطلق صيحة مرعبة! فالصندوق كان مفتوحاً وفارغاً...

فالظاهر أن بوزير قد دخل من الباب الثاني الذي لا يملك مفتاحه سواه، وسطا على المال.

وعندما خاب فأل الدون مانويل، أسرع يعدو كالمجنون الى حجرة السويسري، فوجد ديكورنو وحده يغني... فانبرى يصيح شاكياً متظلماً، إلى أن علم بما جرى كل الرفقاء. وكي يدعم نفسه بشهادة ظنها في مصلحته، أطلق سراح خادم الغرفة. لكنه لم يلقَ منه ومن رفاقه إلا اللعنات والاتهامات بأنه هو من دبَّر المؤامرة بالإتفاق مع بوزير، وأن بوزير الذي سبقه في الهرب سيحتفظ له بنصف السرقة.

أما ذلك المسكين الطيب القلب ديكورنو، فقد وقف حائراً لا يدري أين هو موجود... وقد كاد يغمى عليه عندما رأى هؤلاء الدبلوماسيين قد استعدوا لشنق الدون مانويل تحت سقيفة، فصاح يقول:

- أتريدون شنق السيد سوزا !.. ولكن خذوا حذركم ! فهذه جريمة وقدح في الذات الملكية.

لكن أحداً لم يكترث لكلامه.

وبينما كان «موظفو السفارة» يجرون «السفير» ليلقوه في قبو مظلم، وهو يصرخ صراخاً يشق عنان السماء، طُرق الباب الرئيسي ثلاث طرقات قوية ... فأخذ الشركاء يرتعشون خوفاً وقد ران عليهم الصمت ...

ثم تكررت الطرقات الثلاث، وتلاها صوت مرتفع يقول بالبرتغالية:

- إفتحوا باسم سعادة سفير البرتغال !

فدمدم سائر المحتالين: «السفير ! ...»

وتبددوا بإسرع من لمح البصر وأخذوا يقفزون من النوافذ فوق بعضهم البعض وكأن إبليس يطاردهم...

فقد جاء السفير الحقيقي هذه المرة، ودخل دار السفارة بعد أن خلعت فرقة من نبالة الشرطة الباب بحضور جمهور غفير من الفضوليين.

وبعد أن فتَّش رجال الشرطة كل مكان في السفارة، اقتادوا مؤلف العقود المسكين الى سجن الشاتليه حيث بات ليلته.

وهكذا انتهت مغامرة أركان السفارة البرتغالية المزيفين.

أوهام وحقائق

★

ما كاد بوزير يصبح خارج مبنى السفارة حتى أطلق ساقيه للريح ولم يلتقط أنفاسه إلا بعد أن أصبح في شارع «سان أونوريه» وتأكد بأن أحداً لم يتمكن من اللحاق به.

وهناك أخذ يزورب على عادة كبار اللصوص الى أن نفدت قواه، فجلس على كيس قمح في شارع «فيارم» وأخذ يمسح العرق المتصبب من جبهته ويتلفت ذات اليمين وذات الشمال دون أن يرى شيئاً في ذلك الشارع المليء بالأشياء التي تلفت الأنظار وتستوقفها، وذلك بسبب أفكاره المضطربة وشبح الخوف الذي كان يلاحقه.

وبعد أن أخذت أنفاسه تعود تدريجياً الى حالتها الطبيعية، وخفَّ تصبب العرق من جبهته واطمأن الى نجاته بمبلغ المئة والثمانية آلاف ليرة، قال في نفسه:

«آه! ها هو حلمي يتحقق بعد أن أصبحت من أصحاب الثروات.»

ثم أخذ نفساً طويلاً وتابع يناجي نفسه:

«وأصبح بإمكاني أن أكون من الأشراف بكل ما في

الكلمة من معنى، وذا مكانه مرموقة في المجتمع. كذلك سأجعل أوليفا امرأة شريفة وذات مكانة مثلي، فهي جميلة وطيبة القلب وليس فيها سوى عيبين: الكسل والتعجرف.»

وبعد أن علل بوزير نفسه بهذه الآمال وتفقد المال في جيوبه، تابع يقول بعد تفكير قصير:

«إنهم لن يفتشوا عليَّ في شارع «فيارم» ولكنهم حتماً سيفتشون عليَّ ... فسادة السفارة لن يتخلوا عن حصتهم من الغنيمة، لذا سوف ينقسمون الى عدة عصابات ويبدأون عملهم بتفتيش منزلي، وهناك الطامة الكبرى، فأوليفا تقطن في هذا المنزل، وحتماً سوف يهددونها ويعاملونها بقسوة، وربما اتخذوها رهينة أيضاً، إذ من غير المعقول أن يعوفوا الآنسة أوليفا وهم يعلمون جيداً بأنها كانت ولم تزل المرأة المشتهاة من بوزير...»

عندما فكر بوزير بهذا الخطر الداهم على المرأة التي يحبها، غلى الدم في عروقه وكاد يجن...

وخشية على حبّه من أن يمسّ، أسرع كالسهم الى منزله في شارع دوفين.

ومع أن ثقته بالسير على الأقدام كانت لم تزل غير محدودة ومن الصعب على أعوانه أن يتمكنوا من اللحاق به،

فقد ارتمى في أول عربة وصل إليها وقال للحوذي بعد أن أراه ريالاً:

- إلى الجسر الجديد.

فألهب الحوذي بسوطه أقفية جياده، فانطلقت تنهب الأرض نهباً.

وعندما وصلت العربة إلى فسحة كبيرة قرب الجسر المذكور تقع وراء تمثال الملك هنري الرابع، وكان هذا المكان ملتقى أهل العشق والغرام، جازف بوزير ورفع ستر العربة وأخذ يتفحص بنظراته شارع دوفين.

ولم يكن بوزير غبياً بالنسبة لتحركات رجال الشرطة وأساليبهم، فهو قد أمضى عشر سنوات يراقب هذه التحركات ويدرس هذه الأساليب ليعرف كيف يتجنبها. لذا لاحظ وجود رجلين في نزلة الجسر لجهة شارع دوفين، وقد وقفا متباعدين وكل منهما يمطّ رقبته نحو الشارع المذكور وينظر ملياً الى مشهد ما...

وكان هذان الرجلان جاسوسين. ولم يكن وجود الجواسيس في منطقة الجسر الجديد أمراً مستغرباً، لأن هذه المنطقة كانت ملتقى جميع طبقات الشعب، وكان الناس يرددون هذا القول: «إن شئت في أي وقت، أن ترى حبراً،

أو فتاة لذة ، أو جواداً أبيض ، فما عليك إلا أن تقصد الجسر الجديد .»

فالجياد البيضاء ، وثياب الكهنة ، وفتيات الملذات ، كانت دائماً هدف رجال الشرطة .

ورغم وجود هذين الجاسوسين ، قرر بوزير أن يستمرَّ في المجازفة حتى النهاية . فنزل من العربة واجتاز الجموع كأعرج محدودب الظهر الى أن بلغ شارع دوفين دون أن يعترضه معترض . وتابع تقدمه حتى وصل الى قرب المنزل الذي كانت أوليفا الجميلة تقف على شرفاته كالنجمة المتألقة ، فوجد نوافذه مقفلة ، فقال في نفسه : «لا شك أنها مستلقية على «الصوفا» تقرأ بعض الكتب ، أو تلتهم بعض قطع الحلوى .»

وفيما بوزير شاخص الى ذلك المنزل ، تراءى له فجأة أنه رأى سترة جندي يتربص في أحد ممراته . ثم أصبحت الرؤيا حقيقة عندما رأى جندياً آخر عند مدخل الصالون الصغير .

فأخذ العرق البارد يتصبب منه بغزارة ، إذ بات حجراً بين شاقوفين ، فهو لا يستطيع التراجع ، والمرور أمام المنزل يشكل خطراً كبيراً عليه .

فاستجمع بوزير شجاعته ومرَّ وهو يتطلع الى المنزل ، ويا لهول ما رأى !

لقد رأى ممراً مليئاً بالجنود التابعين لحرس باريس، يتوسطهم مفوض سجن الشاتليه بثيابه السوداء.

فألقى بوزير نظرة سريعة على هؤلاء الجنود، فتبين له أنهم مضطربون، وأن مظاهر الخيبة والإخفاق على وجوههم، فقال في نفسه:

«لا شك أن السيد دي كروسن قد أُشعر بما حدث، فأرسل رجاله ليلقوا القبض عليَّ، ولكنهم لم يجدوا سوى المسكينة أوليفا.»

وبعد أن ردَّد بوزير عدة مرات عبارة «مسكينة أوليفا!»، تمنَّى لو أنه في ظروف عادية ولا يحمل في جيوبه مئة وثمانية آلاف ليرة، فيدخل إذ ذاك على هؤلاء الجنود ويصيح بهم كما صاح «نيسيس» في ملحمة الإلياذة لفرجيل، عندما شاء أن ينقذ حبيبته:

«أنا هنا! أنا هنا! وأنا الذي عمل كل شيء!»

لكن خوفه على المئة والثمانية آلاف ليرة التي باستطاعته أن يشرب الخمور بها طوال عمره، قد بدَّد حيرته وخنق عذاب الحب في قلبه، فقال في نفسه:

«عليَّ أن أكون منطقياً، والمنطق يدعوني للهرب بالثروة التي أحملها في جيوبي، لأنها تمثل الحرية، والسعادة، وفلسفة الحياة. وعندما ألتقي أوليفا، سوف أبرر لها عملي

وأثبت لها تعلقي الجنوني بها، ولا بأس إن نالني منها بعض التقريع.»

قال بوزير هذا وضغط بيديه على الأوراق النقدية وأخذ يعدو بدافع غريزي باتجاه حديقة الليكسمبورغ، لأنه سبق له مئة مرة أن قصد هذه الحديقة للبحث عن أوليفا، إذ كانت هذه الحديقة ملتقى المتنزهين الناعمي البال، والطلاب، والأدباء، ورجال الدين.

ورغم أن نبّالة الشرطة كانوا يبحثون عن بوزير في تلك الحديقة، فإن العناية الإلهية لم تشأ أن يقع بين أيدي رجال السيد دي كروسن.

فما كاد عشيق نيكول، أو أوليفا، ينعطف من شارع سان جيرمان، حتى صدمته عربة فخمة كانت جيادها تسير بأقصى سرعتها باتجاه شارع دوفين، فانقلب الى جانب الطريق.

وفيما كان ينهض، لمح في تلك العربة اوليفا برفقة شاب جميل وقوي يتحدثان بمرح، فأطلق صرخة صغيرة لم يكن لها من تأثير سوى حثّ جياد العربة زيادة. فحاول اللحاق بتلك العربة، إلا أنها انعطفت وسارت في شارع دوفين، وهو الشارع الوحيد في باريس الذي بات على بوزير أن يتجنب المرور به في تلك الساعة.

فوقف يحدث نفسه ويقول: «هل هي أوليفا بالذات يا ترى أم أنها امرأة شبيهة بها؟ هل من المعقول أن تكون أوليفا قد أفلتت من نبّالة الشرطة في شارع دوفين؟ لا، ليس ذلك معقولاً.»

وسار بوزير المسكين وهو في حالة من الضيق الشديد والأمل الميئوس، سار بلا وعي من شارع الى شارع حتى بلغ منطقة كانت لم تزل شبه مقفرة في ذلك الوقت، وهناك التجأ إلى بيت صغير كانت صاحبته امرأة تكن لبوزير كل اعتبار.

فقضى بوزير ليلته في ذلك البيت المتواضع، بعد أن خبأ مال السفارة البرتغالية الذي سرقه تحت إحدى بلاطاته ووضع رجل سريره فوق تلك البلاط.

ونام وهو مطمئن إلى أن أعين رجال الشرطة لن تصل إليه، وإلى أن أحداً لن يستطيع أن يسلبه ماله.

وكان واثقاً أيضاً بأن أوليفا قد أُلقي القبض عليها من دون سبب، لذا ستظهر براءتها قريباً ويخلى سبيلها. وحتى إن لم يخلوا سبيلها، فباستطاعته بواسطة ما توفر لديه من أموال، أن ينتزع رفيقته الدائمة من السجن بسهولة كلية.

يبقى رفاق السفارة ... فهؤلاء من الصعب على بوزير أن يسوِّي حسابه معهم. لكن بوزير قرر أن يتحاشى المنازعة مع

رفاقه ، وذلك بالسفر إلى سويسرا ، بلد الحريات ، حالما تصبح الآنسة أوليفا حرة طليقة .

لكن ما كان يحلم به بوزير ، هل سيتحقق يا ترى ؟ سوف نرى ذلك في الفصول المقبلة .

حيث اخذت الآنسة اوليفا تتساءل عما سيفعلونه بها

★

لو شاء بوزير أن يصدق عينيه الثاقبتين عوضاً عن أن يشغّل دماغه الذي كان معطلاً ، لوفّر على نفسه الكثير من الأحزان وخيبات الأمل .

ففي الواقع ، كانت الآنسة أوليفا بذاتها تلك التي شاهدها في العربة الفخمة الى جانب الرجل الذي ظن بأنه لم يعرفه ، مع أنه لو استطاع أن ينظر إليه ملياً لكان عرفه بدون شك .

فأوليفا ، كانت في صباح ذلك اليوم تقوم بنزهتها المعتادة في حديقة اللوكسمبورغ ، وعندما قربت الساعة من الثانية بعد الظهر ، وهو الوقت الذي اعتادت ان تتناول فيه غداءها ، خرجت لتعود الى منزلها ، وإذا بذلك الصديق الغريب الذي

انتزعها من بوزير في حفلة الاوبرا الراقصة، يسرع إليها ويمسك يدها ويسألها فيما هي تطلق صرخة خافتة:

- إلى أين تذهبين؟

- الى منزلي، في شارع دوفين.

فأجابها الرجل المجهول بسرعة:

- ذاك ما يحقق أماني الذين ينتظرونك فيه.

- الذين ينتظرونني!.. كيف ذلك؟ فلا يوجد أحد بانتظاري.

- أوه! هناك تقريباً دزينة من الزائرين.

فصاحت أوليفا وهي تضحك:

- دزينة من الزائرين! ولماذا لا تقول فرقة بكاملها؟

- صدقيني، لو كان ممكناً إرسال فرقة الى شارع دوفين، لأرسلت.

- إنك ترعبني يا سيدي!

- وسوف أرعبك أكثر إذا تركتك تذهبين الى شارع دوفين.

- لماذا؟!

- لأنك إن ذهبت، سيقبضون عليك أيتها العزيزة.

- سيقبضون عليّ، أنا؟

- بكل تأكيد. فهذه الدزينة من الزائرين، هم نبّالة الشرطة الذين أرسلهم السيد دي كروسن.

فارتعشت أوليفا، وأخذت تفحص ضميرها عما فعلت، ثم قالت:

- ولكن، لماذا سيقبضون عليَّ وأنا لم أعمل شيئاً؟

- لماذا يقبضون على امرأة، إن لم يكن بسبب مؤامرة؟

- أنا لا دخل لي بأية مؤامرة.

- قد يكون ذلك صحيحاً، وقد يرتكبون خطأً في إلقاء القبض عليك، ولكن الواقع أنهم يبحثون عنك. فهل تريدين الذهاب الى شارع دوفين؟

فصمتت أوليفا وقد شحب لونها وبان عليها الاضطراب، ثم قالت:

- إنك تلعب بي كما يلعب الهرّ بالفأرة المسكينة. فإذا كنت واقفاً على أمر، أخبرني به. أليس بوزير هو من يريدون؟

- ربما، فأنا أظن بأن ضميره أقل نقاءً من ضميرك.

- مسكين بوزير!..

- إشفقي عليه، ولكن إن كانوا قد قبضوا عليه، فلا تقتدي به وتسهلي لهم سبيل القبض عليك.

فقالت أوليفا بجرأة:

– ولكن أية فائدة لك في حمايتي؟ أية فائدة لك في الاهتمام بي؟ أنا أعجب من رجل مثلك...

فقاطعها الرجل بقوله:

– لا تكملي فترتكبي حماقة. فالوقت ثمين، إذ إن رجال السيد دي كروسن عندما يرون بأنك لم تعودي الى منزلك، سيأتون الى هنا للتفتيش عنك.

– إلى هنا! وهل يعلمون بأني هنا؟

– كوني على ثقة بأنهم لا يفوتهم شيء. وبما أني شخصياً يهمني أمرك، وأنت تريدين الخير لنفسك، بات عليك أن تتبعيني دون جدال، فالعربة بانتظارك.

وتابع يقول عندما لاحظ تردد أوليفا:

– آه! أما زلت تشكين بصدق نيتي؟

– نعم.

– حسناً! سنقوم بعمل طائش، ولكنه سيجعلك تقتنعين نهائياً كما أرجو. سوف نمرّ أمام منزلك بعربتي، حتى إذا شاهدت بعينيك الاثنتين هؤلاء «الزائرين» من رجال الشرطة، اقتنعت بحسن نيتي وقدرت لي صنيعي.

قال الرجل المجهول هذا ودفع أوليفا أمامه الى حيث كانت تقف عربته في أول شارع جهنم، وانطلق الحوذي

بكاغليوسترو وأوليفا إلى شارع دوفين، أي الى المكان نفسه الذي شاهدهما فيه بوزير.

ولو أن أوليفا عرفت بوزير عندما لطمته العربة التي كانت تقلها مع ذلك الرجل المجهول، لكانت عملت المستطاع لإنقاذه، أو الهرب معه والتخلص من الورطة التي هي فيها. لكن كاغليوسترو عندما رأى ذلك الشقي، حوَّل انتباهها الى ذلك الجمع المحتشد بدافع الفضول حول منزلها المداهم.

وعندما رأت أوليفا رجال الشرطة ومنزلها المحتل، ارتمت بين ذراعي حاميها بيأس يثير شفقة كل رجل، باستثناء ذلك الرجل الحديدي الذي احتمت فيه.

ومع ذلك، فقد طابت نفس كاغليوسترو وهو يضغط على يد تلك المرأة الشابة ويسدل الستارة ليخبئها، فيما كانت تلك المسكينة تردد: أنقذني! أنقذني!

فقال لها: لا تخافي، سوف أنقذك.

- ولكنهم سيكتشفونني أينما كنت، طالما أن هؤلاء النبّالة لا يفوتهم شيء كما قلت.

- لا، لا، إنك ستكونين في منزلي، ومنزلي لن يداهمه رجال الشرطة كما داهموا منزلك.

فقالت أوليفا برعب:

- أوه! منزلك ... إإلى منزلك ستأخذني؟

فأجابها كاغليوسترو :

- يا لك من مجنونة ! أنا لست عاشقك أيتها الجميلة ، ولن أكون ذلك العاشق.

- إذن ، هل ستودعني السجن ؟

- إذا كنت تفضلين السجن ، فأنت حرة .

فقالت أوليفا وقد سيطر عليها الرعب واليأس .

- إفعل بي ما تشاء ، يا سيدي ، فإني تحت تصرفك .

فذهب بها كاغليوسترو الى ذلك المنزل الذي استقبل فيه فيليب دي تافرني في شارع سان جيل ، وأقامها في شقة صغيرة منعزلة من الطابق الثاني ، ثم قال لها :

- إن لم تبرحي هذا المكان ستكونين سعيدة .

فقالت أوليفا مغتمة :

- سعيدة ! كيف ذلك ؟ سعيدة بدون حرية ، وفي مكان ليس فيه حتى كتاب للتسلية ! بالعكس ، سأكون هنا جدً حزينة .

وبعد أن ألقت نظرة شاردة الى الخارج ، قال لها كاغليوسترو :

- أنت على حق ، فأنا أريد أن أوفر لك جميع أسباب الراحة ، لذا سأنقلك الى مكان آخر .

وفعلاً نفَّذ الكونت وعده ونقلها الى شقة أخرى لاقت فيها أوليفا ما يسليها، وخصوصاً الكتب التي تناسب ذوقها.

وبعد أن طمأنها كاغليوسترو بأنه سيكون رهن إشارتها في كل ما تريده، وما عليها إلا أن تقرع الجرس كلما احتاجت الى شيء، قبّل يدها وتركها.

ولكنه قبل أن يخرج، صاحت به تقول:

– آه! أرجو بنوع خاص، أن تصلني أخبار بوزير.

فأجابها كاغليوسترو:

– قبل كل شيء.

وبعد أن أوصد الباب عليها وهبط الدرج، توقف وقال في نفسه:

«إن إقامتها في ذلك المنزل الواقع في شارع سان كلود، هو انتهاك للحرمات. ولكن يجب أن لا يراها أحد، وفي هذا المنزل لن يراها أحد. وإذا توجب أن يلمحها شخص واحد دون سواه، فعليه أن يلمحها في المنزل المذكور. هيّا، لتكن أيضاً هذه التضحية، ولنطفئ آخر ألَقٍ في المشعل الذي اضطرم فيما مضى.»

وبعد أن تناول معطفاً فضفاضاً وأخذ بعض المفاتيح من مكتبه، خرج وحده من منزله وسار صعداً في شارع سان لويس.

المنزل المجهور

★

وصل الكونت كاغليوسترو وحده الى ذلك المنزل القديم الذي يتذكره القراء، ولا شك، في شارع سان كلود، وكان الليل قد أرخى سدوله.

وفيما كان واقفاً أمام بوابته لم يلمح إلا ما ندر من المارة على البوليفار. كما أن الضوضاء الوحيدة التي سمعها في تلك الساعة، هي وقع خطوات جواد في شارع سان لويس، وعواء كلب في الأرض المسوَّرة للدير المجاور، ودقات ساعة كنيسة «سان بول» الحزينة التي كانت تصل الى مسمعه خافتة ومعلنة الساعة التاسعة إلا ربعاً.

إذن وقف كاغليوسترو أمام بوابة ذلك المنزل وسحب من تحت دثاره الفضفاض مفتاحاً ضخماً وأدخله في القفل وضغط بشدة كي يزيل من طريقه ما تجمع من بقايا حملتها إليه الرياح على مدى سنوات.

ولكن ولوج المفتاح في القفل بعد الجهد لم يكن كافياً لأن تفتح تلك البوابة، إذ إن خشبها كان قد زاد سماكة بسبب الرطوبة، وأكل الصدأ كل مفصلاتها ونبت العشب في كل

فرجة وفجوة، مما جعل أسفل البوابة متماسكاً مع ذلك العشب.

والخلاصة أن بوابة ذلك المنزل المهجور لم يستطع كاغليوسترو فتحها إلا بعد الجهد الجهيد وبعد أن استعمل كل قواه الجسدية. وعندما فُتحت، بدا الفناء لناظريه حزيناً موحشاً أشبه بمقبرة مكسوّة بالطحلب.

فأغلق البوابة وراءه ومشى بخطوات متثاقلة في ذلك الفناء المسوّر بجدران عالية من دون أن يراه أحد. ثم صعد الدرج الذي كان يرتجُّ تحت قدميه، وبواسطة مفتاح آخر دخل الى غرفة الانتظار الواسعة.

وهناك فقط أضاء فانوساً. لكن تلك الشمعة التي أضاءها بعناية، ما عتّمت نفحة الشؤم في ذلك المنزل أن أطفأتها. فلهاث الموت كان أقوى من فسحة الحياة، والكلمة أقوى من النور.

فعاد كاغليوسترو وأضاء الفانوس من جديد وأكمل طريقه حتى وصل الى قاعة الطعام، فوجد خزائن الأطباق عفنة تفوح منها رائحة العطنة، والبلاط لم يعد معروفاً أنه بلاط، وكل الأبواب الداخلية مشرَّعة.

وفيما هو واقف يستعرض هذا المشهد الحزين الذي أعاده بالذاكرة الى سنوات مضت، سمع حركة تشبه وقع الأقدام

في طرف قاعة الاستقبال حيث كان فيما مضى يبدأ السلم السري. وكانت مثل هذه الحركة في الماضي تشير إلى حضور شخص عزيز كان يوقظ الحياة والأمل والسعادة في كل حواسّ سيد المنزل.

ومع ان هذه الحركة لم تعد تمثل شيئاً الآن، فقد سرت في جسد كاغليوسترو قشعريرة قفَّ معها شعر رأسه ... فتقدم باتجاه نابض الباب القديم الذي كان يربط ما بين المنزل المعروف والمنزل السري، فوجد هذا النابض ما زال يعمل بسهولة، مما مكّنه من فتح الباب المذكور.

ولكن ما كاد يضع قدمه على ذلك السلم السري، حتى عاد يسمع تلك الحركة الغريبة ... فمدَّ يده بالفانوس كي يكتشف السر، وإذا ببصره يقع على حية ضخمة من فصيلة الثعابين كانت تهبط السلَّم ببطء وتسوط بذيلها كل درجة من درجاته.

فحددت تلك الحية النظر باطمئنان الى كاغليوسترو، ثم انسلت واختفت داخل أول وكر في خشب الجدران.

وبعد أن تسمَّر الكونت في مكانه عدة دقائق، تابع سيره والذكريات ترافقه خطوة فخطوة. وعندما رسم ضوء الشمعة على الجدران شبحاً متحركاً، ارتعش الكونت وتصور أن ظله

هو ظل غريب : قد بُعث هو الآخر ليقوم بزيارة ذلك المنزل المكتنف بالأسرار.

وهكذا كان يمشي ويفكر الى أن وصل الى لوح المستوقد الذي كان يستخدم كممرّ بين غرفة السلاح الخاصة بـ«بلسامو[1]» وعزلة «لورنزا فاليسياني» المضمخة بالطيب.

لقد كانت جدران ذلك المنزل عارية وغرفه فارغة. وكانت لم تزل في الموقد كومة من رماد تومض في وسطها بعض السبائك الذهبية والفضية الصغيرة.

وهذا الرماد الأبيض الناعم والمعطر، هو بقايا أثاث لورنزا الذي حرقه «بلسامو» عن بكرة أبيه، ولقد كان أثاثاً في غاية الفخامة، حتى أن العلب المصنوعة من خشب القمبر والصندل ذي الرائحة الثاقبة، قد تضوعت رائحتها من خلال المداخن أثناء الحريق فغمرت بالطيب كل المنطقة التي عمَّها الدخان من باريس، إلى درجة بقي معها المارة يومين يرفعون رؤوسهم ليتنشقوا ذلك الشذا الغريب.

وكانت تلك الغرفة المهجورة والباردة التي توقف فيها كاغليوسترو ما زالت تحتفظ بشيء من هذا الطيب. فانحنى

---

(١) سيكتشف القارئ شخصية بلسامو هذا في الفصول المقبلة.

الكونت والتقط بأصابع يده بعضاً من هذا الرماد وتنشقه بشغف وحشي، وقال يناجي نفسه:

«لقد تمكنت أن أدخل الى أحشائي شيئاً من بقايا تلك المرأة التي كانت تطيب بأنفاسها أصول ذلك الغبار.»

وأكمل جولته بعد أن هبط من علياء فلسفته وشعر بذلك الحنو البشري الذي يسمونه عواطف القلب. وفجأة تسمرت عيناه على شيء يلتمع بين هذه الأنقاض، فانحنى عليه، وإذا به سهم صغير من الفضة مدفون في الغبار حتى نصفه، وقد بدا كأنه سقط حديثاً من شعر امرأة.

وقد كان هذا السهم واحداً من تلك الدبابيس الايطالية الجميلة التي كانت نساء ذلك العصر، كما هنَّ اليوم، يزينَّ بها شعورهنّ.

فالتقط الفيلسوف، والعالم، والنبي، والمزدري بالانسانية والسماء، التقط كاغليوسترو الملحد والمشعوذ، ذلك الدبوس وقرَّبه من شفتيه ودمدم قائلاً بينما اغرورقت عيناه بالدموع:

– لورنزا!

وكان هذا كل ما قاله وشعر به، لأن الرجل كان يسكنه الشيطان...

فبعد أن لثم بحرارة تلك الذخيرة المقدسة، فتح النافذة

ومدَّ يده من خلال قضبانها الحديدية ورماها الى الأرض المسوَّرة التابعة للدير المجاور.

وبذلك عاقب نفسه لأنه انصاع الى عاطفته القلبية.

وبعد أن استقرَّ ذلك الدبوس على الأرض، وربما على أغصان الأشجار، قال يخاطب ذلك الأثر الذي لا يحسّ ولا يشعر والذي ربما اضمحلَّ نهائياً:

«إلى اللقاء، إلى اللقاء أيها التذكار الذي مَثُلَ أمامي ليضعفني ويثير شفقتي، فمن الآن فصاعداً لن أفكر بسوى التراب.

«نعم، هذا المنزل سيدنس. ماذا قلت؟ إنه الآن مدنس، فقد أعدت فتح أبوابه، ورأيت داخل القبر، ونبشت رماد الميت.

«المنزل مدنس إذن، وسيعمّ الدنس كل أرجائه. فهناك امرأة ستجتاز فناءه وتدوس بقدميها درجه، وربما غنَّت أيضاً تحت هذه القبة التي ما زالت تتموج تحتها التنهدة الأخيرة للورنزا!

«ولكن هذا الدنس كله، سيكون من أجل هدف، وهذا الهدف هو تحقيق ما تصبو إليه نفسي. فإن كان الله ضدي، فالشيطان معي...»

وبعد أن وضع الفانوس على الدرج، تابع يقول:

«هذا الدرج كله سينهار، وكل ما في داخل هذا المنزل سينهار أيضاً، وستبرحه الألغاز والأسرار الخفية ليصبح مخبأ، بعد أن كان معبداً.»

وانبرى لتوّه فكتب على دفتر مذكراته ما يلي:

«في ثمانية أيام: تنظيف الفناء والأروقة. ترميم المستودعات والاصطبلات. هدم الجناح الداخلي. اختصار البناء الى طابقين.»

وبعد أن كتب ما كتب، قال:

«والآن، هيّا لنرى إن كانت مشاهدة الكونتس الصغيرة مستطاعة جيداً من النافذة.»

وتقدم من نافذة تقع في الطابق الثاني وتطل على شارع سان كلود، حيث يقع على بعد ستين خطوة المنزل الذي تشغله جان دي لاموت. ثم قال كاغليوسترو:

– أوه! أوه! إنه لثابت وأكيد، بأن كلاً من المرأتين سترى الأخرى جيداً من هذه النافذة.

وتناول فانوسه وهبط الدرج عائداً الى منزله.

وفي اليوم التالي، أخذ ما يزيد على الخمسين عاملاً يُعملون مطارقهم ومناشيرهم ومعاولهم في كل مكان من ذلك المنزل المهجور، كما أخذ الدخان يتصاعد من العشب المحروق والمكوم في إحدى زوايا الفناء. ولم تمض الأيام

الثمانية المحددة، إلا وكان المهندس لونوار قد أكمل تنفيذ أوامر الكونت كاغليوسترو!

جانّ تكشف أوراقها

★

تلقى الكردينال دي روهان بعد زيارته بوهمير بيومين بطاقة، هذا ما جاء فيها:

«نيافة الكردينال دي روهان يعرف، بلا شك، أين سيتعشى هذا المساء.»

فقال الكردينال بعد أن قرأ البطاقة:

«إنها من الكونتس الصغيرة، سوف أذهب.»

ومن بين خدمه الخمسة، اختار دي روهان لمرافقته واحداً مميزاً بشعره الأسود، وعينيه الداكنتين، ووجهه النضر الأحمر. وكانت هذه المميزات هي المفضلة في خدم الكبار في ذلك العصر.

وبعد ربع ساعة، كان الكردينال في طريقه الى ملاقاة الكونتس دي لاموت.

وسبق وصوله الى المكان المتعارف عليه، سلة ملأى بخمور «توكاي»، وببعض التحف النادرة.

لكن جان عندما انفردت بالكردينال، تظاهرت بأنها لم تعزُ ما أرسله كبير اهتمام، ودخلت معه رأساً في حديث فيه شيء من الحنان، ابتدأته بقولها:

«في الحقيقة يا سيدي، إني أشعر بحزن كبير.»

فقال الأمير دي روهان بذلك التصنع الذي يخفي حقيقة ما يضمره الانسان:

– أوه! ما هو سبب حزنك أيتها الكونتس؟

– سبب حزني يا سيدي، هو حبك ... وليس فقط لأنك لم تعد تحبني، بل لأنك ما أحببتني أصلاً...

– ماذا تقولين أيتها الكونتس؟!

– لا تبرر نفسك يا سيدي، فالأمر لا يستحق الاهتمام.

فقال الكردينال برقة: بالنسبة لي؟

– لا، بالنسبة لي. زد على ذلك...

– أوه! كونتس!

– لا تزعج نفسك يا سيدي، فأنا غير مبالية إطلاقاً.

– إن أحببتك وإن لم أحبك؟

– نعم.

– وما هو سبب هذه اللامبالاة؟

– سببها أني أنا، لا أحبك.

– ولكن هل تعلمين أيتها الكونتس ، بأن ما تقولينه ليس فيه شيء من اللطف والمجاملة ؟

– الحقيقة ، أن علاقاتنا لم تبدأ باللطف والمجاملة ، وهذا واقع يجب أن نعترف به .

– أي واقع ؟

– واقع الحب المفقود . فأنا منذ البدء لم أحبك ، كما أنك أنت أيضاً لم تحبني .

فصاح الكردينال بلهجة كادت تعبر عن حقيقة شعوره :

– أوه ! بالنسبة لي ، لا ينطبق علي هذا القول ولا يجوز أن تساويني بنفسك . فأنا كنت ولم أزل ، أكنّ لك كل محبة .

– هيّا يا سيدي ، ولتكن لنا الشجاعة لنقول الحقيقة .

– الحقيقة ! أية حقيقة ؟

– هناك رابطة تشدنا الى بعضنا ، أقوى من رابطة الحب .

– ما هي ؟

– المنفعة !

– المنفعة ؟ أُفٍ أيتها الكونتس !..

– سأقول لك يا سيدي ، كما كان يقول ذلك النورمندي الى ابنه : إذا كرهت الشيء فلا تحمل الآخرين على كرهه .

– حسناً ايتها الكونتس ، ولنفترض أننا نفعيان . فكيف

يمكنني أن أخدم مصالحك، وكيف يمكنك أن تخدمي مصالحي؟

– قبل كل شيء يا سيدي، هناك رغبة تدفعني الى مخاصمتك.

– لماذا أيتها الكونتس؟

– لأني فقدت ثقتي بك، بعد أن قلَّ احترامك لي.

– احترامي لك! أرجوك، متى كان ذلك؟

عندما قررت إرضاء سيدة كبيرة بتحقيق ما تصبو إليه نفسها، من دون أن تعلمني.

– في الحقيقة، إنك لغز مبهم أيتها الكونتس! فأية سيدة تقصدين، وما الذي تصبو إليه نفسها؟

– لا، لست بلغز مبهم. فالسيدة هي تلك التي كشفت لك أسرار نفسها، هي الملكة ... أما ما تصبو إليه نفسها، فهو ذلك العقد الشهير الذي اشتريته أمس من السيدين بوهمير وبوسانغ.

فترنح الكردينال وشحب لونه، ودمدم قائلاً:

– كونتس!

فألقت عليه جانّ نظرة حادّة وسألته:

– لماذا تنظر إلي وأنت مرتعب هكذا؟ ألم تجرِ البارحة صفقة مع السيدين اللذين ذكرتهما لك؟

فصمت الكردينال ولم يجاوب . إذ لم يكن من عادته أن يكذب حتى على النساء .

ولما أخذ الاحمرار يصبغ وجهه دليل عدم استعداده لأن يغفر لتلك المرأة ما سببته له من كدر وازعاج ، أسرعت جانّ وأمسكت بيده وقالت له :

- عفواً يا أميري ، لقد تسرعت في مصارحتك بخيبة أملي فيك . فهل ستحكم عليّ بأني حمقاء وسيئة النية ؟

- أوه ! أوه ! كونتس .

- وأخيراً...

- أخيراً دعني أتكلم بدوري بعد أن اتضحت لي الصورة . فأنا كنت أنتظر أن أجد فيك امرأة ظريفة ، امرأة ذات رأي ، وعشيقة فاتنة ، فاذا بك امرأة أخرى ، امرأة شاءت أن تكون صديقتي وعشيقتي من دون أن تحبني ، ولقد صارحتني بذلك ، أليس كذلك ؟

فقالت السيدة دي لاموت :

- إنني أكرر ما قلته .

- إذن ، فإن لديك هدفاً ؟

- بكل تأكيد .

- ما هو هدفك أيتها الكونتس ؟

- وهل أنت بحاجة لأن أشرحه لك ؟

– لا ، لقد لمسته لمس اليد . فأنت تريدين أن تتأمن لي الثروات ، كي أؤمن لك ثروتك . أليس كذلك أم أني مخدوع ؟

– أنت لست مخدوعاً أبداً يا سيدي ، فذلك فعلاً هو هدفي . ولكن صدّقني بدون صياغة جمل رنانة ، بأني لم ألاحق هدفي وسط النفور والكراهية ، فالطريق كانت مستحبة وممتعة .

– أنت امرأة لطيفة أيتها الكونتس ، ويسرني أن أكشف لك أسرار قلبي . فهل تعلمين أني حظيت في مكان ما ، بلفتة كريمة ؟

– لقد لاحظت ذلك في حفلة الاوبرا يا أميري .

– آه ! ليرعاني الله حتى أرى ذلك الحلم يتحقق .

فقالت الكونتس :

– إن المرأة لا تستطيع أن تكون دائماً ملكة ، وأنت لا تقل قدراً ، كما أعهدك ، عن الكردينال مازاران .

فقال الأمير دي روهان وهو يضحك :

– إن مازاران هو أيضاً رجل قوي وجميل ، ورئيس وزارة ممتاز !

فأجابت جانّ بكل هدوء وسكينة : ورئيس وزارة ممتاز . ومع ذلك ، فهو ليس أفضل منك .

– الحقيقة أيتها الكونتس، إني أطمح بهذا المركز، ولدي كل المؤهلات التي تخولني احتلاله: المحتد، والمقدرة، وعطف البلاطات الأجنبية علي، والتأييد الذي ألقاه من الشعب الفرنسي.

فأجابته جانّ:

– ولكن ما زالت هناك عقبة واحدة تعترض سبيلك.

– ما هي هذه العقبة؟

– إنها نفور الملكة، وهو العقبة الأهم. فمن ترضى عليه الملكة، لا بدَّ من أن يرضى عليه الملك، ومن تكرهه الملكة يزايد عليها الملك في كرهه.

– وهل تكرهني الملكة؟

– الواقع أنها لا تحبك يا سيدي.

– إذن، لقد تبخرت كل آمالي، ولم يعد للعقد أية فائدة. آه! ليتني لم أشتره.

– لا تيأس إلى هذه الدرجة أيها الأمير. فالعقد، وإن كانت الملكة لا تحبك، سيثبت لها على الأقل، بأنك أنت تحبها.

– أتقصدين بأنك لم تقطعي الأمل من رؤية ذلك اليوم الذي أصبح فيه رئيساً للوزارة؟

– أنا أكيدة من أن هذا اليوم سيأتي.

- وأنا لن أتوانى في ذلك اليوم عن تحقيق مطالبك ومطامحك. وباستطاعتك تحديدها منذ الآن.

- دع ذلك أيها الأمير الى الوقت الذي يصبح فيه بإمكانك أن تحققها.

- كما تشائين، وسأكون رهن إشارتك في ذلك اليوم.

- شكراً يا أميري، ولنتناول الآن عشاءنا.

فأمسك الكردينال بيد جانّ وضغط عليها كما اشتهت أن يضغط عليها منذ عدة أيام. ولكن تلك المحتالة سحبت يدها بمهارة الممثلة البارعة، فقال الكردينال متعجباً:

- لماذا أيتها الكونتس؟

- قلت لك لنتناول عشاءنا يا سيدي.

- ولكني لم أعد جائعاً.

- إذن، لنتحدث.

- ولكن لم يعد لديَّ ما أقوله.

- إذن، لنفترق.

- أتصرفينني وقد تحالفنا؟!

- كي يكون الواحد منّا للآخر حقيقة يا سيدي، علينا أن نكون كلانا كلياً لبعضنا.

- أنت على حق أيتها الكونتس، فقد أسأت فهمك مرة أحرى، ولكني أقسم لك بأنها ستكون الأخيرة.

وأمسك الكردينال بيد الكونتس وقبّلها باحترام بالغ، وقد فاته ابتسامة المكر والخداع التي ارتسمت على شفتيها.

ثم نهضت جانّ وشيّعت الأمير الى غرفة الانتظار، حيث سألها بصوت يشبه الهمس:

- ماذا علي أن أفعل أيتها الكونتس؟

- لا شيء، انتظرني فقط.

- وهل ستذهبين الى فرساي؟

- نعم.

- متى؟

- غداً.

- وهل سأحصل على جواب؟

- بكل تأكيد.

- هيّا أيتها الكونتس، إني أضع نفسي تحت تصرفك.

- دعني أفعل.

وعند هذه الكلمة، عادت جانّ الى غرفتها وارتمت على سريرها، ودمدمت قائلة:

«حتماً، الحرية أفضل.»

في قاعة الحمامات

★

بعد أن حظيت الكونتس دي لاموت بعطف الملكة، وأصبحت ثروتها شبه مؤمنة من قبل عشيقها الكردينال دي روهان، شعرت بأنها قد أصبحت قوية المركز وقوية الثقة بنفسها.

وبهذه الثقة سارت الى مقابلة ماري انطوانيت في قصر فرساي بدون إذن مسبق، وكأنها ذاهبة الى زيارة صديقة من صديقاتها.

وكانت ثقة جانّ في محلها. فضباط البلاط كلهم قد لاحظوا كم كانت الملكة مرتاحة ومسرورة وهي بصحبة الكونتس الجميلة. لذلك ما أن وصلت الى القصر، حتى أسرع حاجب ذكي وقال لرئيس الحرس:

«سيدي، كيف العمل وقد جاءت الكونتس دي لاموت فالوا وليس لديها إذن بالدخول؟»

وصادف أن كانت الملكة مارّة في تلك اللحظة وبرفقتها السيدة دي لامبال، فاستدارت نحو قائد الحرس، بعد أن تناهى الى مسمعها اسم الكونتس، وسألته:

– أما قيل بأن السيدة دي لاموت فالوا هنا ؟

– نعم يا مولاتي.

– من قال ذلك ؟

– هذا الحاجب يا سيدتي.

فانحنى الحاجب احتشاماً، وقالت الملكة وهي تكمل طريقها :

– سوف أستقبل السيدة دي لاموت فالوا، فأتوني بها الى قاعة الحمامات.

وأكملت الملكة طريقها.

وعندما عاد الحاجب وقصّ على جانّ ببساطة ما قام به وما قالته الملكة، وضعت يدها فوراً على كيس نقودها، إلا أن الحاجب أوقفها مبتسماً وقال لها :

– أرجو سيدتي الكونتس أن تحتفظ لي بهبتها، وباستطاعتها فيما بعد أن تدفعها لي مع الفائدة.

فأعادت جان الدراهم الى جيبها وقالت له :

– أنت على حق يا صديقي، فشكراً ولن أنساك.

وبعد برهة من الوقت كانت الكونتس في حضرة الملكة، التي استقبلتها برزانة وبادرتها بقولها :

– لم أجد حتى الآن المناسبة كي أكلم الملك عليك.

فقالت الكونتس في نفسها: «لا شك أن الملكة قد اعتقدتني جئت أستعطي مرة ثانية.» ثم أجابت:

- إن جلالتك يا مولاتي قد كفَّت ووفَّت ولم أعد أنتظر شيئاً، فقط جئت ...

فقالت الملكة:

- ماذا جئت تفعلين إن لم يكن لمقابلة الملك؟ ألم تطلبي مقابلة، ومقابلة مستعجلة ... من أجلك؟

- مستعجلة ... نعم يا سيدتي، ولكن من أجلي، لا.

- من أجل أنا إذن ... هيا، تكلمي أيتها الكونتس.

وقادت الملكة جانّ الى قاعة الحمامات، حيث كانت نساؤها بانتظارها.

ولما رأت الكونتس نفسها محاطة بهؤلاء النسوة. لم تشأ أن تبدأ الحديث. ولكن عندما أصبحت الملكة داخل الحمام وصرفت نساءَها، قالت جانّ:

- لا شك يا مولاتي بأن جلالتك قد لاحظت ارتباكي.

- نعم، وكنت على وشك أن أسألك، فلماذا هذا الارتباك؟

- أعتقد بأن جلالتك على علم بالرعاية التي شملني بها الكردينال دي روهان، وبالفضل الذي طوَّق به عنقي مرغمة؟

فقطبت الملكة ما بين حاجبيها وأجابت :

- لا ، لست على علم .

- كنت أعتقد ...

- مهما يكن ... قولي .

- حسناً يا سيدتي . إن نيافته قد شرفني بزيارته قبل البارحة ، وكان القصد من زيارته ، عملاً نبيلاً وشريفاً...

- حسناً جداً أيتها الكونتس ، وأنا أيضاً لن أتوانى تجاهك... في عمل مماثل .

- عفواً يا صاحبة الجلالة ، فقد التبس الأمر عليك . إن نيافته لم يزرني كمحسن ، بل جاء يحدثني ، على عادته ، عن طيبة قلب الملكة ، وعن نعمها التي لا تنضب .

- وسأل إن كنت أساعد الذين يحميهم؟

- في أول الأمر ، نعم يا صاحبة الجلالة .

- إن ما أقوم به ليس من أجل الكردينال ، بل من أجل التعساء الذين أستقبلهم دائماً خير استقبال ، من أية جهة جاؤوا . فقط قولي لنيافته بأني جدّ متضايقة .

فتأوهت جانّ وقالت:

- اليك ما قلته له يا سيدتي، وما هو سبب حيرتي...

- آه ! آه !

– لقد عبّرت لحضرة الكردينال عن الرأفة التي تملأ قلب جلالتك كلما تبلغتِ نبأ مصيبة حلت بإنسان، وعن سخائك الذي لا يحدّ تجاه أصحاب الحظوظ العاثرة، مما سبَّب فراغ صندوقك الخاص من المال وجعلك في ضيق دائم.

– حسناً! حسناً!

– وقلت له أيضاً بأن صاحبة الجلالة قد أصبحت أسيرة رأفتها وحلمها، وهي تبذل نفسها من أجل الفقراء. لكن حدبها المستمرّ على الضعفاء والمساكين، قد أصبح مصدر عذابها وحرمانها. وقد حمَّلت نفسي مسؤولية قسط من هذا العذاب والحرمان...

– كيف ذلك أيتها الكونتس؟

– ذلك يا سيدتي أني قلت بأن جلالتك قد وهبتني مبلغاً كبيراً من المال منذ مدة قصيرة، وأن مثل هذا المبلغ قد وهبته الملكة ألف مرة منذ سنتين، ولو كانت الملكة أقل شفقة وإنسانية وسخاء، لكان الآن في صندوقها مليونان من الليرات على الأقل، ولما كان هناك أي اعتبار يمنعها من اقتناء ذلك العقد الماسي الرائع، الذي رفضته وحرمت نفسها منه بسبب كرمها الذي أفرغ صندوقها.

فاحمرت الملكة وأخذت تنظر الى جانّ وتحلل عبارتها الأخيرة وتتساءل: هل هي فخّ؟ أم هي مجرد تملق؟

لكن جلالتها تبيَّنت البراءة وسلامة النية في وجه جانّ، ولم يكن هناك ما يدل على أنها مخادعة ومحتالة. ولما كانت الملكة في الواقع جوَّادة وكريمة، ولما كانت الشجاعة والصدق من شيم الكرام. فقد تنهدت ماري انطوانيت وقالت:

- نعم، إن العقد رائع أيتها الكونتس، ويسرني أن تكون امرأة ذواقة مثلك قد امتدحتني لأني رفضته.

- آه لو تقفين في هكذا مناسبة يا سيدتي، على شعور الذين يحبون تجاه الذين يحبونهم.

- ماذا تريدين أن تقولي؟

- أريد أن أقول يا سيدتي، بأنه ما أن بلغ خبر تضحيتك البطلة بالعقد مسمع الكردينال دي روهان، حتى اصفرّ اصفرار الأموات.

- اصفرّ!..

- وفي ذات اللحظة، امتلأت عيناه بالدموع ... لا أعلم يا سيدتي إن كان الأمير دي روهان رجلاً وسيماً وسيداً لا عيب فيه كما يزعم الكثيرون، لكنّ ما كان عليه منذ برهة قصيرة لا يفارق مخيلتي مدى الحياة.

- ما الذي كان عليه؟

– كان وجهه مضاء بنور عواطفه الصادقة ، والدموع التي أثارها ترفُّعك النبيل والشهم ، تكرج على خديه ...

فصمتت الملكة برهة كانت خلالها تنظر الى المياه المتساقطة من منقاد الإوزة الذهبية اللون كلما غطّسته في مغطسها المرمري ، ثم قالت :

– حسناً أيتها الكونتس ، طالما أن الكردينال دي روهان قد بدا لك وسيماً وكاملاً الى الدرجة التي أفصحت لي عنها ، فلن أدعك بعد الآن تتورطين في استقباله ، فهو حبر دنيوي ، وراعٍ يرعى النعجة من أجل نفسه أكثر مما يرعاها من أجل المولى .

– أوه ! سيدتي !

– لما العجب ؟ هل افتريتُ عليه ؟ أليست هذه هي سمعته التي يفتخر بها ؟ ألم تشاهديه أيام الاحتفالات ، كيف يحرك يديه الجميلتين في الهواء كي تصبحا اكثر بياضاً ، وحتى إذا ما برق الخاتم الماسي في إصبعه ، أصبحت عيون الورعات أشدّ بريقاً من خاتم الكردينال ؟

فأحنت جانّ رأسها ، وتابعت الملكة تقول غاضبة :

– إن غنائم الكردينال كثيرة ، وبعضها أثار الفضائح . فالحبر هو رجل شَبِق كأهل الفروند . أما الثناء الذي يتوخاه ، فليس هنا مكانه الصالح .

فقالت جانّ وقد شجعها ذلك الجو العائلي على الكلام، كما شجعها أيضاً وضع الملكة المادي:

- عجباً يا سيدتي، فعندما كان الكردينال يحدثني بحرارة عن فضائل جلالتك، لم ألاحظ بأنه كان يفكر بالورعات. بل كل ما لاحظته، هو أنه عوضاً عن أن تكون يداه الجميلتان في الهواء، كانتا تضغطان على قلبه...

فهزت الملكة رأسها وأخذت تضحك قسراً. فقالت جانّ في نفسها: «إنها تضحك طوعاً ولو تهكماً! فهل تجري الأمور أفضل مما كنت أنتظر؟ وهل سيكون الغيظ مساعداً لي؟ أوه! سوف أحصل على تسهيلات كثيرة إذن.»

وعادت الملكة فاتخذت هيئة المرأة النبيلة وغير المبالية، وقالت: أكملي أيتها الكونتس.

فقالت جانّ: إن جلالتك قد جمدتني. فتواضعك يرفض حتى الثناء...

- نعم، حتى ثناء الكردينال!

- ولكن، لماذا يا سيدتي؟

- لأن هذا الثناء يريبني أيتها الكونتس.

فأجابت جانّ ببالغ الاحترام:

- أنا لا يحق لي أن أدافع عن الذي كان تعيساً كفاية لأنه

لم ينل حظوة جلالتك. ومما لا شك فيه أنه مذنب، لأنه أغاظ الملكة.

– إن السيد دي روهان لم يغظني، بل أهانني. ولكن بما أني ملكة مسيحية، تضاعف واجبي كي أغفر له إهاناته.

قالت الملكة هذا الكلام بتلك الطيبة المهيبة التي لا تتوفر لسواها.

ولما لم تحر جانّ جواباً، سألتها:

– لماذا صمتِّ؟

– أخشى يا سيدتي إن استمريت في التعبير عن رأيي الذي يخالف رأيك، أن أصبح مريبة أنا أيضاً، فاستحق من جلالتك زوال الحظوة والتأنيب.

– وهل إن اعتقادك بالكردينال يخالف اعتقادي؟

– تماماً يا سيدتي.

– أنا واثقة بأنك لن تقولي هذا الكلام يوم تعلمين ما الذي فعله بي الأمير لويس.

– أنا لست مطلعة إلا على ما فعله من أجل خدمة جلالتك.

– مغازلات؟

فأحنت جانّ رأسها، وأكملت الملكة تقول:

– ملاطفات، تمنيات، مجاملات؟

فبقيت جان صامتة. وتابعت الملكة كلامها:

- يظهر أنك تكنين محبة قوية للسيد دي روهان أيتها الكونتس، لذا سأتوقف عن مهاجمته أمامك.

وأخذت الملكة تضحك ... فقالت جانّ:

- كنت أفضّل غضبك على مزاحك يا سيدتي. فحقيقة ما يشعر به الكردينال تجاه جلالتك، هو العاطفة المفرطة في الاحترام. وأنا جدّ واثقة، بأنه لو رأى الملكة تسخر منه، لفضّل الموت على الحياة.

- أوه! أوه! إذن لقد تغيَّر كثيراً.

- بالطبع تغيَّر يا سيدتي، فمنذ أكثر من عشر سنوات كان كما تتصورينه، أما الآن...

فقالت الملكة بقساوة:

- هل صدقت مزحتي أيتها الكونتس؟

فأرغمت جانّ على الصمت، وبدت للملكة كأنها استسلمت في دفاعها عن الكردينال. لكن ماري انطوانيت كانت مخدوعة تماماً. فجانّ دي لاموت هي من النساء اللواتي لهنّ طبيعة النمر والحية. فالنمر والحية عندما ينطويان على نفسيهما، تكون تلك اللحظة لحظة الاستعداد للتوثب. وهكذا كانت حال الكونتس عندما استأنفت الملكة الحديث، فقالت بتهور:

– أنت تتحدثين عن هذا العقد أيتها الكونتس وكأنك ما زلت تفكرين بماساته.

فأجابت جان بفرح الجنرال الذي يرى خصمه قد ارتكب خطأ تكتيكياً في المعركة الحاسمة.

– ليلاً نهاراً يا سيدتي، فحبات الماس هذه، هي من الروعة بحيث لا يجوز أن تتألق إلا على جيد جلالتك.

– كيف ذلك؟

– نعم يا سيدتي، نعم، على جيد جلالتك.

– ولكن العقد قد ابتاعه سفير البرتغال.

فهزّت جانّ رأسها وابتسمت بدهاء، فسألتها الملكة فرحة:

– لا؟

– لا يا سيدتي.

– من اشتراه إذن؟

– لقد اشتراه الكردينال دي روهان يا سيدتي...

فقفزت الملكة من مكانها وصاحت وقد تثبّطت عزيمتها:

– آه!

فقالت جانّ ببلاغة اعتادت عليها في مثل هكذا موقف:

– ثقي يا سيدتي بأن ما فعله الأمير دي روهان هو عمل جزيل يدل على أريحتيه وطيب قلبه، وصنيعه هذا لا يجوز أن

تقابله نفس كنفس جلالتك إلا بالتقدير والعطف . فهو ما كاد يعلم مني ، وأنا اعترف لك بذلك ، بالعسر المالي الموقت الذي يزعج جلالتك ...

ثم عمدت إلى حركة تدل على عظم دهشتها وتابعت تقول :

«كيف ذلك ! أترفض ملكة فرنسا ما لا تقدم على رفضه امرأة مزارع ؟ كيف ذلك ! أيجوز لملكة فرنسا ، أن تعرّض نفسها في يوم من الأيام ، لرؤية امرأة صيرفيّ أو وزير ، وهي متزينة بهذه الحلية الفريدة ؟»

ثم ضاعفت جانّ سخطها المصطنع وتابعت تقول :

«ليست المسألة مسألة إسعاد الملكة ، بل مسألة كرامتها . فأنا أعرف ذهنية البلاطات الأجنبية القائمة على التفاخر والتباهي . فسوف تهزأ هذه البلاطات من ملكة فرنسا التي لا تملك المال الكافي لإرضاء ذوقها إرضاءً مشروعاً . وأنا ، سيؤلمني هذا الهزء كثيراً كما سيؤلم الكردينال ، لذلك ما أن علم مني بالصفقة التي كادت تتمّ بين سفير البرتغال والسيدين بوهمير وبوسانج ، حتى تركني فوراً ، وبعد ساعة ، علمت بأنه قد اشترى العقد .»

فسألتها الملكة :

– بمليون ونصف المليون ؟

- بل بمليون وستماية ألف ليرة .

- وما هو قصده من شرائه ؟

- قصده أن لا يكون العقد لامرأة أخرى ، إن لم يكن لجلالتك .

- وهل أنت أكيدة بأنه لم يشتره ليقدمه لإحدى عشيقاته ؟

- أنا أكثر من أكيدة بأن غايته من شرائه هو أن لا يراه يتألق على عنق سوى عنق الملكة .

فقالت الملكة :

- إن ما قام به الأمير دي روهان لهو عمل جميل وبادرة نبيلة تستحق التقدير .

فاهتزّ كيان جانّ لهذا الكلام ورقص قلبها فرحاً ، وأكملت الملكة تقول :

- إذن ، سوف تشكرين الأمير دي روهان .

- أوه ! طبعاً يا سيدتي .

- وبالإضافة إلى الشكر ، قولي للأمير دي روهان بأنه قد ثبتت لي محبته ، وسوف أقبل هذه المحبة وأبادله بمثلها . كذلك سوف أقبل ، ولكن ليس هبته...

- ماذا إذن ؟

- سوف أقبل سلفته ... فقد شاء أن يقدم ماله أو اعتماده

كي يسعدني ، لكني سأفيه حقه . وأعتقد أن بوهمير كان قد طلب عربوناً ؟

- نعم يا مولاتي .

- كم ؟ مئتا ألف ليرة ؟

- بل مئتان وخمسون الف ليرة .

- إنه المبلغ الذي خصَّصه لي الملك كمرتب عن كل فصل من فصول السنة ، وها إني قد تلقيت اليوم مرتبي الجديد مقدماً . أرجوك أيتها الكونتس ، إفتحي هذا الدرج .

- الأول يا مولاتي ؟

- لا ، الثاني .

ففعلت الكونتس ، وسألتها الملكة :

- هل رأيت محفظة ؟

- ها هي يا مولاتي .

- إنها تحتوي على مئتين وخمسين الف ليرة . عدّيها أيتها الكونتس .

فأطاعت جانّ وعدَّت ما فيها . ثم قالت لها ماري انطوانيت :

- خذي هذا المبلغ الى الكردينال واشكريه ، وقولي له بأني سوف أؤمن له مثل هذا المبلغ كل شهر ، ومع الفائدة . وبهذه

الطريقة سأحصل على العقد الذي أُعجبت به كثيراً، ولا بأس إن ضايقت نفسي، فالمهم أن لا أضايق الملك.

وبعد أن استغرقت في التأمل لمدة دقيقة واحدة، أكملت تقول:

- وبذلك أكون قد ربحت صديقاً رهيف الإحساس قدَّم لي خدمة جلّى...

وانتظرت جانّ نصيبها من الثناء... فتابعت الملكة تقول وهي تمدُّ يدها إلى الكونتس:

- وصديقة برهنت أنها تحبني حتى العبادة.

فطابت نفس جانّ وقبَّلت يد الملكة وهمَّت بالانصراف. إلا أن ماري انطوانيت استوقفتها وقالت لها واجفة وبصوت يشبه الهمس:

- بلّغي الأمير دي روهان بأن قصر فرساي يرحب به، وأني أريد أن أشكره شخصياً.

فانحنت جانّ وخرجت مترنحة، ولكن ليس من السكر، بل من الفرح والاعتزاز.

خرجت وهي تضغط على الأوراق النقدية كما يضغط النسر على فريسته من الطرائد.

محفظة الملكة

★

لم يكن الكردينال دي روهان قد خرج من قصره بعد عندما وصلت اليه السيدة دي لاموت فوجدته غاصاً برجاله وأنصاره، لذا بُلّغ عن وصولها بطريقة بروتوكولية لم تلق مثيلها لدى الملكة . وعندما مثلت بين يديه ، بادرها الكردينال بقوله :

- هل أنت آتية من فرساي أيتها الكونتس؟

- نعم يا سيدي .

وكان منظرها لا ينبئ بشيء . فأخذ الكردينال يتفرسها ، فلاحظ عليها مسحة من الهلع والحزن وانحراف المزاج ، فقال لها :

- ما وراءك ؟

- ماذا تريد أن يكون ورائي ؟

- إن هيئتك محزنة !

- لا بأس . هل تريدني أن أقابل الملكة ؟

- نعم .

- لقد قابلتها .

- وعمَّا حدثتك؟

- لقد حدثتني عنك.

- وأنت، هل حدثتها عني بما يرضيني؟

- طبعاً.

- وهل أصغت الملكة؟

- ذلك يستحق شرحاً مستفيضاً.

- لا تقولي لي أية كلمة أيتها الكونتس، فأنا أعرف مقدار ما تكنّه لي من كره...

- لا، ليس كثيراً ... فقد تجرأتُ وكلمتها على العقد.

- وهل تجرأت وقلت بأني فكرت...

- بشرائه لها، نعم.

- أوه! ذلك عظيم أيتها الكونتس! وهل أصغت إليك؟

- كل الإصغاء.

- هل قلت لها بأني سأقدم لها هذا العقد تقدمة؟

- قلت ... ولكنها رفضت.

- يا لضيعة أمالي!..

- رفضت أن تقبل الهبة، أما القرض...

- القرض؟... وهل عرضت عليها ذلك بلباقة؟

- بلباقة كبيرة، وقد قبلت.

- قبلت الملكة أن أقرضها، أنا ... هل ذلك ممكن أيتها الكونتس؟

- إنه أكثر مما كنت تنتظر، أليس كذلك؟

- ألف مرة.

وتقدم الكردينال من جانّ وأمسك بيديها الاثنتين وجعل يقبلهما ويقول:

- لا تخدعيني أيتها الكونتس، واعلمي أن كلمة واحدة منك، باستطاعتها أن تجعلني في مؤخرة الرجال.

- أنا لا أتلاعب بالأهواء يا سيدي. فأنت رجل ذو مكانة، ولا تستحق أبداً أن تكون موضع هزء أحد.

- هذا صحيح. إذن إن ما قلته...

- هو الحقيقة بعينها.

- أأصبحت مؤتمناً على سرّ الملكة؟

- وهو سرٌّ ... قاتل!

فأسرع الكردينال الى جانّ وضغط على يدها بحنوّ، فقالت الكونتس:

- كم أحب هذه المصافحة، إنها من رجل لرجل.

- إنها من رجل سعيد، الى ملاك حارس.

- لا تغالي يا سيدي.

فتنهد الكردينال وقال:

- أوه! إذا تمّ لي ما أشتهي...

- سوف يتمّ، وما عليك إلا أن تقرض الملكة مليوناً ونصف المليون. فالملكة يسرها أن تراك في فرساي، وهذا ما أمرتني أن أبلغك إياه.

فما كادت جانّ تفوه بهذه الكلمات، حتى ارتعش الكردينال واحمرّ كأنه مراهق يقبل فتاة أحلامه لأول مرة، ثم ارتمى كالسكران على أول مقعد تلمّسه!

فقالت جانّ في نفسها:

«آه! آه! إن الأمر فيه من الجدية أكثر مما كنت أتصور. فقد كنت أحلم بدوقية إيرادها مئة ألف ليرة، ولكنني سوف أحصل على إقطاعية لا يقل ريعها عن نصف مليون، لأن السيد دي روهان لا يطمح بشيء سوى الحب!

وعاد دي روهان إلى روعه بسرعة، لأن الفرح ليس مرضاً كي يدوم طويلاً. ولما كان ذا روح قوية، رأى أنه من المناسب وصل ما انقطع مع جانّ، فطوقها بذراعيه وقال لها:

- ماذا تنوي الملكة أن تعمل بهذا القرض الذي اقترحته عليها يا صديقتي؟

- أتسألني هذا السؤال لأن صندوق الملكة فارغ؟

- تماماً.

- حسناً! إن الملكة ستدفع لك كما أنها تدفع لبوهمير.

مع فارق بسيط ، هو أنها لو اشترت العقد من بوهمير لعرفت كل باريس وأثار شراؤها للعقد ضجة ليست في مصلحتها . لذلك تريد أن تشتري هذا العقد بالتقسيط وأن تدفع ثمنه بالتقسيط ، وأنت ستكون لها كأمين صندوق كتوم وقادر على وفاء الدين إذا ما وجدت نفسها في ضيق . وبالإختصار ، إن الملكة سعيدة ودفّيعة ، فلا حاجة للاستزادة .

- دفّيعة ، كيف ؟

- إن الملكة امرأة ذات نفس أبية يا سيدي ، وليست صديقة تتقبل الهدايا ... فعندما قلت لها بأنك دفعت مقدماً مئتين وخمسين الف ليرة...

- وهل قلت لها ذلك؟

- لِمَ لا ؟

- لأن هذا ما سيجعل المشروع يفشل .

- بالعكس ، هذا ما سيجعله مقبولاً من الملكة ، فلا شيء مقابل لا شيء ، هذا هو شعار الملكة .

- يا إلهي !

فمدّت جانّ يدها باطمئنان الى جيبها وسحبت محفظة الملكة . فقال لها الأمير دي روهان :

- ما هذا ؟

- محفظة تحتوي على مئتين وخمسين الف ليرة، بعثت بها الملكة إليك مع الشكر الجزيل.

- أوه!

- ما لك؟ وبما أنت تحملق؟

- بهذه المحفظة.

- وهل أعجبتك؟

- نعم، ولا أعرف لماذا!

- إنك صاحب ذوق سلم.

- هل تسخرين مني؟ ما الذي دعاك لأن تقولي عني بأني صاحب ذوق سليم؟

- لأن ذوقك مطابق لذوق الملكة.

- هذه المحفظة...

- كانت للملكة يا سيدي...

- وهل أنت متمسكة بها؟

- أوه! كثيراً.

فتنهد الكردينال دي روهان وقال:

- يا لسوء حظي!

فقالت له الكونتس وهي تبتسم تلك الابتسامة التي تضعضع القديسين:

- ومع ذلك، إذا كانت مجلبة لسرورك...

– أنت لا تشكين بذلك أيتها الكونتس، ولكني لا أريد حرمانك منها.

– خذها.

فصاح الكردينال مدفوعاً بفرحه:

– كونتس! أنت الصديقة الأغلى، أنت الأكثر ذكاء ولطفاً، الأكثر...

– أجل، أجل...

– والصداقة فيما بيننا...

– مدى الحياة، حتى الموت! ولكن لا، فأنا لا أتمتع إلا بجدارة واحدة.

– ما هي!

– جدارة العمل على تحقيق مشاريعك بقليل من السعادة وكثير من الهمة.

– إن سعادتك مطلوبة مني أيتها الصديقة، وهي في رأس اهتماماتي. فبينما كنت أنت ذاهبة الى فرساي، كنت أنا أعمل من أجلك.

فنظرت جانّ الى الكردينال بدهشة، وتابع هو يقول:

– نعم، لقد جاء إلي صاحب المصرف الذي أتعامل معه، وعرض علي أسهماً تتعلق بمشروع تجفيف مستنقعات واستغلالها، فقبلت عرضه وخصصتك بخمسين سهماً، أي

بربع ما اشتريته. وبعد ساعتين، عاد صاحب المصرف ليخبرني، بأنه نتيجة للمضاربة في البورصة، قد ارتفعت قيمة الأسهم مئة بالمئة، فبعت ما اشتريته منها وربحت مئة الف ليرة.

– يا لها من مضاربة جميلة!

– وهذه حصتك من المئة الف ليرة أيتها الكونتس العزيزة،بل أيتها الصديقة العزيزة.

ولم يكتف الكردينال بما أعطاه لصديقته، فدسَّ أيضاً في يدها خمساً وعشرين ألف ليرة من المبلغ الذي أرسلته إليه الملكة، فصاحت الكونتس:

– يا لك من سخيّ يهب بلا حساب يا سيدي! إن كرمك قد جعلني أثق بأنك سوف تفكر بي دائماً.

فأجابها الكردينال وهو يقبل يدها:

– هكذا سأكون دائماً معك.

فقالت جانّ:

– وأنا سأبادلك بالمثل يا سيدي، أي عطاء بعطاء. أما الآن، فإلى اللقاء في فرساي.

وتركت جانّ دي لاموت الكردينال وذهبت، بعد أن أعطته لائحة بالاستحقاقات التي عيّنت الملكة مواعيدها،

وكان موعد الاستحقاق الأول وقدره خمسماية الف ليرة، بعد مضيّ شهر واحد.

الطبيب لويس

★

لا شك أن القراء يتذكرون الحالة الصعبة التي تركنا فيها السيد دي شارني في غرفة الاستقبال في تلك الشقة الصغيرة في قصر فرساي، بعد أن هرب خوفاً من أن يُغمى عليه أمام ثلاث نساء، هن: الملكة، واندريه، والسيدة دي لاموت.

فعندما وصل دي شارني الى منتصف تلك الغرفة شعر بأن قواه قد خارت، ثم ترنح وسقط باسطاً يديه، فأسرع من شاهده على هذه الحالة إلى نجدته.

بعد هذه السقطة فقد الضابط الشاب وعيه. ولكن ما أن انقضت عدة لحظات حتى عاد الى رشده دون أن يساوره أي شك بأن الملكة قد رأته، وربما أسرعت إليه قلقة، إن لم تكن أندريه قد أوقفتها بدافع الغيرة الحادة أكثر مما هو بدافع الحرص على مكانة الملكة.

وفضلاً عن ذلك، قد تكون أندريه أمسكت بالملكة وأشارت عليها بالدخول الى غرفتها، مهما كان الشعور الذي

أملى عليها هذا الرأي. لأنه ما كاد الباب ينغلق على الملكة، حتى تعالى صوت الحاجب يقول:

- الملك!

وفعلاً كان الملك في طريقه من أجنحته الخاصة الى شرفة القصر ليعاين ألبسته الخاصة بالصيد الذي أهمله منذ بعض الوقت، قبل أن يجتمع بوزرائه للتشاور.

وكان الحارسان، وهما يسندان السيد دي شارني، يصيحان:

- سيدي! سيدي! ماذا دهاك؟

لكن صوت المريض خانه، وعصى عليه الجواب.

فعندما عرف الملك حقيقة الأمر، حثّ خطاه باتجاه المريض وهو يقول:

- إيه! إيه! إنه رجل مغمى عليه.

فلما سمع الحارسان صوت الملك استدارا، ومن فرط ذعرهما تراخت أيديهما فسقط دي شارني، أو بالأحرى هما تركاه يسقط على البلاط، فصاح بهما الملك:

- أوه! ماذا عملتما أيها الحارسان؟!

فأسرع الحارسان ورفعا دي شارني بتؤدة عن البلاط بعد أن فقد وعيه بصورة كاملة، ومدداه على مقعد مريح.

وفجأة صاح الملك عندما عرف أن المغمى عليه هو الضابط الشاب دي شارني :

- أوه ! أوه ! مسيو دي شارني !

وصاح المسعفان أيضاً : مسيو دي شارني !

فقال الملك :

- نعم ، إنه ابن شقيقة السيد دي سيفران .

وكان لهذه الكلمات وقع السحر . فما هي إلا لحظة حتى كان دي شارني قد تبلل بالعطورات واستدعي على الفور طبيب قام بفحصه متأثراً ، وبحضور الملك الذي لم يشأ أن يفارقه قبل أن يطمئن إلى صحته ، ثم أسرع فنزع عنه سترته وقميصه كي يلامس الهواء صدره . ولكن ما أن فعل حتى عثر على ما لم يكن في حسبانه...

فصاح الملك بعد أن ضاعف اهتمامه واقترب من المريض أكثر لتثبت عيناه :

- جرح !...

فدمدم دي شارني وهو يحاول أن ينهض :

- نعم ، جرح يا سيدي ، وهو جرح قديم لا أهمية له .

ثم ضغط يده على أصابع الطبيب بشكل خفي ، ففهم الطبيب معنى هذه الحركة ، إذ لم يكن طبيباً للبلاط بل جراح للعامة في فرساي ، فقال ولم يشأ إلا أن يعطي الأمر أهميته :

– أوه! قديم ... هذا ما يروق لك أن تقول يا سيدي، لكن الجرح ما زال دامياً، والدم ما زال قرمزي اللون. إنه جرح لم يمضِ عليه أربع وعشرون ساعة.

فأعادت هذه المناقضة إلى شارني قواه، فوقف على رجليه وقال:

– أكرر عليك القول يا سيدي بأنه جرح قديم، وأعتقد بأني أعلم الناس متى حدث لي هذا الجرح.

ثم لاحظ دي شارني وجود الملك الى جانبه، فوقف وقفة احترام، واعتراه الخجل لأن جلالته أيضاً قد اكتشف ضعفه، فصاح قائلاً:

– الملك!

فقال الملك:

– نعم يا سيد دي شارني، أنا بذاته. وإني أشكر السماء التي أرسلتني الى هنا كي أخفف قليلاً مما كنت عليه.

فتمتم شارني متلجلجاً:

– إنه خدش يا مولاي، جرح قديم يا مولاي، هذا كل شيء.

فقال لويس السادس عشر:

– قديم أو جديد، فالجرح قد أتاح لي مشاهدة دمك، وهو دم ثمين لبطل نبيل.

فحاول شارني أن ينهض ليثبت للملك بأن جرحه ليس بذي بال، إلا أن قواه خانته، فعاد وسقط على مقعده مضعضع الحواس.

فالتفت الملك عندئذ الى الطبيب وقال له:

- يبدو أنه جدُّ مريض أيها الطبيب!

فقال الطبيب بأسلوب الدبلوماسي الذي يعرف مقدماً ما سيطلب منه:

- نعم يا مولاي، لكنني سوف أُنقذه.

ورغم أن لويس السادس عشر قد عرف أن هناك سراً وراء هذا الجرح، فلم يشأ، لما عرف عنه من تهذيب وتصرف مشكور، إلا أن يبقى هذا السر دفيناً في أعماق صاحبه، فقال للطبيب:

- لا أريد أن يتعرض السيد دي شارني لأي خطر بالرجوع الى منزله. بل يجب أن تعتني به مشكوراً هنا في فرساي، وسوف نستدعي خاله السيد دي سيفران على جناح السرعة، كما أنني سأستدعي جرّاحي الخاص الدكتور لويس.

وللحال أسرع ضابط لينفذ أوامر الملك باستدعاء الطبيب المذكور، كما أسرع آخران بنقل دي شارني الى غرفة الحرس في طرف الرواق.

ولم يمض طويل وقت حتى كان الطبيب الجراح لويس قرب المريض، كذلك خاله السيد دي سيفران الذي أبلغه النبأ أحد السعاة.

وعندما أمسك دي سيفران بيد شارني وتفرّس في عينيه الذابلتين، قال للطبيب:

– عجيب!... هذه أول مرة يمرض فيها ابن أختي أيها الطبيب!

فأجابه الطبيب:

– هذا القول يعوزه الدليل يا سيدي.

– الدليل هو أن «أوليفيا» بقي عشر سنوات يخوض غمار البحر قوياً نشيطاً، ومستقيماً كالصاري. ومما لا شك فيه، أن سبب مرضه هو مناخ فرساي الثقيل جداً والذي لم يتعوده.

فقال أحد الضباط الحاضرين:

– إن سبب مرضه هو جرحه...

فصاح الأميرال دي سيفران:

– تقول جرحه!.. إن أوليفيا لم يُجرح في حياته قط.

فأجاب الضابط المذكور وهو يريه جرح ابن أخته:

– أوه! عفوك يا سيدي، فقد كنت أعتقد...

فقال الطبيب بعد أن رأى دي سيفران الدم، وبعد أن شعر هو أن نبض المريض قد عاد الى الخفقان:

– لا تجادلا في منشأ مرضه يا سيديَّ، فالأهم من ذلك هو العمل على شفاء المريض إذا أمكن.

فسأل دي سيفران الطبيب وقد حاول إخفاء تأثره.

– هل حالته خطرة أيها الطبيب؟

– إن جرحه شبيه بالجرح الذي تحدثه الموسى في الذقن.

– حسناً. تفضلوا بتقديم شكري إلى جلالة الملك أيها السادة. أما أنت يا أوليفيا، فسوف أعود لرؤيتك ثانية.

فحرَّك أوليفيا عينيه وأصابعه كأنه يشكر، في آنٍ واحد، خاله الذي سيتركه، والطبيب الذي سمح له بأن يذهب...

وشعر دي شارني بالإرتياح والاطمئنان بعد أن أصبح ممدداً فوق سرير، وفي عهدة طبيب هو في غاية النباهة واللطف، فأظهر رغبته في الرقاد.

وعندذاك صرف الطبيب كل الحضور.

ولم تمض عدة دقائق حتى اشتدت الحمَّى عليه، فأخذ «يهمدر» ويهذي بما حصل له مع فيليب، وبما حصل له مع الملكة، وبما حصل له مع الملك.

ثم تعالى صوته حتى وصل الى مسامع بعض الحراس الذين كانوا يتمشون في الرواق، فتنبَّه الطبيب واستدعى خادمه وأمره بلف الجريح بالبطانية وحمله. لكن أوليفيا مانع وأطلق

عدة صرخات تذمرية، مما جعل الخادم يرتد إلى الوراء ويقول للطبيب:

- كيف العمل يا سيدي؟ إنه ثقيل جداً ويقاوم بشدة. سوف أذهب وأستدعي واحداً من هؤلاء السادة الحراس كي يعاونني عليه.

فقال له الطبيب:

- أنت لست سوى دجاجة مبتلّة، طالما أنك خائف من مريض.

- سيدي...

- وبما أنك وجدته ثقيلاً، فهذا يعني أنك لست قوياً كما كنت أعتقد، لذلك سأعيدك إلى مقاطعة أوفارنيا.

ويظهر أن تهديد الطبيب قد فعل فعله في نفس خادمه، فاستجمع قواه وحمل شارني على مرأى من رجال الحرس وكأنه يحمل ريشة، فيما كان شارني يصرخ ويقوم بحركات كثيرة.

فالتفّ رجال الحرس حول الطبيب وأخذوا يطرحون عليه الأسئلة المتعلقة بنقل الجريح، فأجابهم الطبيب بصوت يشبه الصراخ كي يغطي صراخ شارني:

- تعلمون جيداً أيها السادة بأن روافكم بعيد عن شقتي،

وليس باستطاعتي المجيء كل ساعة كي أعود هذا المريض الذي عهد إلي جلالة الملك أمر العناية به .

- إذن ، إلى أين ستنقله ؟

- إلى شقتي ، حيث سأفرد له أحدى غرفتيّ الاثنتين وأحتفظ لنفسي بالثانية .

فقال ضابط الحرس :

- ولكني أؤكد لك أيها الطبيب بأن المريض سيلقى هنا كل العناية ، فنحن كلنا نحب السيد دي سيفران ، و...

- طبعاً ، طبعاً . إني أعرف عناية الرفاق برفيقهم . فعندما يكون الجريح عطشاناً ، يقدمون له الماء ليشرب ، وهكذا تكون محبتهم له سبباً لموته ، كما حصل لعشرة جرحى حتى الآن !

وبعد أن أمر الطبيب خادمه بنقل شارني بسرعة إلى إحدى غرفتيه ، قال في نفسه :

«لا مفرّ من نقله ، ولكن ماذا إذا شاء الملك أن يراه ؟... يا للشيطان ! إنه إن فعل سيسمع كل شيء ... وهنا الطامة الكبرى . لذلك بات لزاماً علي أن أخطر الملكة وأن أعمل بنصيحتها .»

وهكذا بعد أن تمَّ نقل شارني ومدّده الطبيب على سرير في إحدى غرفتي منزله ، وأقفل باب الغرفة جيداً عليه وعلى

خادمه الذي أوصاه به خيراً ووضع المفتاح في جيبه، توجّه إلى جناح الملكة بعد أن تأكد بأن صراخ شارني لن يُفهم إن هو اخترق جدران الغرفة.

ولكنه ما أن خرج من تلك الغرفة حتى التقى أمام بابها السيدة ميزاري التي كانت موفدة من قبل الملكة للإطلاع على حالة الجريح. فقال لها الطبيب بعد أن ألحّت بالدخول عليه:

– تعالي، تعالي يا سيدتي، فأنا خارج ولا أستطيع التكلم معك.

– ولكن الملكة تنتظر أيها الطبيب!

– إني ذاهب إليها يا سيدتي.

– الملكة ترغب...

– إن كل ما تريد معرفته، سوف أقوله لها بنفسي، فهيّا يا سيدتي وعودي من حيث أتيت.

وهكذا أقنع الطبيب لويس السيدة دي ميزاري بالعودة الى جناح ماري انطوانيت، فوصلته في ذات الوقت الذي وصل إليه الطبيب.

الرؤيا الأليمة

★

فيما كانت ماري انطوانيت تنتظر جواب السيدة دي ميزاري، ولم تكن أبداً تنتظر الطبيب، دخل هذا الأخير على الملكة بالدالة التي تعودها وقال لها بصوت مرتفع:

- إن المريض يا مولاتي، الذي اهتمّ الملك بأمره كما اهتمت جلالتك، أخذت حالته تتحسن رغم الحمّى...

وكانت الملكة تعرف الطبيب جيداً، وتعلم مقدار اشمئزازه من الذين يطلقون الصرخات بحرية تامة عندما يشعرون بشيء من المعاناة، فسألته كامرأة قوية ومهيأة لأن تستخف بالرجال الأقوياء، وذلك بعد أن تصورت أن حالة دي شارني قد ساءت قليلاً:

- إن جرح الجريح يثير الضحك...

فقال الطبيب مندهشاً:

- إيه! إيه!

- إنه مجرد خدش...

- لا يا مولاتي، لا. على كلٍ، سواء أكان خدشاً أو جرحاً، فالحاصل أن المريض تنتابه الحمّى.

– يا له من مسكين! وهل هي حمَّى قوية؟

– إنها حمَّى مخيفة!

فقالت الملكة مرتعبة:

– يا للعجب! لم أكن أعتقد أنه هكذا ... على الفور ... الحمَّى ... فابتسم الطبيب وأجاب:

– هناك حمَّى، وحمَّى...

– إنك تخيفني يا عزيزي لويس! فأنت الذي اعتدت أن تكون مطمئناً ومشجعاً، لا أدري في الحقيقة ما الذي دهاك هذا المساء!

– لا شيء غير مألوف.

– كيف! وأنت مثلاً تتلفت يميناً وشمالاً، وهيئتك تدل على أنك تود البوح لي بسرّ خطير.

– ربما...

– وهل للحمَّى علاقة بهذا السر؟

– نعم يا مولاتي.

– الحمَّى التي تنتاب السيد دي شارني؟

– نعم يا مولاتي.

– وقد جئتني بخصوص هذا السر؟

– نعم يا مولاتي.

- إذن، عجّل وافصح عما تريد قوله، فأنا فضولية كما تعهدني.

- أرجو مولاتي أن تطرح علي ما تشاء من الأسئلة، وأنا على استعداد للإجابة بدون أي تحفظ.

- حسناً، وإليك السؤال الاول: كيف تتطور حمّى السيد دي شارني؟

- لا، إن المنطلق في طرح الأسئلة مغلوط. فمن الأفضل أن تسأليني أولاً، لماذا نقلت السيد دي شارني إلى شقتي المكونة من غرفتين صغيرتين، ولم أُبقه في الرواق أو في مركز الحراسة.

- ليكن. فما هو السبب؟

- لم أشأ يا مولاتي أن أترك السيد دي شارني في الرواق أو مركز الحراسة كما شئت أنت، لأن السيد دي شارني ليس محموماً عادياً.

فقامت الملكة بحركة تدل على دهشتها، وقالت:

- ما الذي تريد قوله؟

- أريد أن أقول، بأن السيد دي شارني ما أن انتابته الحمّى، حتى أخذ يهذي...

فضمت الملكة يديها وقالت:

- أوه!

فاقترب الدكتور لويس من ماري انطوانيت، وتابع يقول:

- وعندما أخذ يهذي ذلك الشاب المسكين، فاه بأمور هي في غاية الخطورة، ولا يجوز أبداً أن يسمعها حراس الملك أو أي شخص آخر.

- ماذا تقول أيها الطبيب!

- أرجو مولاتي أن لا تطرح عليَّ الأسئلة، إذا لم تكن تريدني أن أجاوبها بصراحة.

- لا أيها الطبيب العزيز، قل ما تشاء.

ثم أخذت الملكة بيد العالم الطيب القلب وقالت له:

- إن دي شارني هو شاب ملحد، فربما يكون قد جدَّف أثناء هذيانه.

- لا أبداً، أبداً. بالعكس، إنه جدٌّ متعلق بمبادئ الدين.

- هل هناك إثارة في تصوراته الذهنية؟

- إن كلمة إثارة مطابقة للواقع.

فتجهم وجه الملكة وسيطرت على رباطة جأشها بشكل رائع كما اعتاد أن يفعل الأمراء دائماً ليحتفظوا باحترام الغير لهم وتقديرهم، وهي خاصة من خصائص الكبار على هذه الأرض كي تستمر هيمنتهم ولا يفتضحوا، ثم قالت:

- إن للسيد دي شارني معزَّة خاصة لدي، فهو عدا كونه ابن شقيقة بطلنا السيد دي سيفران، قد أدَّى لي بعض

الخدمات. لذا أودُّ أن أكون بالنسبة إليه كقريبة وصديقة. فقل لي إذن الحقيقة، إني أتوق لسماعها.

فأجاب الدكتور لويس:

- لكني أنا، لا أستطيع أن أقول لك هذه الحقيقة. أما وأن جلالتك يهمها كثيراً أن تقف عليها، فلا أرى لتحقيق ذلك سوى وسيلة واحدة، هي أن تسمع جلالتك بنفسها... وبهذه الطريقة، إذا فاه السيد دي شارني بشيء معيب، فالملكة لن تحقد لا على الذي باح بالسر، ولا على الذي كتمه ولم يدعه يتفشى.

فصاحت الملكة:

- إني أحرص على صداقتك أيها الطبيب العزيز، وأعتقد منذ الآن بأن السيد دي شارني قد تلفظ بأمور غريبة في هذيانه...

فقال الطبيب:

- أمور من الضروري أن تسمعها جلالتك لتقدر أهميتها.

قال هذا وأخذ برفق يد الملكة المرتعشة، فصاحت تقول:

- ولكن حذار! فلن أسير خطوة من هنا إلا إذا ثبت لي أني غير متبوعة بأحد الجواسيس.

- ثقي يا مولاتي بأنه لن يرافقك سواي. والممشى الذي سنجتازه كي نصل الى شقتي المتواضعة، يبدأ بباب، وينتهي

بباب آخر، وسوف أغلق الباب الذي سندخل منه بحيث لا يكون أحد بالقرب منّا.

فقالت الملكة:

- إني أسلم نفسي إليك يا طبيبي العزيز.

وأمسكت ماري أنطوانيت بيد الطبيب لويس وانزلقت خارج الأجنحة خافقة القلب واجفة...

وقد برَّ الطبيب بوعده، فأغلق الباب الأول الذي دخلا منه وتقدم من الثاني وألصق عليه أذنه، فسألته الملكة:

- ماذا؟ أفي هذه الغرفة مريضك؟

- لا يا مولاتي، إنه في الغرفة الثانية. أوه! لو كان في هذه الغرفة لسمعت صوته من أول الممشى. ومع ذلك، استرقي السمع من هذا الباب.

فأصغت الملكة، فسمعت همهمة وأنيناً غير واضحين، فقالت:

- إنه يئن، إنه يتألم يا دكتور.

- لا، لا، إنه لا يئن أبداً. إنه يتكلم جيداً ... استعدي، سوف أفتح هذا الباب.

فصاحت الملكة وهي ترتدُّ الى الوراء:

- ولكني لا أريد الدخول إلى قربه.

فقال لها الطبيب:

– لن أقترح عليك ذلك يا مولاتي، فقط ستلجين الغرفة الاولى، ومنها ستسمعين كل ما يقوله الجريح من دون خوف، ومن دون أن يراك أو ترينه.

فدمدمت الملكة قائلة:

– إن كل هذه الألغاز، وكل هذه التمهيدات، تخيفني!

فأجابها الطبيب:

– ماذا ستقولين إذن، عندما تسمعين!

ودخل الى غرفة شارني وحده، فوجده مبسوط اليدين كأنه جثة هامدة، وما زال يرتدي سرواله العسكري الذي كان الطبيب قد فكَّ زرداته، كما أن ساقيه الدقيقتين العصبيتين كانتا مكسوتين بجوربين من الحرير. فما أن شاهد الطبيب مقبلاً نحوه، حتى أخذ يحاول رفع رأسه الثقيل كالرصاص على المخدة، وأخذ العرق البارد يتصبب من جبهته ويبلل خصلات شعره المحلول على صدغيه.

لقد كان شارني في تلك الساعة مجرد فكرة وعاطفة، مجرد مشعل يشعّ نوره من عقله لينعكس على جسده المنهوك.

ولم نشبه شارني عبثاً بالمشعل. فهذا المشعل هو الوحيد الذي بقي يعمل فيه بشكل مدهش، ويلقي الضوء على أدق

التفاصيل التي لا تستطيع المخيلة وحدها أن تترجمها الى قصائد طويلة كما ترجمها مشعل عقله.

لقد كان شارني يروي على نفسه قصة لقائه في العربة بتلك «السيدة الألمانية» التي رافقها من باريس إلى فرساي... وكان يردد بصورة دائمة:

- ألمانية!.. ألمانية!..

فقال الطبيب:

- نعم ألمانية وعلى طريق فرساي، نحن نعرف ذلك.

فصاح شارني فجأة:

- إنها ملكة فرنسا!...

فقال الطبيب لويس وهو ينظر الى غرفة الملكة:

- إيه! لا شيء سوى ذلك. فماذا تقولين يا مولاتي؟

ثم دمدم شارني قائلاً:

- إنه لفظيع أن يحب الانسان امرأة ملاكاً! أن يحبها بجنون، أن يهبها حياته بدون أي مقابل، وأن لا يرى فيها إذا ما اقترب منها، سوى ملكة ترفل بالمخمل وتتحلى بالذهب والماس، سوى قطعة معدن أو قماش لا قلب لها!

فقال الطبيب وهو يطلق ضحكة مغتصبة:

- أوه!

لكن شارني أكمل وكأن أحداً لم يقاطعه:

«سأبقى أحبها تلك المرأة المتزوجة، سأبقى أحبها حباً وحشياً ينسيها كل شيء. سأبقى أحبها وأقول لها: لم يبق لدينا سوى بعض الأيام الجميلة على هذه البسيطة، فتعالي، تعالي يا معبودتي كي نرشف كؤوس الحب قبل أن يداهمنا الموت. هيّا! هيّا لنستفيد من بركات الحب».

بعد أن قال شارني هذا القول بهدوء وكأنه يتلو قصيدة غزلية، اهتاجت نفسه فجأة وصاح يقول:

«ولكن اولادها... إنها لن تترك ولديها!»

فقال الدكتور لويس وهو يمسح العرق عن جبهة الضابط الشاب... وبلهجة هي خليط من السخرية والشفقة:

– هنا تكمن العقبة الكأداء...

وأكمل شارني يقول وهو فاقد الشعور:

«الاولاد... الأولاد... يمكن خطفهم بسهولة بذيل معطف السفر. هيّا يا شارني، طالما أنك ستحمل الأم ذاتها بين ذراعيك وكأنها ريشة دُخّلة. طالما أنك سترفعها دون أن تشعر بسوى رعشة حب، باستطاعتك أيضاً أن تحمل اولاد ماري... آه!...»

وأطلق صرخة مرعبة وتابع يقول:

«أولاد الملك... إن نصف الكرة الأرضية ستهتز!..»

عند ذاك ترك الطبيب مريضه وعاد الى الملكة، فوجدها

واقفة ترتعش، وتلفها برودة شبيهة ببرودة الموت ... فأمسك يدها المرتعشة كذلك، ولم ينبس ببنت شفة ... إلى أن قالت له هي:

- أنت على حق أيها الطبيب العزيز، فما سمعته هو أكثر من هذيان، هو خطر حقيقي ...

فقال لها الطبيب:

- أصغي! أصغي يا مولاتي ...

- لا، لا أريد أن أسمع كلمة واحدة، زيادة على ما سمعته.

- لقد هدأت ثورة نفسه، ها هو يتهيأ للصلاة.

وبالفعل كان شارني قد جلس في سريره وضمّ يديه إلى بعضهما وحدّق بعينيه الواسعتين الحائرين في الفراغ، وأخذ يقول بصوت رخيم ومرتجّ:

«ماري، ماري، لقد شعرت جيداً بأنك أحببتني. أوه! لن أقول ذلك أبداً. رجلك يا ماري، قد لامست رجلي في العربة، وشعرت بأنني سأموت. يدك انزلقت على يدي ... هناك ... هناك ... لن أقول ذلك أبداً. إنه سرّ حياتي! إن دمي يسيل من جرحي يا ماري، لكن السرّ لن يخرج منه. لقد بلّل عدوي سيفه بدمي، لكنه لم يعرف إلا القليل من سري، أنا. أما سرك أنت، فلم يعرف عنه شيئاً. إذن، لا

تخافي يا ماري، ولا تصارحيني حتى بحبك لي، لأنه لا جدوى من ذلك. فأنت ستحمرين خجلاً، وليس لديك ما تقولينه لي.»

فقال الطبيب:

– أوه! أوه! إذن لم يعد ذلك مجرد حمًّى وحسب. انظري كم هو هادئ وساكن... ذلك...

فقالت الملكة بقلق:

– ذلك ماذا؟

– ذلك انجذاب روحي يا مولاتي، انجذاب تمليه ذاكرة النفس عندما تتذكر السماء.

فدمدت الملكة وهي تحاول الهرب جدُّ مضطربة:

– لقد سمعت كفاية...

فأمسك الطبيب بيدها وأوقفها بعنف وقال لها:

– مولاتي، مولاتي، ماذا تريدين أن تفعلي؟

– لا شيء... لا شيء أيها الطبيب.

– ولكن ماذا لو شاء الملك أن يرى المريض الذي يشمله برعايته؟

– آه! نعم... أوه! هنا المصيبة...

– ماذا تريديني أن أقول له؟

– لا أدري أيها الطبيب، ليست لدي أية فكرة. فهذا المشهد المريع قد أدمى فؤادي.

فقال الطبيب بصوت منخفض:

«وجعل قلبك يخفق خفقاناً شديداً ...»

فلم تجاوب الملكة، بل سحبت يدها من يد الطبيب وتوارت ...

حيث اكتشف الدكتور لويس بأن تشريح القلب أصعب من تشريح الجسد

★

أخذ الدكتور لويس ينظر الى الملكة صامتاً وهي تبتعد عنه، ثم قال في نفسه:

«في هذا العصر أسرار ليس اكتشافها من اختصاص العلم. فمن أجل البعض، عليَّ أن أتسلح بالمبضع كي أشفيه من دائه. أما البعض الآخر، أما مرضى القلوب، فهل سأستطيع شفاءهم يا ترى؟»

ثم التفت الى شارني فرأى أن سورة الغضب قد زالت عنه. فتقدم منه وأطبق عينيه المفتوحتين الزائغتين، وأخذ

يرطب صدغيه بالماء والخل، ثم رتَّب كل ما في الغرفة ترتيباً يساعد على تغيير الجو وإشاعة البهجة في نفس المريض.

وما هي دقائق، حتى لاحظ الطبيب لويس بأن الهدوء قد أخذ يرتسم على قسمات الجريح، ثم استحالت دموعه الى تنهدات متباطئة، وكلامه الساخط الذي يتفلت من بين شفتيه الى مقاطع مبهمة، فقال في نفسه:

«نعم، نعم، ليس هناك تعاطف وحسب، بل تأثيرات نفسية مكبوتة في أعماق قلبه، وقد انفجرت دفعة واحدة.»

وفجأة ارتعش الدكتور لويس واستدار نصف استدارة وأصغى بكل جوارحه، ثم دمدم قائلاً:

- إيه! من هناك؟!

فالواقع أنه سمع حركة وحفيف ثوب في طرف الممشى، فقال مخاطباً نفسه:

«من غير المعقول أن تكون الملكة قد عادت...»

ثم قام ومشى ببطء وفتح باباً ثانياً يفضي أيضاً إلى الممشى، وتطاول برأسه دون أن تصدر عنه أية نأمة، فرأى على بعد عشر خطوات منه، امرأة ترتدي الثياب الطويلة وتقف جامدة كأنها تمثال يجسد اليأس والغم الشديد.

وكان الوقت ليلاً، والضوء الخافت الموجود في الممشى ليس بمقدوره أن يضيء طرفيه. إلا أنه كانت هناك نافذة

يتسرب نور القمر منها كلما انفرجت الغيوم، فيجعل رؤية هذه المرأة ممكنة.

لذا دخل الطبيب بهدوء واجتاز الفسحة الفاصلة ما بين البابين، ثم بسرعة ومن دون ضجة، فتح الباب الذي كانت تلك المرأة تختبئ وراءه... فأطلقت المرأة لحظتذاك صرخة مخنوقة وبسطت يديها لتلتقي يدي الدكتور لويس، الذي صاح بصوت فيه من الشفقة أكثر مما فيه من التهديد، ذلك لأنه تيقَّن بأن هذا الشبح الجامد، كان يصيخ بقلبه أكثر مما كان يصيخ بأذنيه:

- من هنا؟

فأجابه صوت ناعم حزين:

- أنا يا دكتور، أنا! أندريه دي تافرني!

فصاح الطبيب:

- آه! يا إلهي! هل هي مريضة؟

فقالت أندريه:

- هي!.. من هي؟

فأجابها الطبيب، وقد شعر بأنه ارتكب حماقة:

- عفواً... ولكني رأيت الساعة امرأة تبتعد، فهل كنت أنت هذه المرأة؟

فقالت أندريه:

– آه ! نعم ، لقد جاءت امرأة قبلي إلى هنا ، أليس كذلك ؟

وقد تلفظت أندريه بهذه الكلمات بفضول حارّ ، أثبت للطبيب بما لا يقبل الشك ، أن عواطفها الملتهبة هي التي أملت عليها هذا السؤال ، فقال لها :

– يبدو لي يا ابنتي العزيزة ، أنك تخشين الإفصاح. فعن من تتكلمين؟ وماذا تريدين مني؟ صارحيني !

فأجابته أندريه بلهجة حزينة اخترقت أعماق قلبه :

– لا تحاول أن تخدعني ايها الطبيب الطيب ، يا من اعتاد أن يصارحني بالحقيقة . اعترف بأن امرأة كانت هنا الساعة . اعترف لي ، خصوصاً وإني قد رأيتها .

– إيه ! ومن قال لك بأنه لم يأت أي شخص؟

– نعم ، ولكن هذا الشخص هو امرأة ، امرأة يا دكتور .

– بدون شك ، امرأة . إلا إذا كنت من أصحاب النظرية التي تقول بأن المرأة لا تعود مرأة بعد الأربعين .

فتنشقت أندريه الهواء ملياً لأول مرة ، وقالت :

– آه ! إن المرأة التي جاءت إذن ، كانت في الأربعين من عمرها .

– عندما أقول أربعين سنة ، فهذا يعني أني قد اسقطت من أصل الحساب خمس أو ست سنوات على الأقل . فعلى المرء

أن يكون ظريفاً مع صديقاته، والسيدة دي ميزاري هي إحدى صديقاتي المفضلات.

- السيدة دي ميزاري؟

- بدون شك.

- وهل هي التي جاءت؟

- يا للشيطان! ولماذا لا أقول لك إن كانت امرأة أخرى؟

- أوه! لأن ...

- في الواقع، إن النساء كلهنَّ غامضات! ومع ذلك، وبالنسبة اليك شخصياً، كنت أعتقد بأني قد خبرتك. ولكن تبين لي، ويا للأسف، بأني لا أعرف عنك سوى ما أعرفه عن غيرك من النساء.

- أيها الطبيب العزيز!

- كفى، ولنكن واقعيين.

فتطلعت أندريه إليه بقلق، فسألها الطبيب:

- هل وجدت صحتها قد ساءت؟

- من تعني؟

- بالتأكيد، الملكة!

- الملكة!

- نعم، الملكة. ومن أجلها جاءت السيدة دي ميزاري تبحث عني منذ قليل. الملكة التي تعاني من الاختناق وخفقان

القلب... إنه مرض مؤسف أيتها الآنسة، لأنه غير قابل للشفاء. فهات وحدثيني عنها، إن كنت آتية من قبلها، ولنسرع إلى قربها.

وقام الطبيب لويس بحركة تدل على عزمه ترك المكان. لكن أندريه أوقفته برفق، وقالت له بعد أن تنفست الصعداء:

- لا أيها الطبيب العزيز. أنا لست أبداً آتية من قبل الملكة، حتى أني أجهل ما تعانيه. مسكينة الملكة! فلو أني عرفتها تتألم... عفوك أيها الطبيب، فلم أعد أعي ما أقول.

- لقد تبينت ذلك ملياً.

- لست فقط لم أعد أعي ما أقول، بل أيضاً لم أعد أعي ما أفعل!

- هدئي من روعك يا ابنتي، فأنت منحرفة الصحة.

والواقع أن أندريه قد تركت يد الطبيب، وسقطت يدها الباردة على طول جسدها، ثم سقطت هي على الأرض.

فأنهضها الطبيب، وأخذ ينشطها ويشجعها. وكانت أندريه ذات روح قوية لم تضعفها الآلام الجسدية ولا الآلام المعنوية، لذلك قامت بمجهود جبار مكّنها من السيطرة على نفسها، ثم قالت للطبيب:

- أنت تعلم أيها الطبيب بأني عصبية، وبأن الظلمة تسبب

لي هلعاً شديداً ؟ لقد أضلتني الظلمة ، وكانت السبب فيما أنا عليه .

– ولكن لماذا عرّضت نفسك لهذه الظلمة ؟ ومن أجبرك على ولوجها ، طالما أن أحداً لم يبعث بك إلى هنا ، وطالما أن لا شيء دفع بك ؟

– أنا لم أقل «لا شيء» أيها الطبيب ، بل قلت ما من أحد ...

– آه ! آه ! يظهر أن لديك حججاً دقيقة أيتها المريضة العزيزة . ولكن المكان هنا غير صالح لإبرازها . فلنذهب الى موضع آخر ، خصوصاً إذا كان سردك لهذه الحجج سيطول .

– عشر دقائق أيها الطبيب ، هذا كل ما أطلبه منك .

– لا بأس ، ولكن ليس وقوفاً ، فإن ساقيّ لم تعد تقويان على حملي . لنذهب ونقعد .

– أين تريد ؟

– على المقعد الخشبي في الممشى ، إذا شئت .

فسألته أندريه بخوف :

– وهل تعتقد بأن ما من أحد سيسمعنا هناك ، أيها الطبيب ؟

– أبداً .

فأكملت أندريه بذات اللهجة، بعد أن أشارت الى الغرفة المضاءة بضوء خافت أزرق، وعليها تسمّر بصرها:

- حتى الجريح الذي هناك؟

فقال الطبيب:

- حتى ذلك الفتى المسكين. وأضيف فأقول بأنه إذا تمكن أحد من سماعنا، فبالتأكيد لن يكون ذلك الجريح.

فضمت أندريه يديها وقالت:

- يا إلهي! إن مرضه إذن ما زال جدياً.

فقال لها الطبيب:

- الحقيقة أنه ليس كما يرام. ولكن لنتكلم عن الواقع الذي جاء بك إلى هنا. عجلي يا ابنتي، عجلي. فأنت تعلمين بأن الملكة بانتظاري.

فأطلقت أندريه تنهدة وقالت:

- حسناً أيها الطبيب، سأتكلم. إن الواقع هو...

- من؟ مسيو دي شارني؟

- نعم أيها الطبيب. وقد جئت استطلع أخباره منك.

فقابل الطبيب لويس كلام أندريه بالصمت والجمود، وأخذ يقارن بين موقف الملكة وموقفها، فثبت لديه بأن كلتا المرأتين تسيرهما عاطفة واحدة، هي عاطفة الحب العاصف.

واندريه التي كانت تجهل زيارة الملكة ولا تستطيع قراءة

أفكار الطبيب، والوقوف على ما اعتراه من حزن شفوق، فسرت صمته باللوم الصارم عليها، فانتصبت كما اعتادت أن تفعل في مثل هكذا موقف، وقطعت حبل الصمت بقولها:

- إن لتصرفي هذا مبرراً أيها الطبيب، لأن مرض السيد دي شارني سببه جرح أصابه أثناء مبارزة، والذي جرحه هو شقيقي.

فصاح الدكتور لويس:

- أخوك! إنه السيد فيليب دي تافرني من جرح السيد دي شارني؟

- بدون شك.

- أوه! ولكني كنت أجهل ذلك.

- أما الآن وقد علمت، فهلاً عذرتني لأني جئت استعلم عن حالته؟

فأجابها الطبيب الطيب القلب، وقد سرّه أن يجد فرصة لإظهار حلمه وتسامحه:

- أوه! بالواقع يا ابنتي، كنت أجهل، ولم يكن بإمكاني أن أتنبأ عن السبب الحقيقي.

وشدد على الكلمات الأخيرة بشكل أثبت فيه لأندريه، بأنه لم يوافق على تبريرها إلا مع التحفظ.

فقالت أندريه وهي تضغط بيديها الاثنين على يد مخاطبها، وتنظر اليه وجهاً لوجه:

- هيّا، هيّا، أوضح أفكارك كلها.

- ولكني أوضحتها، إذ ما الداعي للتحفظات الذهنية؟

- إن مبارزة بين نبيلين، لهو أمر عادي قد يقع مثله كل يوم.

- بالطبع. والشيء الوحيد الذي ربما يعطي أهمية لهذه المبارزة، هو الدافع اليها، إذ إن أخاك ودي شارني قد تبارزا من اجل امرأة...

- من أجل امرأة أيها الطبيب؟

- نعم. من أجلك مثلاً.

فتنهدت أندريه من أعماق قلبها وقالت:

- لا أيها الطبيب، ليس من أجلي جرح السيد دي شارني.

- فبدا على الطبيب أنه ارتاح لهذا الجواب. ولكنه شاء، بشكل أو بآخر، أن يجد تفسيراً لتنهدة أندريه، فقال لها:

- إذن فهمت. فهو أخوك الذي أرسلك للإطلاع اطلاعاً وافياً على صحة الجريح.

فصاحت اندريه:

- نعم أيها الطبيب، إنه أخي!

فنظر اليها الطبيب متفرساً، وهمهم قائلاً:

« يا لك من امرأة لا يُسبر غورها ! ولكني سأكتشف خفايا قلبك .» ثم قال بصوت مرتفع :

– حسناً إذن ، سوف أقول لك كل الحقيقة ، كما يتوجب أن أقولها لكل شخص يهمه معرفتها . فانقليها إلى أخيك ، وليتخذ التدابير اللازمة... هل تفهمين ؟

– لا أيها الطبيب . فعبارتك « ليتخذ التدابير اللازمة » ، لم أفهم المقصود منها .

– المقصود ... أن المبارزة ليست أمراً مرغوباً فيه لدى الملك . وعندما ينتج عن مبارزة وفاة شخص من الاشخاص ، فلا يعود للشفقة مكان في قلب الملك . لذلك أنصحك بأن تقنعي أخاك بالتخفي احترازاً ...

فصاحت أندريه :

– دكتور ، دكتور ، هل هذا يعني بأن مسيو دي شارني في خطر ؟

– استمعي إليّ أيتها الآنسة العزيزة . فقد وعدتك بقول الحقيقة ، وها هي : أترين هذا الفتى المسكين النائم هناك ، أو بالأحرى الذي يحشرج في هذه الغرفة ؟

فأجابت أندريه بصوت مختنق :

– نعم أيها الطبيب ، وبعد ؟...

- وبعد! إذا لم تفارقه غداً صباحاً الحمّى التي تنهشه، فإن السيد دي شارني سيصبح في عداد الأموات.

فضغطت أندريه على حنجرتها لتخنق الصرخة التي أوشكت أن تتفلت منها، وغرزت أظافرها في لحمها لتخفف، بالألم الجسدي، قليلاً من ذلك اليأس الذي كان يمزق قلبها. وقالت للطبيب كإحدى نساء اسبرطة البطلات، ومن دون أن تتيح له رؤية نتيجة صراعها الداخلي على قسمات وجهها:

- إن أخي لن يهرب. فهو قد بارز السيد دي شارني كرجل شجاع ونبيل. فإذا ناله منه بعض الأذى، فذلك في معرض الدفاع عن النفس. أما إذا مات، فالله هو الذي سيقاضيه.

فقال الطبيب في نفسه:

« يبدو أنها لم تأت من أجل نفسها، بل من أجل الملكة. إذن، لنرى إن كانت الملكة قد بلغت هذه الخفة.»

ثم سألها:

- كيف علمت الملكة بهذه المبارزة؟

فأجابت أندريه:

- الملكة؟ لا أعلم. وما همُّ الملكة من هذه المبارزة؟

- ربما كان السيد دي تافرني يروق لها.

– إني أستغرب ذلك ! فأخي رجل عنيف ، وإذا وجهت التهمة إليه ، فأنا على ثقة بأن الملكة ستدافع عنه بنفسها .

فأنحى الدكتور لويس باللائمة على نفسه لتدخله فيما لا يعنيه ، وقال مخاطباً نفسه :

«أنا لست عالماً فيزيولوجياً ، أنا لست سوى جرّاح . فما الداعي لتدخلي في نزوات النساء وأهوائهن ؟»

ثم قال مخاطباً أندريه :

– لقد عرفت أيتها الآنسة ما ترغبين معرفته ، وبات هرب السيد دي تافرني أو عدم هربه شأن يعنيك وحدك . أما بالنسبة لي ، فواجبي ينحصر في محاولة إنقاذ الجريح ... هذه الليلة . وإلا ، فخلال أربع وعشرين ساعة سينتزعه الموت من بين يديَّ . وداعاً !

ثم أمسك بالباب وأخذ يغلقه بتؤدة ، ولكن بتصميم . فخرجت أندريه وهي تفرك جبهتها بأصابع يدها المتشنجة ...

خرجت لتجد نفسها وحيدة أمام الحقيقة المرعبة ، فتراءى لها شبح الموت المخيم على تلك الغرفة ، والذي حدثها عنه ببرودة الدكتور لويس ، تراءى لها يسير في ذلك الممشى المظلم مرتدياً كفناً أبيض ... فأسرعت بالهرب الى غرفتها وأقفلت بابها بالمفتاح جيداً . ثم ارتمت راكعة على السجادة

قرب سريرها، وصرخت من أعماق قلبها فيما كانت الدموع المحرقة تكرج على خديها:

«يا إلهي! إنك لست ظالماً ولا قاسياً. يا إلهي! باستطاعتك عمل كل شيء، فلا تدعه يموت هذا الشاب الذي أحب في هذه الدنيا ولم يصنع الشر. نحن البشر المساكين يا إلهي، لا نؤمن إيماناً حقيقياً بمراحمك، إلا في المناسبات التي نتعرض فيها لسخطك. ولكن أنا، أنا... التي تتوسل اليك، لقد عانيت ما فيه الكفاية على هذه البسيطة. لقد تعذبت ما فيه الكفاية من دون سبب ارتكبته. ومع ذلك، ما اشتكيت مرة، حتى لك، ولا شككت بك مرة. فإذا تضرعت إليك اليوم، إذا التمست منك اليوم، إذا طلبت منك إنقاذ حياة شاب... ورفضت طلبي، سوف أقول يا إلهي، سوف أقول بأنك قد أسرفت في استعمال قوتك ضدي، وبأنك إله الغضب والانتقام غير المحق! سوف أقول... أوه! عفوك يا إلهي! إني أجدّف، إني أجدّف... عفوك! عفوك! إنك لا تظلمني ولا تتحامل عليّ، بل أنت إله الرحمة والرأفة.»

وهنا شعرت أندريه بأن بصرها قد زاغ، وبأن عضلاتها قد تراخت... ثم انقلبت على الأرض مشعثة الشعر، وغدت كأنها جثة بلا حياة!

وعندما استفاقت من غيبوبتها، واستعادت مخيلتها استعراض الآلام والأشباح، دمدمت بلهجة كئيبة:

«يا إلهي! لقد عاقبتني ولم تكن رؤوفاً. إني أحبه... أوه! نعم، إني أحبه، وهذا يكفي، أليس كذلك؟ والآن، هل ستحرمني منه؟»

هذيان

★

لا شك بأن الله قد سمع توسلات أندريه، فنوبة الحمَّى لم تقضِ على السيد دي شارني.

ففي اليوم التالي، وبينما كانت أندريه تستطلع بنهم أخبار الجريح، كان شارني، بفضل العناية التي وفَّرها له الدكتور لويس، يقطع مرحلة الخطر ويبدأ مرحلة الشفاء.

وبعد انقضاء ثمانية أيام، اطمأنت خلالها أندريه كل الاطمئنان، رأى الدكتور لويس الواقف على كل كلمة فاه بها مريضه أثناء نوبات الحمَّى، رأى من الأنسب نقله الى مكان بعيد، خشية أن يعاوده الهذيان، وكي يقضي فترة نقاهة ضرورية تعيد إليه نشاطه.

لكن شارني ثار على المحاولات الأولى التي جرت لنقله، إذ رفع عينيه المتمعتين بالغضب نحو الطبيب، وقال له: «إني لدى الملك، وليس لأحد الحق بأن يطرد إنساناً منحه الملك ملاذاً.»

ولم يكن الدكتور جلوداً مع مرضاه في هكذا حالات، لذا أدخل بلا قيد ولا شرط، أربعة من الخدم وأمرهم بحمل الجريح. لكن شارني تشبَّث بخشب السرير، وضرب بقساوة أحد هؤلاء الخدم وهدَّد الآخرين.

فحاول الدكتور لويس إقناعه بالمنطق والحسنى، فلقي منه بعض التجاوب في بادئ الأمر. ولكنه عاد فقاوم بشدة عندما ألحَّ الخدم على حمله، فنكأ جرحه، وأفقده سيلان الدم منه مجدداً صوابه، وعاودته نوبة الهذيان بشكل أشدّ وأعنف من الأول، فأخذ يصرخ ويقول:

«يريدون إبعادي كي يحرموني من رؤيا أحلامي، ولكن عبثاً يحاولون، فهذه الرؤيا تبسم لي دائماً... إنها تحبني، وستعود إلي رغم أنف الطبيب، فتلك التي تحبني ذات منزلة رفيعة لا تخشى ممانعة أي شخص.»

أمام هذه الكلمات، وقف الطبيب مرتعشاً، ثم أسرع فصرف الخدم وانبرى للعناية بالجرح النازف، وقد قرر الاهتمام بالعقل بعد الاهتمام بالجسد. ولكنه بعد أن استنفد

علمه ولم يتمكن من إيقاف الهذيان ، بدأ يرتعب ، لعلمه بأن هذا الخلل العقلي سيودي بمريضه الى الجنون .

وهكذا تفاقم الوضع في يوم واحد ، مما جعل الدكتور لويس يفكر بالعقاقير الفعالة والناجعة ، لأن المريض لن يفقد صوابه وحده ، بل سيفقد صواب الملكة أيضاً .

ولما أعيته الوسيلة واشتد جنون شارني ، وقع في حيرة ما بعدها حيرة ، فالدكتور لويس لا يمكنه الاستناد الى سلطة الملك ، لأن المريض أيضاً يستند الى هذه السلطة . لذا قرر الذهاب الى الملكة ومكاشفتها في كل شيء . وهكذا اغتنم فرصة رقاد شارني ، بعد أن أعياه الصراخ والتصورات التي كان يرويها ، ومناداته لحبيبته الموهومة ، وخرج قاصداً جناح الملكة .

فوجد ماري انطوانيت مشرقة الوجه وساهمة في آن معاً ... لأنها كانت تنتظر حضور الطبيب ليقدم لها تقريراً مطمئناً عن صحة مريضه .

إلا أن جواب الطبيب عن سؤالها الأول ، قد فاجأها وأذهلها ... إذ إنه صارحها بدون لفّ ولا دوران ، بأن المريض قد ساءت حالته جداً . فصاحت تقول :

– كيف ؟! البارحة كانت حالته آخذة بالتحسن !

– لا يا مولاتي ، إن حالته تتدهور .

- ولكني أرسلت السيدة دي ميزاري اليك ، وعادت إلي بنشرة طبية جيدة !

- لقد كنت أخدع نفسي وأخدعك .

- طالما أن حالته كما تقول ، فلماذا حجبت الحقيقة عني أيها الطبيب ؟

- مولاتي ...

- وإن كان يتحسن ، فلماذا تجعلني أقلق قلقاً طبيعياً جداً ، بما أن الأمر يتعلق بأحد خدم الملك المخلصين ؟! أجبني بنعم أو بلا ، وبكل وضوح : ماذا عن مرضه ؟ ماذا عن المريض ؟ هل هناك خطر على حياته ؟

- الخطر عليه ، أقلّ من الخطر على غيره يا مولاتي !

فقالت الملكة وقد نفد صبرها :

- إنك تحدثني بالألغاز أيها الطبيب ! أوضح ما تريد قوله .

- إنه أمر عويص يا مولاتي ، ويكفي أن تعلمي بأن مرض الكونت دي شارني ، هو مرض معنويّ صرف . فجرحه ليس سوى ملحق في عذاباته . إنه حجة للهذيان ليس إلا !..

- مرض معنوي ! مرض دي شارني !

- نعم يا مولاتي ، وإني أدعو معنوياً ، كل مرض لا يتحلل بواسطة المبضع . واعفني من قول أكثر من ذلك يا صاحبة الجلالة .

فقالت الملكة ملحة :

– هل تريد القول بأن الكونت ...

فقال لها الطبيب :

– هل تريدين أن أوضح أكثر ؟

– بدون شك ، أوضح !

– حسناً ! إن الكونت عاشق يا مولاتي ، وهذا كل ما أريد قوله . لقد طلبت جلالتك أن أوضح ، وها أنا قد أوضحت .

فحركت الملكة كتفيها قليلاً ، مما يعني : شيء جميل !

وتابع الطبيب يقول :

– فهل تعتقدين بأنه يمكنني شفاء هكذا جرح يا مولاتي ؟ لا ، فمرضه وهذيانه سيوصلانه الى تسلط الفكرة القاتلة ، وعندئذ ...

– عندئذ ماذا أيها الطبيب ؟

– عندئذ ستقضين على هذا الشاب يا مولاتي .

– سأقضي على هذا الشاب !... عجيب أمرك أيها الطبيب ! فهل أنا سبب جنونه ؟

– بدون شك .

– إنك تثيرني أيها الطبيب .

فهز الطبيب الصلب الإرادة كتفيه ، وتابع يقول :

– إذا لم تكوني سبب جنونه في الوقت الحاضر، فستكونين هذا السبب فيما بعد.

فقالت الملكة وقد سكنت قليلاً:

– طالما أن هذا هو اعتقادك، فانصحني إذن بما يجب عمله.

– أتعنين بأن أعطيك وصفة؟

– إذا شئت.

– هاكها يا مولاتي: إن هذا الشاب، سواء شفي بواسطة البلسم أو السيف، فالمرأة التي يتلفظ باسمها كل لحظة، هي القادرة على قتله أو شفائه...

فقاطعته الملكة وقد استعادت صبرها:

– إنك تطنب في المغالاة. قتل... شفاء... كلمتان كبيرتان! فهل تستطيع القساوة أن تقتل رجلاً؟ وهل تستطيع الابتسامة شفاء مجنون مسكين؟

فقال الطبيب:

– إن كنت أنت أيضاً، تشكّين في ذلك، فلا يعود لي من عمل سوى أن أقدم فائق احتراماتي لجلالتك.

– ولكن، هيّا وقل، هل الأمر يتعلق بي أولاً؟

– لست أعلم، ولا أريد أن أعلم... فالمطلوب مني فقط أن أكرر على مسمعك بأن السيد دي شارني هو مجنون

مدرك، وأن بالإمكان شفاءه ورده إلى جادة الصواب. فإذا شئت أن تريحي هذا القصر من الصراخ، ومن التصورات والفضائح، فما عليك إلا أن تتخذي قراراً.

- أي قرار؟

- آه! أي قرار؟ إن عملي مقصور على إعطاء الوصفات. أما النصائح، فليست من اختصاصي.

- افترض بأنني فهمتك أيها الطبيب. فما هي الطريقة الفضلى لمعالجة الموقف بما يضمن شفاء السيد دي شارني، ويجنب القصر الصراخ والتصورات والفضائح؟

- هناك طريقة واحدة لا إثنتين أمام ماري انطوانيت، أمام ملكة فرنسا... هي معالجة داء السيد دي شارني بالدواء الذي بات معروفاً لديها.

- لقد تكلمت بصراحة أيها الطبيب، وفهمتك جيداً... فأنت تريد من المرأة التي أفقدت دي شارني صوابه، أن ترد إليه هذا الصواب، إما بالتراضي وإما بالقوة.

- تماماً يا مولاتي.

- ويجب عليها أن تتحلى بالشجاعة، فتذهب اليه وتقتلع تصوراته، أي الأفعى القاضمة التي تعيش متلوية في أعماق نفسه.

– نعم يا صاحبة الجلاله . فهيّا يا مولاتي ، هيّا !
فتنهدت الملكة ولحقت بالطبيب الشيخ ...

★

سارت الملكة في الممشى الذي يوصل الى غرفة شارني ، وهي مرتدية ثياب الصباح ومتزينة بأناقة . وكان الطبيب قد طلب اليها ألا تتراجع أو تحاول التراجع ، بل أن تنفذ القرار الذي اتخذته بشجاعة وبدون تردد .

لذا عندما وصلت الى باب الغرفة الاولى التي تفضي الى غرفة الجريح ، لم تتردد في فتحها. ولكن ما أن فتحتها ، حتى تسمرت في مكانها ... فلقد وقع بصرها على امرأة تقف أمام باب غرفة شارني وقد التفت بعباءتها ... فعندما أبصرت الملكة ، انتصبت في محاولة لإخفاء ما اعتراها . لكن مظهرها المضطرب ، ويديها المرتعشتين ، قد فضحا حقيقة موقفها . فصاحت بها الملكة فجأة !

– أندريه !!

فأجابت أندريه وقد شحب لونها وتضاعف اضطرابها :

– أنا !.. أنا !... نعم ، يا صاحبة الجلالة .

فقالت لها الملكة :

– لقد بحثت عنك في كل مكان ، فأين كنت ؟

وكانت لهجة الملكة لا تعكس طيبة قلبها المعروفة هذه المرة، بل كان كلامها وكأنه استهلالة استجواب، كأنه الدليل على الشك بمن كانت موضع ثقتها.

فارتابت أندريه، وزادها ارتياباً كون مسعاها الطائش لم يحقق لها الحصول على مفتاح عواطفها الملتهبة. ومع ذلك، قررت بأنفة أن تكذب للمرة الثانية. فأجابت ملكتها قائلة:

- كنت هنا، كما ترين.

- ولكن، ما الذي جاء بك إلى هنا؟

فأجابت أندريه قائلة:

- مولاتي، لقد قالوا لي بأن جلالتك تبحث عني، فجئت إليك.

فقالت الملكة:

- وكيف اكتشفت مكاني؟

- الأمر بسيط يا مولاتي. فقد شاهدتك تجتازين المساكن الصغيرة برفقة الدكتور لويس، فلم يعد هناك مجال للإعتقاد إلا بأنكما قاصدان هذا المكان.

فبقيت الملكة مرتابة، ولكنها قالت بدون قساوة:

- تنبؤ موفق! تنبؤ موفق!

فقامت أندريه بآخر مجهود، وقالت وهي تبتسم:

- كان من المفترض فيك يا مولاتي، إن كان في نيتك

التخفي، أن لا تظهري في الأروقة المكشوفة كما فعلت الساعة لتأتي الى هنا. فعندما تجتاز الملكة الشرفة، ستراها الآنسة دي تافرني من شقتها، ولا يعود صعباً عليها أن تلحق بها أو تسبقها.

فقالت الملكة في نفسها:

«إنها على حق، بل مئة مرة على حق. فعدم تبصري في الأمور، هي عادة سيئة اعتدتها.»

كانت الملكة وهي تقول هذا القول، تشعر بأنها بحاجة الى الرأفة والتسامح، ربما لأنها بحاجة الى من تأتمنها على أسرارها.

لذا نسيت ماري انطوانيت بسرعة الانطباع الذي تكون لديها من جراء مشاهدتها الآنسة دي تافرني أمام باب غرفة شارني، فأمسكت بيدها وأدارت مفتاح قفل الباب، وولجت وحدها غرفة المريض بسرعة متناهية، بينما بقي الطبيب واندريه في الخارج.

وما كادت الملكة تتوارى عن عيني أندريه، حتى رفعت هذه الأخيرة رأسها نحو السماء، وبسطت يديها مفعمة بالألم والغضب، فكانت في حركتها هذه كأنها تعبر عن لعنتها الخانقة.

فتأبط الطبيب الطيب القلب ذراعها، وسار وإياها في الممشى وهو يسألها:

– هل تعتقدين بأنها ستنجح؟

فقالت أندريه: يا إلهي!.. تنجح بماذا؟

– بنقل هذا المجنون المسكين إلى مكان آخر. لأنه إن بقي هنا سيموت حتماً، مُهما قصرت ملازمة الحمَّى له.

فصاحت أندريه:

– إذن، سيشفى إن هو نقل إلى مكان آخر؟

فنظر إليها الطبيب مندهشاً وقلقاً، وأجابها:

– أعتقد ذلك.

فقالت تلك الفتاة المسكينة:

– أوه! أي نجاح سيكون إذن!

نقاهة

★

فيما كانت الملكة تسير منتصبة القامة باتجاه المقعد المريح النائم عليه شارني بكامل ثيابه بعد ليلة من التهيج المرعب، كان هو يرفع رأسه بدافع الضجة التي أثارتها البغال في زرائبها، وإذ به يدمدم وهو يحاول أن ينهض:

– الملكة !...

فأسرعت ماري انطوانيت إلى الإجابة :

– نعم ، الملكة يا سيدي ، الملكة الواقفة على ما تعمله لتفقد صوابك وحياتك . الملكة التي تسيء إليها في تصوراتك وأحلامك . الملكة التي تهينها وأنت يقظ . الملكة الحريصة على شرفها وعلى سلامتك ، وقد جاءت اليك من أجل ذلك يا سيدي ، فيتوجب عليك أن تستقبلها غير هذا الاستقبال .

فنهض شارني إذ ذاك مرتعشاً ، ولِهاً . ثم انزلق ساجداً على ركبتيه ، مسحوقاً من الألم الجسدي والألم المعنوي ، وانحنى كالمجرم امام ماري انطوانيت ، ولم يعد يريد ، ولا بمقدوره ، أن ينهض ...

فأكملت الملكة تقول ، وقد تأثرت من هذا الاحترام الصامت :

– أمن المعقول ، أن يكون هناك نبيل اشتهر فيما مضى بأنه من أوفى الأوفياء ، ومع ذلك تصرّف كعدو بسمعة امرأة ؟! أقول هذا ، لأنه عند لقائنا الأول يا مسيو دي شارني ، لم تكن الملكة التي رأيتها وتعاطفت معها ، بل كانت امرأة ، وكان عليك ان لا تنسى ذلك أبداً .

فحاول شارني ، وقد أسره هذا الكلام النابع من قلب

مخاطبته، أن يتلفظ بكلمة يدافع بها عن نفسه، لكن ماري انطوانيت ضيَّعت عليه الوقت بقولها :

- ماذا سيقول أعدائي، إذا كنت لهم المثل في الخيانة؟

فتمتم شارني قائلاً :

- الخيانة!...

- هل تريد أن تختار يا سيدي؟ فأنت إما أنك أحمق، وفي هذه الحال سأنزع منك وسيلة الشر. وإما أنك خائن تتوجب علي معاقبتك.

فصاح شارني :

- مولاتي، لا تقولي بأني خائن. فهذه التهمة على شفاه الملوك تسبق حكم الإعدام، وفي فم المرأة عار وشنار. فاقتليني أيتها الملكة، واعفي عني أيتها المرأة.

فقالت الملكة بصوت لا يعبر عن حقيقة مشاعرها :

- هل أنت في كامل إحساسك يا مسيو دي شارني؟

- نعم يا مولاتي.

- هل أنت مرتاح الضمير في تجنيك علي، وفي الجريمة التي ارتكبتها ... بحق الملك؟

فدمدم ذلك المنكود الحظ:

- يا إلهي! يا إلهي!

- لأنكم نسيتم بسهولة، أنتم معشر النبلاء، أن الملك هو

زوج تلك المرأة التي تهينونها كلما رفعتم أعينكم صوبها ، وأنه والد ولدي البكر الذي سيكون سيدكم في المستقبل ، كما نسيتم أن الملك هو رجل أكبر وأفضل منكم كلكم ، رجل أُجلُّه وأحبه .

فتأوه شارني ودمدم قائلاً «آه !» ثم اضطر كي يقف على قدميه ، أن يستند بإحدى يديه على أرضية الغرفة .

فاخترقت صرخته الصماء قلب الملكة ، وقرأت في نظرات الشاب الخامدة بأنه سيقضي عليه ، إن هي لم تسحب بسرعة الحربة التي أغمدتها في جرحه .

فأخذتها الشفقة عليه ، وارتابت من شحوبه ووهنه ، وأوشكت أن تطلب النجدة .

لكنها فكرت بأن الطبيب وأندريه ، سيفسران تفسيراً خاطئاً غشيان المريض هذا ، فعادت وأنهضته بيديها ، وقالت له :

– لنتكلم ، أنا بصفتي ملكة ، وأنت بصفتك رجل . إن الدكتور لويس قد حاول شفاءك ، إلا أن جرحك الذي ليس شيئاً يذكر ، قد زاد سوءاً بسبب شططك وشذوذ عقلك . فمتى سيشفى هذا الجرح ؟ متى ستتخلى عن التمثيل الجنوني المشين الذي أقلق هذا الطبيب الطيب ؟ متى ستخرج من هذا القصر ؟

فقال شارني بصوت متلجلج :

– مولاتي ، إن جلالتك تطردني ... فها أنا ذاهب ، أنا ذاهب !

وقام بحركة جدّ عنيفة قصد الخروج ، لكن التوازن خانه ، فترنح ... وسقط بين ذراعي الملكة التي سدت عليه الطريق ...

وما كاد يشعر باحتكاك جسمه بصدرها الملتهب الذي سنده ... ما كاد ينثني تحت ذراعها الذي احتضنه بلا تعمُّد ... حتى فقد صوابه تماماً ، وفتح فمه ليطلق منه نفثة مضنية ، لم تكن أبداً كلاماً ، ولا تجرأ أن يجعلها قبلة ...

والملكة ذاتها ، التي ألهبها هذا الاحتكاك ، وأثار هذا الغشيان شفقتها ، لم يبق لديها متسع من الوقت لدفع الجسد الجامد الى مقعده . فقد شاءت الهرب ، لكن رأس شارني الذي كان متدلياً إلى الوراء ، قد ارتطم بخشب المقعد العالي ، فأخذت خيوط حمراء تلوّن شفتيه ، وسقطت من جبهته نقطة وردية اللون فاترة على يد ماري انطوانيت ... فدمدم شارني قائلاً :

– أوه ! لا بأس ، لا بأس ، سوف أموت قتيل هواك !

فنسيت الملكة كل شيء ، وعادت فاحتضنت شارني بذراعيها ، وشدَّت رأسه الميت الى صدرها ، ووضعت يدها

الباردة على قلبه... فحقق الحب أعجوبة الانتصار على الموت، وفتح شارني عينيه، وزالت الرؤيا... وارتعبت ماري انطوانيت المرأة، من الذكرى التي ستخلّفها في ذلك المكان الذي اعتقدت بأن كلمتها الأخيرة فيه ستكون، كلمة وداع وحسب. فخطت ثلاث خطوات باتجاه الباب، وبسرعة بالكاد استطاع معها شارني ان يمسك بطرف ثوبها ويصيح:

– مولاتي، باسم الإجلال الذي أكنّه لك، والذي يفوق إجلالي للخالق...

فقالت الملكة:

– الوداع! الوداع!

– مولاتي! أوه! عفوك.

– لقد عفوت عنك يا مسيو دي شارني.

– مولاتي، نظرة أخيرة!

فقالت الملكة وهي ترتعش من التأثر والغضب:

– مسو دي شارني، إذا لم تكن أسوأ الرجال، هذا المساء، فستكون غداً ميتاً أو خارج هذا القصر.

وعندما تأمر الملكة بهذه الصورة، تكون وكأنها تتوسل. لذا ضمَّ شارني يديه بنشوة، وزحف على ركبتيه حتى قدمي ماري انطوانيت. لكن ماري انطوانيت كانت قد فتحت الباب وهربت مسرعة تحاشياً للخطر.

فرأت أندريه، التي كانت عيناها تنظران بشهوة شديدة الى هذا الباب منذ بدء المقابلة، رأت شارني ساجداً، تشع عيناه ببريق الأمل والخيلاء، والملكة خائرة القوى، مطرقة الرأس، خامدة النظرات. فلم تحن رأسها امام الملكة العائدة، لأنها كانت يائسة مطعونة القلب، ومنتفخة بالحقد والاحتقار. فقد شعرت بأن الله قد وهب هذه المرأة المزاحمة لقلبها كثيراً، العرش والجمال، ووهبها هذه النصف ساعة من الحب مع شارني.

أما الدكتور لويس، الذي كان همه الأكبر أن تنجح المفاوضات بين الملكة ومريضه، فقد بادرها قائلاً:

- ماذا يا مولاتي؟

لكن الملكة لم تجاوب. لأنها كانت بحاجة الى دقيقة، على الأقل، كي تستعيد روعها وصوتها الذي خنقته ضربات قلبها. فعاد الطبيب وكرر سؤاله قائلاً:

- ماذا سيفعل يا مولاتي؟

فقالت له الملكة: سوف يذهب.

ومن دون أن تلاحظ اندريه التي كانت متجهمة، ولويس الذي كان يفرك يديه، اجتازت الملكة الممشى إلى الرواق بخطوات سريعة، والتفت آلياً بمعطفها الغنيّ بالدانتيلا، وعادت إلى جناحها.

وبدورها أندريه، صافحت الطبيب الذي أسرع إلى مريضه، وعادت الى مسكنها بخطوات بطيئة، خافضة الرأس، شاردة الفكر، ساهمة النظرات.

وما اهتمت ولا فكرت حتى بتلقي أوامر الملكة، لأن الملكة بالنسبة اليها، لم تعد سوى مزاحمة.

أما شارني، فقد بدا للدكتور لويس وكأنه لم يعد ذلك الانسان الذي كانه في العشية. لقد بدا في غاية النشاط والقوة والجسارة، وأخذ يطرح عليه الأسئلة الملحة والحازمة حول موضوع نقاهته، وحول النظام الذي سيتمشى عليه، وحول وسائل النقل، مما جعل الدكتور لويس يعتقد بأنه قد أُصيب بانتكاسة خطيرة ناجمة عن نوع آخر من الهوس العقلي.

لكن مخاوف الطبيب تبددت بسرعة عندما رأى شارني يستعيد هدوءه، وينبري يشرح له التغير المفاجئ الذي طرأ على ما كان عازماً عليه. وهذا ما قاله لطبيبه:

«إن الملكة، بتأنيبها لي، قد شفتني أكثر من علمك وعقاقيرك أيها الطبيب العزيز. فقد جعلتني أحسُّ بكرامتي، أي أنها روضتني كما يروضون الجواد بالشكيمة.»

فدمدم الطبيب:

- نعمًا حدث، نعمًا حدث.

– نعم، فقد تذكّرت إسبانياً – والأسبان متباهون بما فيه الكفاية – قال لي يوماً كي يبرهن عن قوة إرادته، بأنه عندما جُرح في إحدى المبارزات، لم يحتج لأكثر من إرادته، حتى يمنع سيلان الدم من جرحه، وهكذا خيّب آمال خصمه بأن ترى عيناه دمه. وأراني اليوم شبيهاً بذلك الاسباني الذي هزئت منه في الماضي. فإن عاودتني الحمى والهذيان اللذين أنبتني عليهما، سوف أطردهما وأقول معاهداً نفسي: «أيتها الحمى، أيها الهذيان، إنكما ستتواريان إلى الأبد.»

فقال الطبيب بوقار:

– لدينا أمثلة على هذه الظاهرة. مع ذلك، إسمح لي أن أهنئك، فها أنت قد شفيت معنوياً، أليس كذلك؟

– أوه! نعم.

– حسناً، ولن تتأخر حتى تتضح لك الصلة ما بين المادة والروح. فهي نظرية علمية جميلة سوف أضعها في كتاب إذا سمح لي الوقت. سليم الروح أصبحت، إذن ستصبح سليم الجسم في خلال ثمانية أيام.

– شكراً يا طبيبي العزيز.

– والآن، متى ستذهب لتبدأ حياتك الجديدة؟

– عندما تشاء، فأنا مستعد للذهاب فوراً.

– لننتظر حتى المساء، ففي العجلة الندامة. هل ستذهب بعيداً؟

– إلى أقاصي الدنيا، إذا لزم الأمر.

– دفعة واحدة! لا، ذلك بعيد جداً. لنكتف بفرساي في بادئ الأمر، ألا توافقني؟ فليس من الصواب ان تهجر فرساي قبل ان يشفى جرحك.

فقال دي شارني وكأن كلام الطبيب وأسلوبه قد أيقظاه من غفلته:

– هذا صحيح أيها الطبيب، فأنا لي مسكن في فرساي، لكن نفسي تتوق إلى القيام بجولة في أراضيّ.

– ولكن أراضيك ليست في طرف الدنيا.

– إنها على تخوم «بيكاردي»، على بعد خمسة عشر أو ثمانية عشر فرسخاً من هنا.

– حسناً، فسوف تذهب إليها بعد أن تتعافى تماماً.

فضغط شارني على يد الطبيب مصافحاً وشاكراً له حسن عنايته به.

وفي المساء، حمل الخدم الأربعة الذين سبق لشارني أن رفضهم وقاومهم، حملوا شارني الى العربة التي كانت بانتظاره في المكان المخصص لعامة الشعب.

وكان الملك في تلك الساعة يتناول عشاءه استعداداً للنوم،

بعد أن أمضى النهار بطوله في الصيد ، لذلك قلق شارني قليلاً لاضطراره الى ترك القصر من دون استئذانه ، إلا أن الدكتور لويس طيب خاطره ووعده بايجاد عذر يقدمه للملك عن رحيله المفاجئ والاضطراري .

وفيما كان شارني في طريقه الى العربة ، ألقى على نوافذ جناح الملكة نظرة فيها من الألم بقدر ما فيها من الرضى . وبقيت هذه النظرة محجوبة عن أعين الخدم ، لأن المشعل الذي كان يحمله أحدهم لم يكن باستطاعة نوره الشحيح أن يضيء سوى الطريق .

ولم يلتق شارني وهو في الطريق الى العربة التي ستقله بعيداً عن المرأة التي أحبها حتى الجنون ، سوى بعض الضباط من أصدقائه ، الذين جاؤوا في الوقت المناسب ليستدركوا إضفاء طابع الهرب على سفره .

أما نوافذ غرفة الملكة التي تعلقت عينا شارني بها في تلك الليلة المظلمة ، فقد كانت تتألق بالأنوار ، لأن ماري انطوانيت كانت تتألم قليلاً في تلك الليلة ، لذلك استقبلت سيدات البلاط في غرفة نومها .

هكذا كانت نوافذ غرفة الملكة . أما نوافذ غرفة أندريه ، فقد كانت مظلمة كئيبة ، تخفي وراء ستائرها الدمقسية امرأة

مهمومة قلقة، تلاحق بعينيها الحزينتين كل حركة من حركات المريض وحرسه.

وأخيراً انطلقت العربة، ولكن بتؤدة أتاحت لأندريه أن تسمع وقع كل حافر من حوافر جيادها على البلاط المرنّ، فهمهمت قائلة:

«إذا لم يكن لي، فهو لن يكون لأحد على الأقل.»

أما ما قاله الطبيب لويس وهو يهمّ بالدخول إلى شقته:

«إذا رغب مرة جديدة أن يموت، فعلى الأقل لن يموت عندي ولا بين يديّ. لتذهب إلى الشيطان أمراض الروح! فأنا لست طبيب انطيوشوس وستراتونيس[1] كي أشفي هكذا أمراض.»

وصل شارني سالماً معافى الى منزله، وقد عاده في اليوم التالي الطبيب لويس، وكانت هذه الزيارة هي الاخيرة اليه، فوجده في أحسن حال. وفي ذات اليوم، استقبل شارني خاله السيد دي سيفران، والسيد دي لافاييت. كذلك زاره

---

(١) انطيوشوس هو ابن سيليكوس ملك سوريا وزوج الاميرة اليونانية ستراتونيس، وقد هام هياما جنونيّا بزوجة أبيه، فانتابه مرض خطير بسبب هذا الهيام. وعندما اكتشف الطبيب أرازيسترات سر مرضه، صارح والده بأن الوسيلة الوحيدة لشفائه، هي جمعه بـ «ستراتونيس». فرضي الملك سيليكوس أن يفسح زواجه لإنقاذ ولده!

موفد من قبل الملك. وبعد ذلك لم يعد بحاجة الى اهتمام أحد به.

فقد أخذ يسير متنزهاً في حديقة منزله، وبعد مضيّ ثمانية أيام أصبح بإمكانه اعتلاء صهوة جواده بمظهر هادئ وساكن، بعد ان استعاد كامل قواه.

فذهب واستأذن الملك، وحزم حقائبه واستقل عربة وسافر الى مدينة «فيلّا - كوتّريه»، حيث استقر في قصر بورسون الواقع على بعد فرسخ واحد من تلك المدينة الصغيرة.

أما الملكة التي لم يستطع أن يستأذنها لأنها كانت مريضة عشية سفره ولا تستقبل أحداً، فقد كلّف خاله السيد دي سيفران بأن يقدم لها، بالنيابة عنه، وافر احتراماته...

قلبان داميان

★

في صباح اليوم التالي لليوم الذي فاجأت فيه أندريه الملكة فيما كانت عليه، وشارني راكعاً أمامها، دخلت الآنسة دي تافرني حسب عادتها إلى غرفة ماري انطوانيت ساعة زينتها المتواضعة، أي قبل القداس بقليل وقبل أن تستقبل الملكة أحداً

سواها، فوجدتها تقرأ بطاقة من السيدة دي لاموت وهي مشرقة الوجه باسمة.

ورغم أن أندريه كانت شاحبة الوجه أكثر من العشية، وفي مشيتها ومظهرها ما يدل دلالة واضحة على الألم الذي يعتمل في نفسها، فإن الملكة، التي كانت ساهمة شاردة، لم تنتبه لمشيتها البطيئة، وعينيها المحمرتين، وبياض عينيها وصدغيها الكامد، وحتى لم تلتفت نحوها إلا بمقدار ما يكفي للرد على تحيتها بقولها:

«صباح الخير يا صغيرتي!»

وانتظرت أندريه أن تتيح لها الملكة الفرصة لتتكلم. انتظرت وهي واثقة بأن صمتها وسكينتها سيلفتان نظر ماري انطوانيت. إلا أن ما حدث، هو أن الملكة عندما استدارت ولمحت وجه أندريه وما يعبّر عنه من ألم وكآبة، سألتها وكأنها قد تفاجأت بأمر تجهله:

– يا إلهي! ما بك يا أندريه؟ هل أصابتك مصيبة؟

فأجابت المرأة الشابة:

– نعم يا مولاتي، ومصيبة كبيرة.

– ما هي هذه المصيبة؟

– سوف أترك جلالتك.

– تتركينني!.. هل سترحلين؟

- نعم يا مولاتي.

- إلى أين؟ وما هو الداعي لرحيلك المفاجئ؟

فأجابت أندريه وقد احمرَّ وجهها:

- إنني يا مولاتي، لم أعد سعيدة في مهمتي!

فاحمرت الملكة بدورها، والتقت نظراتهما البارقة كبرق السيفين المتشابكين... ثم قالت الملكة:

- إني لم أفهمك جيداً. فالبارحة كنت سعيدة كما تراءى لي.

فأجابت أندريه بحزم:

- لا يا مولاتي، فالبارحة كان أسوأ يوم في حياتي.

فقالت الملكة حالمة:

- آه!.. أوضحي!

- لا أريد إزعاج جلالتك بتفاصيل لا طائل فيها. فأنا أشعر بوحدة بعيداً عن أهلي، لذلك جئت استأذن جلالتك كي تطلق سراحي.

فنهضت الملكة وقد بدا عليها أن هذا الطلب قد مسَّ كبرياءها، ثم تقدمت من أندريه وأمسكت يدها وقالت لها:

- ماذا يعني هذا القرار الذي يدل على طبعك السيء؟ ألم يكن لك البارحة أخ وأب كما لك اليوم؟

فأخذت أندريه ترتجف كالمجرم في قفص الاتهام، ثم انحنت أمام الملكة وأجابت :

- إن رفقك بي يا مولاتي قد أثّر بي تأثيراً عميقاً ، لكنه لن يثنيني عن عزمي . فأنا قد قررت ترك البلاط لشعوري بالحاجة الى العزلة ، فلا تعرّضيني لخيانة واجباتي تجاهك بالتخلي عن الدعوة التي أشعر بها .

فسألتها الملكة : منذ الأمس إذن ؟

فأجابت أندريه :

- أرجو جلالتك أن تعفيني من الكلام على هذا الموضوع .

فقالت الملكة بمرارة :

- لك ملء الخيار . مع ان الثقة التي وضعتها فيك كافية لأن تبادليني بمثلها . ولكني مجنونة أكون إن طلبت منك الكلام طالما أنك ترفضينه . فاحتفظي بأسرارك أيتها الآنسة ، ولتكن حياتك حيث ستذهبين ، أكثر سعادة من هنا . ولكن تذكري شيئاً واحداً ، وهو أن محبتي لا تتخلى عن الناس رغم نزواتهم ، وأنك ستبقين صديقة لي . والآن ، اذهبي يا أندريه ، فأنت حرة .

فانحنت أندريه أمام ماري انطوانيت كما جرت العادة في البلاط الفرنسي ، تعبيراً عن الاحترام والاجلال ، وخرجت .

ولكن ما أن وصلت عند الباب، حتى استرجعتها الملكة وسألتها:

- إلى أين ستذهبين يا أندريه؟

فأجابت الآنسة دي تافرني:

- إلى دير سان دينيس يا مولاتي.

فصاحت الملكة:

- إلى الدير!.. أوه! نعمَ الاختيار أيتها الآنسة، فقد لا يكون لديك ما يبكت ضميرك. ولكن لا يغرب عن بالك أن نكران الجميل ونسيانه يستوجبان هذا التبكيت، ويجعلانك مدينة تجاهي بما فيه الكفاية. إذهبي أيتها الآنسة دي تافرني، إذهبي!

فلم تعطي أندريه أية تفسيرات لكلام الملكة الطيبة القلب، ولا أثّر هذا الكلام في نفسها، بل استأذنت جلالتها وخرجت من الباب وتوارت.

فإلى أين ذهبت أندريه دي تافرني بعد أن تركت القصر الملكي بهذه السرعة؟

الواقع أن أندريه توجهت الى منزل والدها، حيث وجدت في حديقته شقيقها فيليب، الذي أخذته الدهشة عندما رأى أندريه أمام عينيه، في وقت هو دوام عملها في القصر. فتقدم

منها مرتعباً، خصوصاً وهو قد اعتاد أن يراها باشة مشرقة القسمات، فإذا بها عابسة قاتمة الوجه!

ولما سألها عمّا بها، أخبرته أندريه بأنها قد تركت الخدمة لدى الملكة وقررت دخول الدير.

فضرب فيليب، بشدة، كفاً بكف كما يفعل الرجل عندما يتلقى صدمة غير منتظرة، وقال:

– ماذا! أنت أيضاً يا شقيقتي؟

– أنا أيضاً!.. ماذا تريد أن تقول؟

فقال فيليب:

– إن يد الشيطان قد لامست عائلتنا يا أندريه. فما الذي دعاك لدخول الدير وأنت أقل النساء أهلاً لطاعة قوانين الزهد والتقشف؟! هيّا اخبريني، بماذا تعيبين الملكة؟

فأجابته شقيقته الشابة ببرودة:

– إني لا أعيبها بشيء يا أخي. ولكن أنت، أنت الذي أتكلت على حظوة البلاط أكثر من أي شخص آخر، لماذا لم تستطع البقاء فيه؟ فأنا بقيت فيه ثلاث سنوات، أما أنت، فلم تستطع البقاء ثلاثة أيام!

– إن الملكة متقلبة الأطوار بعض المرات.

– إن أطوار الملكة، باستطاعتك أنت، كونك رجلاً، أن

تتحملها. أما أنا، فكوني امرأة، لست ملزمة ولا أريد أن أتحمل. وبعد، إن للملكة خادماتها، فليتدبروا نزواتها.

فقال فيليب دي تافرني:

– إن جوابك لم يكشف لي سرّ نزاعك مع الملكة.

– ليس هناك من نزاع، إني أقسم لك. ثم، هل أنت تنازعت معها حتى تركتها؟ أوه! إنها عاقة هذه المرأة!

– يجب أن تسامحيها يا أندريه، فالإطراء قد أفسدها قليلاً، لكنها طيبة الجوهر.

– تذكّر ما فعلته بك يا فيليب.

– ما الذي فعلته بي؟

– هل نسيت؟ أوه! إن ذاكرتي أفضل من ذاكرتك. لذلك، في يوم واحد وبقرار واحد، دفعتُ ديونك وديوني يا فيليب.

– يبدو لي، أن ما دفعته هو غالٍ جداً يا أندريه. فمن كانت في مثل سنك وجمالك، لا يحق لها أن تزهد في الدنيا. خذي حذرك يا صديقتي العزيزة، فأنت ستتركين العالم في مرحلة الشباب، لتندمين عليه في مرحلة الشيخوخة، وبعد فوات الأوان. وعندئذ ستتذكرين كل أصدقائك، الذين انفصلت عنهم في نزوة جنون.

- إنك لا تتكلم بلغة العقل يا فيليب . فأنت ضابط بطل ممتلئ بالنبل والاحساس، ولكنك قليل الاهتمام بشهرتك وثروتك . فهناك مئة ضابط سواك قد حازوا على الألقاب الرفيعة وكدسوا الذهب والأموال، بينما أنت لم تحسن سوى تكديس الديون والتصرف بما يقلل من أهميتك . أنت لا تتكلم بلغة العقل عندما تقول لي : «إنها متقلبة الأطوار يا أندريه، إنها مغناجة، إنها غادرة، وأفضل أن لا أخدمها أبداً .» فمن الناحية التطبيقية لهذه النظرية، تكون أنت قد زهدت في الدنيا، ولو أنك لم تكن ورعاً . ويكون أقربنا الى النذورات التي لا رجعة عنها، هو أنت لا أنا، لأني أنا في الطريق اليها، بينما أنت قد حققتها .

- أنت على حق يا أختي، وبدون والدنا ...

فقاطعته أندريه قائلة :

- والدنا ! آه يا فيليب ! لا تحدثني عنه . فالوالد لا يكون والداً بكل ما في الكلمة من معنى، إن لم يكن سنداً وعوناً لأولاده . فهل فكرت يوماً بأن تبوح له بمكنونات صدرك ؟ وهل هو استدعاك يوماً ليطلعك على سرٍ من أسراره ؟ لا، إن السيد دي تافرني خُلق ليعيش وحده في هذه الدنيا .

- أنا أوافقك الرأي يا أندريه، ولكن لا يجوز أن يموت وحده .

فذكّرت هذه الكلمات التي قالها فيليب بشيء من القساوة، ذكّرت أندريه بأنها قد تمادت في غضبها وحقدها ونقمتها العارمة، فقالت:

- لا أريد أن تعتبرني متحجرة القلب يا أخي. فأنت تعلم بأني شقيقة حنون، ولكن ما من أحد على هذه الارض، إلا وشاء أن يقتل فيَّ السليقة المؤنسة المحببة. فالله قد وهبني بالولادة، كما وهب كل مخلوق، روحاً وجسداً. وبهذه الروح وهذا الجسد، يستطيع كل مخلوق أن يتصرف ليحظى بالسعادة، في هذه الدنيا وفي الآخرة. فبالنسبة لي، هناك رجل لم أكن أعرفه قد استولى على روحي، وهذا الرجل هو بلسامو. وهناك رجل بالكاد عرفته، ولم يكن رجلاً عادياً بالنسبة لي، قد استولى على جسدي، وهذا الرجل هو جيلبير.

الخلاصة يا فيليب، بأنه لا ينقصني سوى أبٍ كي أكون ابنة تقية صالحة. أما الآن، فلنرجع اليك، ولنبحث فيما أصابك من خدمة الكبار على هذه البسيطة، هؤلاء الكبار الذين تكن لهم كل محبة.

فأخفض فيليب رأسه وقال:

- أعفني من هذا البحث يا أندريه. فكبار الأرض هم،

بالنسبة لي، مخلوقات تشبهني، وإن كنت أحببتهم، فلأن الله أمرنا بأن يحب بعضنا بعضاً.

فقالت أندريه:

- أوه! لم يحدث إطلاقاً على هذه الأرض يا فيليب، أن بادل المحبوب، مباشرة، قلب المحب بالمثل. فالذين وقع اختيارنا عليهم، قد اختاروا سوانا.

فرفع فيليب جبهته الشاحبة، ونظر ملياً إلى شقيقته، ثم سألها معبراً عن ذهوله واستغرابه:

- لماذا تتكلمين هكذا؟ وما هو قصدك؟

فأجابته أندريه بشجاعة، وقد تراجعت أمام فكرة الغوص في العلاقات والأسرار:

- إني جدُّ متأثرة يا أخي، وأعتقد بأني مضعضعة الحواس، لذا لا تعر كلامي أي اهتمام.

- ومع ذلك...

- كفاية في هذا الموضوع يا أخي الحبيب. فأنا جئت أرجوك أن تقودني إلى أحد الأديرة، وقد اخترت دير سان دينيس. وكن مطمئناً، فأنا لا أريد أن أنذر على نفسي، ذاك سيأتي فيما بعد إذا اقتضت الضرورة، ولكني اخترت الدير لأني نسيت الرب كثيراً، كما يبدو لي، وهو الملك الأوحد، والسيد الأوحد، والتعزية الوحيدة، والمؤاسي الحقيقي.

فبتقربي منه ستوفر لي السعادة التي لم يوفرها لي كل ما في هذا العالم من غنى وقوة وملذات. بالعزلة يا أخي نجد الغبطة الدائمة، وبالعزلة يكلم الله قلب الانسان، ويكلم الانسان قلب الله ...

– تذكري بأني اعترضت أدبياً على هذا التصميم اليائس. فأنت لم تقدمي لي الحجة التي حملتك على هذا اليأس.

فقالت أندريه باحتقار كلي:

– اليأس! تقول اليأس! آه! شكراً يا إلهي، فأنا لست نادمة ولا يائسة في ذهابي إليك.

وبحركة فيها كل الاعتزاز والفخر، ألقت على كتفيها عباءة الحرير التي كانت على المقعد قربها، فقال لها فيليب:

– إن هذا الافراط في الازدراء يعبّر عن حالة فيك لا يمكن أن تدوم. فإذا كنت ترفضين كلمة يأس يا أندريه، فاقبلي كلمة غيظ.

فأجابت المرأة الشابة وقد استبدلت ابتسامتها التهكمية بابتسامة ملأى بالأنفة والإباء:

– غيظ!.. إن الآنسة دي تافرني يا أخي، هي أكبر من أن يحملها الغيظ على التخلي عن مركزها في هذا العالم. فالغيظ هو نقطة الضعف لدى النساء المغناجات الحمقاوات، وأنا لست منهنّ. ثمّ بات من حقي أن أسألك يا فيليب،

فأجبني : إذا غداً انسحبت أنت إلى دير «لاتراب» ، إذا عملت راهباً شارترياً ، فكيف ستفسر الدافع الذي حملك على هذا القرار ؟

فقال فيليب بتهيب :

- سأفسره بالغم العضال يا شقيقتي .

- لقد نطقت يا فيليب بالعبارة التي توافقني والتي أتبناها ، فالذي دفعني إلى العزلة ، هو فعلاً «الغم العضال .»

فصمت فيليب قليلاً ، ثم قال :

- حسناً يا أندريه ، متى ستذهبين إلى الدير ؟

- غداً . وإذا كان مستطاعاً ، اليوم بالذات .

- ألا ترغبين في القيام معي بنزهة أخيرة في الحديقة ؟

فشبكت أندريه يديها بحركة ضاغطة ، وقالت :

- لا !..

ففهم فيليب من هذه الحركة التي رافقت الرفض ، بأن شقيقته لا ترفض النزهة بحد ذاتها ، بل ترفض محاولة التأثير عليها وحملها على اللين والرجوع عن قرارها ، فقال لها :

- أنا مستعد ساعة تشائين .

وقبّل يدها دون أن يضيف كلمة أخرى ، وخرج مفعم القلب بالغم والكآبة .

وبعد أن قامت أندريه ببعض الاستعدادات الأولية، انسحبت الى غرفتها حيث تلقت بطاقة من فيليب، جاء فيها:

«باستطاعتك رؤية والدنا في الساعة الخامسة من هذا المساء. فالوداع لا بدَّ منه.»

فأجابته أندريه بالكلمات التالية:

«في الساعة الخامسة سأكون عند السيد دي تافرني بثياب السفر. وفي الساعة السابعة يمكننا التوجه إلى دير سان دينيس.»

وكان ردُّ فيليب الوحيد على شقيقته، أن صاح من نافذته القريبة من غرفة أندريه:

«في الساعة الخامسة، ستكون الجياد مشدودة إلى العربة!»

وزير المالية

★

رأينا بأن الملكة كانت مشرقة الوجه باسمة عندما استقبلت أندريه، وأنها كانت تقرأ بطاقة وردتها من السيدة دي لاموت. وهذا ما جاء في تلك البطاقة بعد عبارات الاحترام والاجلال:

«... باستطاعة جلالتك أن تكون واثقة من تأمين المال، ومن أن البضاعة ستسلم بلا حذر.»

وبعد أن تجهمت الملكة قليلاً أثناء اجتماعها بأندريه، دخلت عليها السيدة دي ميزاري لتنبئها بأن وزير المالية، السيد دي كالون، ينتظر الحصول على شرف المثول بين يديها.

وكان السيد دي كالون رجلاً كبير القامة، وسيم الخلقة، نبيل المظهر، صاحب حجة قوية، وفي غاية النباهة والذكاء.

ولما كانت ماري انطوانيت هي التي استدعته، فقد كان واثقاً بأنها ما استدعته إلا لحاجة ملحة. لذا دخل عليها والبسمة على شفتيه، عكس الآخرين الذين كانوا يأتون لمقابلتها مقطبين عابسين كي يستدروا عطفها ورضاها.

والملكة أيضاً كانت ظريفة ولطيفة. فدعت الوزير الى الجلوس وأخذت تحدثه بأمور لا أهمية لها، إلى أن قالت له أخيراً:

– قل لي أيها السيد العزيز كالون، هل لدينا مال؟

فصاح دي كالون متظاهراً بالدهشة:

– مال؟ ولكن طبعاً يا مولاتي، إن المال متوفر بصورة دائمة.

– يا للك من وزير قدير! فأنا لم أعرف سواك استطاع أن يجيب هكذا عن سؤال يتعلق بالمال. إنك رجل مالٍ لا مثيل له.

فأجاب كالون:

– ما هو المبلغ الذي تحتاجه جلالتك؟

– أرجوك أن تشرح لي أولاً، كيف عملت حتى وجدت المال، لأن سلفك، السيد نيكير، كان يقول دائماً: «لا مال في الخزينة.»

– إن السيد نيكير على حق يا مولاتي، فصناديق المملكة كانت خاوية. وأذكر يوم تسلمت منصبي الوزاري في الخامس من شهر كانون الاول عام ١٧٨٣، أني أجريت كشفاً على الخزينة، فلم أجد فيها سوى كيسين يحتوي كل منهما على الف ومئتي ليرة لا ينقصان درهماً واحداً.

فأخذت الملكة تضحك، ثم قالت:

– وبعد؟

– وبعد يا مولاتي، لو أن السيد نيكير عوضاً عن أن يقول: «لا مال في الخزينة»، تصرف مثلي فاقترض مئة مليون في السنة الاولى، ومئة وخمسة وعشرين مليوناً في السنة الثانية، ولو كان واثقاً مثلي من الحصول على قرض جديد للسنة الثالثة بمبلغ قدره ثمانون مليوناً، لكان السيد نيكير رجل

مال حقيقي. فكل إنسان باستطاعته أن يقول: «لا مال في الخزينة»، ولكن ليس باستطاعة كل إنسان أن يقول: «إن المال متوفر».

– إني أودُّ أن أهنئك يا مسيو كالون، ولكن، كيف سيأمن التسديد؟ هنا تكمن الصعوبة.

فابتسم كالون ابتسامة ذات مغزى لا يُسبر، وأجاب:

– كوني على ثقة يا مولاتي، بأن التسديد مؤمن.

فقالت الملكة:

– إني أفوض هذا الأمر اليك. ولكن لنتحدث دائماً بالأمور المالية، فهي علم كله إفادة، وإن كان عند الغير عوسج، فهو عندك شجرة مثمرة.

فأحنى كالون هامته تعبيراً عن شكره، فسألته الملكة:

– هل لديك أفكار جديدة؟ أرجوك أن تطلعني على مبتكرات أفكارك.

– لدي فكرة يا مولاتي، باستطاعتها أن تضع عشرين مليوناً في جيوب الفرنسيين، وسبعة أو ثمانية ملايين في جيبك، عفوا، في صندوق جلالتك.

– عظيم! ولكن كيف الحصول على هذه الملايين؟

– إن جلالتك لا تجهل بأن العملة الذهبية ليس لها نفس القيمة في كل الدول الأوروبية.

– فعلاً، فإن الذهب في أسبانيا، أغلى مما هو عليه في فرنسا.

– لقد أصابت جلالتك كبد الحقيقة، وهذا ما يجعلني أُسَرُّ في التحدث إليها بالأمور المالية. فقيمة المارك في اسبانيا، منذ خمس أو ست سنوات، تزيد على قيمته في فرنسا ثماني عشرة أونسة. بمعنى أن المصدرين من فرنسا الى اسبانيا، يربحون بالمارك الذهبي أربع عشرة أونسة من الفضة تقريباً.

فقالت الملكة: يا لها من فكرة ثاقبة!

فأكمل الوزير يقول:

– بحيث أنه في خلال سنة، إذا علم الرأسماليون ما أعلمه، لن تبقى ذهبية واحدة في فرنسا.

– هل ستحول دون ذلك؟

– حالاً وسريعاً يا مولاتي. فسأرفع قيمة الليرة الذهبية إلى خمسة عشر ماركاً وأربع أونسات. أي بما يؤمن ربحاً لحاملي الليرات الذهبية يعادل خمسة عشر بالمئة. وبهذه الطريقة، يصبح الذهب كله في بيت المال. عندئذ نعمد الى إعادة صكه من جديد، فتصبح قيمة المارك الذهبي إثنتين وثلاثين «الويسيّة» عوضاً عن ثلاثين «الويسيّة» كما هي الآن.

– يا لها من فكرة رائعة سوف تؤمن تسديد ديوننا كلها.

– أعتقد ذلك يا مولاتي. ويسرني أن تكون الفكرة قد

نالت استحسانك وموافقتك. أما الآن، فلنرجع إذا شاءت جلالتك، إلى الغاية من استدعائي إليها.

فقالت الملكة بشيء من التردد:

- هل بالإمكان يا سيدي، الحصول في هذا الوقت...

- على أي مبلغ؟

- أوه! قد يكون مبلغاً كبيراً جداً...

ثم أكملت الملكة تقول بعد أن ابتسم لها كالون ابتسامة مشجعة: «خمسماية الف ليرة!»

فصاح كالون:

- آه! كم أرعبتني جلالتك يا مولاتي! فلقد اعتقدت أن الموضوع يتعلق بمبلغ يستحق الذكر...

- بإمكانك إذن؟

- بكل تأكيد.

- بدون أن يعلم...

- هذا غير ممكن يا مولاتي. فحساباتي كلها تعرض على الملك في نهاية كل شهر. ولكن ليس هناك أي دليل بأن الملك يراجعها أو يدقق بها، وهذا شيء يشرفني.

- متى بإمكاني الاعتماد على هذا المبلغ؟

- أي يوم ستكون جلالتك بحاجة إليه؟

- في الخامس من الشهر القادم.

- إن أمر الصرف سيكون جاهزاً في الثاني من الشهر، وفي الثالث منه سيكون المبلغ لدى جلالتك.

- شكراً يا مسيو كالون.

- إن سعادتي لا تكتمل إلا بإرضاء جلالتك، لذا أرجو مولاتي أن لا توفرني في طلب أي مبلغ تحتاجه.

ثم نهض وزير المالية مستأذناً، فقدمت له الملكة يدها ليقبلها، ثم قالت له:

- ما زالت لديّ كلمة أقولها.

- تفضلي يا مولاتي، تفضلي.

- إن هذا المبلغ سيبكت ضميري...

- سيبكت ضميرك يا مولاتي!..

- نعم، فهو من أجل إرضاء نزوة!

- هذا أفضل، هذا أفضل... فالمبلغ عندئذ سيكون وسيلة لتأمين أرباح حقيقية لصناعتنا، أو تجارتنا.

فدمدمت الملكة تقول:

- في الواقع، هذا صحيح. إن لديك أسلوباً ظريفاً في تعزيتي يا سيدي.

- ليتمجد اسم الرب! فنحن بفضل ضمير جلالتك المطمئن، سوف نذهب إلى الجنة رأساً.

- ومع ذلك يا مسيو كالون ، أرى أنه من الظلم بمكان ، أن أُدفِّع الشعب الفقير ثمن نزواتي .

فقال الوزير معززاً كل كلمة من كلماته بابتسامة شؤم :

- إن وساوسك ليست في محلها يا مولاتي. لأنه باستطاعتي أن أقسم لك ، بأن هذا المبلغ لن يدفعه الشعب الفقير .

فقالت الملكة مندهشة :

- كيف ذلك ؟

فأجاب الوزير برباطة جأش :

- ذلك لأن الشعب الفقير لم يعد يملك شيئاً. وحيث لا يوجد شيء ، يفقد الملك حقوقه .

ثم حيّا وخرج ...

المفاجأة غير السارة

★

ما أن اجتاز السيد دي كالون الرواق راجعاً إلى مكتبه ، حتى نقر ظفر يد مستعجلة باب قاعة الاستقبال الصغيرة الخاصة بالملكة، وظهرت على أثر هذا النقر جانّ دي لاموت وبادرت الملكة بقولها :

- مولاتي، إنه هنا!

فارتعشت الملكة قليلاً من كلمة «إنه» التي تعني أشياء كثيرة عندما تفوه بها امرأة، وقالت مستفهمة:

- الكردينال؟

وما كادت تلفظ هذه الكلمة حتى أدخلت جانّ الكردينال دي روهان واستأذنت، بعد أن ضغطت خلسة على يد عشيقها وعائلها.

فوجد الأمير نفسه وحيداً على بعد ثلاث خطوات من الملكة، التي انحنى وقدّم لها وافر احتراماته باحتشام وذوق، فتأثرت الملكة ومدت يدها إلى الكردينال الذي لم يكن بعد قد رفع نظره صوبها، وقالت له:

- لقد علمت بمأثرتك التي محت كل ذنوبك.

فقال الامير وهو يرتعش من تأثره غير المتصنّع:

- إسمحي لي مولاتي، بأن أؤكد لك أن الذنوب التي تتكلم عليها جلالتك، سوف تصبح جدٌّ مخفّفة وملطّفة، بمجرد توضيح بسيط.

فأجابته الملكة بهدوء ووقار:

- أنا لا أمنعك أبداً من تبرير نفسك. لكن ما ستقوله، سيلقي ظلالاً على الحب والاحترام اللذين أكنهما لوطني وعائلتي، لأنه لا يمكنك أن تبرئ نفسك من دون أن تجرحني

يا سيدي الكردينال. لذلك من الأفضل عدم لمس النار التي لم تنطفئ كما يجب، لأنها قد تحرق أصابعك أو أصابعي. والحرص على أن أراك من وجهة نظر جديدة، أوحت لي بأنك مفضال، محترم، ووفيٌ...فقاطعها الكردينال قائلاً:

- وفيّ حتى الموت.

فقالت ماري انطوانيت وهي تبتسم:

- الحمد لله! ولكن الأمر حتى الآن، لا يتعلق بسوى الإفلاس. فهل ستبقى وفياً لي حتى الإفلاس يا سيدي الكردينال؟

- مولاتي...

- هذا ما أنت مقبل عليه. وأنا كصديقة، لأننا أصبحنا الآن صديقين، أنصحك بأن تكون مقتصداً، لأن الاقتصاد هو خاصّة رعوية، عدا أن الملك يفضلك اقتصادياً لا مسرفاً.

- سوف أصبح شحيحاً كي أرضي جلالتك.

فقالت الملكة بتعبير رقيق تفردت به:

- والملك كذلك، لا يحب البخلاء...

فقاطعها الكردينال بشغف مفضوح:

- سوف أصبح كما تشاء جلالتك.

عندئذ حسمت الملكة الموقف بقولها:

– كن مطمئناً، فلقد وضعت ترتيباً لن يدعك تفلس بسببي. إني أشكرك لما تعهدت به من أجلي، وأؤكد لك بأني سأبرّ بتعهداني فلا تهتم بهذه الاستحاقات بعد الآن، لأني ابتداء من الدفعة الأولى، سأكون المسؤولة الوحيدة عنها.

فقال الكردينال وهو ينحني:

– إذن، يبقى علي يا مولاتي، أن أقدم العقد لجلالتك.

وفي ذات الوقت، سحب علبة المجوهرات من جيبه، وقدمها إلى الملكة.

فأخذتها الملكة وهي ترتعش من الفرح، ووضعتها على خزانة البياض تحت متناول يدها، من دون أن تلقي عليها نظرة، مع أنها كانت تتحرق شوقاً لرؤيتها!

وأرفق الكردينال تقدمته بعبارات المجاملة التي ردّت عليها الملكة بما يرضيه. ثم عاد إلى حديث المصالحة الذي كانت الملكة قد بدأته.

إلا أن الملكة التي وعدت نفسها بعدم رؤية العقد أمامه، وفي الوقت نفسه كانت تتحرق لرؤيته، لم تصغ إليه إلا بشرود فكر.

وبشرود فكر أيضاً سلّمته يدها، التي قبّلها بنهم واهتياج... ثم استأذن بالانصراف.

هكذا جرت تلك المقابلة التي لأمت جراح قلب الكردينال، فخرج من لدن الملكة مملوءاً بالفرح والأمل، ومستعداً لأن يبرهن للسيدة دي لاموت عن عميق امتنانه لمسعاها الذي تكلل بالنجاح.

وقد كانت جانّ بانتظاره في عربته، على بعد مئة خطوة من باب القصر، فشكرها بحرارة على مفاوضاتها الناجحة وأكّد لها صدق محبته وإخلاصه، فسألته جانّ قائلة:

- وبعد هذا الإقرار بالفضل، هل ستكون ريشيليو أم مازاران؟ هل منحتك شفة النمساوية الشجاعة على الطموح أم على التودد والحنوّ؟ هل اقتحمت ميدان السياسة أم ميدان المغامرات الغرامية؟

فقال الأمير دي روهان:

- لا تهزئي أيتها الكونتس العزيزة، فأنا مجنون من السعادة!

- إلى هذه الدرجة؟!

- آزريني، وبعد ثلاثة أسابيع سأكون وزيراً.

- يا للطاعون! كم هو طويل الوقت بعد ثلاثة أسابيع! فالاستحقاق الأول قد حُدّد موعده بعد خمسة عشر يوماً من الآن.

– أوه ! إن السعد قد أقبل دفعة واحدة . فالمال متوفر لدى الملكة ، وهي ستدفع، ولن يكون لي الفضل إلا في القصد والنية. إن ثمن سعادتي لم يكن شيئاً يذكر على الاطلاق أيتها الكونتس ، والله شاهدي بأني قد دفعت بملء اختياري مبلغ خمسماية الف ليرة ثمناً لهذه المصالحة .

فقالت الكونتس وهي تبتسم :

– كن مطمئناً ، فسوف تقبض كل قرش دفعته أو تعهدت بدفعه . فهل يهمك ذلك كثيراً ؟

– اعترف لك ، بأني أفضل أن تبقى الملكة مديونة لي .

– قلبي ينبئني يا سيدي ، بأنك ستتمتع كثيراً بهذا الرضى ، فهل أعددت العدة له ؟

– لقد بعت ما تبقّى من غلالي ، ورهنت محاصيلي وأرباحي للسنة المقبلة .

– إذن ، إن مبلغ الخمسماية الف ليرة متوفر لديك ؟

– نعم ، لكنني بعد هذه الدفعة ، لا أدري ماذا سأعمل .

فقالت له جانّ :

– إن دفع هذا المبلغ سيوفر لنا فترة اطمئنان مدتها ثلاثة اشهر . وفي خلال ثلاثة أشهر ، يخلق الله ما لا تعلمون .

– هذا صحيح ، لكن الملك لا يريد أن تزداد ديوني .

- لا تهتمّ، فمكوثك شهرين في الوزارة، سيمكنك من إيفاء ديونك حتى آخر قرش.

- أنت دائماً على صواب أيتها الكونتس العزيزة.

ثم استعدت جانّ للذهاب، فسألها الكردينال:

- إلى أين أنت ذاهبة؟

- إلى مقابلة الملكة لمعرفة مدى التأثير الذي أحدثه حضورك.

- عظيم! وأنا سأعود الى باريس.

- لماذا؟ إن الخطة تقضي بأن لا تبرح المكان، لأنك ستستأنف اللعبة هذا المساء.

- إني جدُّ متأسف. فقد ارتبطت بموعد هذا الصباح قبل سفري، وعلي أن أكون حاضراً في الساعة المحددة لهذا الموعد.

- موعد؟

- نعم، وموعد رزين كما اتضح لي من محتوى البطاقة التي تلقيتها. انظري...

فمالت الكونتس وقالت: إنه خط رجل.

ثم قرأت:

«صاحب النيافة،

هناك شخص يريد أن يحادثك بشأن استيفاء مبلغ هامّ،

وهذا الشخص سيحضر الى مقرك في باريس، هذا المساء، ليكون له شرف مقابلتك.»

وقالت: رسالة مغفلة ... إنها من متسول.

- لا أيتها الكونتس، فلا يمكن لصاحبها، كي يستخف بي، أن يعرّض نفسه، بطيبة خاطر، إلى ضربات العصا من قبل رجالي.

- هل تعتقد ذلك؟

- يبدو، ولا أعرف لماذا، أني أعرف هذا الخط.

- إذن، إذهب يا سيدي. فالمجازفة لن تكون كبيرة مع الذين يعدون بالمال، وسيقتصر ضررها على عدم الدفع. إلى اللقاء يا سيدي.

- يسعدني أن أراك دائماً أيتها الكونتس.

- بالمناسبة يا سيدي...

- تكلمي!

- إذا فوجئت بالحصول على مبلغ طائل من المال...

- مبلغ طائل أيتها الكونتس؟!

- شيء مفقود مثلاً، لُقية! كنز!..

- لقد فهمت عليك أيتها الكيّسة الخبيثة. تريدين أن نتقاسمه؟

- هذا هو الواقع يا سيدي...

- وسيكون لك ما تريدين، إذ من غير المعقول أن لا أبالي بك وأنت قد حملت لي السعادة.

- إذن، أرجوك يا سيدي أن لا تقدم على مسّ الخمسماية ألف ليرة.

- أوه! لا تخافي أبداً.

ثم افترقا، وقفل الكردينال عائداً إلى باريس في جو من الغبطة السماوية.

فالواقع أن الحياة قد تغيرت بالنسبة إليه منذ ساعتين. فهو كعاشق، قد منحته الملكة أكثر مما كان سيجرؤ عليه. وكطموح، قد جعلته يأمل بتحقيق مطامحه.

لقد شعر الأمير لويس بالأفكار تزدحم في رأسه. فنبوغه السياسي لا يضاهى، والملك الذي تسيره زوجته بمهارة، سيكون مصدر ثروته الدائمة. لذا سيتبنى قضية الاصلاح، ويضم رجال الدين الى الشعب، فتكون له أكثرية متماسكة قوية تمكنه من أن يحكم بالقوة وبالحق لمدة طويلة، وسيضع الملكة التي يعبدها على رأس هذه الحركة الاصلاحية.

هذا ما كان يحلم به الكردينال دي روهان. وكلمة حنونة واحدة من ماري انطوانيت، باستطاعتها أن تجعل هذا الحلم حقيقة ملموسة.

إذ ذاك تخلّى ذلك النزق عن انتصاراته السهلة، وأصبح فيلسوفاً بعد أن كان دنيوياً، ومكباً على العمل الدؤوب بعد أن كان بطّالاً، واستبدل بسهولة شحوب العهر والمجون بعناء البحث والدرس.

ففور عودته الى باريس أحرق الصندوقة التي كانت ملأى بالرسائل الغرامية، واستدعى مدير أعماله وانبرى يكتب مذكراته عن السياسة البريطانية التي كان أكثر السياسيين إلماماً بها. وعندما بدأ يهيمن على ذاته بعد ساعة من العمل، نبَّهه قرع الجرس في غرفته الى قدوم زائر هامّ. فالتفت الحبر وسأل الحاجب الذي ظهر في الباب:

- من القادم؟

- الشخص الذي كتب هذا الصباح الى سيدي الكردينال.

- بدون توقيع؟

- نعم يا سيدي.

- ولكنّ لهذا الشخص إسماً يدعى به. اسأله عن اسمه.

فذهب الحاجب ليعود بعد لحظة ويقول لسيده:

«حضرة الكونت دي كاغليوسترو.»

فارتعش الأمير دي روهان وقال:

- ليدخل.

فما أن دخل الكونت وأُغلقت الأبواب وراءه ، حتى صاح الكردينال :

- يا إلهي العظيم ! ماذا أرى ؟

فقال كاغليوسترو مبتسماً :

- إني لم أتغير أبداً ، أليس كذلك يا سيدي ؟

فدمدم الامير دي روهان قائلاً :

- هل هذا ممكن ... جوزف بلسامو [1] الذي قالوا عنه بأنه مات في ذلك الحريق ، حيّ يرزق ! جوزف بلسامو ...

- نعم يا سيدي . إن الكونت دي فونيكس حيّ ، وحيّ أكثر من أي وقت مضى .

---

(١) جوزف بلسامو الشهير بـ «الكونت دي كاغليوسترو»، ولد في باليرمو - ايطاليا عام ١٧٤٣ من والدين فقيرين. دخل رهبنة أخوة الرحمة، وعمل ممرضًا ثم صار طبيباً، وتعلم بعض مبادئ الكيمياء وأخذ يدعي بأنه يستطيع تكثير النقود الذهبية، وهكذا استطاع أن يحتال على كثيرين ويجمع ثروة طائلة. وبسبب ذلك طُرِد من الرهبنة ومن البلاد. سافر الى بلاد المشرق حيث اتقن العلوم الخفية، كمناجاة الأرواح والسحر، ومنها إلى لندن حيث خالط الأوساط الماسونية. وبعد لندن سافر الى المانيا وانضم الى الجمعيات السرية الباطنية وأصبح من أقطابها المشهورين، وقابل الملك فريدريك الثاني. ومن لندن انتقل الى فرنسا تتقدمه شهرة واسعة وحاشية كبيرة من المرافقين والخدم؛ وهناك بلغ قمة المجد والشهرة وادّعى بأنه عاصر السيد المسيح وتعرف اليه. اما علاقته بالكردينال دي روهان ودوره في عقد الملكة، فستكشف عنهما للقراء الفصول المقبلة لهذه الرواية.

– ولكن بأي اسم تقدم نفسك يا سيدي؟! ولماذا لم تحتفظ باسمك القديم؟

– بالضبط لأنه قديم يا سيدي، عدا أنه يذكرني ويذكر الآخرين بأشياء كثيرة حزينة أو مزعجة. ولا أريد التحدث عن سواك يا سيدي، فقل لي: ألم تقفل الباب في وجه جوزف بلسامو؟

– أنا!.. أبداً، أبداً يا سيدي.

وكان الكردينال لم يزل مذهولاً، فلم يقدم حتى مقعداً الى كاغليوسترو، فقال هذا الأخير:

– مع أن نيافتك تتحلى بالصدق والذاكرة القوية!

– سيدي، كنت فيما مضى قد أديت لي خدمة...

فقاطعه كاغليوسترو قائلاً:

– أليس أني لم أزل في نفس السن يا سيدي، وأني خير نموذج لما حققته قطراتي الحياتية؟

– إني أعترف بذلك يا سيدي. فأنت فوق البشر، أنت توزع بسخاء الذهب والصحة على الجميع.

– الصحة، لا أعترض عليها يا سيدي. أما الذهب...

– ألم تعد تصنع ذهباً؟

– لا يا سيدي.

– لماذا؟

– لأني فقدت آخر نقطة من المركَّب الذي لا بدَّ منه لصنعه، والذي كان معلمي، الحكيم ألتوتاس، قد أعطاني إياه بعد خروجه من مصر. وهذا المركب هو الوحيد الذي لا أملك سرَّه شخصياً.

– لقد احتفظ به لنفسه؟

– احتفظ به، أو دُفن معه في القبر، كما تشاء.

– هل مات؟

– لقد فقدته.

– لماذا لم تطل حياة هذا الرجل الضروري طالما أنه يستأثر بهذا المركَّب، أنت الذي حفظت نفسك حياً وفتياً منذ قرون؟

– لأني أستطيع عمل كل شيء ضدَّ الأمراض والجراح، ولكني لا أستطيع عمل شيء ضد الحوادث التي تسبب القتل من دون استدعائي.

– إذن، لقد قضى ألتوتاس بحادث!

– ويجب أن تعرف هذا الحادث، طالما أنك تعرف قصة موتي أنا.

– لقد أختفيت بعد ذلك الحريق الذي شبَّ في شارع سان كلود.

– هذا الحريق قد قضى على ألتوتاس وحده ، أو بالأحرى لقد شاء الحكيم أن يموت بعد أن تعب من الحياة .

– أمر غريب !

– لا ، ليس بغريب بل هو طبيعي . فأنا بدوري ، قد فكرت مئة مرة بأن أُنهي حياتي .

– ومع ذلك ، فها أنت ما زلت على قيد الحياة .

– ذلك لأني اخترت حالة الشباب ، فجعلتني الصحة الجيدة ، والأهواء ، وملذات الجسد ، في حيرة من أمري . بينما ألتوتاس اختار حالة الشيخوخة .

– كان على ألتوتاس أن يختار ما اخترته أنت .

– لا ، فألتوتاس كان رجلاً عميقاً ومتفوقاً ، ولا يطمح من هذه الدنيا إلا بالعلم ، وقد مات شهيد وفائه لهذا العلم . فلو أنه اختار الشباب مثلي ، لكانت الأهواء والملذات قد صرفته عن تحقيق هدفه . فأنا أعيش كدنيويّ يهدر وقته سدى . إني نبتة ... ولا أجرؤ أن أقول زهرة . إني لا أعيش ، بل أتنفس !

فدمدم الكردينال قائلاً :

– إن كلامك السحري يا سيدي ، قد أعادني بالذاكرة الى حلمين في عهد شبابي . فقد تصرمت عشر سنوات كما لا يخفاك ، على اليوم الذي تعرفت فيه إليك .

– إني أعرف ذلك ، ولقد طرأت تغيرات على كلٍ منّا

خلال هذه المدة. فأنا يا سيدي لم أعد حكيماً، بل عالماً. وأنت لم تعد شاباً وسيماً، بل أميراً جميلاً. هل يتذكر سيدي ذلك اليوم الذي بشرتك فيه، في غرفتي، بحبّ امرأة شعرها أشقر؟

فاصفرّ الكردينال، ثم احمرّ فجأة... وتناوب الخوف والفرح على التلاعب بنبضات قلبه. ثم قال بحيرة وارتباك:

- إني أتذكر...

فقال كاغليوسترو مبتسماً:

- لا أدري، لا أدري إذا كنت لم أزل أستطيع تقمص شخصية الساحر. على كلٍ، سوف أحاول التركيز على هذه الفكرة.

وبعد فترة صمت فكّر في خلالها ملياً، قال:

- هذه الصبية الشقراء التي هي محطّ أحلامك الغرامية، أين هي يا ترى؟ وماذا تعمل؟ آه! قسماً بشرفي إني أراها... نعم... وأنت أيضاً قد رأيتها اليوم. وأكثر من ذلك، فأنت خارج لتوّك من لدنها...

فسند الكردينال قلبه الخافق بيده الباردة، وقال بصوت خافت بالكاد سمعه كاغليوسترو:

- سيدي، بحق...

فقال العرّاف برقة:

– هل تريد أن نغيّر الحديث؟ أنا رهن أوامرك يا سيدي، فأرجوك أن تتصرف بي على هواك.

ثم استلقى كاغليوسترو بحرية على «صوفا»، كان الكردينال قد نسي أن يدعوه للجلوس عليها منذ بدء هذا الحديث المثير!

المدين والدائن

★

أخذ الكردينال يتطلع الى ضيفه كالأبله تقريباً... إلى أن قال له هذا الأخير:

– أما وقد جددنا المعرفة يا سيدي، فلنتحدث إذا شئت:

فأجابه الحبر وقد بدأ يتمالك روعه:

– نعم... نعم، لنتحدث عن ذلك الاستيفاء الذي... الذي...

– الذي أشرت اليه في بطاقتي إليك، أليس كذلك؟

– أوه! لقد كان ذلك ذريعة، أليس كذلك؟ هذا ما أفترضه على الأقل.

– لا يا سيدي، ليس ذريعة على الاطلاق. بل حقيقة تتعلق باستيفاء خمسماية الف ليرة، وهو مبلغ محترم.

فصاح الكردينال وقد بدأ الاصفرار يصبغ وجهه :

– ولكنك قد وهبتني هذا المبلغ بكل طيبة خاطر .

– أيقبل الهبة ، أمير عظيم مثلك يا سيدي ؟! الواقع أني قد قرضتك هذا المبلغ لقاء إيصال .

فشعر الكردينال كأن خنجراً قد انغرز في قلبه ، وأخذ العرق البارد يتصبب من جبهته على خديه . ثم قال وهو يحاول أن يبتسم :

– كنت اعتقدت لفترة من الوقت ، أن جوزف بلسامو ، الرجل الفؤطيمي ، قد ذهب بدينه الى القبر ، كما رمى بإيصالي في النار .

فأجاب الكونت كاغليوسترو برصانة :

– إن حياة جوزف بلسامو يا سيدي ، هي حياة أبدية كما هي تلك الورقة التي اعتقدت بأنها قد زالت من الوجود . فالموت يبقى عاجزاً أمام إكسير الحياة ، والنار كذلك أمام ورق الأمينت .

فقال الكردينال وقد شعر بغشاوة أمام عينيه :

– إني لم أفهم .

فقال كاغليوسترو :

– أنا أكيد يا سيدي ، بأنك سوف تفهم .

– كيف ذلك ؟

– عندما تتعرف إلى توقيعك ...

ثم قدم إلى الامير ورقة مطوية، فصاح الأمير قبل ان يفضّها:

– إيصالي !..

فابتسم كاغليوسترو ابتسامة خفيفة وأجاب:

– نعم يا سيدي، إيصالك.

– ولكنك قد أحرقته... ورأيت اللهب بنفسي!

فقال الكونت:

– هذا صحيح، فأنا قد ألقيت هذه الورقة في النار. ولكن كما قلت لك يا سيدي، قد شاءت الصدف أن تكون قد كتبت على ورقة من الأمينت، وليس على ورقة عادية، بحيث أني وجدت الايصال صاغاً سليماً على بقايا الفحم.

فقال الكردينال بشيء من العجرفة، وقد أخذته الريبة من إبراز هذا الايصال:

– لقد أخطأت في خداعك لي يا سيدي. فأنا ما كنت لأنكر ديني بدون هذا الايصال. ولكن مع هذا الايصال، سوف أنكره.

– أنا خدعت نيافتك! إني أقسم لك بأني لم أفكر في خداعك لحظة واحدة.

– لقد جعلتني أعتقد بأن الضمانة قد أُتلفت.

فحرك بلسامو كتفيه قليلاً وأجاب :

- ذلك كي أُدخل السرور الى قلبك ، ولا أدعك تشغل بالك بالخمسماية ألف ليرة .

- ولكن مبلغاً كهذا ، كيف تركته عشر سنوات بدون تسديد ؟!

- لأني كنت أعرف أنه في مكان أمين . وبما أني تعرضت لأحداث كثيرة ، تعاقب اللصوص في خلالها على نهب كل ما أملك ، فقد صبرت حتى اللحظة الأخيرة كي أطالبك بهذا الدين .

- وقد حانت هذه اللحظة الأُخيرة ؟

- نعم يا سيدي ، وبكل أسف !

- بحيث لم يعد بأمكانك الصبر والانتظار ؟

فقال كاغليوسترو :

- هذا هو الواقع يا سيدي .

- ولهذا جئت تطالبني بمالك ؟

- نعم يا سيدي .

- وتسديده في هذا اليوم بالذات ؟

- إذا شئت .

فصمت الكردينال قليلاً ، ثم قال بصوت يائس :

- إن الأمراء التعساء على هذه الأرض يا سيدي الكونت ،

لا يستحضرون الثروات ارتجالاً كما تفعلون أنتم معشر السحرة، إذ تستحضرونها بواسطة الأرواح الشريرة.

فقال كاغليوسترو:

– أوه! تأكد يا سيدي بأني ما كنت لأقدم على مطالبتك بهذا المبلغ، لو لم أكن واثقاً بأنه موجود في حوزتك.

فصاح الكردينال:

– أنا لدي خمسماية ألف ليرة!

– نعم، وهي مفصلة كما يلي: ثلاثون ألفاً ذهباً، عشرة آلاف فضة، والباقي عملة متداولة.

فشحب لون الكردينال، وأكمل كاغليوسترو يقول:

«وهذا المبلغ موجود في هذه الخزانة!»

– أوه! أنت تعرف ذلك يا سيدي؟!

– نعم يا صاحب النيافة. وأعرف أيضاً كل ما قمت به من تضحيات في سبيل الحصول على هذا المبلغ. وقد سمعت الناس يقولون ايضاً، بأن هذا المبلغ قد كلّفك ضعف قيمته.

– نعم، هذا صحيح.

– أما...

فصاح الكردينال التعيس:

– أما ماذا؟

فأكمل كاغليوسترو يقول:

– أما أنا يا سيدي، ففي خلال عشر سنوات، كدت عشرين مرة أموت من الفاقة والجوع، إلى جانب هذه الورقة التي تمثل بالنسبة لي نصف مليون. ومع ذلك، وكي لا أعكر صفوك، فقد انتظرت طوال هذه المدة. لذا أعتقد بأننا قد أصبحنا متعادلين يا سيدي.

فصاح الأمير:

– متعادلان يا سيدي! أوه! لا تقل بأننا متعادلان، لأنه تبقى لك ميزة السخاء بقرضك إياي هذا المبلغ الضخم من المال. متعادلان! أوه! لا، لا، فأنا سأبقى أسير فضلك إلى الأبد. ولكن إسمح لي أن أسألك يا حضرة الكونت: لماذا، طالما أن باستطاعتك مطالبتي بهذا المبلغ منذ عشر سنوات، قد احتفظت بالصمت طوال هذه المدة؟ ففي خلال السنوات العشر هذه، قد واتتني عشرون فرصة كان بإمكاني أن أردَّ لك هذا المبلغ في خلالها دون أن يلحقني أي إزعاج.

فسأل كاغليوسترو:

– بينما اليوم؟..

فصاح الأمير يقول:

– أوه! لا أخفي عليك يا سيدي، بأن مطالبتك لي اليوم بهذا المبلغ، تزعجني غاية الإزعاج.

فهزَّ كاغليوسترو رأسه وكتفيه بما معناه:

«ماذا تريد يا سيدي؟ فهذا حقي، وقد جئت أطالب به.»

فقال الأمير:

– ولكني أعجب منك، أنت الذي يحزر كل شيء، والذي يقرأ ما في أعماق القلوب، وحتى ما في الخزائن، كيف أنك لم تعرف لماذا احتفظت بهذا المبلغ من المال، ولأية غاية مقدسة قد خصّصته!

فقال كاغليوسترو ببرودة:

– إنك مخدوع يا سيدي، فأنا أعرف كل الأسرار ولكني لا أهتمّ إلا بما يعنيني منها. والذي كان يهمني، هو معرفة ما إذا كان لديك مال أو لا، بما أن لي مالاً في ذمتك والحاجة الماسة تضطرني إلى مطالبتك به. أما لأية غاية قد خصصت مالك، فهذا أمر قلما يهمني. زد على ذلك، بأني لو كنت عالماً في هذه اللحظة سبب حيرتك، وكان هذا السبب وجيهاً وذا أهمية، لربما كنت وهنت وأجّلت مطالبتك، والتأجيل في هذه الظروف سيلحق بي أذى وضرراً كبيرين، لذلك أفضّل أن أجهل هذا السبب.

فصاح الكردينال وقد أيقظت كلمات الكونت الأخيرة كبرياءه:

– أوه! لا تعتقد يا سيدي بأني أريد استدرار عطفك. إن

لك حقاً عليّ ، وهذا الحق تجسده وتضمنه هذه الورقة الحاملة توقيعي ، وهي خير ضمانة لاسترداد الخمسماية ألف ليرة .

فانحنى الكونت قليلاً ، وأكمل الكردينال يقول وقد آلمه جداً أن يفقد في دقائق معدودة هذا المبلغ الذي جمعه بشقّ النفس :

– إعلم يا سيدي ، بأن هذه الورقة ليست سوى إقرار بالدين ، وهي لا تحدد أي وقت لاستيفائه .

فأجابه الكونت :

– لتعذرني نيافتك إذا ما ذكّرتها بالعكس ، وهذا ما جاء في إيصالك يا سيدي الكردينال ، فتفضّل واقرأ :

فقرأ الكردينال ما كتبه بخط يده ، وهذا نصّه :

«أعترف بأني قد قبضت من السيد جوزف بلسامو مبلغاً قدره خمسماية ألف ليرة ، وإني أتعهد بتسديد هذا المبلغ عند أول طلب منه» .

التوقيع

«لويس دي روهان»

فارتعش الكردينال من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، لأنه لم يكن قد نسي الدين فقط ، بل أيضاً شروط استحقاقه .

وأكمل بلسامو يقول :

– وهكذا ترى يا سيدي ، بأني لم أطلب المستحيل . وإني

لآسف أن تكون نيافتك قد تناست بأن المبلغ قد نقدها إياه جوزف بلسامو بصورة عفوية، وساعة موته. ولمن؟ للأمير دي روهان الذي لم يكن يعرفه، وهو سيد من كبار الأسياد. وبما أن مطالبتي لك قد أزعجتك الى هذا الحد يا سيدي، فأرجو المعذرة، وليسامحك الله.

قال الكونت هذا القول ثمَّ طوى الورقة وهمَّ بوضعها في جيبه، فاستوقفه الكردينال وقال له:

– إن شدّ ما يؤلم الروهانيَّ يا سيدي الكونت، هو أن يعطيه أحد دروساً في الكرم والسخاء، فكيف إذا كان هذا الدرس يتعلق بالصدق والاستقامة. فأرجوك ان تعطيني هذا السند، لأني قررت أن أدفعه لك.

وهنا جاء دور كاغليوسترو في التردد ... فالواقع أن وجه الكردينال الشاحب، وعينيه المنتفختين، ويده المرتعشة، قد أثارت شفقته.

والكردينال الفخور بما أُقدم عليه، أدرك ما يعتمل في نفس كاغليوسترو، فاعتقد للحظة، بأن تردده ستستتبعه نتيجة حسنة.

ولكن فجأة، تحجر قلب الكونت، ومدّ يده بالسند الى الكردينال ...

فلم يُضع الامير دي روهان، المطعون في قلبه، برهة من

الوقت، بل استدار فوراً نحو الخزانة التي كان كاغليوسترو قد أشار إليها، واستخرج منها كدسة من الأوراق النقدية، ثم أشار بإصبعه إلى عدة أكياس من الفضة، وسحب درجاً مليئاً بالذهب، وقال:

– هذا هو مالك يا سيدي الكونت، وسأبقى مديوناً لك بفائدة، حتى هذه الساعة، مقدارها مئتان وخمسون ألف ليرة، بالإضافة إلى الفائدة المركبة التي تشكل مبلغاً محترماً هي الأخرى. سوف أجري الحساب بواسطة مدير أعمالي، وأقدم لك كل التعهدات بالدفع، مع الرجاء بأن تستمهلني وقتاً كافياً لدفع هذه الفوائد.

فأجابه كاغليوسترو قائلاً:

– أنا يا سيدي قد أقرضت الأمير دي روهان خمسماية ألف ليرة. فالأمير دي روهان إذن، مديون لي بهذا المبلغ من دون زيادة ولا نقصان. فلو شئتُ قبض فوائد، لاشترطت أن يدوَّن ذلك في الإيصال. فبصفتي وكيلاً أو وريثاً لجوزف بلسامو، كما يروق لك أن تعتبرني طالما أن جوزف بلسامو قد مات وشبع موتاً، يتوجب عليَّ أن لا أقبض سوى المبلغ المدون في الايصال، وذلك مع الشكر وتقديم فائق الاحترام.

وبما إني بحاجة ماسة إلى كامل هذا المبلغ اليوم بالذات،

فسآخذ الآن الأوراق النقدية، وأبعث لتوّي من يأخذ الذهب والفضة، فأرجوك أن تبقيها لي جاهزة.

ثم دسّ كاغليوسترو الأوراق المالية في جيبه، وصافح الأمير باحترام، تاركاً إيصاله بين يديه، وخرج دون أن يجد الكردينال ما يقوله!

وبعد خروج كاغليوسترو، تنهد الأمير دي روهان وقال:

- إن الشقاء قد أصابني وحدي، لأن الملكة بمقدورها أن تدفع، وهي على الأقل، لن يأتيها جوزف بلسامو غير منتظر، ليطالبها بمبلغ خمسماية ألف ليرة.

الحسابات العائلية

★

قبل عشية اليوم المحدد لتأمين الدفعة الأولى للملكة، لم يكن بعد السيد دي كالون قد استطاع البرّ بوعده. لأن الملك لم يكن بعد قد وقّع على حساباته.

وصادف أن الوزير كان جدٌّ مشغول، فنسي الملكة قليلاً. والملكة، من جهتها، لم تسمح لها كرامتها بأن تذكر وزير المالية. فقد وعدها، وعليها أن تنتظر وعده.

ولكن القلق ابتدأ يساور الملكة ، فأخذت تبحث عن أفضل الوسائل لتكلم السيد دي كالون دون أن تعرّض نفسها لما لا تحمد عقباه . وفيما هي كذلك ، تلقت من الوزير المذكور بطاقة ، هذا ما جاء فيها :

«هذا المساء سيوقع في مجلس الوزارة على القضية التي شرفتني بالتكليف بها جلالتك، والمال سيكون عند الملكة غداً صباحاً .»

فعادت البسمة مشرقة عريضة إلى شفتي ماري انطوانيت ، ولم تعد تفكر بشيء ، حتى بذلك الغد المنتظر .

وكانت قد شوهدت في نزهاتها ، تقصد الممرات السرية كي تتجنب التفكير بكل ما هو مادي ودنيوي .

وبعض المرات كانت تتنزه برفقة السيدة دي لامبال والكونت دارتوا . وهذا الأخير كان ينضم إليهما عندما يدخل الملك الى مجلسه بعد العشاء .

لقد كان الملك ذا مزاج صعب . وزاد مزاجه صعوبة ، الأخبار السيئة الواردة من روسيا ، بالإضافة الى فقدان مركب في خليج الأسد ، والى رفض بعض المقاطعات تأدية الضريبة .

وزاد الطين بلة ، كرة أرضية جميلة كان الملك قد صقلها وطلاها بالبرنيق بنفسه . فقد انفجرت هذه الكرة من شدة الحرارة ، وبدت أوروبا عليها منشطرة الى شطرين عند ملتقى

الدرجة الثلاثين من خط العرض، بالدرجة الخامسة والخمسين من خط الطول، مما جعل جلالته يحرد على كل الناس، بمن فيهم وزير ماليته السيد دي كالون.

وعبثاً حاول دي كالون، بمظهره الباش الضاحك، أن يقدم له حقيبته الجميلة والمعطرة. فقد بقي الملك صامتاً مقطباً، يخربش على قطعة من الورق الابيض المصقول خطوطاً اصطلاحية في الخارطات تعني: «عاصفة»، كما تعني الجياد والأشخاص المصنوعين من الثلج: «طقس جميل».

إن الرسم أثناء انعقاد مجلس الوزراء كان عادة مستهجنة في الملك، لكن هذه العادة مردها أن لويس السادس عشر كان رجلاً خجولاً يتحاشى النظر الى الناس وجهاً لوجه، وكان القلم في يده يحفظ له وقاره ويقوي ثقته بنفسه. فإذا ما تكلم أحد باسطاً حججه وبراهينه، يشغل الملك نفسه بهكذا خربشات، ويسترق النظر إلى هذا وذاك من الحضور، بقدر لا ينسيه الرجل المتكلم، ويمكّنه في الوقت نفسه من الحكم على آرائه.

إذن تناول الملك القلم على عادته وأخذ يخربش به فيما كان الوزراء يناقشون المشاريع ويتلون التقارير الدبلوماسية.

وقد ترك المراسلات الخارجية تمرّ دون أن ينبس ببنت شفة، كأنه لم يفهم كلمة مما جاء فيها.

ولكن عندما بدأ مجلس الوزراء يبحث في تفاصيل الحسابات الشهرية، رفع لويس السادس عشر رأسه... فاغتنم دي كالون الفرصة وكاشفه بمذكرة تتعلق بقرض مقترح من أجل السنة المقبلة، فانبرى الملك يخربش وقال:

«دائماً قروض من دون أن نعرف كيف نسددها؟ إن هذا الأمر لمن الخطورة بمكان يا سيد كالون.»

فأجابه دي كالون قائلاً:

- إن القرض يا مولاي، هو بمثابة قناة للمياه، تختفي فيها المياه هنا لتظهر غزيرة هناك. وأكثر من ذلك، فإن هذه المياه ستتضاعف بفضل الامتصاصات الجوفية. لذا عوضاً عن أن نقول: كيف سندفع؟ يتوجب علينا أن نقول: كيف وممن سنقترض؟ لأن السؤال المطروح يا صاحب الجلالة، هو التالي: هل سنجد دائنين؟

فضاعف الملك رسم الخطوط بحركة عصبية دون أن يزيد كلمة واحدة، لأن قسمات وجهه كانت تتكلم...

وبعد أن انتهى السيد دي كالون من عرض مشروعه ونال موافقة زملائه، تناوله الملك ووقّع عليه وهو يتنهد.

وبعد أن تمت المصادقة، قال دي كالون وهو يضحك:

«أما وقد أصبح لدينا مال الآن، فلنصرف!»

فتطلع الملك إلى وزيره مكشراً، وكوّن من الخطوط التي رسمها على عجل، لطخة حبر كبيرة...

ورغم هذه التكشيرة، قدم له دي كالون جدولاً يتعلق بمعاشات، ومنح، وتشجيعات، وهبات، ورواتب عسكريين.

فأخذ الملك يقلب صفحات هذا الجدول على مهل. وعندما وصل إلى آخره، قال بعد أن تهيأ ليوقع على مبلغ مليون ومئة الف ليرة: كيف بلغت النفقات هذا المبلغ؟!

فأسرع وزير المالية إلى الإجابة بقوله:

– إقرأ يا مولاي، إقرأ! وتفضل ولاحظ بأنه على المليون والمئة الف ليرة، هناك نفدة وحيدة بلغت خمسماية الف ليرة.

فسأل الملك متعجباً:

– أية نفدة أيها الوزير؟

– إنها السلفة المعطاة إلى صاحبة الجلالة يا مولاي.

فصاح لويس السادس عشر:

– إلى الملكة!.. خمسماية ألف ليرة إلى الملكة! هذا مستحيل، مستحيل يا سيد دي كالون.

– عفواً يا مولاي، فالرقم مضبوط!

فعاد الملك يقول :

– خمسماية ألف ليرة للملكة ! يجب أن يكون هناك غلط . فالاسبوع الماضي... لا ، منذ خمسة عشر يوماً ، دفعت مخصصات الأشهر الثلاثة إلى جلالتها .

– لا داعي للعجب يا مولاي . فالملكة بحاجة إلى مال ، والكل يعرف كيف تتصرف بالمال جلالتها .

فصاح الملك من جديد :

– لا ، أبداً . الملكة لا تريد هذا المبلغ يا سيد دي كالون . فالملكة قالت لي : «إن شراء سفينة أفضل من شراء جواهر .» والملكة تعتقد بأن على الأغنياء أن يقرضوا فرنسا ، طالما أن فرنسا تقترض لإطعام فقرائها . إذن ، لو كانت الملكة بحاجة لهذا المال ، فقضلها سيكون أكبر إن هي صبرت للحصول عليه . وأنا أضمن لك ، بأنها ستصبر .

فصفّق الوزراء طويلاً لهذا الحماس الوطني الذي أظهره الملك ، باستثناء السيد دي كالون الذي أصرّ على طلبه ، لأنه كان يدرك فاقة الملكة .

عند ذاك قال له الملك :

– رويدك أيها السيد دي كالون ، ولا تكن ملكياً أكثر من الملك !

فقال دي كالون :

- مولاي، ان الملكة ستتهمني بعدم الغيرة على مصلحتها.

- سوف أدافع عنك، وأجد لموقفك مسوّغاً شرعياً لديها.

- مولاي، إن الملكة لا تطلب مالاً إلا عند الضرورة القصوى.

- إن حاجة الملكة، إذا كانت بحاجة، هي أقلّ إلحاحاً من حاجات الفقراء كما أعتقد، وهي ستكون أولى الموافقين على هذا الرأي.

- مولاي...

فقال الملك بعزم وتصميم: «هذه مسألة مفروغ منها.»

وأمسك بالقلم وهمّ بتحريك ريشته على الجدول المذكور، فصاح دي كالون مذهولاً:

- هل ستلغي المبلغ يا مولاي؟!

فأجابه لويس السادس عشر بعظمة وجلال:

- نعم سألغيه. ويتراءى لي بأني أسمع من هنا، صوت الملكة السمح، يشكرني لأني عرفت جيداً ما في قلبها.

فأخذ دي كالون يعضض شفتيه، فيما كان الملك، المغتبط بهذه التضحية الشخصية البطولية، يوقع على ما تبقى من الحسابات، وذلك بحسن نية مطلقة.

ثم عاد الى كتابة الخطوط، فرسم بها حماراً وحشياً جميلاً محاطاً بأصفار، وقال:

- لقد ربحت هذا المساء خمسماية الف ليرة! إنه يوم جميل في حياة الملك يا كالون، وعليك أن تنقل هذا الخبر إلى الملكة.

فدمدم الوزير قائلاً:

- أرجو أن تعفيني من هذه المهمة يا مولاي، لأنها مهمة شاقة بالنسبة لي.

- حسناً. لترفع الجلسة على كل حال، فقد كفانا ما عملنا، وما عملناه مشكور وجيد. آه! ها هي الملكة مقبلة، لنذهب إلى استقبالها يا كالون.

- مولاي، عفو جلالتك، فهناك توقيعي...

ثم انسحب بأسرع ما يمكن عبر المشى.

أما الملك، فقد ذهب متهلل الوجه إلى استقبال ماري انطوانيت، التي كانت تغني في الرواق وهي تسير متأبطة ذراع الكونت دارتوا.

فعندما أصبح لويس السادس عشر على مسافة قصيرة منها، بادرها بقوله:

- لقد قمت بنزهة جميلة يا سيدتي، أليس كذلك؟

- نزهة ممتعة يا مولاي. وأنت، هل عملت عملاً حسناً؟

- هذا يرجع إلى تقديرك ، فأنا قد أكسبتك خمسماية ألف ليرة ! فقالت الملكة في نفسها : «يبدو أن كالون قد أبرَّ بوعده.»

وأضاف الملك قائلاً :

- تصوري بأن كالون ، قد خصَّصك بمبلغ نصف مليون ليرة .

فصاحت ماري انطوانيت وهي تبتسم :

- أوه !..

- وأنا ... قد ألغيت المبلغ . فأكون قد ربحت خمسماية ألف ليرة بشطحة قلم !

فقالت الملكة وقد شحب لونها :

- كيف ألغيته ؟!

- بكل صراحة ، ذلك سيعود عليك بمنفعة طائلة . ليلة سعيدة يا سيدتي ، ليلة سعيدة .

- مولاي ! مولاي !

- إن الجوع ينهشني يا سيدتي ... لم أعد أقوى عليه ، فإلى الغد ، إلى الغد ...

- مولاي ، استمع إلي .

لكن لويس السادس عشر الذي راقت له تلك الدعابة ، كان قد نطنط هارباً ... تاركاً الملكة مبهوتة ، صامتة ،

ومروّعة. وبعد صمت دام ما يقرب الدقيقة، قالت للكونت دارتوا:

- إبحث لي يا أخي عن السيد دي كالون، فهناك خطر يتهددني ...

وبنفس الوقت، جاء من يحمل الى الملكة بطاقة وزير المالية التالي نصها:

«علمت جلالتك، ولا شك، بأن الملك قد رفض المبلغ. إن هذا العمل لا يُدرك كنهه يا مولاتي، لذا انسحبت من مجلس الوزراء، وقد برّحني الألم والمرض.»

فقالت الملكة وهي تمرر البطاقة إلى الكونت دارتوا:

- إقرأ!..

فصاح الكونت بعد أن قرأ:

- وهناك أناس يقولون بأننا نبذر ونبدد الأموال يا أختي! إنه لعمري تصرف ...

فهمهمت الملكة تقول:

- وقد قام به زوجي!.. وداعاً يا أخي.

- تقبلي مؤاساتي أيتها الأخت العزيزة. فها أنا قد أخذت علماً بما جرى، وسوف أبحث الأمر غداً.

فقالت الملكة إلى السيدة دي ميزاري، بعد أن فكرت ملياً:

- ليذهبوا ويأتوني بالسيدة دي لاموت، أينما تكون، وعلى جناح السرعة.

ماري انطوانيت ملكة
جانّ دي لاموت امرأة

★

إن الساعي الذي أرسلوه للبحث عن السيدة دي لاموت في باريس، قد وجد الكونتس، أو على الأصح لم يجدها لدى الكردينال دي روهان.

فالكونتس كانت قد ذهبت للقيام بزيارة نيافته، فاستبقاها عنده على الغداء، ثم على العشاء. وقد كانت تتباحث مع الكردينال بذلك الإلغاء المكدر للمنحة التي اقترحها دي كالون للملكة، عندما جاء الساعي يسأل عما إذا كانت السيدة دي لاموت لدى الأمير دي روهان، فأجابه الحاجب الفطن بأن صاحب النيافة قد خرج، وبأن السيدة دي لاموت ليست في القصر، ولكن لا شيء يفرّحها أكثر من أن أبلغها إرادة الملكة التي كلّفتك بنقلها إليها. إذ من المحتمل أن تأتي إلى القصر هذا المساء.

فأبلغه الرسول بأن الملكة تريدها أن تذهب إلى فرساي في أسرع وقت ممكن. وذهب فوضع نفس الخبر في كل المنازل التي كانت تتردد إليها الكونتس.

وما أن ذهب الرسول، حتى أرسل الحاجب زوجته فأبلغت الكونتس رغبة الملكة، فيما كان الشريكان، أي الكونتس والكردينال، يناقشان على مهل تقلبات أسعار الفضة.

فعندما تبلغت الكونتس إرادة الملكة، أدركت بأنه يتوجب عليها الإسراع في السفر إليها. لذا استقلت اول عربة تأمنت لها، وبعد ساعة كانت أمام القصر الملكي.

وقد كان من ينتظرها أمام القصر، فأدخلها رأساً على ماري انطوانيت.

في تلك الساعة، كانت ماري انطوانيت قد احتجبت في غرفتها بعد أن قُدمت لها كل خدمات الليل، ولم يبق في شقتها سوى السيدة دي ميزاري التي كانت تقرأ في الصالون الصغير.

أما ماري انطوانيت، فقد كانت تطرز، أو تتظاهر بأنها تطرز، وتصيخ السمع، قلقة، إلى كل حركة في الخارج، عندما أسرعت جانّ إلى الوقوف أمامها. فصاحت الملكة:

– آه! لقد أتيت؟ حسناً فعلت، فهناك خبر... أيتها الكونتس.

- سارّ يا مولاتي؟

- احكمي عليه. لقد رفض الملك الخمسماية ألف ليرة.

- رغم اقتراح السيد دي كالون؟!

- رغم اقتراح العالم. فالملك لا يريد أن أُعطى أي مبلغ من المال زيادة عمّا هو مخصَّص لي.

فهمهمت الكونتس قائلة:

- يا إلهي!...

- شيء لا يصدق. أليس كذلك أيتها الكونتس؟ رفض، وشطب أمر الدفع المعدّ! على كلٍ، لنكفَّ عن الكلام على الميت، يجب أن ترجعي بسرعة إلى باريس...

- بكل طيبة خاطر يا مولاتي.

- وتقولي للكردينال، طالما أنه قدم الدليل على تفانيه في سبيل إسعادي، بأني أقبل منه الخمسماية الف ليرة حتى موعد مخصصاتي الفصلية المقبلة. إني أُفرط في الأنانية أيتها الكونتس، ولكنها أنانية لا بدَّ منها...

فتنهدت جانّ من أعماق قلبها، ودمدمت قائلة:

- يا لحظنا التعيس يا مولاتي!.. فالكردينال لم يبق لديه مال!!

فقفزت الملكة من مكانها كأن حية لسعتها... وقالت بصوت متلجلج:

- لم يعد ... لديه ... مال !

- بكل أسف يا مولاتي . فهناك دين لم يكن الأمير دي روهان يحسب له أي حساب ، وإذ بالدائن يأتي فجأة ويطالبه به بإلحاح . وبما أن الدين هو دين ممتاز ، فقد اضطرَّ إلى دفعه .

- خمسماية ألف ليرة !!

- نعم يا مولاتي .

- ولكن ...

- إنه ماله الأخير ... ولم يعد لديه موارد !

فوقفت الملكة وقد طاش رأسها من هول المصيبة . ثم قالت بعد صمت قليل :

- كيف عرفت أيتها الكونتس ، بأن السيد دي روهان لم يبق لديه مال ؟

- لقد أطلعني على هذه الكارثة منذ ساعة ونصف يا مولاتي ، وهي كارثة لا يمكن تداركها ، لأن الخمسماية ألف ليرة هي كما يقولون : قعر الصندوق !

فأسندت الملكة جبهتها بكلتا يديها ، وقالت : «يجب أن أتّخذ قراراً .»

فكرت جانّ في نفسها قائلة : «ماذا ستعمل الملكة يا ترى ؟»

ثم أعلنت الملكة قرارها بقولها :

- إنها أمثولة رهيبة أيتها الكونتس، استحقيت معها القصاص، لأني قمت بعمل في هذه الأهمية دون علم الملك، بالإضافة إلى أنه عمل طائش لا مبرر له، لأنني لم أكن بحاجة الى هذا العقد. ألا تقرينني على ذلك؟

- هذا صحيح يا مولاتي. ولكن إذا لم تستشر الملكة سوى حاجاتها وذوقها...

- أريد أن استشير طمأنينتي قبل كل شيء، وطمأنينتي في سعادتي المنزلية. لم يكن يلزمني أكثر من هذه السقطة أيتها الكونتس، لأتيقن كم كنت سأعرّض نفسي للقلق، وكم كانت الطريق التي اخترتها محفوفة بالمصائب والنكبات. لذا تخليت عنها، واخترت طريق الصراحة، والحرية، والبساطة.

- مولاتي!

- وكي أبدأ هذه الطريق، علي كما قال دورات [1]، أن أضحي بمباهاتي على مذبح الواجب.

ثم تنهدت الملكة ودمدمت قائلة :

- مع أن هذا العقد، كان رائعاً!..

- فضلاً عن أنه رائع يا مولاتي، إنه قيمة مادية دائمة.

---

(١) شاعر وإنساني فرنسي.

– من الآن فصاعداً، لم يعد بالنسبة لي، سوى كومة من الحجارة، كتلك الحجارة التي يلهو بها الأولاد، ثم يرمونها بعد اللعب وينسونها.

– ماذا تريد أن تقول جلالة الملكة؟

– الملكة تريد أن تقول أيتها الكونتس العزيزة، بأنك سوف تحملين علبة المجوهرات ... التي جاءني بها السيد دي روهان، وتأخذينها إلى الصائغين، بوهمير وبوسانج.

– عليَّ أن أردَّها لهما؟!

– بالضبط!

– ولكن جلالتك يا مولاتي، قد دفعت مئتين وخمسين الف ليرة كعربون، وقد يمتنع الصائغان عن ردّها. فهل تخسرين هكذا مئتين وخمسين ألف ليرة؟!

– إني مستعدة للتخلي عن هذا العربون، شرط أن تُفسخ الصفقة. فمنذ استقرَّ هذا العقد في خزانتي، استقرت معه الهموم، والمخاوف، والشكوك. فهذه الحبات من الماس، لن تكون دافئة بما فيه الكفاية، لتجفف الدموع التي أشعر بأنها ستدفق كالأمواج من عينيَّ! فاذهبي بهذه العلبة عني فوراً أيتها الكونتس. وبالنسبة للصائغين، إنهما سيربحان مئتي ألف ليرة مقابل لا شيء. ومما لا شك فيه، أنهما سيكونان مسرورين جداً.

أما بالنسبة للكردينال، فأرجوك أن تبلغيه، بأن سعادتي هي في عدم رؤيتي لهذا العقد. فإذا كان رجل فكر، سوف يفهمني. وإذا كان رجل دين صالح، سوف يقرّ تصرفي ويقدر تضحيتي.

وبعد أن قالت الملكة هذا القول، مدُت يدها بالعلبة المغلقة صوب جانّ، فدفعتها هذه برفق وقالت:

– مولاتي، لماذا لا تحاولين الحصول على مهلة أخرى؟

– طلب مهلة!.. لا، لا!

– أنا لم أقل طلب مهلة، بل قلت الحصول على مهلة.

– إن الطلب فيه مذلة، والحصول فيه مهانة. وإذا كان التذلل مشكوراً من أجل شخص محبوب، أو من أجل إنقاذ حياة، فإنه غير مشكور من أجل أحجار تحرق كالفحم المتوهج من دون أن يكون لها نور. فاذهبي بهذه العلبة أيتها الكونتس، إذهبي بها، فلن تجدي أية وسيلة في عدولي عمّا عزمت عليه.

– ولكن فكّري يا مولاتي بالضجة التي قد يحدثها هذان الصائغان، وتأكدي بأن رفضك سيكون معرضاً للشبهات كما كان قبولك، لأن الشعب سيعلم بأن العقد كان في حوزتك.

– لن يستطيع الصائغان أن يقولا شيئاً، لأني لم أعد مديونة لهما بشيء. فالمئتان والخمسون الف ليرة التي ربحاها، هي ثمن صمتهما. وأعدائي عوضاً عن أن يقولوا بأني اشتريت عقداً من الماس بمليون ونصف المليون من الليرات، سوف يقتصرون على القول بأني بذرت مالي في التجارة، والكلام الأخير أقلّ إزعاجاً. فاذهبي أيتها الكونتس، إذهبي وقدمي شكري الجزيل الى السيد دي روهان، على ما أظهره نحوي من لطف وحسن استعداد.

وبحركة آمرة، سلمت الملكة علبة المجوهرات الى السيدة دي لاموت، وقالت لها:

– أسرعي ولا تدعي أحداً يشاهد العلبة. إذهبي بها الى منزلك أولاً، لأن زيارتك الى السيد بوهمير في مثل هذه الساعة قد تثير شكوك رجال الشرطة المهتمين ولا شك بما يجري عندي. وعندما يأتي الليل وتأمنين شرّ الجواسيس، توجهي إلى مكتب الصائغين وأتني بإيصال منهما.

فقالت جانّ وقد تأثرت بعض الشيء عندما شعرت بثقل العلبة بين يديها:

– أمراً وطاعة يا مولاتي، طالما أنك هكذا تريدين.

ثم خرجت وهي تضغط على علبة المجوهرات تحت دثارها بعناية، كي تخفي حجمها عن أعين الفضوليين، وصعدت

إلى عربتها بالحمية والمهابة اللتين يتطلبهما عملها كشريك متواطئ.

وعملاً بإرادة الملكة، توجهت جانّ إلى منزلها أولاً، ثم أعادت العربة إلى الكردينال دي روهان كي لا يكتشف أحد السر من الحوذي الذي أَقلَّها مع العقد من القصر الملكي. ونزعت ثيابها لترتدي ثياباً أقلَّ أناقة، وأكثر ملاءمة لهذه الجولة الليلية.

وقد لاحظت وصيفتها وهي تلبسها ثيابها بسرعة، بأن الكونتس كانت ساهمة شاردة الفكر طيلة المدة التي اقتضتها عملية إلباسها.

والواقع أن جان لم تكن تفكر بزينتها في تلك الساعة، بل بما أوحتها لها المناسبة.

فقد كانت تتساءل عما إذا كان الكردينال سيرتكب غلطته الكبرى بترك الملكة تردّ هذه الحلية، وعما إذا كانت هذه الغلطة، إن هو ارتكبها، ستقلل من إمكانية الحصول على الثروة التي يحلم بها الكردينال، بمشاطرته الملكة أسرارها الدقيقة.

وتساءلت أيضاً: إذا تصرفتُ وفق أوامر ماري انطوانيت، دون أن أستشير الكردينال، ألا أكون قد أخلفت بأولى واجبات الشراكة؟ ألن يفضل الأمير دي روهان، رغم فقدانه

كل موارده، أن يبيع نفسه من أن يترك الملكة محرومة من الشيء الذي تشتهيه وتتمناه؟ لا، لا، لا يجوز أن أقدم على هكذا عمل دون استشارته.

وأضافت تقول في نفسها:

«مليون وأربعماية ألف ليرة!.. من المستحيل أن يتمكن من الحصول على هكذا مبلغ!»

ثم استدارت فجأة نحو وصيفتها، وقالت لها:

- اخرجي يا روز!

فأطاعت الوصيفة، وأكملت السيدة دي لاموت مناجاة نفسها بقولها:

«أي مبلغ! أية ثروة! أية حياة متألقة، توفرها هذه الحلية الماسية المتوهجة داخل هذه العلبة الماثلة أمام عينيّ!»

ثم فتحت العلبة وسحبت العقد الذي بهر بريقه عينيها... وقالت بعد أن مرّرته على أصابعها واحتوته يداها الصغيرتان:

«إني أضمّ بين يديّ مليوناً وأربعماية ألف ليرة! وإنه لقدر غريب ذلك القدر، الذي أتاح لجانّ دي فالوا المتسولة، أن تلمس يدها يد ملكة فرنسا العظيمة ماري انطوانيت، وأن تمتلك يداها أيضاً، ولو لمدة ساعة واحدة، مليوناً ونصف المليون من الليرات، وهو مبلغ لا ينتقل إطلاقاً من مكان إلى

آخر، إلا إذا كان مخفوراً بالحراس المسلحين، أو بضمانة من هم في فرنسا بمنزلة كردينال أو ملكة.

ثم عادت جانّ إلى مناجاة نفسها، فقالت:

«هذا الماس النادر كله بين يديَّ!.. إذا ما استبدلته بأوراق نقدية، استلزمني جوادان لنقل هذه الأوراق ... ولكن لا، فالأوراق النقدية تبقى ورقاً، وعرضة للتلف إذا ما تعرضت للنار أو للماء. عدا أنها مع مرور الزمن، تفقد بعض قيمتها، وقد تفقد كامل قيمتها. بينما الذهب، ذلك المعدن النادر الثمين، يحتفظ بقيمته كاملة في كل مكان وزمان ...»

إلى أن قالت فجأة:

«ما لي وهذا التفكير! لأتّخذ قراراً من إثنين: إما زيارة الكردينال، وإما ردّ العقد إلى بوهمير كما كلفتني الملكة.»

ثم نهضت والعقد دائماً بين يديها، وتابعت تقول:

«هذه الماسات التي أحسّ بأن وهجها يكاد يحرق أصابعي، والتي كانت على وشك أن تتألق على جيد ماري انطوانيت، عليّ أن أعيدها إلى بوهمير الذي سيحتج في بادئ الأمر، لكنه بعد إمعان الفكر، سيثبت له أن العملية ليست خاسرة، إذ إنه سيحتفظ بالبضاعة والعربون معاً.

«ولكن الايصال ... آه! كدت أنسى الإيصال ... فبأية صورة يجب ان يحرر هذا الايصال؟ ذاك أمر مهمّ. نعم،

فالنص يجب أن يكون في غاية اللباقة كي لا يتورط بوهمير، ولا الملكة، ولا الكردينال، ولا أنا.»

«لا، لن أتحمل مسؤولية كلمات هذا الايصال وحدي، فأنا بحاجة إلى الكردينال.

«الكردينال ... أوه! حبذا لو كان الكردينال يحبني أكثر، أو غنياً أكثر، واشترى لي هذا العقد...»

ثم جلست على «صوفا» وأخذت تتأمل الماس الدالق على يدها... أخذت تتخايل هذا العقد الساحر في روعته وهو يلامس عنقها ويتألق عليه... وكانت الدقائق تمرّ بسرعة دون أن تشعر، إلى أن مضت ساعة بكاملها وهي في سكرة التأمل والتمني...

وأخيراً نهضت ببطء شاحبة اللون كأنها إحدى الكاهنات وقد نزل عليها الوحي... وقرعت الجرس تستدعي وصيفتها، وكانت الساعة قد بلغت الثانية بعد منتصف الليل!

ولما أقبلت الوصيفة، قالت لها:

- إبحثي لي عن عربة، أو نقالة إذا لم يعد هناك عربات خيل.

فوجدت الوصيفة عربة جياد كان صاحبها قد أوقفها في شارع التامبل القديم ونام على مقعدها، فاستقلتها السيدة دي لاموت وصرفت الوصيفة.

وبعد عشر دقائق، توقفت العربة أمام بوابة الصحافي الهجّاء ريتو...

إيصال بوهمير وشكران الملكة

★

هذه الزيارة الليلية التي قامت بها الكونتس إلى الصحافي الهجّاء ريتو، لم تظهر نتائجها إلا في اليوم التالي، وإلى القارئ ما حدث:

في الساعة السابعة من صباح ذلك اليوم، حملت السيدة دي لاموت إلى الملكة رسالة تتضمن إيصال الصائغين، وهذا هو نصّ تلك الرسالة الخطيرة:

«نحن الموقعين في ذيله، نعترف بأننا قد تسلّمنا العقد الماسي الذي بيع أصلاً إلى الملكة بمبلغ قدره مليون وستماية ألف ليرة. فالماسات لم تنل إعجاب الملكة، لذا عوضت عن مصاريفنا وأتعابنا بأن تخلت لنا عن العربون البالغ مئتين وخمسين الف ليرة، كنا قد قبضناها نقداً وعداً.»

التوقيع

«بوهمير وبوسانج»

بعد أن قرأت الملكة تلك الرسالة، وارتاح بالها من تلك الصفقة التي عذبتها طويلاً، خبأت الإيصال في خزانتها وأسقطته من تفكيرها.

ولكن، من غرائب التناقضات التي رافقت هذه العجالة، هي الزيارة التي قام بها الكردينال دي روهان إلى الصائغين بوهمير وبوسانج بعد يومين من إرسالها إلى الملكة، وقد كان الكردينال على شيء من القلق فيما يتعلق بالدفعة الأولى التي تمّ الاتفاق عليها بين التاجرين والملكة.

ولكن قلق الأمير دي روهان ما عتّم أن زال وتنفس الكردينال الصعداء، عندما دخل إلى منزل بوهمير واستقبل هذا الأخير زبونه الشهير بالرضى الفائت، فبادره الكردينال سائلاً:

– اليوم، هو اليوم المحدد للدفع، فهل دفعت الملكة؟

فأجاب بوهمير:

– لا يا مولاي، فالملكة لم تتمكن من الدفع، لأن الملك كما لا يخفاك، قد رفض اقتراح الوزير دي كالون، وهذا الرفض غدا حديث الناس كلهم.

– نعم، كل الناس يتحدثون عن ذلك، وهذا الرفض بالذات، هو الذي قادني إليك.

فتابع الصائغ يقول:

- لكن جلالتها رهيفة الذوق، ولديها استعداد طيب. فبما أنها لم تتمكن أن تدفع، قد ضمنت لنا الدين، ونحن لا نطلب سوى ذلك.

فصاح الكردينال:

- ضمنت الدين؟ آه! هذا شيء عظيم! ولكن... كيف؟

فأجاب الصائغ:

- بطريقة لا أبسط ولا أليق. بطريقة ملكية خالصة.

- قد يكون بواسطة تلك الكونتس الراجحة العقل؟

- لا يا مولاي، فالسيدة دي لاموت لم تظهر. وهذا ما جعلنا نُطنب في المدح، أنا وبوسانج.

- الكونتس لم تظهر؟! ولكن ثق بأن لها وزنها في هكذا عمل. وإذا قلت بأن الكونتس هي مصدر وحي وإلهام، فلا أكون قد انتقصت شيئاً من قيمة جلالتها.

- سوف يحكم مولاي، عما إذا كانت جلالتها لطيفة وطيبة معنا. فعلى أثر الضجة التي انتشرت حول رفض الملك لأمر الصرف القاضي بمنح الملكة خمسماية الف ليرة، كتبنا نحن إلى السيدة دي لاموت.

- متى كان ذلك؟

- البارحة يا مولاي.

– وبما أجابت؟

فقال بوهمير بلهجة فيها من الاحترام بقدر ما فيها من الدالة:

– أليست نيافتكم على علم؟

فأجاب الأمير محتفظاً بوقار مركزه:

– لا، فمنذ ثلاثة أيام، لم يحصل لي الشرف بمقابلة الكونتس أو رؤيتها.

– حسناً يا مولاي. إن السيدة دي لاموت أجابت بهذه الكلمة الوحيدة: «انتظرا!»

– خطياً؟

– لا يا مولاي، مشافهة. وقد رجونا السيدة دي لاموت في رسالتنا بأن تطلب منك مقابلة. وأن تلفت نظر الملكة إلى أن موعد الدفع قد اقترب.

فقال الكردينال:

– إن كلمة «انتظرا!» هي طبيعية تماماً.

– ولهذا انتظرنا يا مولاي. والبارحة مساءً، تلقينا بالبريد السري جداً، رسالة من الملكة.

– رسالة؟ لك يا سيد بوهمير؟

– أو بالأحرى شكران، طبقاً للأصول. ولو أننا لم نقسم

يميناً ، أنا وشريكي ، بأننا لن نطلع أحداً على هذه الرسالة ، لأطلعناك عليها يا مولاي .

– ولماذا أقسمتما اليمين ؟

– لأن هذا التحفظ قد فُرض علينا من قبل الملكة ذاتها يا مولاي .

– آه ! هذا شيء آخر . ويحق لكما أن تكونا جدَّ سعيدين ، لأنكما حصلتما على رسالة من الملكة .

فقال بوهمير وهو يضحك هازئاً :

– إن مليون وثلاثماية وخمسون ألف ليرة يا مولاي ، تستأهل رسالة ...

فقال الكردينال بقساوة :

– إن عشرة ملايين ، بل مئة مليون ، لا تستأهل مثل هذه الرسالة ولا هذه الطريقة في الدفع . على كل ، لقد نلتما الضمانة الكافية ؟

– بقدر الإمكان يا مولاي .

– ألم تعترف الملكة بالدين ؟

– بكل تأكيد .

– وتعهدت بالدفع ...

– خمسماية الف ليرة خلال ثلاثة أشهر ، والباقي بعد نصف سنة .

– و ... الفوائد ؟

– أوه ! إن كلمة من جلالتها تضمنها يا مولاي . فقد جاء في رسالتها الينا : «إن هذا الأمر ستتدبره فيما بعد» ، وأضافت تقول قبل أن توقع : «ولن أدع لكما مجالاً للندم .» فالقضية إذن يا مولاي ، هي منذ اليوم ، وبالنسبة لي ولشريكي ، قضية شرف .

فقال الكردينال الجذلان :

– وهكذا أكون قد أصبحت بريء الذمة تجاهك يا سيد بوهمير . فإلى اللقاء في صفقة ثانية .

– نرجو أن نحظى دائماً بثقة نيافتكم يا مولاي .

– ولكن لا تنسَ فضل تلك الكونتس اللطيفة في صفقة العقد هذه ...

– إن عرفان الجميل للسيدة دي لاموت ، هو واجب علينا . ونحن متفقان ، أنا وبوسانج ، على تقدير أتعابها عندما نستوفي كامل ثمن العقد .

فصاح الكردينال :

– صه ! صه ! فأنت لم تفهمني .

وعاد إلى عربته مشيعاً باحترام أهل المنزل كافة .

★

أصبح بإمكاننا الآن أن نُسقط القناع، بعد أن رُفعت الستارة عن التمثال وبدا ظاهراً لكل العيان. فما عملته جانّ دي لاموت ضدّ المحسنة إليها بات معروفاً، بعد أن رأيناها تستعين في تآمرها بقلم الكاتب الهجّاء ريتو.

فبعد أن انتفى كل قلق لدى الصائغين، وكل وسواس وحيرة لدى الملكة، وكل شك لدى الكردينال. وبعد أن تأمن لاقتراف جريمة السرقة ثلاثة أشهر، وهي مدة كافية لأن تنضج ثمار الشؤم وتقطفها اليد الأثيمة، توجهت جانّ الى قصر الأمير دي روهان، الذي بادرها بقوله:

– على أي نحوٍ تصرفت الملكة حتى تمكنت من تلطيف مطالب الصائغين؟

فأجابته السيدة دي لاموت:

– لقد باحت الملكة إلى الصائغين بسر، وهذا السر يقضي على الملكة بأن تحتاط لنفسها كثيراً عندما تدفع، كما يقضي عليها بأن تحتاط أكثر عندما تطلب اعتماداً.

فوافق الكردينال بأنها على حق، وفي ذات الوقت سأل عما إذا كانت الملكة لم تزل تتذكر نواياه الطيبة.

فقدمت له جانّ وصفاً دقيقاً لعرفان جميل الملكة، مما أثار حماس الكردينال وجعل قلبه يرقص فرحاً، كأنه عاشق متيَّم يسمع ثناء حبيبته عليه.

وعندما ثبت لجانّ بأنها حققت هدفها في وصفها هذا، قررت الرجوع الى منزلها، كما قررت التفاوض مع بائع مجوهرات كي تبيعه ماساً بما قيمته مئة الف ريال، ثم تسافر إلى انكلترا أو روسيا، على اعتبارهما بلدين مستقلين يمكنها العيش في أحدهما بهذا المبلغ عيشة ميسورة لمدة خمس سنوات أو ست. وفي نهاية هذه السنوات، تستأنف بيع ما تبقى لديها من حبات الماس، بالمفرق، ومن دون أن يساورها أي قلق.

ولكن حساب الحقل لم يطابق حساب البيدر. فقد أُصيبت بخيبة أمل كبيرة عندما عرضت بعض هذه الماسات على خبيرين من خبراء الماس، إذ دفع الأول بها مبلغاً زهيداً، فيما انذهل الآخر وصارحها بأنه لم يرَ في حياته مثل هذه الماسات إلا في عقد بوهمير الشهير...

فتوقفت جانّ عن البيع، إذ إنها لو خطت خطوة ثانية لافتضح أمرها. وأدركت بأن عدم التبصر في هكذا أمر، يعني الهلاك، والهلاك يعني عمود التشهير[1]، ثم السجن المؤبد. وذهبت فخبأت الماسات في قعر مخبأ أمين، وقررت التسلح بسلاح دفاعي قوي، وبسلاح هجومي أقوى، حتى

(١) عمود كان يربط به المتهم أو المحكوم لعرضه على الناس.

إذا ما خاضت عمار الحرب، تكون واثقة من النصر بهذين السلاحين على من سينازلها.

فالموازنة بين رغبات الكردينال الذي يريد أن يعرف كل شيء، وبين تطفلات الملكة المتباهية بالرفض دائماً، يكمن الخطر الرهيب. لأن كلمة واحدة تتبادلها الملكة مع الكردينال، سوف تفضح كل شيء. ولما كان الكردينال هائماً بالملكة، فقد شدد هذا الهيام من عزيمة جانّ، نظراً لمعرفتها التامة بأن المغروم هو شبه أعمى، أو بالأحرى بعير معصوب العينين، وبالتالي لا مفرّ له من الوقوع في أي شرك تنصبه له الحيلة في ظل الحب والغرام، خصوصاً إذا كانت المعشوقة ملكة كماري انطوانيت.

لكن هذا الشرك تلزمه يد ماهرة لنصبه بشكل يؤمن سقوط الملكة والكردينال معاً فيه. حتى إذا ما اكتشفت الملكة السرقة، لا تجرؤ على التشكي أو التذمر، وإذا ما اكتشف الكردينال خداعها يشعر بأنه مغلول اليدين.

إن جانّ دي لاموت لم تتعود الرجوع عما تكون قد صممت عليه، ذلك لأنها طُبعت على الجرأة والاقدام. فهي تدفع بالشر حتى البطولة، وبالخير حتى الشر. لذا كان همها الأول وشغلها الشاغل، أن تمنع لقاء الكردينال بالملكة. ولهذه

الغاية وضعت خطة، ثم قالت بعد ان اختمرت هذه الخطة في رأسها:

«لن أدعهما يلتقيان أبداً.»

إلا أنها استدركت قائلة:

- لكن الكردينال يرغب في رؤية الملكة، وهو سيحاول ذلك بإصرار.

ثم فكرت قليلاً، وتابعت تقول:

- يجب أن أنتظر كي يحاول، بل عليَّ أن أوحي له بهذه الفكرة. ليراها، وليسألها، وليعرِّض نفسه للخطر والشبهة في طرح الأسئلة عليها. ولكن... هل سيكون هو المتهم الوحيد؟

لقد أوقعتها هذه الفكرة في حيرة موجعة. فالملكة ستلجأ إلى كل السبل، وسترفع صوتها عالياً، وهي تعرف جيداً كيف تفضح المحتالين المخادعين وتعرّيهم.

فما العمل إذن لكتم فم الملكة ومنعها من التشكي؟.. هناك وسيلة واحدة لكمّ هذا الفم النبيل الشجاع، وهي أن تتخذ جانّ المبادرة في اتهام الكردينال.

فبهذه الطريقة لن تستطيع الملكة أن تتُّهم أمير الكنيسة بالسرقة، لأنها إن فعلت، سيوجه إليها الأمير دي روهان، المتهم بعلاقته بها، إتهاماً أشدَّ خزياً وعاراً من السرقة.

إنها الوسيلة الوحيدة، شرط أن لا تجمع المصادفة بين هذين المعنيين بكشف السرّ.

ترددت جانّ بادئ ذي بدء أمام ضخامة الصخرة التي ستنطحها برأسها، لأنها سوف تعيش في رعب دائم من أن تسقط هذه الصخرة عليها فتسحقها. نعم، ولكن كيف العمل للتخلص من هذا القلق والضيق النفسي المبرّح؟ أبالهرب إلى بلد غريب مع ماسات عقد الملكة؟

الهرب! إنه أمر ميسور. فمحفة جيدة يمكنها أن تقطع في عشر ساعات، المسافة التي يستغرقها رقاد ماري انطوانيت الهنيء، وهي المدة التي يستغرقها أيضاً، عشاء الكردينال مع شلّةٍ من أصحابه ونهوضه في اليوم التالي.

ولكن أية فضيحة! وأي عار! فاختفاؤها ولو بملء حريتها، ولو في مكان أمين ومحرّم، لن تبقى جانّ معه امرأة ذات منزلة رفيعة، بل ستصبح سارقة ومتهمة غيابياً. وإن لم تتمكن يد العدالة من الوصول إليها، فهي ستدلّ عليها. وان لم يطلها سيف الجلاد، فإن الرأي العام سوف يطالها وينفّذ حكمه بها، وحكم الرأي العام أرهب من حكم السيف.

لا، لن تهرب. فقمة الجرأة وقمة المهارة هما كقمتي الأطلس اللتين يصحّ تشبيههما بتوأمي الأرض. فالأولى

توصل إلى الثانية، والثانية تتساوى مع الاولى. ومن يرى الأولى، يرى الثانية.

وهكذا قررت جانّ أن تدفع ثمن جرأتها وتبقى... قررت ذلك بنوع خاص، عندما ثبت لديها بأن هناك مجالاً لخلق ترابط مرعب بين الكردينال والملكة، حتى يأتي اليوم الذي يكتشف فيه أحدهما بأن هناك سرقة قد ارتكبت في ظل حياتهما المتوادّة.

وسنرى كيف هذه المرأة العميقة القرار، ستشق الطريق الملتوي المتعرج الذي سيوصلها هي، إلى الخزي والعار، ويوصل الآخرين إلى اليأس والغمّ الشديدين.

خلصت الكونتس إلى القول بأن بقاءها في باريس يحتّم عليها مشاهدة كل الأدوار التي يقوم بها الممثلان، أي الكردينال والملكة، كما يحتّم عليها أن لا تدعهما يقومان إلا بالأدوار التي تعود بالنفع عليها، وأن تختار من بين الفرص المناسبة أفضلها للهرب، إما بإذن يعطى لها من الملكة، وإما اضطراراً بعد فقدان الحظوة فقداناً حقيقياً.

ويترتب على الكونتس قبل كل شيء أن تمنع الكردينال منعاً باتاً من الاتصال بماري انطوانيت، وهنا الصعوبة بنوع خاص، لأن دي روهان مغرم متيّم، وفوق ذلك فهو أمير يحق له بأن يدخل على جلالتها عدة مرات في السنة، دون

أن تعلم الملكة المغناجة والشغوفة بتقبُّل الاحترامات، والمقدِّرة لفضل الكردينال، بأنها هي الضالة المنشودة.

إن وسيلة الفصل بين هاتين الشخصيتين الجليلتين، تبقى مرهونة بالأحداث التي ستسعى جانٌ إلى توجيهها الوجهة الملائمة.

وفي ظنها، أن لا شيء سيكون أفضل لتحقيق ذلك، من استعمال براعتها في إثارة روح الكبرياء لدى الملكة، هذه الكبرياء التي تتوج رأسها بتاج العفة والفضيلة. ومما لا ريب فيه أن سلفة لا تعمِّر طويلاً من الكردينال، لن تجرح تلك المرأة الرهيفة الحسّ. فالنساء ذوات الطبائع المشابهة لطبيعة الملكة، يستهويهنّ تقبُّل التحيات والولاء، ولكنهنّ يصمدن أمام التجارب ويدفعن الهجمات.

نعم، إن الوسيلة مؤكدة النجاح. فبنصح الأمير دي روهان بأن يظهر عواطفه نحو الملكة بحرية، يتولد النفور والكراهية في نفس ماري انطوانيت، ويبتعد إلى الأبد ليس الأمير عن الملكة، بل الرجل عن المرأة، والذكر عن الأنثى. في الوقت نفسه يصبح بيد الكونتس سلاح يمكنها أن تشهره في وجه الكردينال، فتشلّ به كل تحركاته في يوم العداء العظيم.

ولكن إذا جعلت الكردينال ممقوتاً من الملكة، فذلك لا يطال سوى الكردينال وحده، بينما يبقى شعاع الفضيلة يشع من الملكة، أي تكون جانّ قد أنقذت الملكة وأعطتها حرية التكلم التي تقوّي سلطتها وتسهل معها كل تهمة.

فالذي يجب عمله إذن، هو إثبات ضدّ الملكة والكردينال معاً، يكون بمثابة سيف ذي حدين يجرح على الشمال وعلى اليمين، ويجرح فيما هو خارج من غمده، كما يجرح إذا ما بُتر الغمد ذاته.

إن ما يجب عمله هو اتّهام يجعل ماري انطوانيت شاحبة اللون، ويصبغ وجه الكردينال بالاحمرار. إتّهام يبعد كل شبهة عن جانّ ويبقيها موضع ثقة المذنبين الرئيسيين. إن ما يجب عمله هو خطة تعتصم الكونتس وراءها وتمكّنها من أن تقول: لا تتهماني وإلا اتهمتكما. لا تفضحاني وإلا فضحتكما. اتركا لي ثروتي، أترك لكما شرفكما...

هذا ما أخذت تفكر به تلك الكونتس القادرة، عندما اقتربت لتوّها من نافذتها المغمورة بأشعة الشمس الحارقة، وفي اعتقادها أن الوقت بات ثميناً جداً ويجب عليها أن لا تضيّع ثانية واحدة منه.

الأسيرة

★

فيما كانت الكونتس ترسم خطوط المؤامرة على الملكة والكردينال معاً، كان هناك مشهد آخر يمثل في شارع سان كلود، تجاه المنزل الذي تقطنه جانّ. فالكونت دي كاغليوسترو، كما يذكر القراء، كان قد أقام في منزل بلسامو القديم، الهاربة أوليفا، الملاحقة من قبل شرطة السيد دي كروسن.

والآنسة أوليفا، القلقة جداً، والتي شكرت المناسبة التي أتاحت لها الهرب من الشرطة ومن بوزير، كانت تعيش، واجفة محجوبة عن الأنظار، في ذلك المسكن الغامض الذي عرف الكثير من المآسي الرهيبة التي فاقت مأساة الآنسة نيكول ليغي الهزلية.

فكاغليوسترو كان قد أحاطها برعايته وغمرها بلطفه، فطابت نفس هذه المرأة الشابة، إذ وجدت نفسها بحماية سيد قدير لا يريد منها شيئاً إلا أنه، كما يبدو، يأمل بالكثير.

ولكن ما الذي يأمله؟؟ هذا ما كانت تسائل نفسها عنه من دون جدوى، تلك المخلوقة المنزوية.

فبالنسبة للآنسة أوليفا، كان كاغليوسترو، ذلك الرجل الذي قهر بوزير وانتصر على رجال الشرطة، إلهاً منقذاً. وكان أيضاً عاشقاً متدلهاً، لأنه كان يحترمها.

فحب الذات لدى أوليفا، لم يسمح لها بأن تعتقد بأن كاغليوسترو يريد منها، سوى أن تصبح عشيقته في يوم من الأيام.

لذا أخذت تعلل النفس داخل جدران ذلك المنزل المهجور في شارع سان كلود، وتبني القصور والعلالي القائمة على الوهم والخيال، وكلها أمل بأن بوزير المسكين سوف يقرها على تصرفها، وأنه سيجد له مكاناً في مملكة سعادتها المقبلة.

وكان كاغليوسترو قد أثَّث غرفة الزينة التي خصَّص بها أوليفا بالأثاث الفخم والألبسة الأنيقة وكل أدوات الزينة والتجميل. فكانت تهب أوليفا كل صباح إلى غرفة زينتها فتتجمل وتتحلى وترتدي أجمل الثياب، لأن ساعات الصباح كانت حلمها الذهبي، إذ اعتاد كاغليوسترو أن يزور أوليفا في مثل هذا الوقت مرتين كل أسبوع، وذلك ليستعلم عما إذا كانت أسيرته تتحمل حياة العزلة بسهولة.

إذن، في صالونها الجميل ووسط مظاهر الترف، جلست تلك المخلوقة المعجبة بنفسها تعترف لذاتها بأن كل ما في حياتها الماضية كان مخيباً للآمال وضلالاً بضلال، وأنه

عكس قول الأخلاقيين بأن الفضيلة تصنع السعادة، فالواقع أن السعادة هي التي تصنع الفضيلة.

وبكل أسف، كان ينقص أوليفا في عزلتها عنصر هامّ وضروري كي تستمرّ سعادتها. فأوليفا كانت سعيدة، لكنها كانت سئمة ضجرة...

فالكتب، واللوحات، والآلات الموسيقية، لم تكن كافية لتسليتها. فالكتب لم تكن حرة في اختيارها، وما توفر لها منها قد قرأته قراءة سريعة. واللوحات هي إياها دائماً لا تتغير ولا تتبدل. والآلات الموسيقية لا ينبعث منها سوى صراخ، لم يكن أبداً صوتاً حياً يسترعي الإنتباه.

لذا لم يطل الوقت بأوليفا حتى شعرت بالضجر من سعادتها، وكثيراً ما ذرفت الدموع السخينة متحسرة على تلك الصبيحات القصيرة الجميلة التي كانت تقضيها أمام نافذتها المطلة على شارع دوفين، حين كانت تمغنط الشارع بنظراتها، وترفع الأنظار إليها بقوة سحرها وجاذبيتها.

ويا لها من نزهات جميلة تلك التي كانت تقوم بها في منطقة سان جيرمان، وهي منتعلة ذلك البابوج المغناج الرافع على كعبيه قدميها النحيفتين، والتي كانت كل خطوة تخطوها به أوليفا الفاتنة تحقق نصراً لها، وتنتزع صياح

المعجبين، إما خوفاً عليها عندما تزلق، وإما بدافع الشهوة الجنسية عندما كانت تتكشف ساقاها قليلاً...

هذا ما كانت تفكر به نيكول، أو أوليفا، وهي محتجزة حبيسة. وإنه لصحيح بأن رجال الشرطة أناس مرعبون، وصحيح أيضاً بأن السجن المخصص للنساء هو سجن رهيب يفنين فيه ببطء، ويبقى السجن الوقتي الكبير في شارع سان كلود أرحم منه بكثير، ولكن ما الجدوى أن تكون امرأة لها الحق بأن تعيش نزواتها، إذا لم تتمرد بعض المرات ضدّ الخير لتستبدله بالشر، ولو بالحلم على الأقل؟

ثم اسودّ كل شيء في عينيها الضجرتين، وأخذت نيكول تتأسف على بوزير، بعد أن تأسفت على حريتها. ولنعترف هنا، بأن شيئاً لم يتغير في عالم النساء، منذ الزمن الذي ذهبت فيه بنات يهودا، عشية زواج حب، يبكين بكارتهن على قمة الجبل.

وجاء يوم نفد فيه صبر أوليفا بعد أن طال ضجرها وحرمانها. فأقعدها الحزن في غرفتها لا تقوى على الخروج منها ولا حتى على الوقوف أمام نافذتها. وبدأت تفقد شهية المعدة من دون أن تفقد شهية التخيل التي، بالعكس، كانت تزداد كلما قلّت شهية الاولى.

في هذه البرهة من الضيق النفسي والانحطاط المعنوي، تلقت أوليفا زيارة كاغليوسترو غير المنتظرة في ذلك اليوم.

دخل الكونت على عادته من الباب الواطئ للقصر، واجتاز الحديقة الصغيرة للوصول إلى الشقة التي تشغلها أوليفا، حيث طرق بابها أربع طرقات متباعدة، وهي الإشارة المتفق عليها كي تسحب المرأة الشابة المغلاق، الذي كان بمثابة صمّام الأمان بينها وبين الزائر الذي يحمل مفاتيح سجنها.

وعندما ثبت لأوليفا من الطارق، فتحت الباب بسرعة تنمّ عن رغبة ملحة في قول ما يجب قوله.

وبروح الشابة الفرنسية المرحة، اندفعت إليه وأخذت تلاطفه وتداعبه، ثم قالت له بصوت مثير، أبحّ ومرنّ:

- إعلم يا سيدي، بأني ضجرة!

فتطلع إليها كاغليوسترو مع حركة خفيفة من رأسه، وقال لها وهو يغلق الباب:

- ضجرة يا صغيرتي العزيزة؟ إنه لأمر مؤسف!

- إني مغتمة هنا، وأكاد أموت.

- صحيح!

- نعم، ولديَّ أفكار سيئة.

فقال لها الكونت مسكّناً، وكأنه يسكّن كلباً صغيراً:

– رويدك ! إذا كنت على غير ما يرام عندي ، فاحتفظي بغضبك لمدير الشرطة ، الذي هو لا أنا عدوك .

فقالت أوليفا :

– إنك تثير سخطي برباطة جأشك يا سيدي ! فأنا أفضل الغضب على مثل هذه الرقة . إذ إن الطريقة التي تستعملها لتهدئتي ، تجعلني كالمجنونة من فرط غيظي .

فأجابها كاغليوسترو وهو يجلس بعيداً عنها :

– اعترفي أيتها الآنسة ، بأنك غير عادلة .

فقالت له :

– أنت تتكلم يا سيدي ، وتذهب ، وتأتي ، وتتنفس ، كما يحلو لك . وحياتك هي مجموعة ملذات اخترتها بنفسك . أما أنا ، فإني أعيش خاملة في المسافة التي حددتها لي ، والتي تكاد تخنقني . وبصراحة ، أنت تدفعني إلى الموت !

فقال الكونت مبتسماً :

– أدفعك إلى الموت ! ما هذا الكلام !

– أريد القول بأنك تتصرف تجاهي تصرفاً مسيئاً للغاية . فقد نسيت بأني أحب واحداً بكل جوارحي .

– السيد بوزير ؟

– نعم ، بوزير . إني أحبه ، وأعتقد بأني لم أُخفِ عليك

هذا الحب إطلاقاً. ألم تظن بأني سوف أنسى في عزلتي عزيزي بوزير؟

– قلما افترضت ذلك أيتها الآنسة. فقد بذلت قصارى جهدي كي أقف على أخباره وأنقلها إليك.

فصاحت أوليفا مندهشة:

– آه!..

وأكمل كاغليوسترو يقول:

– إن السيد دي بوزير، هو شاب ظريف.

فقالت أوليفا:

– قسماً بالله، إنه هكذا!

– فتيّ ولطيف.

– أليس كذلك؟

– وذو مخيلة واسعة.

– إنه ناريّ... فظ بعض المرات عليّ، لكن... الذي يحب كثيراً، يعاقب كثيراً.

– إن كلامك من ذهب. فأنت لديك قلب يوازي روحك، وروح توازي جمالك. وأنا الذي يعرف ذلك، أنا الذي يهتم بكل حب في العالم – وهي عادة مستهجنة – قد فكرت بأن أجمعك بالسيد دي بوزير.

فقالت أوليفا وهي تبتسم مكرهة:

- لم تكن هذه فكرتك، منذ شهر.

- أصغي إلي يا ابنتي العزيزة. كل امرئ رقيق الحاشية يرى شخصاً جميلاً، يسعى لأن يرضيه عندما يكون حراً طليقاً كما أنا. مع ذلك، فأنت تعرفين بأني لو عملت لك المستحيل في مغازلتك، لما دام ذلك طويلاً، أليس كذلك؟

فأجابته أوليفا وقد شحب لونها:

- هذا صحيح.

- لذا من الطبيعي أن انسحب، بعد أن رأيت كم تحبين بوزير.

- أوه! إنك تهزأ مني.

- لا، بالشرف! حتى أنك قاومتني جيداً.

فصاحت أوليفا فرحة:

- أوه! نعم، اعترف بأني قاومتك.

فقال كاغليوسترو ببرودة:

- وذاك كان تكملة لحبك.

فأجابت أوليفا بحدة:

- لكن حبكَ أنت، يومئذ، لم يكن أبداً حباً عنيداً.

- أنا لست مسناً، ولا بشعاً كثيراً، ولا أحمق كثيراً، ولا فقيراً كثيراً، كي أتحمل الرفض أو الهزيمة. لقد شعرت بأنك فضّلت علي بوزير بصورة دائمة، فأذعنت للأمر الواقع.

فقالت تلك المغناجة :

أوه! لكن أبداً، أبداً! فتلك الشراكة الشهيرة التي اقترحتها علي، كما لا يخفاك، وذلك الحق بأن تقصدني وان تتصرف معي كعشيق، أليس ذلك بقية أمل صغيرة؟

قالت تلك المخاتلة هذا القول، وأخذت تكوي بنار عينيها المشتعلتين بالشهوة، الزائر الذي وقع في شباكها. فأجاب كاغليوسترو :

- إني أعترف بذلك، فأنت ذات نفوذ لا يقاوم!

وأخفض عينيه مداجاة، كي يتحاشى نظرات أوليفا النارية، فقالت له هذه الأخيرة :

- لنرجع إلى بوزير، فماذا يعمل، وأين هو هذا الصديق العزيز؟

فنظر اليها كاغليوسترو بشيء من الحياء، وأجابها :

- قلت لك بأني أودّ أن أجمعك به.

فدمدت أوليفا قائلة :

- طالما أنك تقول هذا القول، فلماذا لم تأتِ به؟

فقال كاغليوسترو :

- لأن السيد بوزير، هو مثلك أيضاً، ملاحق من قبل الشرطة.

فصاحت أوليفا وقد شحب لونها :

- ملاحق !! ولكن ما الذي عمله؟

- شيطنة تستهوي القلوب، ليست بنظري سوى دعابة. لكن رجال السيد دي كروسن السمجاء، بل دي كروسن السمج ذاته، اعتبر هذه الدعابة سرقة.

فصاحت أوليفا مرتعبة:

- سرقة !.. يا إلهي !

- إنها سرقة ظريفة، تثبت كم هو ذوّاقة هذا المسكين بوزير.

- سيدي ... سيدي ... هل أُوقفَ؟

- لا، ولكنه ملاحق وأوصافه معممة.

- هل تقسم لي بأنهم لم يلقوا القبض عليه، وبأنه ليس في خطر؟

- أستطيع أن أقسم لك بأنه غير موقوف. أما بالنسبة للنقطة الثانية، فلا أستطيع أن أتعهد لك بشيء. فأنت تعلمين جيداً يا صغيرتي، بأن من تُعمَّم أوصافه، ليس سوى شخص مستهدف للملاحقة وإلقاء القبض عليه، ولن يصعب على الجواسيس أن يكتشفوا مكان بوزير إن عاجلاً أم أجلاً. ففكري قليلاً بهذه الشبكة التي طرحها السيد دي كروسن لتعلقي أنت بها بواسطة بوزير، وليعلق بها بوزير بواسطتك.

- أوه! نعم، نعم، يجب أن يتخفّى ذلك المسكين ! وأنا

أيضاً عليَّ أن أتخفَّى. فهرِّبني إلى خارج فرنسا يا سيدي. حاول أن تسدي إلي هذه الخدمة. لأني هنا، كما ترى، أكاد أختنق في عزلتي، وسيأتي يوم لن أستطيع أن أقاوم فيه التصرف الطائش.

– ماذا تقصدين بالتصرف الطائش يا آنستي العزيزة؟

– ولكن... دعني أظهر، دعني أتنشق الهواء قليلاً.

– إلزمي حدك أيها الصديقة الطيبة. فأنت شاحبة اللون، وسيقضي بك الأمر إلى فقدان صحتك الجيدة. إن السيد دي بوزير لم يعد يحبك. أما الهواء فيمكنك أن تتنشقي منه بقدر ما تشائين، كما يمكنك ان تتسلي بقدر ما تشائين برؤية الوجوه البشرية تمرُّ من أمامك.

فقالت أوليفا:

– يبدو لي أنك غاضب عليَّ، وأنك تريد التخلي عني. فهل أصبح وجودي يزعجك؟

– يزعجني أنا؟ هل أنت مجنونة؟ ولماذا يزعجني؟

– لأن رجلاً ذا ذوق بالنسبة للمرأة، رجلاً مهماً مثلك، وسيداً وسيماً كما أنت، له الحق بأن يغضب، وأن يتقزز أيضاً، إذا ما رفضته امرأة مجنونة مثلي. أوه! بربك لا تتركني، لا تغضب عليَّ يا سيدي، فيقضى عليَّ!

كانت تلك المرأة الصبية مغتاجة بقدر ما كانت مرتاعة في

تلك الساعة ، فطوقت بذراعيها عنق كاغليوسترو الذي قال لها بعد أن طبع قبلة بريئة على جبينها :

– كم أنت خائفة أيتها المسكينة الصغيرة ! لا تسيئي الظن بي يا ابنتي ، فقد قمت بخدمتك عندما كنت تمرين بمرحلة خطرة . كانت لدي أفكار بخصوصك ، وقد عدت عنها ، هذا كل شيء . وليس في نفسي أية ضغينة عليك لأنك لم تقدري جميلي . فما عملته قد عملته من أجل نفسي ، كذلك فعلت أنت . لذا أصبحنا بريئي الذمة .

– آه كم أنت طيب يا سيدي ، وكم أنت كريم !

قالت أوليفا هذا ثم ألقت ذراعيها الاثنتين على كتفي كاغليوسترو ، الذي نظر اليها بطمأنينته المعتادة وقال لها :

– أراك تعرضين عليَّ حبك الآن ، أما أنا ...

فقالت متعجبة وقد صبغ الإحمرار وجهها :

– إيه !

– أنت تعرضين علي شخصك المستحق العبادة ، وأنا أرفضه ، لأني لا أرغب بسوى العواطف الحقيقية المجردة عن كل غاية ومصلحة . فلنبق كما نحن إذن ، وثقي بأني سوف أحقق رغباتك وأعمل كل ما يريحك .

فسقطت ذراعا أوليفا الجميلتان وابتعدت خجلة ، ممتهنة ، مخيَّبة الآمال ، لا تدرك الغاية من سخاء كاغليوسترو عليها .

عندئذ قال لها كاغليوسترو:

- وهكذا يا عزيزتي أوليفا، نكون قد اتفقنا على ان تحتفظي بي كصديق لك تمحضينه ثقتك، وأنا سوف أضع تحت تصرفك قصري، ومالي، و...

- وأنا سوف أقول لك، بأن هناك رجلاً في هذا العالم، يفوق كل الرجال الذين تعرفت إليهم.

تلفظت أوليفا بهذه الكلمات بروعة وعظمة كان لهما التأثير الفعال في تلك النفس القاسية التي كانت تتلبس، فيما مضى، جسد من كان يدعى بلسامو، فقال كاغليوسترو في نفسه:

«كل امرأة تصبح صالحة، بمجرد أن يلمس المرء أوتار قلبها.»

ثم تقدم من نيكول وقال لها:

- ابتداء من هذا المساء، سوف تقطنين في الطابق العلوي من قصري وتتمتعين بحرارة الشمس. إنها شقة مؤلفة من ثلاث غرف تشرف على البوليفار وعلى شارع سان كلود، ونوافذها تطل على منيلمونتان وبالّوفيل. في هذه الشقة، سيتمكن بعض الاشخاص من رؤيتك، فلا تخافي منهم لأنهم جيران دمثو الأخلاق وديعون. ولكن إياك أن تدعي

المارة في شارع سان كلود يرونك، إذ قد يكون رجال السيد دي كروسن بين هؤلاء المارة.

ثم أكمل كاغليوسترو يقول بعد أن ضربت أوليفا، فرحة، كفاً بكف:

– هل تريدين أن أقودك إلى الطابق العلوي؟

– هذا المساء؟

– بدون أي شك هذا المساء. هل الأمر يزعجك؟

فنظرت أوليفا ملياً إلى كاغليوسترو، فشعرت أن قبساً من الأمل قد أنار ظلمات قلبها، ثم قالت له:

– هيّا!

– فجاء الكونت بمصباح من غرفة الانتظار، وأشار إلى أوليفا بأن تتبعه. ثمّ فتح بنفسه عدة أبواب، وتسلق درجاً، وأخيراً وصل إلى الشقة التي عينها إلى أسيرته في الطابق الثالث، فإذا بها شقة مفروشة كلها، وزاهرة كلها، وكلها صالحة للسكن. فصاحت أوليفا مشدوهة:

– هل من أجلي أعدت هذه الشقة؟

– لا، بل من أجلي أنا. فكثيراً ما يطيب لي الرقاد هنا، حيث المنظر يستهويني.

وما أن حركت أوليفا شفتيها، حتى قاطعها كاغليوسترو بهذا الكلام:

- لن ينقصك شيء هنا. فوصيفتك ستكون قربك بعد ربع ساعة. عمي مساءً يا آنستي.

وتوارى، بعد أن انحنى باحترام والابتسامة اللطيفة على شفتيه.

فترامت الأسيرة المسكينة، واجمة متلاشية، على السرير الذي كان بانتظارها في تلك الغرفة، ودمدمت تقول وهي تلاحق بعينيها ذلك الرجل الغامض:

- لا أدري، ما الذي يخبأ لي!..

المرصد

★

ما أن ترامت أوليفا على السرير، حتى حضرت الوصيفة كما وعدها كاغليوسترو. لكن أوليفا صرفتها ونامت قليلاً. نامت وهي تفكر فيما جرى بينها وبين كاغليوسترو، لذا لم تحلم سوى أحلام متقطعة وقلقة. فالمرء لا يستطيع أن يسعد كثيراً عندما يصبح غنياً، إذا ما كان قبلاً شديد الفقر، أو كثير الاهتياج.

لقد تشكّت أوليفا من بوزير، وأظهرت إعجابها بالكونت الذي لم تكن تفهمه، إذ لم تكن تعتقد أنه هيّاب إلى هذه الدرجة، عدا أنها كانت تتصوره شخصاً فاقد الإحساس.

وفي ساعة مبكرة، نهضت من فراشها وأخذت تطوّف في أقسام مسكنها الجديد، وقد أدهشها ما يحتويه من غنى يتّسم بالبساطة والجمال. فقد وجدت فيه كل ما يحببها بالحياة، بعد أن تنعمت بضحى النهار والهواء الطلق اللذين حُرمت منهما طيلة المدة التي مكثتها في سجنها الأول.

لقد شعرت أوليفا بالفرحة الكاملة فأخذت تنطّ من مكان إلى آخر كما الأولاد، ثم أسرعت إلى السطيحة ونامت على بلاطها وسط الأزهار والحشائش كأنها الحنش الخارج من وكره.

وبعد أن نامت هكذا، أخذت، تداركاً من أن يراها أحد من الخارج، تنظر من خلال القضبان الحديدية للشرفة، إلى القمم والأشجار، وإلى البولفارات، وإلى المنازل والمداخن في حيّ بوبنكور.

وهكذا، مغمورة بأشعة الشمس، ممطوطة الأذن إلى جلبة العربات الدارجة على البوليفار، استمرت نائمة، وهي في أوج سعادتها، لمدة ساعتين. حتى أنها، بقدر ما كانت مستنعمة، اكتفت من غدائها بالشوكولاته التي جاءتها بها

وصيفتها، وقرأت صحيفة بكاملها قبل أن تفكر بالنظر إلى الشارع تحتها!

لقد كانت أوليفا في بهجة ساعتذاك، لكنها بهجة محفوفة بالخطر...

فجواسيس السيد دي كرونس، تلك الكلاب البشرية التي تصطاد وأنفها في الهواء، باستطاعتها أن تراها. وإذا ما رأتها، فأية يقظة مرعبة ستكون يقظتها، بعد نعاس هو في غاية العذوبة؟

ولما كانت أوليفا في وضع أفقي لا يمكنه أن يدوم، رفعت نفسها واستندت الى كوعها. وعندئذ شاهدت أشجار الجوز في «منيلومونتان»، وعشرات الآلاف من المنازل المتعددة الألوان التي تتصاعد ابتداءً من «شارون» حتى تلالها الصغيرة، وذلك بين فسحات من الاخضرار، أو على قطع جبسية من الأراضي الصخرية العالية والمكسوة بالخلنج وشوك الجمال.

وهنا وهناك على الطرقات. كانت تشاهد أوشحة دقيقة تتموج في شعاب هذه الجبال الصغيرة، وفي الطرقات الضيقة بين كروم العنب، فتبدو وكأنها كوائن حيّة تشبه فلاحين تخبّ على ظهور حميرها، أو اولاداً يحنون على الحقول لينزعوا العشب منها. أو كرّامين يعرضّون عناقيد العنب لأشعة الشمس.

هذه المناظر الريفية البديعة خلبت لبَّ نيكول، التي كانت دائماً تتنهد كلما عادت بالمخيلة إلى الحقول الريفية في تافرني، بعد أن تركت هذه الحقول قاصدة باريس وفي قلبها شوق كبير إليها.

ومع ذلك، انتهت بإشباع غليلها من منظر هذا الريف الخلاب. وبما أنها كانت قد اتخذت لها وضعاً مريحاً وآمناً على الزهور، بشكل يتيح لها أن ترى ولا تُرى، فقد أخفضت بصرها من الجبل إلى الوادي، ومن الأفق البعيد إلى المنازل المقابلة لها.

فوجدت أوليفا في الفسحة التي تشتمل على ثلاثة منازل، كل النوافذ مغلقة، ونوعاً ما متشابهة. فهنا منزل من ثلاث طبقات يقطنها بعض أصحاب المداخيل المسنين، وهناك منزل من أربع طبقات ليس فيها سوى رجل من سكان مقاطعة أوفارن، أما بقية المستأجرين فيبدو أنهم غائبون. وأخيراً على الشمال قليلاً، في المنزل ذي الستائر الحريرية الصفراء والمغمور بالزهور، والذي كل ما فيه يدل على اليسر ورفاهية العيش، تنتظر تكأة وثيرة قرب إحدى نوافذه، من يحلم أو من تحلم بالجلوس عليها.

وتصورت أوليفا بأنها لمحت في هذه الغرفة المغمورة بنور الشمس، ظلاً متجولاً ذا حركات متناسقة. فاختبأت أفضل

مما كانت عليه، واستدعت إليها وصيفتها وشرعت في مدّ حديث معها علها تستدرجها إلى كشف سرّ هذا الظل الذي تراءى لها. لكن الوصيفة بقيت متحفظة. فقد حدثتها عن كل شيء يقع البصر عليه، حتى عن كنائس سان امبرواز وسان لوران. ولكن عندما أصبح السؤال المطروح متعلقاً بالجيران، لم تجد الوصيفة ما تقوله، لأنها لم تكن تعرف عن الجيران أكثر مما تعرف سيدتها.

إذن لم تعرف أوليفا شيئاً عن الظل المتجول في الشقة ذات الستائر المخملية، ولا عن التكأة الوثيرة.

واذا كان الحظ لم يسعدها بمعرفة جارتها مقدماً، فبإمكانها أن تعد نفسها بالتعرف إليها من دون واسطة أحد. لذا صرفت الوصيفة الكتومة وأكبت هي، بدون شاهد، على سبر سرّها.

ولم تطل السانحة كثيراً حتى حضرت. فالجيران بدأوا يفتحون أبوابهم، بعضهم للقيلولة بعد الغداء، والبعض الآخر ليرتدي ثيابه استعداداً للنزهة في الساحة الملكية أو على الطريق الخضراء.

لقد عدتهم أوليفا واحداً واحداً، فإذا بهم ستة، ومظهرهم يتوافق مع مظهر أناس قد اختاروا شارع سان كلود مكاناً لسكناهم.

فأمضت أوليفا قسماً من النهار تراقب حركاتهم وتدرس عوائدهم. ثم استعرضتهم كلهم، باستثناء ذلك الظل المضطرب الذي، بدون أن ترى وجهه، جاء فاستكنَّ في التكأة، قرب النافذة، وسبح في أحلامه من دون حراك.

ولقد كان هذا الظل امرأة...

امرأة تشبه آلهات الهند المثبتة على مقاعدهن. وقد لاحظت أوليفا كم هي جميلة هذه المرأة وأنيقة، وكم هي نحيفة وبديعة قدمها الميادة في بابوج صغير من الساتان الوردي اللون، عندما وضعتها على حافة النافذة. وقد أدهشتها استدارة ذراعها، واستدارة عنقها المرمري!

لكن الذي أدهشها أكثر من كل ذلك، هو شرود فكرها، وعيونها الشاخصة دوماً نحو هدف مبهم وغير منظور...

وهذه المرأة، التي عرفها القراء ولم تعرف أوليفا، لم تخشَ مرة أن يتمكن الناس من رؤيتها، لأنه لم تُفتح تجاه نوافذها أية نافذة على الإطلاق. فقصر السيد دي كاغليوسترو لم يكتشف أسراره إنسان، بالرغم من الزهور التي رأتها نيكول فيه، والعصافير التي شاهدتها تطير في أرجائه. فباستثناء الفنيين الذين رمَّموه، لم يُشاهَد فيه أي مخلوق حيّ.

أما لماذا أُعدَّ هذا الجناح بهذا الشكل ولم يكن يسكنه

أحد، فالواقع أن كاغليوسترو كان قد أعدّه لأوليفا خلال السهرة، وكأنه يعدّه لنفسه.

إذن بقيت المرأة الفاتنة ساهمة شاردة الفكر، فخُيّل لأوليفا بأن هذه الجميلة الحالمة، تستعيد ذكريات حبها الغابر، وشعرت بروابط تشدها الى هذه المرأة التي كل ما فيها جذّاب: جذابة في جمالها، جذابة في عزلتها، جذابة في عمرها، جذابة في ضجرها... كما شعرت أن هناك مصيراً مشتركاً يشد روحيهما الى بعضهما البعض، بفضل ما يكتنف حياتيهما من أسرار وما يحدق بهما من أخطار، لذلك لم يعد بإمكانها ان تحوّل بصرها عن هذه المعتزلة المشغولة البال.

فهاتان المرأتان المسكينتان المطرودتان من الفردوس الروحي، كانتا تتأسفان وتتحسران على كل ما احتجب عن أعينهما من جمالات ذلك الفردوس، وكل ما لحق بهما من حرمان.

وقد اعتقدت أوليفا بأنها وجدت في السجينة الرائعة الحسن شقيقة لروحها، وتصورت بأن لشقيقة الروح هذه قصة شبيهة بقصتها هي، لأنه لا يعقل أن تعيش امرأة جميلة وأنيقة مثلها، هكذا مهملة في شارع سان كلود، دون أن يكون في

أعماق قلبها ما يقلقها ويهمّها. لذا تمنت لو كان لها جناحان لتطير بهما إليها.

لكن السيدة الأخرى، الجالسة كالنصب على مقعدها، لم تتحرك إطلاقاً! بل بدت وكأن النعاس يلفّها وتكاد تسترسل إلى الرقاد، وقد بقيت هكذا ساعتين دون أن تهتزّ أو تتحرك أدنى حركة!

فأخذت أوليفا تقوم بحركات علّها تلفت نظر تلك السيدة وتحرك الجماد المهيمن عليها. فقد فتحت وأغلقت نافذتها عشر مرات. وعشر مرات حفّلت العصافير الخارقة بين أوراق الشجر. كما قامت بحركات متنوعة لو شاهدها أغبى رجال السيد دي كروسن فيما هو يمرّ على البوليفار أو في طرف شارع سان كلود، لكانت لفتت نظره وأسرع للقبض عليها.

وأخيراً توصلت نيكول إلى قناعة مفادها بأن السيدة ذات الضفيرتين الجميلتين، قد لاحظت كل حركاتها، وفهمت كل إشاراتها، لكنها قابلتها بالاحتقار والإزدراء، لذا فهي إما متعجرفة، وإما حمقاء!

وخلصت إلى القول: ولكن من غير المعقول أن تكون حمقاء، ولها تلك العينان الدالتان على الذكاء والحذاقة. أما متعجرفة؟ فقد تكون كذلك، فالعجرفة هي سيمة نساء الطبقة الأثيلة في النبل، تجاه البورجوازيات في هذا العصر.

لقد استقصت أوليفا في هيئة المرأة الشابة كل الطباع الأرستقراطية ، فاستدلت على أنها متعجرفة فعلاً ، ومن العبث إثارتها . فأدارت لها ظهرها باستياء واحتقار ، وأخذت تلامس الأزهار تحت أشعة الشمس المشرفة على الغروب ، تلك الأزهار الهاشة الباشة ، والنبيلة أيضاً ، والأنيقة أيضاً ، والمغناجة أيضاً كأعظم السيدات ، ومع ذلك فهي تسمح بمسّها ، وشمّها ، وتهب الشذا بسخاء ، وترتعش كلما لامستها شفاه صديق ، أو شفاه عاشق متيّم ...

ولم يدر في خلد نيكول بأن هذه المزعومة متعجرفة ، هي جانّ دي فالوا ، كونتس دي لاموت ، التي تبحث عن فكرة منذ العشية ، فكرة هدفها الحؤول دون تلاقي ماري انطوانيت والكردينال دي روهان ، وأن البحث عن هكذا فكرة تحقق هكذا هدفاً ، لأمر من الصعوبة بمكان ، وهو كافٍ ليكون لتلك المرأة الشابة عذرها الشرعي بأن لا تحرك رأسها طيلة ساعتين مفرطتين في الملل والضجر .

فلو عرفت نيكول هذا الواقع ، لما أثار غضبها عدم اكتراث تلك المعتزلة الجميلة بها ، وجعلها تنصرف عنها كما انصرفت إلى أزهارها . ولما كانت دفعت إلى خارج الشرفة ، وهي تأخذ مكانها بين تلك الأزهار ، بإناء من الخشب النادر ، فسقط في الشارع المقفر وكان لسقوطه صوت رهيب ، أرعب أوليفا

وحملها على التطلع بسرعة إلى أسفل، لترى ما يمكن أن يكون قد أحدثه من أضرار.

واستيقظت السيدة المشغولة البال من غفوتها على دويّ الصوت، وتطلعت بدورها، فرأت الإناء على البلاط، ثم انتقلت ببصرها من السبب إلى المسبب، أي من بلاط الشارع الى سطيحة قصر كاغليوسترو... فرأت أوليفا!

وما أن وقع بصرها عليها، حتى أطلقت صرخة غريبة، صرخة مرعبة، اهتزَّ معها كل جسدها الذي كان منذ هنيهة في غاية التصلب والجمهود!

والتقت أخيراً نظرات أوليفا بنظرات تلك السيدة... وتساءلت عيونهما، وسبرت غور بعضها البعض، ثم صرخت جان أولاً:

«الملكة!...»

وفجأة، ضمت يديها وقطبت حاجبيها، دون أن تجرؤ على التحرك... وذلك خشية أن تنفر تلك الرؤية الغريبة وتحملها على الهرب. ودمدمت قائلة: «أوه! لقد كنت أفتش عن وسيلة، وها هي قد حضرت!» في تلك البرهة، سمعت أوليفا حركة وراءها، فاستدارت بسرعة لترى الكونت

كاغليوسترو في غرفتها... وكان قد لاحظ تبادل النظرات بين المرأتين، فقال في نفسه: «لقد تمت المشاهدة بينهما!»

وعند ذاك، تركت أوليفا الشرفة بسرعة.

الجارتان

★

منذ تلك البرهة التي لمحت فيها المرأتان بعضهما البعض، غدت أوليفا مفتونة بكياسة ولطافة جارتها، ولم تعد تتكلف احتقارها، بل أخذت تطوف باحتراز وسط أزهارها، وتجيب على ابتسامات جارتها بابتسامات مماثلة.

وعندما عاد كاغليوسترو لزيارتها، لم يفته أن يأمرها بألاّ تتعدى الحدود المرسومة لها. وأضاف قائلاً:

«خصوصاً معاشرة الجيران!»

فكان لهذه العبارة وقع الشؤم على رأس أوليفا، التي كانت قد توطدت علاقتها بجارتها، بواسطة تبادل الحركات والتحيات.

فعدم معاشرة الجيران، تعني إدارة الظهر إلى هذه المرأة الفاتنة ذات العينين المشعتين حلاوة وعذوبة، كما تعني قطع

كل علاقة بهذه الصديقة التي وجدت فيها أوليفا خير ما ترجوه وتتمناه.

فأجابت المرائية مجيرها بأنها ستحرص جيداً على طاعته، وأنها لن تقدم على أية معاشرة مع الجيران. لكنه ما كاد يخرج من غرفتها، حتى خرجت فوقفت على الشرفة منتصبة بشكل يلفت كل انتباه جارتها.

ويمكننا الاعتقاد، بأن جارة أوليفا لم تكن تطلب اكثر من ذلك، لأنها ما أن تلقت إشارة أوليفا الأولى، حتى أخذت تحييها وترسل إليها القبلات عبر الأثير.

وقد لاحظت أوليفا التي ردت على تحيات وقبلات جارتها بمثلها، أن تلك المجهولة لم تكن لتتخلى أبداً عن نافذتها، وأنها كانت تحرص دائماً على القول لها، بالإشارة، «إلى اللقاء» عندما تترك هي الشرفة، «وصباح الخير» عندما تعود إليها، فبدت وكأنها قد حصرت كل اهتماماتها بشرفة أوليفا!

ولما كانت الحالة هذه، توجّب أن تتبعها محاولة تقارب، والى القراء ما حدث:

عندما جاء كاغليوسترو لرؤية أوليفا بعد يومين، أخذ يتشكى من زيارة قام بها شخص مجهول إلى القصر. فقالت أوليفا وقد احمرت قليلاً:

- كيف ذلك!

فأجاب الكونت:

- نعم، إنها امرأة جميلة جداً، وشابة، وأنيقة، وقد حضرت وسألت أحد الخدم بعد أن قرعت الجرس بإلحاح: من تكون تلك الصبية التي تقطن أحد أجنحة الطابق الثالث؟ أي شقتك يا عزيزتي. ومما لا شك فيه أن سؤالها يستهدفك، وأنها كانت تودّ رؤيتك، وبالتالي فهي تعرفك وقد شاهدتك عدة مرات، واكتشفت مخبأك، أليس كذلك؟ خذي حذرك يا عزيزتي، فالشرطة لديها جواسيس من النساء كما لديها عملاء من الرجال، ولن يكون بإمكاني أن أرفض تسليمك إذا ما طلبك مني السيد دي كروسن.

وعوضاً عن أن ترتعب أوليفا، أبدت رضاها المتناهي على تحذير الكونت وشكرته، معتمدة المداهنة وإخفاء حقيقة ما في نفسها، فسألها كاغليوسترو:

- أراك غير خائفة؟

فأجابته نيكول:

- ولما الخوف طالما أن أحداً لم يرني؟!

- إذن، لست أنت من كانت تريد رؤيتها تلك المرأة؟

- لا أعتقد.

– مع ذلك ، بمجرد أن يكتشفوا بأن هناك امرأة في هذا الجناح ... آه ! خذي حذرك ، خذي حذرك !

فقالت أوليفا :

– كيف يمكنني أن أخاف يا سيدي الكونت ؟ إذا كان هناك أحد قد رآني ، وهذا ما لا أظنه ، فهو لن يراني ثانية ، اللهمّ إلا من بعيد ، لأن القصر لا يُخترق ، أليس كذلك ؟

فأجاب الكونت :

– لا يُخترق ، هذا صحيح ، ما لم يتسلق المرء السور ، وذلك ليس هيناً ، أو يفتح الباب الصغير للمدخل ، وذلك من الصعوبة بمكان ، لأني لن أتخلّى عن هذا المفتاح ...

وبعد هذا الكلام ، أبرز الكونت كاغليوسترو المفتاح الذي كان يستخدمه للولوج من الباب الواطئ ، وأكمل يقول :

– بما أنه ليس لي أية مصلحة في فقدانك ، لن أقرض المفتاح أحداً . وبما أنه لن يكون لك أية منفعة في الوقوع بين يدي انسيد دي كروسن ، لن تدعي أحداً يتسلق السور ... وهكذا تكونين على حذر مسبق أيتها الإبنة العزيزة ، فرتبي أمورك كما يحلو لك .

فاحتجت أوليفا بشدة ، واستعجلت صرف الكونت بشيء من الخشونة ، فلم يلُحّ هذا الأخير في البقاء .

وعند الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي ، كانت أوليفا على شرفتها تتنشق الهواء النقي المنساب إليها من التلال الصغيرة المجاورة ، وترشق بنظرات فضولية نوافذ صديقتها البشوشة .

وكانت هذه الصديقة ، حسب عادتها ، قد استفاقت لتوّها من رقادها ، فأبانت ذاتها لأوليفا منذ أن ظهرت هذه الأخيرة ، فبدت ، والحالة هذه ، كأنها كانت تتربص وراء الستائر بانتظار المناسبة لكي تظهر نفسها هي الأخرى .

فتبادلت المرأتان التحيات ، وتقدمت جانّ بأعلى هامتها إلى خارج النافذة ، وتطلعت في كل مكان لترى عما إذا كان باستطاعة أحد أن يسمعها ، فلم تقع عيناها على أحد ، إذ لم يكن الشارع وحده مقفراً ، بل أيضاً نوافذ المنازل .

عندئذ رفعت يديها الإثنتين الى فمها واستعاضت بهما عن البوق . وعبر بوق يديها ، أطلقت جانّ صوتها باتجاه صديقتها قائلة لها :

«أريد أن أقوم بزيارتك يا سيدتي .»

فقالت أوليفا وهي تتراجع مذعرة :

– أسكتي !

فعادت جانّ تسألها:

– ألا يمكنني أن أراك إذن ؟

فأجابتها أوليفا بحركة مؤداها :

- واحسرتاه !

فسألتها جانّ :

- هل يمكنني أن أبعث أليك برسائل ؟

فصاحت أوليفا مرتعبة :

- أوه ! كلا .

عندئذ انصرفت جانّ الى التفكير...

وكي تعبر لها أوليفا عن شكرها لما أظهرته من عطف نحوها ، أرسلت إليها عبر الأثير قبلة حارة ، ردَّت عليها جانّ بقبلة مضاعفة ، ثم أطبقت نافذتها وخرجت .

فاستنتجت أوليفا بأن صديقتها قد وجدت حيلة جديدة ، وهذا ما أوحته لها نظرتها الأخيرة .

وبالفعل ، عادت جانّ بعد ساعتين ، أي بعد أن أصبحت أشعة الشمس في أوج وهجها ، وغدا بلاط الشارع محرقاً كرمال الشواطئ الاسبانية .

وما هي إلا دقائق ، حتى رأت أوليفا جارتها تظهر وراء النافذة ومعها قوس فولاذية ، ثم تبتسم وتشير لها بأن تبتعد . فأطاعت أوليفا ولاذت بمصراع نافذتها .

عندئذ صوَّبت جانّ بعناية ، وأطلقت بواسطة القوس كرة

رصاصية صغيرة ، فأصابت لسوء الحظ أحد القضبان الحديدية للنافذة ، وسقطت في الشارع عوضاً عن أن تجتاز الشرفة .

فأطلقت أوليفا صرخة مفعمة بخيبة الأمل . أما جانّ ، فبعد أن هزّت كتفيها بغضب ، أخذت عيناها تبحث عن قذيفتها في عرض الشارع ، ثم اختفت لعدة دقائق .

وبدورها أوليفا انحنت من الشرفة باتجاه الشارع ، فرأت ما يشبه شخصاً يلتقط الخِراق ورثّ الثياب ، فارتدت إلى الوراء بسرعة خشية أن يراها أحد ، دون أن تدري ما إذا كان من رأته قد التقط كرة صديقتها أم لا .

وكررت جانّ المحاولة بنجاح هذه المرة . فقوسها قد أوصلت بأمانة الى غرفة نيكول كرتها الثانية ، التي لفت حولها رسالة هذا نصها :

«إني أشعر بالميل نحوك يا سيدتي الجميلة . فقد وجدتك فاتنة وأحببتك بمجرد النظر إليك . فهل أنت أسيرة ؟ هل تعلمين بأني حاولت عبثاً زيارتك ؟ ألن يدعني أبداً ، الساحر الذي يراقبك ويعدّ أنفاسك ويمنع عليك الظهور ، أتقرب منك لأعبّر لك عما يخالجني من عطف تجاه ضحية مسكينة من ضحايا طغيان الرجال وظلمهم ؟

«أتصور أنه بمقدوري خدمة صديقاتي ، فهل تودين ان تكوني صديقة لي ؟ يبدو أنك لا تستطيعين الخروج ، لكنك ،

بدون شك، تستطيعين الكتابة. ولما كنت أنا أستطيع الخروج ساعة أشاء، فانتظري مروري تحت شرفتك، وارمي لي بجوابك.

«وإذا رأيت أن طريقة المراسلة بواسطة القوس خطرة وقد تكتشف، فلنعتمد وسيلة أكثر سهولة. دلّي بواسطة خيط من أعلى الشرفة، بعد زوال النهار، كبّة بعد أن تربطي بها رسالتك، وأنا بدوري سأربط بهذه الكبّة رسالتي، فترفعينها دون أن يراك أحد.

«وثقي، إن لم تكن عيناك كاذبتين، بأني بالاعتماد على القليل من هذه الصداقة التي أوحيتها لي، سوف أتغلب وإياك على العالم.

«صديقتك ...»

«ملاحظة: هل رأيت أحداً يلتقط رسالتي الاولى؟»

ارتعشت أوليفا فرحاً عند تلقيها هذه الرسالة التي لم تشأ جانّ أن توقعها، حتى أنها تعمدت التغيير الكامل في خطها، وأجابت عليها بالأسطر التالية:

«إني أحبك كما تحبينني، وأنا في الواقع ضحية خيانة الرجال. لكن ذاك الذي يحتجزني هنا، هو مجير وليس طاغية. فهو يزورني خفية مرة في كل يوم، وسوف أشرح

لك كل ذلك فيما بعد. فيما يتعلق بالمراسلة، أفضل الكبة والخيط على القوس.

«واحسرتاه! لا، لا أستطيع الخروج. فأنا محبوسة، لكن حبسي لخيري. أوه! كم سيكون لدي من أشياء أقولها لك إذا ما أسعدني الحظ في التحدث إليك. فهناك تفاصيل كثيرة لا يمكننا كتابتها.

«إن رسالتك الأولى لم يلتقطها أحد، إذا لم يكن قد التقطها لقّاط خِرَق دميم، لكن الناس الذين على شاكلة هذا اللقاط لا يعرفون الكتابة، والرصاص بالنسبة إليهم هو رصاص لا أكثر ولا أقل.

«صديقتك: أوليفا ليغي.»

لقد ذيلت أوليفا رسالتها الجوابية من دون وجل ولا خوف، وأشارت الى الكونتس بأنها ستدلي كبة الخيطان عندما يحين المساء. وفي الوقت المتفق عليه، دلّت الكبة الى الشارع حيث كانت جان بانتظارها، فانتزعت الرسالة وحركت الخيط بشكل يجعل مراسلتها تدرك بالحواس ان العملية قد تمت، وعادت إلى شقتها لتقرأ ما جاء فيها.

وبعد نصف ساعة، عادت الكونتس فربطت بالخيط السعيد جوابها التالي نصّه:

«يمكننا أن نعمل كل ما نريده. فأنت لست خاضعة للرقابة البصرية، طالما أني أراك دائماً وحدك. إذن، يجب أن يكون لك ملء الحرية كي تستقبلي الناس، أو بالأحرى كي تخرجي للناس بذاتك. كيف المنزل مغلق عليك؟ أبواسطة المفتاح؟ من يملك هذا المفتاح؟ والرجل، هل يحتفظ بهذا المفتاح بعناد، وبشكل لا تستطيعين معه أن تختلسيه أو أن تختلسي طابعه؟ إن مثل هذا العمل السليم، وهو يستهدف تمتعك بالحرية لعدة ساعات وقيامك بنزهات ممتعة وأنت تتأبطين ذراع صديقة، سوف يسليك كل شقاءاتك ويعوض عما فاتك. واذا شئت، إنه يستهدف منحك الحرية التامة. وسنبحث هذا الموضوع بالتفاصيل عند أول لقاء يتمّ بيننا.»

ما أن قرأت أوليفا رسالة صديقتها الثانية، حتى شعرت بحمّى الاستقلال تلهب خديها، وبلذة الثمرة المحرمة تلهب قلبها...

وكانت قد لاحظت بأن الكونت، في كل مرة يزورها، كان يحمل إليها إما كتاباً وإما حلية، وكان يضع مصباحه الصغير الذي يرى به ولا يُرى على خزانة صغيرة ذات أدراج، ويضع مفتاحة على المصباح.

فحضَّرت أوليفا مسبقاً قطعة من الشمع العسلي العَجِن، وطبعت عليها رسم مفتاح كاغليوسترو عند أول زيارة

جديدة، فيما كان هو ينظر إلى الأزهار المتفتحة حديثاً ولا يلتفت يمنة ولا يسرة.

وعندما تركها الكونت وخرج، دلت أوليفا رسم المفتاح المذكور مع عجالة صغيرة ضمن علبة، فتلقته جانّ التي كانت بانتظاره في الشارع بسرور وفرح.

وفي اليوم التالي، حوالى الظهر، بعثت جانّ بواسطة قوسها هذه المرة، لأن الوقت لم يكن يسمح باستعمال الخيط والكبة، بالرسالة التالية إلى صديقتها أوليفا:

«صديقتي العزيزة،

«عند الساعة الحادية عشرة من هذا المساء، وبعد أن يكون غيورك قد ذهب، تهبطين وتسحبين المزاليج، فتجدين نفسك بين ذراعي من تعتبر نفسها صديقتك الحنون.»

فشعرت أوليفا عند قراءتها هذه الأسطر برعشة من الفرح، لم تُشعرها بمثلها أكثر رسائل جيلبير حنواً، خلال ربيع حبهما الأول ولقاءاتهما الأولى.

وفي الساعة الحادية عشرة هبطت إلى الطابق الأرضي وسحبت المزاليج، فأسرعت جانّ التي كانت بانتظارها إلى معانقتها بحرارة وحنوّ، ثم أصعدتها الى عربة كانت تقف في الشارع بانتظارهما، وقامت الاثنتان بنزهة ممتعة دامت

ساعتين، تبادلت في خلالها الرفيقتان الأسرار والقبل، وتداولتا في المشاريع المستقبلية ...

وبعد الساعتين، نصحت جانّ صديقتها بالعودة، كي لا تثير أي شك لدى مجيرها، بعد أن عرفت أن هذا المجير هو كاغليوسترو الذي تتهيب عبقريته ولا ترى الأمان في مشاريعه الغامضة.

وكانت أوليفا قد استسلمت بدون تحفظ، فاعترفت بكل شيء عن بوزير والشرطة. بينما تحاشت ذلك جانّ كامرأة ذات مقام، تعيش مع عشيق بدون معرفة عائلته.

فإذا بهما، واحدة تعرف كل شيء، وأخرى تجهل كل شيء. هكذا كانت الصداقة المحلّفة بين تلك المرأتين.

وابتداءً من ذلك اليوم، لم تعودا بحاجة الى القوس أو الكبة والخيط، بعد ان غدت جانّ تمتلك مفتاحاً، وأصبح بإمكانها إخراج أوليفا من سجنها وفق هواها. وكان العشاء الفاخر، والنزهة السرية، هما الطعم الذي استهوى أوليفا وخدعها بصورة دائمة.

وبعض المرات، كانت جانّ تسأل رفيقتها بقلق: «ألم يكتشف شيئاً السيد دي كاغليوسترو؟»

فتجيبها أوليفا:

– هو! في الحقيقة، حتى لو أخبرته يأبى أن يصدقني.

وهكذا استمرَّ الحال ثمانية أيام متواصلة ، حتى غدا الهرب في الليل بالنسبة إلى أوليفا أكثر من حاجة إلى الحرية ، لقد غدا فرحاً ولذة . لذلك بعد ثمانية أيام ، غدت شفتاها ترددان اسم جانّ ، أكثر مما كانتا ترددان إسمي عشيقيها ، جيلبير وبوزير !

الموعد

★

ما كاد دي شارني يصل إلى أراضيه وينطوي على نفسه في منزله بعد أن قام بعدة زيارات ، حتى أمره الطبيب بأن يلزم شقته وأن لا يستقبل أحداً . فنفّذ الأمر بمشقة ، وهكذا حرم كل المواطنين في القضاء من رؤية بطل تلك المعركة البحرية الشهيرة التي ذاع صيتها في كل فرنسا . وكم حاولت الفتيات أن تراه ، بعد أن بلغت مسامعهن أنه ليس بطلاً وحسب ، بل هو جميل أيضاً ...

بيد أن شارني لم يكن مريضاً كما كانوا يرددون ، فهو لا يشكو من شيء سوى ألم قلبه ورأسه ... ولكن أي ألم هو هذا الألم !! إنه ألم حادّ ، متواصل ، وغير شفوق . ألم الذكرى التي تحرق ، والحسرة التي تمزق ...

والحب ليس سوى حنين دائم يفوق حنين المرء إلى وطنه ؛ ويمكننا أيضاً التسليم بإدعاء الشعراء القائل : إن المرأة المحبوبة هي جنة أكثر مادية بقليل من جنة الملائكة .

لذا لم يستطع شارني أن يتقيد بأوامر الطبيب أكثر من ثلاثة أيام . فقد أغضبه أن يرى كل أحلامه تتبخر وتحول دونها المسافة ، فأذاع في كل القضاء أمر الطبيب الذي ورد ذكره ، وعهد إلى خادم مجرب بحراسة منزله ، وامتطى أثناء الليل جواداً جميلاً سريع الجري ، وسار قاصداً فرساي ، فوصلها بعد ثماني ساعات . وهناك استأجر بواسطة خادم غرفته ، بيتاً صغيراً يقع وراء حدائق القصر الملكي .

وكان هذا البيت مهجوراً منذ أن مات صاحبه النبيل موتاً مأسوياً ، فلاءم شارني كل الملاءمة ، لأنه كان يود أن يحتجب فيه ، أفضل من احتجابه في أراضيه .

وقد كان هذا البيت مؤثثاً كما ينبغي ، وله بابان ، واحد يشرف على شارع مقفر ، وآخر على ممرّ مستديرة الحدائق الملكية . كما كان له نوافذ باتجاه هذه الحدائق ، تتيح لشارني أن يتسلل إلى الممرات التي يظللها شجر النير ، لأن النوافذ المحاطة مصاريعها بالدوالي واللبلاب ، لم تكن سوى أبواب بعلوّ طابق أرضي قليل الارتفاع، باستطاعة أي كان أن يقفز منها ، إذا ما شاء ، إلى الحدائق الملكية .

فراقت لشارني العزلة في هذا البيت كثيراً، وقد يكون مردُّ ذلك حبّه للمناظر القروية التي ألفها وعايشها منذ نعومة أظافره.

وفي أقل من خمسة عشر يوماً، تعرّف إلى كل عادات القصر بما فيها عادات الحرس الملكي. فقد بات يعرف الساعات التي تأتي فيها العصافير لتشرب من المستنقعات الصغيرة، وتلك التي يمرّ في خلالها الأيل الأسمر ماطاً رأسه المدلّه. كما عرف الهنيهات الهادئة التي تقوم الملكة في خلالها بنزهاتها مصحوبة بسيدات الشرف. وبالاختصار، لقد عاش شارني من بعيد مع أولئك العائشين في ذلك «التريانون[1]»، هيكل عباداته المغايرة للصواب.

ولما كان الفصل جميلاً، فقد وهبت شارني لياليه الناعمة والمعطرة مزيداً من الحرية لعينيه، ومزيداً من الأحلام لنفسه. كان يقضي قسماً من هذه الليالي تحت شجرة الياسمين المظللة لنافذته، يرصد الضوضاء البعيدة الآتية من القصر، ويلاحق من خلال أغصان الأشجار تراقص الأنوار التي لم تكن لتخبو قبل أن ينام كل من فيه.

---

(١) اسم لقصرين شيّدا في «بارك» فرساي، وفي أحدهما وقّعت في الرابع من تموز عام ١٩٢٠، المعاهدة التي وضعت حداً للعداء بين الحلفاء والمجر.

ولكنه ما عتّم أن شعر بأن الترصد من النافذة لم يعد يشفي غليله من تلك الضوضاء والأنوار البعيدة. فقفز ذات ليلة من منزله إلى الأرض، وجلس على الأعشاب المخضوضرة وهو واثق بأنه في تلك الساعة لن يلتقي كلاباً ولا حراساً. ثم سار وراء اللذة المحفوفة بالخطر غير عابئ، حتى وصل إلى طرف الغابة، إلى الحد الفاصل بين الظلمة الكثيفة وضوء القمر ذي الأبهة. وهناك وقف يستنطق تلك الأشباح التي كانت تمرّ، سوداء وصفراء، وراء ستائر الملكة البيضاء...

وبهذه الطريقة، كان يرى كل يوم ماري انطوانيت، دون أن تدري هي به.

كان يراها من مسافة لا تزيد على ربع فرسخ، سائرة مع سيدات الشرف أو مع أحد النبلاء من أصدقائها، وهي تداعب المظلة الصينية التي تقي قبعتها العريضة المزينة بالأزهار.

ولم يكن باستطاعة أية مشية أو أي وضع أن يخدعاه، فهو يعرف عن ظهر قلبه كل فساتين الملكة. كما كان يحزر، من خلال أوراق الأشجار، ثوبها الأخضر البديع ذا الأهداب الذي كان يتموج مع حركات جسدها المغرية بعفة وطهارة.

وعندما كان يحين المساء وتتوارى الرؤية الساحرة عن عينيه بتواري المتنزهين، كان شارني يرجع إلى نافذته لينظر من

بعيد، ومن خلال فرجة عرف كيف يستحدثها في تلك الغابة، إلى الضوء الساطع على زجاج نوافذ غرفة الملكة. حتى إذا ما اختفى هذا الضوء، عاش على ذكراه معللاً نفسه بالآمال، بعد أن عاش في ذهول مراقبته.

وفيما كان في منزله ذات مساء وقد انقضى على وداعه الأخير للخيال الفاتن ما يقرب الساعتين، وأخذ الندى المتساقط من القبة الزرقاء يتقطر كحبات اللؤلؤ البيضاء على أوراق اللبلاب، ترك شارني نافذته وأوى إلى سريره. وما هي إلا لحظات، حتى بلغ مسمعه صرير قفل، فعاد إلى مرصده وأخذ يتنصت.

وكانت الساعة قد بلغت منتصف الليل، فارتاب شارني من هذه الحركة التي لم يعتد سماعها. فذلك القفل المتمرد، كان لباب صغير في «البارك [1]» لا يفتح إطلاقاً، إلا في أيام الصيد الكبير.

وقد لاحظ شارني ان الذين يفتحون هذا الباب صامتون لا يتكلمون، وقد أغلقوا وراءهم المزاليج وساروا في الطريق

---

(١) «البارك» في قصر فرساي، كناية عن مساحة واسعة من الأرض مشجرة ومعدة للنزهة والصيد.

الضيق المارّ تحت نوافذ منزله، فحجبتهم عن الأعين أغصان الأشجار المتدلية.

فضلاً عن ذلك، فإن هؤلاء الذين كانوا يسيرون في ذلك الطريق كانوا يخفضون رؤوسهم ويسرعون الخطى، فلم يستطع شارني في الظلمة أن يميزهم بوضوح. إلا أن حفيف التنانير المسترسلة، قد أتاح له التحقق من وجود سيدتين.

وفيما كانت هاتان السيدتان تجوبان الطريق الضيق الواقع باتجاه نافذة شارني، غمرهما نور القمر فكشفهما، وكاد شارني يطلق صيحة فرح مفاجئة عندما تعرّف إلى هيئة وتسريحة ماري انطوانيت... كذلك إلى وجهها المضاء بالأشعة الفضية، رغم الانعكاس القاتم الذي عكسته عليه قبعتها الكبيرة.

فخفق قلبه خفقاناً شديداً... وبدون وعي، انزلق إلى «البارك» من أعلى نافذته، وأخذ يعدو على العشب تحاشياً للضجة. ثم اختبأ وراء أكبر شجرة ليلاحق ببصره المرأتين اللتين كانتا تتمهلان في مشيتهما بين الدقيقة والأخرى.

فماذا يتوجب على شارني أن يعمل؟ إن الملكة برفقة صديقة، وهي لو كانت وحدها لأسرع فجثا على قدميها وصارحها بقوله: «إني أحبك وأفتديك بحياتي!»

وفيما هو يفكر بما يتوجب عليه أن يعمل وقلبه يكاد يقفز من صدره، توقفت المتنزهتان فجأة، وهمست الرفيقة في أذن ماري انطوانيت بضع كلمات تركتها على أثرها وحدها وأسرعت باتجاه هدف لم يتميزه شارني، فيما أخذت الملكة تضرب الرمل بقدمها الصغيرة إلى أن بلغت جذع شجرة فأسندت ظهرها إليه، والتفت بمعطفها بشكل أتاح لها أن تغطي حتى رأسها بـ «الكابيشون».

فعندما رآها شارني وحدها وهكذا حالة، قفز وبوده الذهاب اليها والجثوّ على قدميها. لكنه عاد ففكر أن هناك ثلاثين خطوة على الأقل تفصلها عنه، وأنها لا بدّ أن تراه قبل أن يجتاز هذه المسافة وتصرخ مرتعبة، لأنها لن تعرفه، فيجتذب صراخها رفيقتها أولاً، ثم بعض الحراس المتواجدين في «البارك»، فيكتشفون أمره المغاير للرصانة والفطنة وواجب كتم السر في هكذا حالة، وتكون العاقبة وخيمة عليه.

لذا عرف كيف يتوقف، وحسناً فعل، لأنه ما كاد يكبح هذا الاندفاع الذي لا يقاوم، حتى ظهرت رفيقة الملكة ولم تكن عائدة بمفردها.

فقد رأى شارني على بعد خطوتين وراءها، رجلاً يسير بقامته الممشوقة وقد غطّى رأسه بقبعة عريضة والتفّ بمعطف فضفاض.

وهذا الرجل، الذي جعل شارني يرتعش حنقاً وأثار غيرته، لم يكن يتقدم كالمنتصر، بل بتردد وترنح. وكان يتلمّس طريقه في ذلك الليل كأن رفيقة الملكة ليست دليلاً له، ولا الملكة المنتصبة تحت الشجرة هدفه.

وزاد الارتعاش الذي اعترى شارني منذ أن لمح ماري انطوانيت، عندما رأى هذا المجهول يرفع قبعته، ويكمل طريقه، ثم يدخل الظلمة ويحيي باحترام عميق عدة مرات.

عند ذاك تحولت المفاجأة المحيرة عند شارني إلى ذهول. وهذا الذهول ذاته ما عتّم ان تحوّل إلى شعور آخر، هو الشعور بالألم... وأخذ يتساءل: ماذا جاءت تعمل الملكة في «البارك» في هذه الساعة المتقدمة من الليل؟ ماذا جاء يعمل هذا الرجل؟ لماذا انتظر هذا الرجل متخفياً؟ لماذا بعثت الملكة تستدعيه بواسطة رفيقتها عوضاً عن أن تذهب إليه هي بنفسها؟

وكاد شارني يفقد صوابه. لكنه تذكر بأن الملكة تتعاطى السياسة السرية. فهي كثيراً ما كانت تحيك الدسائس مع البلاط الالماني، وكانت علاقتها برجال البلاط المذكور موضع غيرة الملك وانتقاداته القاسية.

فقد يكون هذا الفارس ساعياً من قبل شوونبرن أو برلين،

أو نبيلاً من تلك الوجوه الألمانية التي لم يعد يريد لويس السادس عشر أن يراها في فرساي، منذ أن سُمح للامبراطور جوزف الثاني[1] بالمجيء الى فرنسا كي يتلقى دروساً في الفلسفة والسياسة الانتقادية ويوظفها ضدّ صهره الملك المسيحي جداً.

هذه الفكرة كانت بالنسبة إلى شارني، أشبه بعصابة ماء الثلج التي يضعها الطبيب على جبين المحموم. فقد ردَّت له صوابه، وهدَّأت من ثورة غضبه. فضلاً عن ذلك، فإن الملكة كانت تحتفظ بوضع يتَّسم بالوقار والأدب والحشمة التامة.

أما رفيقتها، فقد كانت تقف على بعد ثلاث خطوات، وعليها مظاهر القلق والانتباه. ولم يطل الوقت، حتى تركت التابعة مكانها فقطعت المحادثة. وعلى الأثر قام الفارس بحركة انحناء كمن يريد أن يسجد. ومما لا شك فيه أنه نال الأذن بالانصراف بعد المقابلة.

عند ذاك اختبأ شارني وراء شجرته الكبيرة، وهو واثق بأن الجماعة سيمرون أمامه فرادى، لذا مسك أنفاسه وتمنى لو يُخنق كل صدى، سواء كان مصدره السماء أو الأرض.

---

(١) الامبراطور جوزف الثاني هو شقيق ماري انطوانيت وامبراطور المانيا من العام ١٧٦٥ الى العام ١٧٩٠.

وفيما هو كذلك ، رأى الرجل النبيل قد انحنى حتى كاد يلامس الأرض ، ثم استقام بحركة فيها كل الاحترام ، وانطلق بسرعة لا يمكن وصفها إلا بالهرب .

لكنه توقف أثناء جريه بعد أن دعته لذلك رفيقة الملكة بصرخة صغيرة ، وقالت له بصوت خافت : «انتظر !»

وقد كان فارساً مطيعاً ، لأنه فور صدور الأمر إليه ، توقف ينتظر .

عندئذ رأى شارني المرأتين تمران على بعد خطوتين من مخبأه ، وقد تأبطت الواحدة ذراع الأخرى ، وتموّج العشب المخضوضر الذي كان تحت متناول يده تقريباً ، بفضل الهواء الذي أحدثه فستان الملكة .

وتضوع عطر الملكة الذي اعتاد شارني استنشاقه ، فشعر بنشوة ما بعدها نشوة ، أعادت أطيب الذكريات إلى قلبه الخافق بالحب كقلب كيوبيد [١] .

وبعد عدة دقائق من مرور المرأتين واختفائهما ، رأى شارني الرجل المجهول الذي انشغل عنه طوال المدة التي استغرقها وصول الملكة الى الباب الصغير ، رآه يقبّل بشغف مجنون ، وردة ندية معطرة ، هي ولا شك ، تلك التي لاحظ شارني

---

(١) إله الحب عند الأقدمين.

رونقها عندما دخلت الملكة الى «البارك» والتي شاهدها لساعته تسقط من يد جلالتها .

فهل الأمر مع هذه الوردة ، ومع القبلة الشغوفة عليها ، يتعلق بسفارة وأسرار دولة ؟

لقد كاد شارني يفقد صوابه ، وعلى وشك الوثوب على ذلك الرجل وانتزاع الزهرة منه ، عندما ظهرت رفيقة الملكة وصاحت به :

«تعال يا مولاي !»

فاعتقد شارني لحظتذاك أنه في حضرة أمير من العائلة المالكة ، واستند الى الشجرة يتحاشى السقوط على الأعشاب وهو بين الموت والحياة ...

في هذه الأثناء ، انطلق الرجل المجهول باتجاه الصوت الذي ناداه ، وتوارى مع تلك السيدة .

يد الملكة

★

عندما عاد شارني الى منزله ، شعر بانهيار في قواه بعد الصدمة التي تلقاها ولم يقوَ على احتمالها .

فقد شاءت العناية الإلهية أن تقوده إلى فرساي، وأن توفر له هذا المخبأ الثمين، خصّيصاً كي يستخدم غيرته للوقوف على جريمة ترتكبها الملكة،ضاربة عرض الحائط بالأمانة الزوجية، والكرامة الملكية، والوفاء في الحب!

ولم يكن لديه شك، بان الرجل الذي استقبل هكذا استقبال في «بارك» القصر الملكي، هو عاشق جديد. فقد حاول شارني عبثاً أن يقنع نفسه بأن الرجل الذي تلقّى الوردة هو سفير، وبأن الوردة ليست سوى رمز لعهد يُقطع بالمحافظة على السرية في نقل رسالة هي في غاية الأهمية والخطورة.

ولم يبق أمام ذلك التعيس، عندما لم يتمكن من الانتصار على شكوكه، إلا أن يتفحص سلوكه ويتساءل لماذا، أمام هكذا موقف مشؤوم، بقي سلبياً إلى هذه الدرجة!

ولكنه مع قليل من التفكير، لم يصعب عليه أن يدرك الغريزة التي أملت عليه هذه السلبية. ففي أعنف أزمات الحياة، ينبجس الفعل وقتياً من أعماق الطبيعة البشرية. ولما كانت تصرفات الملكة لا تعنيه قط، فهو لو أظهر غيرته لأحرج مركز الملكة ، وخان حبه، وفضح نفسه.

هذا عدا أنه لو تصدّى لرجل مشرّف بالثقة الملكية، لتوجب عليه الوقوع في نزاع مقيت وخالٍ من الذوق، لن تغفره له الملكة إطلاقاً.

ثم إن كلمة «مولاي» التي فاهت بها رفيقة الملكة، كانت كتحذير مفيد أنقذ شارني وأزال غروره وأخمد ثورة غضبه في الوقت المناسب. إذ أي موقف كان سيكون موقفه، لو أنه كان شاهراً سيفه ضدَّ ذلك الرجل عندما سمع تابعة الملكة تناديه بقولها: «تعال يا مولاي»، وأية غلطة فظيعة يكون قد ارتكبها؟

هذه الأفكار شغلت شارني طوال ذلك الليل وحتى منتصف النهار الذي تلاه. وكم رأى النهار التالي طويلاً ومملاً! فهو بانتظار الليل المقبل على مثل الجمر، علَّه يكون أفضل من الليل السابق، فيكشف له الأسرار ويفضحها.

فبأي قلق سيقف هذا المسكين شارني أمام نافذته التي غدت الإطار الوحيد الذي لا يمكن تجاوزه لحياته المعذبة، ووراء الفرجات المثقوبة في مصراع النافذة تحاشياً من أن يلاحظ أحد بأن منزله مسكون؟

ولكنه الحب الأقوى من القلق، هو الذي أعانه إلى أن حان الليل حاملاً إليه الأمنيات القاتمة والأفكار المجنونة.

فالضوضاء العادية التي سمعها هذه المرة بدت له وكأنها تحمل معانٍ جديدة. فقد لمح الملكة في البعيد تجتاز أحد الأدراج وقد تقدمتها بعض المشاعل، وهيئتها تدل على أنها مشغولة البال ومرتابة.

ورويداً رويداً، انطفأت كل المشاعل وغمر الصمت الحدائق الملكية، فتفقد شارني ساعته، وإذا بعقاربها تشير الى انتصاف الليل، وهو موعد الملكة... فكاد قلبه ينسحق في صدره.

وكي يخفّف من شدة ضربات قلبه المتزايدة، استند إلى درابزين النافذة، وأخذ ينتظر فتح الباب المعهود وصرير المزاليج.

ولكن شيئاً لم يعكر صفو الغاية!

فارتعش شارني إذ فكّر للمرة الاولى بأن ما حدث البارحة، لا يمكن أن يحدث في يومين متتالين وفي نفس المكان والزمان، وأنه في الحب لا يوجد شيء إلزامي إلا الحب نفسه.

ولكن فجأة، سمع صرير المزاليج وفُتح الباب الصغير...

واعترى الشحوب وجنتي شارني، عندما لمح المرأتين في لباس الليلة الفائتة، فدمدم قائلاً:

«يجب أن تكون عاشقة!»

وقامت السيدتان بنفس المناورة التي قامتا بها في الليلة السابقة، ومرّتا تحت نافذة شارني مسرعتي الخطى.

وهو كذلك، فعل كما فعل في الليلة السابقة، أي قفز من النافذة إلى الأرض عندما ابتعدت المرأتان، وأخذ يمشي متلطياً

وراء الأشجار الكبيرة، معاهداً نفسه بأن يكون فطيناً، رابط الجأش، ثبت الجنان، وأن لا ينسى أبداً بأنه تابع، وأنها الملكة، أنه رجل ملزم بالاحترام، وأنها امرأة لها الحق في طلب الاكرام والمراعاة.

وحذراً من مزاجه الشديد التأثر والقابل للإنفجار، ألقى بسيفه وراء الأزهار المحيطة بشجرة كستناء.

في أثناء ذلك، كانت المرأتان قد وصلتا إلى نفس المكان الذي وصلتا إليه في العشية، فتعرّف شارني إلى الملكة كما تعرّف إليها في الليلة السابقة، وقد أخفت جبهتها بواسطة مظلتها، فيما ذهبت صديقتها تبحث في مخبأها عن الرجل المجهول الذي أطلقت عليه لقب «مولاي».

فأين يكون هذا المخبأ؟ هذا ما ساءل نفسه عنه شارني. فهناك في الاتجاه الذي ذهبت إليه رفيقة الملكة، قاعة حمامات أبولون. ولكن كيف يستطيع الغريب الاختباء بها؟ ومن أين الدخول إليها؟

وتذكر شارني بأن هناك باباً صغيراً للقاعة المذكورة من جهة الحدائق، شبيهاً بالباب الذي تفتحه السيدتان للمجيء الى الموعد. ومما لا شك فيه، أن الرجل المجهول يمتلك مفتاح هذا الباب، ومنه ينسلّ إلى تحت الأشجار الباسقة، بانتظار

من يأخذه إلى الموعد المضروب ، ثم يعود «مولاي» إلى الهرب من نفس الباب بعد محادثته مع الملكة .

وبعد مضيّ عدة دقائق ، لمح شارني المعطف والقبعة اللذين تميزهما في العشية . لكن الرجل المجهول هذه المرة ، لم يكن يسير نحو الملكة بذات التحفظ والاحتشام ، بل كان يسير بخطوات واسعة ، هي أقرب إلى الجري منها إلى السير الطبيعي .

أما الملكة ، فقد جلست ، مستندة إلى شجرتها الكبيرة ، على المعطف الذي بسطه لها «رالي» الجديد [1] . وفيما اتخذت الصديقة المحترسة وضعية المترصدة كالليلة الفائتة ، جثا السيد العاشق على الطحلب ، وابتدأ الحديث بسرعة وشغف .

وكانت الملكة تخفض رأسها وقد تسلطت عليها مسحة الحب الحزين ، فلم يسمع شارني كلام الفارس ، لكن جو الحديث كان مطبوعاً بالطابع الشعري والغرامي ، وكل استهلالة منه كانت بمثابة تصريح حارّ ومضطرم ، دون أن يلقى من الملكة أي جواب .

---

(١) السير ولتر رالي محظيّ وعشيق ملكة انكلترا، أليزابيت الأولى، وقد حكم عليه بالاعدام بعد اعتقال دام إثني عشرة سنة.

مع ذلك، كان الرجل يضاعف من إظهار محبته، وكان يبدو لشارني المسكين أحياناً، بأن كلام الرجل المخادع سوف ينفجر واضحاً، فيشعر بالاهتياج المميت والغيرة القاتلة. ولكن ذلك لم يحدث أبداً. ففيما كان الصوت يتوضح، صدرت عن الرفيقة التي كانت تسترق السمع حركة، أرغمت الخطيب الهائم على إخفاض صوته.

وبقيت الملكة ملازمة الصمت المطبق.

ولكن بعد التوسلات المتوالية، والزفرات الحارة التي صدرت عن العاشق المتيّم، تفلتت فجأة من بين شفتي الملكة عدة كلمات مخنوقة، استطاع الرجل المجهول وحده سماعها. ولكنه ما كاد يسمعها، حتى صرخ هو بشكل سُمع واضحاً:

«أوه! شكراً، شكراً يا جلالة مليكتي المعبودة! هكذا إذن، إلى الغد».

فخبأت الملكة، إثر هذا الكلام، وجهها بشكل تام.

وشعر شارني بالعرق البارد كعرق المحتضر، يتصبب من صدغيه قطرات ثقيلة محرقة، خاصة عندما رأى الملكة تمدُّ يديها باتجاه الرجل المجهول، وهذا الأخير يمسك بهما بيديه ويطبع عليهما قبلة طويلة حنونة، عرف شارني خلال لحظة

طبعها كل أنواع الألم والعذاب الروحيين.

وبعد هذه القبلة، نهضت الملكة مسرعة وتأبطت ذراع رفيقتها، وولّى الثلاثة هاربين كالعشية من قرب شارني الذي سمّره العذاب في مكانه، وبات في حالة من البؤس والشقاء يعجز القلم عن وصفها.

ويكفي القول، بأنه قضى معظم ذلك الليل تائهاً في «البارك» وممراته كمن فقد رشده، ولم يعد إلى صوابه إلا بعد أن اصطدم، وهو في جريه الأعمى، بسيفه الذي كان قد ألقاه وراء شجرة الكستناء استدراكاً للشر الذي خاف أن ينجرّ إليه.

ونصل هذا السيف الذي ارتطم برجليه وسبّب سقوطه، أعاد إليه فجأة الشعور بقوته وكرامته. فالرجل الذي تمتلك قبضة يده سيفاً، لا يستطيع إذا ما كان في حالة من الجنون كما كان عليه شارني، إلا أن يغرز هذا النصل في صدره، أو في صدر من أهانه وأساء إليه. إذ لا يحق له أن يتردد أو يخاف.

لقد عاد شارني، كما كان دائماً، روحاً صلبة وجسداً قوياً. فأقلع عن العدو المخالف للصواب الذي كان في خلاله يرتطم بالأشجار، ومشى مستقيماً وصامتاً في الممر الذي كان لم يزل مخدداً بأقدام المرأتين والرجل المجهول.

ثم ذهب فعاين المكان الذي كانت الملكة جالسة فيه،

شارني عوضاً عن أن يزفر ويتلهف، عوضاً عن أن يترك فورة غضبه تصعد من جديد إلى رأسه، أخذ يمعن الفكر في طبيعة هذا الحب الخفي، وفي صفة الشخص الذي حظي بهذا الحب.

وانبرى يسبر خطوات هذا العاشق بكل انتباه وكأنه يتفحص خطوات وحش مفترس. فاكتشف الباب الواقع وراء حمامات أبولون، ورأى وهو يتسلق مَطلَّ الجدار، أثراً لأقدام جواد وكثيراً من العشب. فقال في نفسه:

«من هنا يأتي!.. من فرساي وليس من باريس. إنه يأتي وحده، وغداً سيعود، طالما قالت له: إلى الغد!»

«فلتكفَّ عيناي عن الدموع، وليهدأ الدم الفائر في قلبي. فغداً سيكون آخر يوم من حياتي، وإلا كنت جباناً وغير صادق في حبي.»

ثم ضرب على قلبه برفق، كما يضرب الفارس على عنق جواده المجمجم، وتابع يقول:

«هيّا، هيّا، فمزيد من الهدوء والقوة، لأن التجربة لم تنته بعد.»

قال هذا وألقى حوله نظرة أخيرة، تجاوز بها القصر الملكي، إذ خشي أن يرى فيه نافذة الملكة الخائنة مضاءة، لأن هذا الضوء في اعتقاده كان تمويهاً، ونقيصة إضافية.

فهل في الواقع، لم تكن النافذة المضاءة تعني بأن الغرفة مسكونة؟

على هذا السؤال أجاب شارني بصوت مرتج وسخرية مرّة:

«إن النور المنبعث من نافذة غرفة الملكة، كان المقصود به الاعتقاد بأن الملكة في غرفتها، بينما هي تجري في «البارك» برفقة عاشق! حقاً، إنها ليست على شيء من العفة! وما تسترها الشديد في مجال العشق والغرام، إلا لأنها تخشى أن تغيظ الملك.»

وهنا غرز شارني أظافره في لحمه، وسار في الطريق إلى منزله بخطوات موزونة، وهو يقول:

«إلى الغد!.. إلى الغد كلنا، لأننا سنكون على الموعد أربعة يا سيدتي!»

امرأة وملكة

★

لقد تمخَّض اليوم التالي عن نفس الرواية. فالباب قد فُتح عند انتصاف الليل، لتظهر بعد ذلك المرأتان.

فاتخذ شارني مقرراته وعزم عزمه. إنه هذا المساء، يريد معرفة الشخص السعيد المحظيّ من الملكة.

فذهب كالعادة وكمن وراء الأشجار. لكنه عند وصوله الى المكان الذي تكرر فيه لقاء العاشقين ليومين تاليين، لم يجد أحداً.

فرفيقة الملكة قد ذهبت بها باتجاه حمامات أبولون.

وهذا ما ضاعف في قلق شارني وعذابه. فهو في طهارة نيته، لم يتصور بأن الجريمة يمكن أن تتمادى إلى هذا الحد.

لقد سارت الملكة، مبتسمه وهامسة، نحو الملجأ الذي كان ينتظرها عند عتبته، باسط اليدين، النبيل المجهول.

فدخلت، وهي تبسط يديها بدورها، ثم أُقفل وراءها حاجز القضبان المشبكة.

أما الشريكة المتواطئة، فقد بقيت في الخارج مستندة إلى عمود تكدست عليه أوراق الأشجار فبات ليّن الملمس.

فقدَّر شارني قواه تقديراً سيئاً، فتبين له بأنها لا تستطيع مقاومة هكذا صدمة. ففي اللحظة التي كان من المفروض فيه أن تدفعه سورة غضبه الشديد إلى الانقضاض على نجيَّة الملكة وكشف شخصيتها، وربما خنقها، غلى الدم وتصاعد بغزارة إلى صدغيه وحنجرته فخنقه، وسقط على الطحلب يزفر

زفرات واهية ، عكرت لعدة ثوان سكينة الحارس الواقف على أبواب حمامات أبولون .

فسبَّبت له السقطة ، في جرحه الذي انفتح من جديد ، نزيفاً داخلياً ضيَّق عليه أنفاسه وأفقده وعيه . لكن نداوة المكان ورطوبته ، قد أعاداه بعد مدة إلى الحياة تحت تأثير ألمه .

وما لبث أن عرف المكان الذي هو فيه ، وتذكر ما حدث له ، فتلمَّس نفسه ونهض وهو يتعثر .

في هذه الأثناء كان الحارس قد اختفى ولم تعد تسمع أية نأمة . سوى أن إحدى ساعات فرساي كانت تدق معلنة الثانية بعد منتصف الليل ، فعلم شارني من دقاتها أنه قد غاب عن الوعي لمدة طويلة .

وعادت الرواية المرعبة تتراقص أمام عينيه : ملكة ، وعاشق ، وتابعة ، توفر لهم الوقت للفرار . لقد استطاع شارني أن يقنع نفسه بذلك ، عندما شاهد آثار انطلاق فارس ما زالت حديثة .

هذه الآثار ، وبعض الأغصان المنكسرة في جوار الحاجز المشبك لحمامات أبولون ، شكلت البرهان المقنع لشارني المسكين .

فعاد إلى منزله ليقضي بقية الليل في هذيان دائم . وعندما

أصبح الصباح ونهض من فراشه، كان لم يزل متوتر الأعصاب غير هادىء.

لقد كان شاحب اللون كالميت، وبدا مظهره كأنه قد كبر عشر سنوات دفعة واحدة! فنادى خادمه، ولبس بمساعدته لباساً من المخمل الأسود، ظهر فيه كأنه من تلك الطبقة التي امتازت في فرنسا يومذاك، بأنها ليست من رجال الاكليروس ولا من النبلاء.

وسار قاتم الوجه، صامتاً، ممتصاً كل آلامه، باتجاه قصر «تريانون»، في الوقت المحدد لتبديل الحرس، أي حوالى الساعة العاشرة.

في تلك الساعة، كانت الملكة خارجة من كنيسة القصر، بعد استماعها إلى القداس، فانحنت لها باحترام عند مرورها، كل الرؤوس والسيوف.

ووقف شارني مبهوتاً أمام جمالها!..

لقد كانت حقاً رائعة... بشعرها المرفوع فوق صدغيها، ووجهها ذي الحياكة الناعمة، وفمها الباسم، وعينيها المشعتين بالضياء العذب رغم التعب البادي عليهما.

وفجأة لمحت شارني عند نهاية صفّ من الأشجار، فاحمرت وأطلقت صرخة اندهاش!

فلم يخفض شارني رأسه . بل استمرَّ ينظر إلى هذه الملكة التي قرأت في نظرته شقاءً جديداً ، فجاءت إليه وقالت له بقساوة :

«كنت أعتقدك في أراضيك يا مسيو دي شارني .»

فأجاب شارني بايجاز وبلهجة خالية من الأدب تقريباً :

«لقد عدت يا مولاتي .»

فقابلت الملكة المندهشة كلامه العدائي تقريباً بنظرات غاضبة ، ثم استدارت نحو نسائها وقالت للسيدة دي لاموت بمودة :

«صباح الخير أيتها الكونتس .»

ثم غمزتها بعينيها غمزة أليفة ذات دالة ، فارتعش شارني وتطلَّع بانتباه زائد ، وإذا بجانّ التي شغل بالها هذا التكلف ، تشيح برأسها عنه .

فتبعها شارني وكأنه قد أصيب بمسّ . وبقي يلاحقها حتى أبانت له وجهها . ثم استدار حولها يدرس مشيتها .

أما الملكة ، فمع أنها كانت تحيي على الشمال وعلى اليمين ، فقد استمرت تلاحق احتيال هذين المترصدين ، وهي تقول في نفسها :

«مسكين هذا الفتى ! هل اختلَّ عقله يا ترى ؟»

وعادت إليه لتقول له بصوت عذب :

«كيف تجد نفسك يا مسيو دي شارني؟»

فأجابها دي شارني:

- على أحسن ما يكون يا مولاتي. ولكن، شكراً لله! تبقين أفضل مني.

ثم حيًا بشكل أرعب الملكة. فقالت جانّ المتيقظة: هل هناك شيء؟

واستأنفت الملكة الكلام فسألته:

- أين تقطن في الوقت الحاضر إذن؟

فأجاب شارني:

- في فرساي يا مولاتي.

- منذ كم من الوقت؟

فأجاب شارني داعماً كلماته بالنظر ونبرة الصوت:

- منذ ثلاث ليالٍ...

فارتعشت جانّ، وأكملت الملكة تسأله بعذوبة ملائكية، ومن دون أن يبدو عليها أي اضطراب:

- هل لديك شيء تودُّ قوله لي؟

فأجاب شارني:

- أوه! نعم يا مولاتي، لدي أشياء كثيرة أودُّ قولها لجلالتك.

فقالت الملكة بخشونة: تعال!

ومشت ماري انطوانيت بخطوات واسعة نحو أجنحتها، بعد أن دعت حاشيتها للحاق بها كي تتجنب الظهور منفردة مع شارني، وقد اندست جانّ وسط هذه الحاشية.

وعندما وصلت إلى جناحها، صرفت السيدة ميزاري وكل القائمين على خدمتها.

وكان الطقس جميلاً والشمس مشرقة من خلال الغيوم. ففتحت الملكة النافذة المطلة على سطيحة صغيرة، وجلست أمام خزانة واطئة تكدست فوقها الرسائل، فعرف الذين رافقوها بأنها تودّ الانفراد بنفسها، فابتعدوا.

وبقي شارني وحده فريسة الغضب، نافد الصبر، يدعك قبعته بيديه بعصبية ظاهرة، فقالت له الملكة:

– تكلم! تكلم! يبدو عليك أنك منزعج جداً يا سيدي.

فقال شارني الذي كان شديد التبصر:

– من أين عليّ أن أبدأ؟ وكيف أجرؤ على اتهام الشرف، واتهام الوفاء، واتهام الجلالة؟

فصاحت ماري انطوانيت وهي تنتفض بسرعة ونار الغضب في عينيها: ماذا تقول؟!

فأكمل شارني قائلاً:

– ومع ذلك، لن أصرح عما شاهدت.

فنهضت الملكة وقالت ببرودة:

– إنه الصباح يا سيدي، ولا يمكن أن تكون ثملاً في مثل هذا الوقت. ومع ذلك، فقد تصرفت تصرفاً سيئاً لا يليق بنبيل ما زال على الريق.

وانتظرت الملكة أن تسحق مهينها بهذا الكلام المحقِّر، لكن شارني بقي غير مبالٍ، وأردف قائلاً:

– في الواقع، ما الذي تعنيه كلمة ملكة، سوى امرأة؟ وأنا، من أكون؟ أنا رجل قبل أن أكون تابعاً.

– سيدي!..

– يجب أن لا يغضبك ما سأقوله لك يا مولاتي. فأنا قد برهنت لك عن احترامي للجلالة الملكية، وأخشى أن أبرهن لك عن حبي المغاير للصواب لشخص الملكة بالذات. يبقى عليك أن تختاري بين الملكة والمرأة... فأيهما من الاثنتين، تريدين أن يتَّهم هذا العابد بالخيانة المشينة؟

فصاحت الملكة وهي تسير نحو شارني شاحبة اللون:

– إعلم يا سيد دي شارني، بأنك إن لم تخرج من هنا، سوف أطردك بواسطة حراسي.

فصاح شارني وقد أسكره الغضب:

– إذن، سوف أقول لك قبل أن تطرديني، لماذا أنت ملكة غير جديرة وامرأة بدون شرف!.. منذ ثلاث ليال، وأنا ألاحقك في حدائقك.

وعوضاً عن أن تثب الملكة غاضبةً نتيجة لهذه الإهانة الهائلة، كما كان يتوقع شارني، رآها ترفع رأسها وتقترب لتمسك بيده وتقول له:

– إنك في حالة تثير شفقتي يا سيد دي شارني. فاحترس لنفسك، لأن الشرر يتطاير من عينيك، ويديك ترتعشان، والشحوب يعلو وجنتيك، والدم يزدحم في قلبك. إنك تتألم، فهل تريد أن أستدعي لك؟..

فقاطعها شارني قائلاً:

– لقد رأيتك!.. لقد رأيتك! رأيتك مع ذلك الرجل عندما أعطيته الوردة. ورأيتك عندما قبّل يديك، ورأيتك عندما دخلت وإياه إلى حمامات أبولون...

فمررت الملكة يدها على جبينها، لتتأكد بأنها في اليقظة وليست في المنام، وقالت:

– هيّا واجلس، لأنك سوف تسقط إن لم أمسك بك. اجلس، قلت لك.

فارتمى شارني على تكأة، وجلست الملكة بالقرب منه على إسكملة، ثم أمسكت بيديه الاثنتين وأخذت تتأمله حتى أعماق نفسه، وقالت له:

– هدّئ من روعك، وسكّن قلبك ورأسك، وأعد عليّ ما قلته لي.

فدمدم التعيس قائلاً :

– أوه ! إنك تريدين قتلي .

– دعني أسألك ، منذ متى عدت من أراضيك ؟

– منذ خمسة عشر يوماً .

– أين تقطن ؟

– في منزل «لوفاتييه» ، الذي استأجرته عمداً .

– آه ! نعم ، منزل الانتحار ، على حدود «البارك» .

فأكد شارني ذلك بإشارة من رأسه ، وتابعت الملكة تسأل :

– تكلمت على رجل رأيته معي ، أليس كذلك ؟

– أودُّ التكلم أولاً عليك أنت ، التي رأيتك .

– أين كان ذلك ؟

– في «البارك» .

– أية ساعة ؟ وأي يوم ؟

– المرة الاولى ، في منتصف ليل الاربعاء .

– أنت متأكد بأنك رأيتني ؟

– كما أراك الآن ، ورأيت أيضاً تلك التي كانت برفقتك .

– أكان هناك من يرافقني ؟ وهل تعرف هذه الرفيقة ؟

– لقد تراءى لي هذه الساعة ، بأني رأيتها هنا ، ولكني لا أستطيع التأكيد . فهيئتها هي إياها ، أما وجهها ، فقد كان مستتراً عند ارتكاب الجريمة .

فقالت الملكة بسكينة :

- حسناً ! لم تتحقق من رفيقتي ، أما أنا ...

- أما أنت ، فإن كنت تشكين بأني أراك الآن ، أشك بأني رأيتك .

فخبطت الملكة الأرض برجلها باضطراب ، وقالت :

- وذلك الرفيق الذي أعطيته وردة ... طالما أنك رأيتني أعطيه وردة .

- نعم ، هذا الفارس ، لم أستطع أبداً إدراكه .

- مع ذلك ، أنت تعرفه ؟

- كل ما أعرفه عنه ، هو أنهم يدعونه «مولاي» .

فضربت الملكة جبهتها بغضب مكظوم ، وقالت :

- تابع ... الثلثاء ، أعطيت وردة ... والاربعاء ؟

- الاربعاء ، أعطيت يديك للتقبيل ...

فدمدت وهي تعضّ يديها :

- أوه ! والخميس ، البارحة ؟

- البارحة ، أمضيت مع ذلك الرجل ساعة ونصف الساعة في حمامات أبولون ، حيث تركتكما رفيقتك وحدكما ...

فنهضت الملكة مهتاجة ، وقالت مشددة على كل مقطع :

- و ... أنت ... هل رأيتني ؟

فرفع شارني يده نحو السماء يريد أن يقسم، إلا أن الملكة زمجرت قائلة:

- يا للهول! يودّ أن يقسم أيضاً!..

فكرر شارني حركته وكأنه يكرر اتهامه، فقالت الملكة وهي تقرع صدرها:

- أنا؟ أنا؟ أنا، رأيتني؟

فقال شارني:

- نعم، أنت. فالثلثاء، كنت ترتدين فستانك الأخضر المتموج بالخطوط الذهبية. والاربعاء، فستانك المشجر باللونين الأزرق والزنجاري. والبارحة، فستان الحرير الذي كنت ترتدينه عندما قبّلت يدك لأول مرة! أنت بذاتك من شاهدت يا مولاتي، واني أقسم على ذلك بحياتي، وشرفي، والهي. أقسم وأكاد أموت ألماً وخجلاً!..

فأخذت الملكة تذرع السطيحة بخطوات واسعة، غير مكترثة لأن يلاحظ غضبها الشديد، المشاهدون الذين يفترسونها بأعينهم من الأسفل. ثم قالت:

«لو أقسمت... لو أقسمت بولدي، يالهي!.. وأنا لي إله مثلك!.. ولكن لا، لن يصدقني!.. لن يصدقني!»

فأخفض شارني رأسه، وأضافت الملكة قائلة وهي تهزهز يده: «مجنون! مجنون!»

ثم جذبته من السطيحة إلى غرفتها ، وقالت له :

- إني لأعجب من هذه اللذة التي تدفعك لاتهام امرأة بريئة ! ومن الشرف الذي ستناله من هذه التهمة الشائنة بحق ملكتك ... ألا تصدقني بأني لست أنا التي رأيتها ؟ إني أقسم لك بالمسيح ، بأني منذ ثلاثة أيام ، لم أخرج بعد الساعة الرابعة مساءً . فهل تريد أن أثبت لك ذلك بواسطة نسائي ، بواسطة الملك الذي رآني هنا ، وأنه لم يكن بإمكاني أن أكون في موضع آخر ؟ لا ... لا ... إنه لن يصدقني ! إنه لن يصدقني.

فأجاب شارني ببرودة :

- ولكني رأيتك !..

فصاحت الملكة فجأة :

- أوه ! إني أعلم ، إني أعلم ! فهذا الافتراء الفظيع ما زال يلاحقني بلا شفقة ولا رحمة ! ألم يروني في حفلة الاوبرا ؟ ألم يروني عند ميسمار ؟ أنت تعرف ذلك جيداً ، لأنك كنت من الذين ظلموني بقساوة ، وبدون رادع من ضمير .

- في ذلك الوقت يا مولاتي ، لم يكن بإمكاني أن أصدق عينيَّ . أما اليوم ، فلا يسعني إلا أن أصدق !

فرفعت الملكة نحو السماء ذراعيها المتوترتين من فرط اليأس ، وقالت بعد أن تدحرجت من خديها إلى صدرها دمعتان محرقتان :

– يا إلهي ! ألهمني فكرة تنقذني ، فلم تعد نفسي تتحمل الاحتقار والظلم . لا تتخلَّ عني يا إلهي !

فحركت هذه الصلاة الحازمة على بساطتها شعور شارني حتى أعماق قلبه ، فخبأ عينيه بيديه ...

أما الملكة ، فقد لزمت الصمت لحظة ، ثم قالت بعد تفكير :

– سيدي ، يتوجب عليك التكفير نحوي . فإليك ما أريده منك : لقد رأيتني في «البارك» أثناء الليل ، وعلى ثلاث ليالٍ متلاحقة ، برفقة رجل . ومع أنك عالم بأن هناك امرأة تشبهني وقد انخدع بها الكثيرون ، إذ لها بكل أسف نفس وجهي ونفس مشيتي ، فأنت لا تريد إلا أن تصدق بأني أنا من كانت في «البارك». فبما أنك مصرّ على اعتقادك ، وبما أنك رأيتني بنفسك ، إرجع إلى حدائق «البارك» في نفس الساعة ، إرجع إليها برفقتي . فإذا كنت أنا من رأيتها أمس ، حتماً لن تراني اليوم ، لأنني سأكون قربك . واذا كانت امرأة أخرى ، فلماذا لا نراها سوية نحن الاثنين ؟ وإذا رأيناها ... هل ستندم يا سيدي على كل ما سبَّبته لي من عذاب ؟

فضغط شارني بيديه الاثنتين على قلبه ، ودمدم قائلاً :

– آهِ مولاتي ، إني استحق الموت ، فلا تسحقي هذا القلب بطيبتك .

فقالت الملكة :

– كن مطمئن البال ، فأنا لا أريد الانتصار إلا بالبراهين . فانتظرني هذا المساء وحدك عند البوابة المخصصة لصيد الذئاب [1]. إذهب يا سيدي ، ولا تدع شيئاً يظهر عليك في الخارج .

فحيّا شارني وخرج من دون أن يفوه بكلمة .

وعندما اجتاز القاعة الثانية ، رمقته جانّ بنظراتها الحادة ، وأسرعت مع من كان معها ، في الدخول على جلالتها عند أول نداءٍ منها .

امرأة وشيطان

★

كانت جانّ قد لاحظت مظاهر القلق والاضطراب على وجه شارني ، كما لاحظت الهم وانشغال البال على وجه الملكة ، وذلك نتيجة لحرارة الحديث الذي جرى بينهما . فامرأة في مقدرة جانٌ لا تحتاج الى الكثير من الجهد لفهم الامور كما هي .

---

(١) من هذه البوابة كان الملك وحاشيته ينطلقون لصيد الذئاب داخل «البارك».

والواقع أنه بعد اللقاء الذي جرى بين السيدة دي لاموت وأوليفا، والذي دبره كاغليسترو بمهارة كلية، أصبح بامكان مسرحية الليالي الثلاث الاخيرة أن تتجاوز التفسيرات والتعليقات.

فقد شاءت جانّ بدخولها على الملكة والاستماع الى كل شيء بدقة وانتباه، أن تكتشف في وجه ماري انطوانيت الأدلة على ما يريبها ويساورها من شكوك وظنون.

لكن الملكة كانت قد اعتادت منذ بعض الوقت ان تحذر كل الناس، لذا لم تدع شيئاً يظهر عليها. فعمدت عندئذ جانّ الى الحدس والتخمين، ولتوها أمرت احد خدمها بأن يلحق بالسيد دي شارني، ففعل وعاد بعد قليل ليعلمها بأن الكونت قد دخل منزلاً يقع في طرف الحدائق الملكية، بالقرب من شجرات النير، ففكرت في نفسها قائلة:

«لا شك ان هذا الرجل الذي رأى كل شيء، هو عاشق!»

ثم سمعت الملكة تقول للسيدة دي ميزاري:

«إني أشعر بتعب أيتها العزيزة ميزاري، لذا سأنام هذا المساء في الساعة الثامنة.»

وأضافت تقول فيما كانت سيدة الشرف تلح على ذلك:

«لن أستقبل أحداً.»

فقالت جانّ في نفسها: «الأمر واضح بما فيه الكفاية، ومجنونة تكون من لا تفهم.»

ولم تتوان الملكة، التي كانت فريسة التأثيرات، من أن تأذن بالانصراف لكل أفراد حاشيتها. فغمر الفرح قلب جانّ لأول مرة منذ دخولها البلاط، وقالت في نفسها:

«لقد حان الوقت كي أتخلص مما فعلت، فالأوراق أصبحت مخلوطة في باريس!»

وللحال، خرجت من فرساي وعادت الى منزلها في شارع سان كلود، حيث وجدت في انتظارها هدية فضية ثمينة كان الكردينال قد بعث بها إليها صباح ذلك اليوم.

وبعد أن ألقت على هذه الهدية نظرة غير مبالية، رغم قيمتها، انتقلت بنظرها إلى شقة أوليفا فرأت، من خلال ستائر نافذتها المسدلة، أوليفا نائمة، إذ كانت بدون شك تعبة بسبب ارتفاع الحرارة في ذلك اليوم.

ثم توجهت الى قصر الكردينال فوجدت نيافته مشرق الوجه، شامخ الأنف من الفرح والكبرياء. وقد كان جالساً وراء مكتبه الفخم يمزق رسالة، ثم يعود فيبدأ بكتابتها بنفس العبارات ومن دون ملل، لكنها لم تنته اطلاقاً...

فانتفض واقفاً وصاح عندما أبلغه الخادم بقدومها:

«أيتها الكونتس العزيزة!»

واندفع الحبر نحوها يغمر ذراعيها ويديها بقبلاته الحارة ... ثم جلست جانّ في مقعد مريح استعداداً لحديث طويل.

فبدأ الحديث نيافته بعبارات الشكر وعرفان الجميل، وذلك ببلاغة لا تخلو من صدق الطوية، فقاطعته جانّ قائلة:

- هل تعلم يا مولاي أنك عاشق لطيف، وأنه لا يسعني إلا أن أشكرك على لطفك المتناهي؟

- ولِمَ الشكر؟

- ليس من أجل الهدية الرائعة التي بعثت بها إليَّ هذا الصباح، بل من اجل الحذر الذي احتطت له فلم ترسل هذه الهدية إلى المنزل الصغير. فعلاً، إنه تصرف لطيف، وإن قلبك ملكي وليس ملك شهوتك.

فأجاب الكردينال:

- إن لم أكن لطيفاً معك، فمع من تريدين أن أكون لطيفاً؟

فقالت جانّ:

- إنك لست رجلاً سعيداً وحسب، بل أنت إله منتصر!

- أنا أعترف بذلك، والسعادة تخيفني... إنها تزعجني، وتجعلني غير قادر على تحمل رؤية الرجال الآخرين...

ثم تابع يقول بعد ان انتصت جانّ:

- هل أنت آتية من فرساي؟

– نعم .
– وهل ... رأيتها ؟
– لقد تركتها لتوي .
– وهي ... ألم تقل شيئاً ؟
– ماذا تريدها أن تقول ؟
– عفواً، ليس ذلك بدافع الفضول، بل بدافع الكلف والولع .
– لا تسألني شيئاً .
– أوه ! أرجوك أيتها الكونتس .
– قلت لك لا تسألني .
– إن موقفك هذا، يجعلني أعتقد بأنك تحملين خبراً سيئاً .
– لا تجبرني على الكلام يا مولاي .
– كونتس ! كونتس !
وأكمل يقول بعد ان شحب لونه :
– صارحيني إن كان لديك خبر شؤم ... ولكن لا ... فأنا لا أريد أن يعكر سعادتي أي شيء ... أليس كذلك ؟
فأجابت جانّ :
– بالعكس، إني اعتبر ذلك سعادة كبيرة يا مولاي .
– ذلك ... أي ذلك ؟ ماذا تريدين أن تقولي ؟

فقالت جانّ بجفاء :

- أن لا تكون قد اكتُشفت.

- فابتسم الكردينال وقال :

- أوه ... رغم الاحتياطات ، ورغم ذكاء قلبين وروح ...

- إن روحاً وقلبين يا مولاي ، لا تحجب الرؤية عن العيون من خلال الاغصان .

فصاح الامير دي روهان مرتعباً : وهل شاهدونا ؟!

- هذا ما أعتقده .

- إذن ... إن كانوا قد شاهدونا ، فهل يعني أنهم عرفونا ؟

- أوه ! بخصوص ذلك يا مولاي ، لا تشغل بالك . فلو أنهم عرفونا ، لو أن واحداً وقف على هذا السر ، لكانت جانّ دي فالوا قد أصبحت الآن في أطراف الدنيا ، ولكنت أنت الآن ميتاً ...

- هذا صحيح ، فكل ما شاهدوه ، أناساً يتنزهون في حدائق «البارك» ، وذلك ليس ممنوعاً . أليس كذلك أيتها الكونتس ؟

- إسأل الملك .

- أعَرف الملك ؟

– لو عرف الملك، لكنا نحن الاثنين في سجن الباستيل الآن. فكي تتحاشى الباستيل، جئت أرجوك ان لا تطلب المستحيل مرة جديدة.

فصاح الكردينال:

– ماذا تقولين؟ ما الذي يعنيه كلامك أيتها الكونتس؟

– ألم تفهم ما يعنيه؟

– إني خائف.

– أما أنا، فسوف أخاف إن لم تسكّن روعي.

– ماذا عليّ أن أعمل من أجل ذلك؟

– عليك أن لا تذهب بعد الآن إلى فرساي.

فقفز الكردينال كالمجنون وصاح:

– هذا مستحيل!

– ولماذا مستحيل؟

– لأن في قلبي حباً لن ينتهي إلا بانتهاء حياتي...

فقاطعته جانّ قائلة بسخرية:

– أعرف ذلك جيداً. ولكنك إن أصريت على الرجوع إلى «البارك»، فأنت وحبك ستنتهيان سوية وبضربة واحدة.

– عجباً من هذا الخوف أيتها الكونتس! فالبارحة كنت في غاية الجرأة!

– أنا لا أخاف إطلاقاً، عندما لا يكون الخطر ماثلاً.

– أما أنا، فلا أشعر بالسعادة، إلا إذا كانت محفوفة بالمخاطر.

– حسناً، ولكن إسمح لي أن أقول لك والحالة هذه...

فصاح الحبر المتيَّم:

– لا شيء، لا شيء أيتها الكونتس. سوف أعود الى فرساي، ولو كلفني الحب حياتي!

فسألته الكونتس:

– أتذهب وحدك؟

فقال دي روهان بلهجة عاتية:

– هل ستتخلين عني؟

– أنا، أولاً...

– ولكن هي، ستأتي.

– أنت مخدوع، إنها لن تأتي.

فقال الكردينال وهو يرتعش:

– وهل جئت تنبئينني بذلك من قبلها؟

– إنها الصدمة التي أحاول منذ نصف ساعة أن أخفف من وقعها عليك.

– ألا تريد أن تراني بعد الآن؟

– أبداً، وأنا التي نصحتها بذلك.

فقال الحبر بلهجة مؤثرة:

– حرام عليك يا سيدتي، ان تغمدي الخنجر في قلب تعلمين كم هو رقيق.

– ذلك أقل شراً، بالنسبة لي يا مولاي، من أن أدع مخلوقين مجنونين يضربان عرض الحائط بنصيحة مخلصة، من المفروض أن يستفيدا منها.

– ولكن الموت أفضل لي من ذلك أيتها الكونتس!

– هذا تجديف يا قداسة الحبر! فلا تنسَ أنك أحد رعايا الملكة، وأنه عليك أن تضحي بحبك في سبيل عرشها.

فأمسك الكردينال بيد الكونتس وصاح بها وكأنه يهذي:

– اعترفي بأنها لم تقل لك بأنها تخلت عني، وأنها طلبت مهلة فقط...

– لك أن تقدر ما تشاء، ولكن عليك أن تتقيد بأوامرها.

– ليست الحدائق المكان الوحيد الذي باستطاعتنا أن نرى بعضنا البعض فيه، فهناك الف مكان أمين، ألا تأتي إلى شقتك؟

– لن أزيد كلمة على ما قلت يا مولاي. فسرك الذي أحمله، أشعر بأنه سوف يقتلني إن أنا حملته مدة طويلة. وأعترف لك صادقة، ولو اعتبرتني مجرمة، بأنه إن لم تفضح المفاجآت او سوء الاحتراز هذا السر، ربما حملني ضميري يوماً من الايام، وفي ساعة يأس، على الاعتراف به للملك.

فصاح دي روهان قائلاً :

– يا إلهي ! أمعقول ان تفعلي ذلك ؟

– إنك لو رأيتها ، لأثارت شفقتك .

فنهض الكردينال بسرعة وقال :

– ما العمل إذن ؟

– العمل الوحيد المطلوب منك ، هو أن تصمت !

– ولكن صمتي يجعلها تعتقد بأني نسيتها .

فهزت جانّ كتفيها ، وأكمل الكردينال يقول :

«سوف تتهمني بالخيانة .»

– إن من ينقذ ملكته ، لا يتهم أبداً بالخيانة .

– ثم هل هناك امرأة ، تغفر لمن لا تظهر عليه الغبطة في حضورها ، خاصة اذا كانت هذه المرأة ملكة كماري انطوانيت ؟ بربك دعيني أراها مرة أخيرة ، دعيني أكلمها . وأنا أعاهدك على التقيد بأوامرها ، كأنها نذر عليّ ، بعد أن تستمع الي .

فنهضت جانّ وقالت له :

– إفعل ما يروق لك . إذهب اليها إذا شئت ، ولكن إذهب وحدك . فأنا قد رميت مفتاح الحدائق في نهر السين أثناء عودتي اليوم . إذهب إلى فرساي واتبع هوى نفسك ، أما

أنا، فسوف أسافر الى سويسرا، أو إلى هولندا، كي أكون بعيدة عن القنبلة التي أخشى انفجارها.

– يا إلهي! أتتركينني أيتها الكونتس! أتتخلين عني! ولكن، مع من سأتحدث عنها؟

فقالت له جانّ بدهاء ومراوغة:

– ألن تبقى لك الحدائق الملكية واصداؤها؟

فقال الحبر بلهجة حزينة:

– إشفقي عليَّ أيتها الكونتس، فنفسي حزينة حتى الموت!

فأجابته جانّ بفظاظة الجراح الذي يقرر بتر أحد أعضاء المريض:

– إن كنت حزيناً حتى الموت، عليك ان لا تتصرف كالاولاد، فتعرّض نفسك لما هو أشدُّ خطراً من البارود، ومن الطاعون، بل من الموت نفسه! إن كنت هائماً الى هذه الدرجة بهذه المرأة، فينبغي عليك ان تحافظ عليها، عوضاً عن ان تفقدها. وإن كان لم يزل لك قلب وذاكرة، لا تجازف بمن خدمك بمحبة. أنا لا أريد أن ألعب بالنار، فهلاَّ أقسمت لي بأنك، من الآن وحتى خمسة عشر يوماً، لا تسير خطوة واحدة لرؤية الملكة؟ قلت لرؤية الملكة ولم أقل للتحدث إليها، هل سمعت؟ وهل تقسم على ذلك؟

فدمدم الكردينال قائلاً :

– آه ! ان انسحاق القلب والسقوط من أوج السعادة، لأمر رهيب سوف يقتلني !

فقرّبت جانّ وجهها منه وهمست في إذنه قائلة :

– هيا بنا ، فأنت لا تحب إلا من أجل إشباع رغباتك .

– ولكني اليوم أحب من أجل الحب .

فقالت جانّ :

– تعذب إذن اليوم ، فالعذاب من شروط الحب . هيا وقرر يا مولاي ، أتريد لي أن أبقى هنا ؟

– إبقي أيتها الكونتس ، ولكن جديلي مسكّناً لآلامي ، فالجرح جدُّ أليم !

– هل تقسم على طاعتي ؟

– أقسم بشرف آل روهان !

– حسناً ، إن مسكّنك موجود . فأنا أمنعك من ملاقاتها ، ولكني لا أمنعك من مراسلتها ...

فصاح وقد أنعشه الأمل :

– أحقيقة ما تقولين ؟ أباستطاعتي أن أكتب إليها ؟

– حاول .

– وهل سترد عليّ ؟

– سأحاول إقناعها بأن ترد .

فأمسك الكردينال بيد جانّ وأخذ يقبلها بنهم ويناديها :
«يا ملاكي وشفيعي !»

فرقص قلب الكونتس فرحاً ، ورقص الشيطان الساكن في أعماق الكردينال !

الليل

★

في الساعة الرابعة من بعد ظهر ذلك اليوم ، توقف فارس جميل بجواده على تخوم «بارك» فرساي ، وراء حمامات أبولون ، اي في نفس المكان الذي سبق للكردينال دي روهان ان توقف فيه منذ ثلاثة أيام ، ثم قام بنزهة صغيرة ممتعه كان جواده خلالها يتنقل به خطوة خطوة ، وكان هو مشغول البال شارد الفكر .

ثم ربط جواده بجذع سنديانة والتفت الى ما حوله وقال :
«إنه مكان خرب جداً» .

ثم تقدم من سور الحدائق وتابع يقول :
«ها هي آثار تسلق ، وها هي البوابة التي فتحت مؤخراً ، فقد تحقق لي ما كنت قد فكرت به» .

وكان هذا الفارس المسيو دي شارني ، وكانت هذه البوابة هي التي اختارها للدخول منها الى فرساي .

وقف دي شارني امام تلك البوابة وتنهد تنهداً عميقاً شعر معه بأن روحه قد انسلخت عن جسده . ثم همهم قائلاً :

«ان ما يهبه الله للبعض ، يحرم منه البعض الآخر ، فلتبارك مشيئة الله التي جعلت بعض الناس سعداء ، وبعضهم الآخر تعساء !

«ومع ذلك ، يلزمني البرهان على ذلك . فبأي ثمن ، وبأية وسيلة، يمكنني الحصول على هذا البرهان ؟

«آه ! ليس أهون من ذلك . ففي الدغل ، واثناء الليل ، باستطاعة الانسان ان يرى كل آتٍ من دون ان يراه أحد . لذا ، هذا المساء ، سوف أكمن في الدغل .

قال هذا وأمسك زمام جواده ، وبتمهل اعتلى صهوته ، وما هي لحظات حتى اختفى عند زاوية السور .

ولما كان شارني يريد التقيد بأوامر الملكة ، فقد التزم منزله بانتظار إشارة من جلالتها .

وعوضاً عن أن يراقب من نافذة الشرفة التي تطل على «البارك» ، جلس يراقب من نافذة أخرى في نفس الغرفة تطل على الشارع الصغير . فالملكة قد قالت : «عند البوابة المخصصة لصيد الذئاب» . لكن نافذة وبوابة في هذا المنزل الصغير ، هما

واحد في الطابق الارضي. فالمهم ان يتمكن شارني من رؤية كل شيء.

وعندما هبط الليل ولم يظهر أحد. أخذ شارني يناجي الليل الشديد السواد، وكله أمل بأنه سيسمع بين دقيقة وأخرى وقع جواد، أو وقع خطوات ناقل بريد مسرعة.

ولكن الساعة قد دقت معلنة العاشرة والنصف، دون ان يبدو لناظريه شيء. فهل خدعت الملكة شارني؟ وهل وعدته مضطرة كي تتخلص من إحراجه على ان لا تفي بوعدها؟

لقد ساورت شارني مثل هذه الافكار المريعة. وكمثل أي شاب عنيف في غرامه، تسرب الشك إلى قلبه بسرعة وسهولة، فصاح قائلاً:

«كيف انطلت عليّ هذه الاكذوبة، أنا الذي رأيت بأم عيني، فضحيت بيقيني وإثباتي من أجل أمل سخيف؟»

وفيما هو على هذه الحالة من التفكير المشؤوم، إذا بقبضة من الرمل ترشق على زجاج النافذة الأخرى من تلك الغرفة، فيلفت صوت ارتطامها انتباهه ويسرع الى جهة الحدائق فيرى، من خلال عباءة فضفاضة سوداء، وتحت خميلة الحدائق، وجه امرأة يرتفع باتجاهه شاحباً قلقاً.

فلم يستطع كبت صرخة فرح ممزوجة بالندم على ظنه غير المحق، إذ كانت المرأة التي استدعته بهذه الاشارة، هي الملكة التي كانت بانتظاره.

فرمى بنفسه من النافذة بدون وعي، وبقفزة واحدة كان جاثياً امام ماري انطوانيت، التي قالت له بصوت خفيض وهي ترتعش:

«آه! أهذا أنت يا سيدي؟ أنا سعيدة بلقياك!

فأجابها شارني وهو لم يزل ساجداً:

– أنت! أنت! أنت بذاتك... يا مولاتي! أمعقول هذا؟

– ألم تكن تترقب وصولي؟

– كنت أترقبه من جهة الشارع يا مولاتي.

– هل يعقل ان أجيء من الشارع، طالما باستطاعتي المجيء من «البارك» بسهولة كبيرة؟

فقال شارني بلهجة العاشق الشاكر:

– لم أكن لأجرؤ على وعد نفسي برؤيتك.

فقاطعته الملكة قائلة:

– علينا أن لا نبقى هنا، فالمكان مضيء. هل لديك سيفك؟

– نعم.

– حسناً... من أين دخل أولئك الذين قلت بأنك رأيتهم؟

– من هذه البوابة.

– وفي أية ساعة.

– عند انتصاف الليل، كل مرة.

– هل تحدثت عن ذلك لأحد؟

– أبداً.

– إذن ليس ما يمنع مجيئهم هذه الليلة ايضاً. لندخل في الحَرْجة وننتظر.

ودخلت الملكة اولاً، وبخطوات سريعة سارت في اتجاه عكسي، ثم قالت فجأة وكأنها تريد الذهاب الى أبعد من تفكير شارني:

– أنت تعلم جيداً، بأني لم أشأ اطلاع مدير الشرطة على هذه القضية، مع العلم، بأنه يتوجب على السيد دي كروسن إنصافي عندما أتشكى إليه، واذا لم يكشف النقاب عن هذا السر، سر المخلوق الذي اغتصب اسمي بعد أن كان قد اغتصب شبهي، فهذا يعني ان هناك سببين: إما عدم جدارة السيد دي كروسن – وهذا ليس بالأمر الهام – وإما تواطؤه مع أعدائي. لأنه يبدو لي من الصعب جداً، ان تمثل في حدائقي وضمن حرمة قصري، مثل هذه المهزلة التي أطلعتني

عليها، من دون دعم مباشر أو تواطؤ ضمني . لذا أجد الأمر من الخطورة بمكان، إن أنا لم أعمل المستحيل لكشف المجرمين . فماذا تعتقد أنت ؟

- أتوسل الى جلالتك بأن تعفيني من فتح فمي ، فأنا في يأس وغم شديدين ، عدا مخاوفي ، وعدا أنه قد زال كل شك لدي .

فقالت الملكة بحيوية :

- أنت ، على الأقل ، رجل شريف يقول الاشياء بصراحة ووجهاً لوجه ، وهذه مزية قد تجرح البريء ، عندما يساء الظن به ، إلا أن جرحها قابل للشفاء .

- آه مولاتي ! إني أرتعش ، فها هي الساعة الحادية عشرة .

فقالت الملكة :

- تأكد بأنه ليس هناك من أحد هنا .

فأطاع شارني واجتاز الحَرَجة حتى وصل الى السور ، ثم قفل عائداً وهو يقول : «لا يوجد أحد» .

- أين جرى المشهد الذي كلمتني عليه ؟

- في ذات اللحظة التي كنت راجعاً فيها من استكشافي يا مولاتي ، تلقيت طعنة هائلة في قلبي ، إذ لمحتك في ذات المكان الذي رأيت فيه في الليالي الاخيرة ... ملكة فرنسا المزيفة .

فصاحت الملكة وهي تبتعد باشمئزاز عن الموضع الذي كانت تقف فيه :

- هنا ؟!

- نعم يا مولاتي ، تحت شجرة الكستناء هذه .

فقالت ماري انطوانيت :

- إذن علينا ألا نقف هنا يا سيدي ، لأنهم إن جاؤوا ، سوف يعودون الى نفس المكان .

فلحق شارني بالملكة الى ممر آخر ، فيما كان قلبه يخفق بشدة ، خوفاً من ان لا يسمع حركة البوابة إذا ما فتحت .

أما الملكة ، فقد كانت صامتة مزهوة ، لأنها كانت تنتظر ظهور براءتها بالبرهان الحسي .

فها هي الساعة تعلن منتصف الليل ، دون ان يظهر أحد . ثم مضت ساعة أيضاً ، سألت ماري انطوانيت شارني في خلالها أكثر من عشر مرات ، عما إذا مواعيد المحتالين كانت دقيقة في كل مرة .

وعندما دقت ساعة سان لويس في فرساي معلنة الواحدة إلا ربعاً بعد منتصف الليل ، نفد صبر الملكة ، فضربت الأرض برجلها وقالت :

- إنهم لن يأتوا اليوم ، وسيبقى الشقاء ملازماً لي !

قالت هذه الكلمات وتطلعت الى شارني وفي نيتها التحدي والخصام، إذا ما استشفت في عينيه بريق الانتصار أو السخرية.

أما شارني فلم ينبس ببنت شفة، وقد بدا رزيناً حزيناً ومهيباً كالملائكة في تلك الساعة. فأمسكت ماري انطوانيت بذراعه وقادته الى تحت شجرة الكستناء حيث كانت محطتهما الاولى، ثم قالت له همهمة:

– قلت بأنك هنا رأيتهم؟

– هنا بالذات يا مولاتي.

– هنا أعطت المرأة وردة للرجل؟

– نعم يا صاحبة الجلالة.

وكانت الملكة وهنة ومتعبة من طول المكوث في تلك الحدائق الرطبة، فاسندت ظهرها الى جذع شجرة وأحنت رأسها الى صدرها، وبلا شعور تراخت ساقاها وانثنتا... فلم يعطها شارني ذراعه، فسقطت سقطاً، على العشب الأخضر، بدلاً من ان تجلس.

وفيما شارني بقي جامداً قائماً، سندت الملكة وجهها بيديها الاثنتين، وانزلقت من بين أصابعها دمعة حزينة لم يستطع شارني تحمل رؤيتها...

وفجأة، رفعت الملكة صوتها وقالت:

– أنت على حق يا سيدي ، وأنا مدانة . فقد وعدت بأن أثبت اليوم افتراءك عليَّ ، ولكن الله لم يشأ ، فإني أطأطئ رأسي .

فدمدم شارني : مولاتي ...

وأكملت الملكة تقول :

– لقد عملت ما لا تعمله أية امرأة لو كانت مكاني . أقول امرأة ولا أقول ملكة ، إذ ما قيمة ملكة يا سيدي ، لا تستطيع ان تحكم على قلبها ؟! ما قيمة ملكة ، يصعب عليها الحصول على تقدير رجل شريف ؟! هيا يا سيدي ، وساعدني على الأقل كي أنهض وأذهب ، ولا تحتقرني إلى درجة التمنع عن إعطائي يدك .

فارتمى شارني على قدميها كالمجنون ، وقال لها وهو يضرب جبهته بالأرض :

– مولاتي ، أغفري لهذا التعيس الذي يحبك ...

فضحكت الملكة بمرارة وصاحت قائلة :

– أنت !.. أنت تحبني ، وتعتقد بأني سافلة !..

– أوه !.. مولاتي !

– أنت !.. أنت الذي تعوزك الذاكرة ، تتهمني بأني هنا أعطيت زهرة ، وهناك أعطيت قبلة ، وهنالك أعطيت حبي لرجل آخر ... كفى كذباً يا سيدي ، فأنت لا تحبني !

– مولاتي ، ذاك الطيف كان هنا ، طيف الملكة العاشقة . وهنا ايضاً ، حيث أنا ، كان طيف العاشق . فاقتلعي قلبي ، لأن هاتين الصورتين الجهنميتين تعيشان في قلبي وتلتهمانه ...

فأمسكت الملكة بيده وجذبته إليها بحركة انفعالية ، وقالت له بصوت مخنوق :

– لقد رأيت !.. وسمعت !.. وكنت أنا بذاتي ، أليس كذلك ؟ نعم ، أنا بذاتي ، فلا تبحث عن شخص آخر . حسناً ! إذن في هذا المكان بالذات ، وتحت شجرة الكستناء هذه ، وكما كنت جالسة جلست ، وأنت على قدميّ كما كان ذلك الرجل . وإذا ضغطت على يديك ، وقربتك من صدري ، وأخذتك بين ذراعي ... واذا قلت لك : أنا التي عملت كل هذا مع ذلك الآخر ، أفهمت ؟ أنا التي قلت نفس الشيء للآخر ، أفهمت ؟ إذا قلت لك : «ما أحببت يا مسيو دي شارني ، ولا أحب ، ولن أحب سوى كائن واحد في هذه الدنيا ... وهذا الكائن هو أنت ... يا إلهي ! يا إلهي ! أيكفي هذا كي أقنعك ، بأن المرأة التي يضم قلبها ، إلى جانب الدم الامبراطوري ، نار الحب الالهية ، ليست امرأة سافلة ؟

فتأوه شارني وأنَّ أنيناً شبيهاً بأنين المحتضر ... فأشعرها بأنه يتكلم ، وقد حرق كتفها بيده ، كما حرق صدرها بنفسه ، والتهم شفتيها بلهاثه ، ثم دمدم قائلاً :

– دعيني أشكر الله . أوه ! إن لم أكن أفكر بالله ، فسوف أفكر بك كثيراً !

فوقفت الملكة بتمهل ، وشخصت اليه بعينيها المشعتين بضياء بلّله الدمع ... فقال شارني مضعضع الحواس :

– أتريدين حياتي ؟

فصمتت برهة دون ان تكف عن النظر اليه ، ثم قالت له :

– أعطني ذراعك ، واذهب بي في كل مكان ذهب الآخرون فيه . وابدأ اولاً من هنا ، من الموضع الذي أعطيت فيه الوردة ...

ثم سحبت من جيبها وردة ما زالت دافئة بالنار التي حرقت صدرها ، وقالت :

– خذ !

فتنشق شارني رائحة الوردة الشذية ، وضمها الى صدره ، وتابعت الملكة تقول :

– هنا ، أعطت يدها ليقبلها ...

فقال شارني وهو نشوان مترنح ، فيما كان وجهه مدفوناً بين يدي الملكة الملتهبتين:

– ... يديها الاثنتين !

فابتسمت الملكة ابتسامة فاتنة وقالت :

– ألم يذهبوا الى حمامات أبولون ؟

فشعر شارني بأن السماء قد أطبقت على رأسه ... ووقف مشدوها كنصف ميت ، فقالت الملكة بفرح :

– هيا لنرى سوية الباب الذي كان يهرب منه عاشق الملكة ذاك .

وسارت الملكة فرحة رشيقة ، وهي تتأبط ذراع شارني الذي كان يشعر في تلك الساعة أنه أسعد إنسان على وجه الارض ، فاجتازا المرجات الخضراء بخطوات سريعة حتى وصلا الى بوابة بدت وراءها ، ومن خلال قضبانها الحديدية ، آثار أقدام جياد ، فقال شارني :

– إنه هنا ذلك الباب ، في الخارج .

فأجابت الملكة :

– لدي كل المفاتيح ، خذ يا مسيو دي شارني وافتح ، لنتقصَّ !

ففتح شارني ، وعبرا البوابة ثم انحنيا يتفحصان الارض . وفي تلك اللحظة، برز القمر من بين الغيوم وكأنه شاء مساعدتهما في استقصائهما ... وارتمت أشعته برفق على وجه الملكة التي كانت تستند الى ذراع شارني وهي تنظر صاغية الى الاشجار حولها ...

وعندما أصبحت واثقة ومقتنعة ، جذبت رفيقها النبيل بحنان اليها ودخلا ، ثم انغلق الباب وراءهما ...

وكانت الساعة قد بلغت الثانية بعد منتصف الليل... عندما قالت الملكة لشارني :

«إرجع الى منزلك، الى الغد ...»

ثم ضغطت على يده دون أن تضيف أية كلمة، وسارت مسرعة تحت شجرات النير باتجاه القصر.

وبعد ان أُعيدت البوابة الى ما كانت عليه، نهض رجل من بين الاشجار واختفى في الغابة التي تزنر الطريق.

وقد حمل هذا الرجل معه سرَّ الملكة !

الإجازة

★

خرجت الملكة من القصر في اليوم التالي وذهبت لحضور القداس والابتسامة لا تفارق وجهها، وقد أعطت الأوامر لحراسها بأن لا يعترضوا أحداً يشاء التحدث إليها.

في ذلك اليوم، وكان يوم أحد، قالت جلالتها عندما استيقظت :

«إنه ليوم جميل هذا اليوم، ويجب ان نتمتع فيه كما يجب».

لذا شوهدت تتنشق أزهارها المفضلة بسرور فاق المعتاد، كما بدت أكثر بهاء في الهبات التي منحتها، وأكثر ورعاً أثناء القداس، مع أنها لم تكن قبل ذلك اليوم قد أحنت رأسها المهيب إطلاقاً.

وفيما كانت تصلي بحرارة، كان جمهور المصلين محتشداً في صحن الكنيسة، وحتى درجات السلالم كانت غاصة بالنبلاء والسيدات، وبينهن كانت تتألق بتواضع، ولكن بأناقة مميزة، السيدة دي لاموت.

وفي الصف المزدوج المكون من النبلاء، كان دي شارني يجلس الى اليمين، وقد أقبل العديد من أصدقائه يهنئونه على شفائه، وعلى عودته، وخصوصاً على إشراقة وجهه.

فالحظوة هي عطر لطيف يتضوع شذاه في الهواء بسرعة، فيلامس الأنوف قبل ان تفتح مجمرة العطور... ومع ان شارني لم يكن صديق الملكة ومحظيها الا منذ ست ساعات، فالجميع أخذوا يدعون بأنهم أصدقاء أوليفيا دي شارني.

ففيما كان يتقبل التهاني وعليه مظاهر الرجل السعيد فعلاً، أقبل كل الجالسين على الشمال الى جهة اليمين، زيادة في إظهار الود والاحترام، فاضطر شارني ان يستعرض بناظريه الجمهور المنتشر حوله، فلمح في اتجاهه وعلى انفراد، وجهاً شاحباً وجامداً عكر عليه نشوة النصر التي كان يعيشها.

فقد عرف في هذا الوجه فيليب دي تافرني، مشدوداً في بزته ويده على قبضة سيفه.

وكانت العلاقة بين الاثنين مقطوعة منذ ان زار تافرني خصمه زيارة مجاملة بعد برازهما، وبعد ان وضع الدكتور لويس شارني تحت المراقبة.

فعندما رأى شارني فيليب الذي كان ينظر اليه بسكينة واطمئنان، حيّاه، فرد عليه تافرني التحية بمثلها من البعيد.

ثم أبعد أوليفيا دي شارني بيده الجمهور الذي كان يحيق به قائلاً:

«عفواً أيها السادة، دعوني أقوم بواجب يفرضه علي الأدب واللياقة.»

واجتاز الفسحة التي تفصل بين الصف الذي إلى اليمين، وذاك الذي إلى اليسار، واتجه مباشرة الى فيليب الذي بقي جامداً في مكانه، وقال له بعد أن حيّاه هذه المرة تحية أكثر كياسة من الأولى:

«كان من الواجب علي يا سيدي أن اشكرك قبل الآن على ما أبديته من اهتمام في صحتي، لكني وصلت البارحة بالضبط.»

فاحمرّ فيليب وغضّ الطرف، وأكمل شارني يقول:

– سيكون لي الشرف يا سيدي بأن أردَّ لك زيارتك غداً، وكلي أمل بأنك لا تكنُّ لي أية ضغينة.

فأجاب فيليب: إطلاقاً.

عند ذاك مدَّ له شارني يده قصد المصافحة، إلا أنه في تلك اللحظة بالذات، دوى صوت الطبل معلناً خروج الملكة، فقال له فيليب ببرودة ودون ان يرد على بادرة شارني الودية:

«ها هي الملكة يا سيدي.»

وقد أضفى على عبارته هذه، مسحة من الحزن فاقت برودتها، أسرع بعدها شارني، وقد فوجئ بعض الشيء، للحاق بأصدقائه في الصف الواقع إلى اليمين.

أما فيليب، فقد بقي جامداً في مكانه كأنه في نوبة حراسة!

وفيما كانت الملكة تتقدم، كانت توزع الابتسامات وتتسلم عرائض الاسترحام، لأنها من البعيد قد لمحت شارني، ولم تكفَّ عن النظر اليه بتلك الجسارة التي كانت تعبر فيها عن صداقاتها، والتي كان أعداؤها يسمونها وقاحة، وقد فاهت بهذه الكلمات:

«اطلبوا اليوم أيها السادة، اطلبوا، فلن أخيب لكم طلباً.»

فتأثر شارني حتى أعماق قلبه بمعنى ولهجة هذه الكلمات السحرية، فكان إحساسه هذا بمثابة شكر للملكة.

وفجأة أفاقت من حلمها الجميل والخطِر في آن معاً، على وقع قدم، وعلى رنة صوت غريب.

وكانت القدم تضرب «محتجة» على البلاط، والصوت يقول بوقار رغم ارتعاشه:

«مولاتي ...»

ولمحت الملكة فيليب ... فلم تستطع إخفاء دهشتها عندما وجدت نفسها امام هذين الرجلين اللذين قاسمتهما الحب، فصاحت قائلة:

– أوه! هذا أنت يا مسيو دي تافرني! هل تريد مني شيئاً؟ تكلم!

فقال فيليب وهو ينحني:

– مقابلة مدتها عشر دقائق، عندما يسمح وقت جلالتك.

فأجابت الملكة وهي تلقي نظرة عابرة على شارني، وقد ارتاعت بلا تعمد من رؤيته قرب خصمه القديم:

– في هذه اللحظة بالذات يا سيدي، اتبعني!

وقد حثت الخطى عندما سمعت وقع أقدام فيليب وراءها، تاركة شارني مكانه.

ومع ذلك، تابعت استلام الرسائل وعرائض الاسترحام والتوسل من رعاياها، ثمّ أعطت بعض الأوامر وعادت الى أجنحتها.

وبعد ربع ساعة، أُدخل فيليب إلى مكتبتها، حيث اعتادت جلالتها ان تستقبل يوم الأحد، فاستقبلته باشة وقالت له:

- آه! مسيو دي تافرني، ادخل وكن بشير خير. فاني أعترف لك، بأنه كلما شاء واحد من آل تافرني ان يتحدث إلي، شعرت بالقلق. فعجل وأكد لي بأنك لا تحمل إليَّ نبأ سيئاً.

فزاد شحوب فيليب بعد هذا الاستهلال عما كان عليه عندما لمحه شارني، وراق له الجواب بعدما لمس في كلام الملكة انعدام المحبة تقريباً، فقال:

- لي الشرف يا مولاتي أن أؤكد لجلالتك بأني لا أحمل اليها هذه المرة إلا نبأ ساراً.

فقالت الملكة: آه! إنه نبأ سار؟

- نعم، واحسرتاه يا صاحبة الجلالة!

- تقول واحسرتاه يا مسيو دي تافرني! يا لي من تعيسة!

فأجاب فيليب برصانة:

- كلمتان فقط وتطمئن جلالتك تماماً، إلى أنه ليس فقط لن يحتجب جبينها النبيل بمناسبة قدوم واحد من آل تافرني، بل إن هذا الجبين لن يحتجب إطلاقاً بغلطة يرتكبها شخص من عائلة تافرني. ابتداء من اليوم يا مولاتي، سوف يتوارى

نهائياً عن بلاط فرنسا، آخر فرد من هذه العائلة التي منحتها جلالتك بعض الحظوة.

فصاحت الملكة وقد تأثرت من هذا الكلام:

– هل ستذهب؟!

– نعم يا صاحبة الجلالة.

– أنت... أنت أيضاً!!

فانحنى فيليب وقال:

– إن شقيقتي يا مولاتي، اضطرت آسفة الى ترك جلالتك. وأنا، أجد نفسي ولا نفع مني للملكة، لذا سوف أذهب.

فتذكرت الملكة بعد إمعان الفكر وهي جالسة مرتبكة، بأن أندريه كانت قد طلبت مثل هذه الاجازة الأبدية في اليوم التالي للمقابلة التي جرت عند الدكتور لويس، حيث حظي شارني بأول دليل على تعاطفها معه، فدمدت قائلة:

«غريب!...»

أما فيليب فقد بقي منتصباً كتمثال من المرمر، بانتظار إشارة من الملكة تجيز له الاذن بالسفر.

وبعد صمت دام عدة دقائق، قالت الملكة:

– إلى أين تود الذهاب؟

فقال فيليب :

- أود الالتحاق بالسيد دي لاباروس.

- إن السيد دي لاباروس موجود حالياً في جزيرة «الارض الجديدة» .

- لقد اتخذت كل الترتيبات للانضمام إليه.

- ألا تعلم بأن الناس يتكهنون له ميتة مريعة؟

- ميتة مريعة، لا اعلم، ولكن ميتة عاجلة، أعلم.

- ومع ذلك تود الالتحاق به؟!

فابتسم تافرني ابتسامة تجلى معها جماله ونبله وحلاوته، وقال :

- من أجل ذلك، أريد الالتحاق بالسيد لاباروس.

فعادت الملكة الى صمتها وقلقها...

وفيما كان تافرني ينتظر الجواب باحترام، بدت له ماري انطوانيت اكثر نبلاً وشجاعة من اي وقت آخر.

ثم نهضت وتقدمت من تافرني وقالت له، بعد أن شبكت ذراعيها البضتين فوق صدرها :

- لماذا ستسافر؟

فأجاب الشاب بصوت خافت :

- لأني أتوق كثيراً الى السفر.

فقالت الملكة وقد خدعتها لحظة تلك السكينة البطولية :

– ولكنك قمت بدورة حول العالم.

– نعم يا مولاتي، ولكنها دورة حول العالم الجديد، وليس حول الجديد والقديم معاً.

فقامت الملكة بحركة عبرت فيها عن غيظها، وقالت:

– غريب أمرك وأمر أختك! فلقد ابتدأتما محبين وانتهيتما كارهين! إن سفرك ليس للذة السفر، فأنت متعب، ولكنك تريد التخلي عني. فأختك من قبلك، لجأت إلى الدير كحجة، وتخلت عني، مع أن النار في قلبها كانت تحت الرماد، فليسعدها الله. وأنت، أنت الذي باستطاعتك ان تكون سعيداً بقربي، جئت تطلب السماح بالسفر. حقاً، إن التافرنيين لا يوفرون لي سوى الشقاء!

– عفواً يا مولاتي، إن جلالتك إذا ما تنازلت وفتشت في أعماق قلوبنا، لن تجد فيها سوى الاخلاص الذي لا حدَّ له.

فصاحت الملكة بغضب:

– اسمع! أنت وأختك لستما سوى مخلوقين غريبين! فاختك تتصور العالم وكأنه جنة لا يستطيع أن يلجها إلا من كان قديساً، وانت تتصور العالم وكأنه جحيم لا يدخله سوى الشياطين. وكلاكما هربتما من هذا العالم، هي لأنها وجدت فيه ما لا تبحث عنه، وأنت لأنك لم تجد فيه ما تبحث عنه. ألست على حق؟ دع البشر وشأنهم إذا كانوا

غير كاملين أيها العزيز تافرني ، ولا تطلب من العائلة المالكة إلا أن تكون أقل كمالاً من الاجناس البشرية الأخرى. كن سموحاً يا مسيو تافرني ، أو بالأحرى لا تكن أنانياً .

قالت الملكة هذا القول وقد شددت على الكلمات الاخيرة ، فاغتنمها دي تافرني مناسبة ليقول :

– إن الانانية فضيلة يا مولاتي ، إذا ما استعملها الانسان لرفع مستوى من يعبد ويحب .

فاحمرت الملكة وقالت :

– كل ما أعلمه ، هو أني كنت أحب أندريه ، فتخلت عني . وأني كنت متمسكة بك ، فتخليت عني أيضاً . وعندما يتخلى عني شخصان كاملان ، أقول «كاملان» ولا أمزح يا سيدي ، فهذا معناه احتقار وإهانة لي .

فقال تافرني ببرودة :

– لا يستطيع أحد أن يحتقر أو يهين شخصاً جليلاً مثلك يا مولاتي ، لأن العار يبقى أبداً قاصراً عن الوصول الى الجباه المرفوعة كجبهتك .

وتابعت الملكة تقول :

– إني أبحث باهتمام عن الشيء الذي جرحك .

فأجاب فيليب بحيوية :

– لم يجرحني شيء يا مولاتي .

– إن مركزك مرموق ، وثروتك قد تأمنت ، وكنت أميزك ...

فقاطعها تافرني قائلاً :

– أكرر على جلالتك بأن لا شيء يزعجني في البلاط .

– واذا طلبت منك ان تبقى ... إذا أمرتك ؟..

– سأضطر آسفاً الى رفض أمرك يا صاحبة الجلالة !

فاستغرقت الملكة في التفكير ، ثم قالت بعد ان صبت نظراتها الصافية على فيليب :

– ربما كان هناك شخص يغيظك ؟

– لا يوجد أي شخص يغيظني .

فقالت الملكة وقد أخذت تنتعش :

– كنت أظنك متخاصماً ... مع نبيل ... مع السيد دي شارني ... الذي جرحته أثناء مبارزة ... لأنك ما أن رأيت دي شارني عاد ، حتى قررت ترك البلاط !

فبقي فيليب صامتاً ولم يجب !

والملكة التي أساءت فهم هذا الرجل الشجاع والمخلص جداً ، اعتقدت بأنه ليس سوى غيور عادي ، فلاحقته بصراحة قاسية وأكملت تقول :

– أنت تعلم بأنه في هذا اليوم بالذات ، قد عاد السيد دي

شارني. أقول اليوم، وفي هذا اليوم جئت تطلب مني إجازتك !!

هذا الهجوم والازدراء من الملكة، جعل فيليب أدكن اللون بعد أن كان شاحباً، فنهض بانفعال وقال بقساوة:

- صحيح يا مولاتي أني اليوم فقط علمت بعودة السيد دي شارني، لكني في وقت أبعد مما تعتقد جلالتك، التقيت السيد دي شارني حوالى الثانية بعد منتصف الليل، امام بوابة الحديقة التي تفضي إلى حمامات أبولون...

فاصفرت الملكة بدورها... وبعد ان عاينت بإعجاب ممزوج بالخوف، الأدب المتناهي الذي احتفظ به ذلك الشاب النبيل رغم غضبه، دمدمت قائلة بصوت مخنوق:

- حسناً! إذهب يا سيدي، فلن أمنعك أبداً.

فحيا فيليب للمرة الأخيرة، وخرج بخطوات بطيئة.

وبعد خروجه، سقطت الملكة مصعوقة على مقعدها المريح وهي تقول:

«إيه فرنسا! يا بلد القلوب النبيلة!»

غيرة الكردينال

★

قضى الكردينال ثلاث ليالٍ متتالية، تختلف كل الاختلاف عن تلك التي كان خياله خلالها يتجدد بلا انقطاع.

فلا أخبار من أحد، ولا أمل بزيارة! والصمت القاتل الذي لفّه بعد الشهوة العارمة، شبيه بالظلمة التي تغمر الكهف بعد أن تنحسر عنه أشعة الشمس.

فالكردينال كان يحدوه الأمل بأن يرى الملكة، التي هي امرأة قبل أن تكون ملكة، تسعى لمعرفة طبيعة الحب الذي أظهره تجاهها، وأن يراها مسرورة بعد التجربة كما كانت قبلها.

لكن آماله خابت وبات فريسة اليأس والقلق، فأخذ يبعث بالرسول تلو الرسول الى منزل السيدة دي لاموت وإلى فرساي، إلى أن جاءه الرسول العاشر بالكونتس التي كانت ترصد حركات شارني والملكة وتضحك فيما بينها وتُسرُّ لنفاد صبر الكردينال وتلهفه، لأن هذا التلهف سيحقق النجاح لمشروعها.

فما أن وقع نظر الكردينال على جانّ ، حتى صاح قائلاً :

- كيف تعيشين هكذا مطمئنة ، كيف ؟! تعلمين أني أتعذب ، وتتركيني أموت في عذابي ، رغم أنك صديقتي كما تدعين !

فأجابته جانّ :

- صبراً يا مولاي ، صبراً . فما كنت أقوم به في فرساي ، بعيداً عنك ، أجلُّ فائدة مما كنت تقوم به أنت هنا ، يحدوك الشوق إلي .

فقال سيادته وقد لطَّف من لهجته بأمل الحصول على أخبار جديدة :

- إن حكمي عليك ليس بقاسٍ من هذه الناحية . فهيا وقولي ، ما الذي كنت تفعلينه في فرساي ؟

- إن الفراق أليم يا مولاي ، سواء كان في باريس ، أم في فرساي .

- يا للكلام الساحر الجميل ! إني أشكرك عليه ، ولكن ...

- ماذا ؟

- البراهين !

فصاحت جانّ :

- ماذا تقول يا مولاي ؟ البراهين !.. هل أنت في كامل وعيك ؟ أيطلب من امرأة أن تقدم البراهين على أخطائها ؟!

– إني لا أطلب مستنداً للمحاكمة أيتها الكونتس. إن ما أطلبه، هو عربون حب.

فأجابت الكونتس بعد أن رشقت سيادته بنظرة ذات مغزى:

– يبدو لي، أنك أصبحت متطلباً جداً، إن لم تكن عديم الذاكرة.

– أوه ! إني أعلم ما تودين قوله لي. إني أعلم بأنه يتوجب عليّ أن أكون قنوعاً. لكن ضعي نفسك مكاني أيتها الكونتس واحكمي. أيُعقل أن أُرمى هكذا جانباً، بعد أن لمست كل مظاهر الحظوة؟

فقالت جانّ: قلت «مظاهر» كما أعتقد؟

– أوه ! من الثابت أنك تستطيعين التغلب علي بلا عقاب أيتها الكونتس. من الثابت أن لا شيء يجيز لي بأن أتشكى، ومع ذلك فأنا أتشكى...

– على كلٍ لست مسؤولة عن سخطك عندما يكون هناك أسباب تافهة لهذا السخط، أو عندما لا يكون هناك أسباب على الاطلاق.

– إنك تسيئين معاملتي أيتها الكونتس!

– هكذا تظن بعد كل الخدمات التي قدمتها إليك ؟!

- لا تلوميني على نزوات نفسي، بل ساعديني على الخلاص من عذابي.

- لا أستطيع مساعدتك حيث لا أرى شيئاً يستوجب المساعدة.

فقال الكردينال مشدداً على كل كلمة:

- لا ترين شيئاً يستوجب المساعدة؟!

- أبداً.

فقال دي روهان بحدة:

- حسناً يا سيدتي! لكن ما تقولينه هو عكس الحقيقة.

- بكل أسف يا مولاي، لقد وصلنا الى مرحلة من الغضب، لم يعد معها واحدنا يفهم على الآخر. فلتسامحني سيادتك على حرصي عليها.

- إن ما يحملني على الغضب أيتها الكونتس، هو سوء نيتك.

- ألا تعتقد بأن حكمك غير عادل؟

- لا، فأنت، كما أرى جيداً، قد توقفت عن خدمتي، لأنك لا تستطيعين أن تفعلي غير ذلك.

- ان حكمك علي لعادل، إذن لماذا تتهمني؟

- لأنه يتوجب عليك أن تصارحيني بالحقيقة كلها يا سيدتي.

– بالحقيقة كلها ! لقد قلت لك كل ما أعلمه .

– لم تقولي لي بأن الملكة مخادعة ، وبأنها مغناجة ، وبأنها تدفع الناس الى عبادتها ، ثم تتركهم فريسة اليأس والعذاب .

فقالت الكونتس وهي ترتعش ، لا من الخوف ، بل من الفرح :

– أوضح عما تقصد بكلامك .

فاكمل الكردينال يقول دون ان يحسب أي حساب لغرامه :

– اعترفي لي ، اعترفي ، إني أتوسل اليك ، بأن الملكة ترفض أن تراني .

– لن أقول هذا يا مولاي .

– اعترفي إذا كانت لا ترفضني بملء رضاها ، وهذا ما زلت آمله ، وبأنها لن تستبدلني بعشيق آخر .

فصاحت جانّ دي لاموت بلهجة هي في غاية النفاق والدهاء ، جعلت الكردينال يزداد شكاً بأنها تريد إخفاء شيء عنه :

– آه ! مولاي ...

فقال الكردينال :

– اصغي إلي . المرة الأخيرة التى رأيت فيها الملكة ، تخايلت أني سمعت وقع خطوات في الغابة .

– هذا جنون !

– ومع ذلك سأقول كل ما أشك به .

– لا تضف إلى ما قلته أية كلمة يا مولاي ، فأنت تهين الملكة . فضلاً عن ذلك ، هل من العدل أن تحاسبها على الماضي ، وقد ضحت بهذا الماضي من أجلك ؟

– الماضي ! الماضي ! يا لها من كلمة رهيبة ! إن ما أخشاه ، هو أن يبقى الماضي ماثلاً في الحاضر ، وفي المستقبل .

– أف ! أنت تكلمني يا مولاي وكأني سمسار قد تسبب في عمل شنيع . إن شكوكك الجارحة بالملكة ، قد أصبحت جارحة بالنسبة لي أيضاً .

– إذن ، أكدي لي ... بأنها ما زالت تحبني ، ولو قليلاً !

فأجابت جانّ ، وقد أشارت بإصبعها الى مكتب الكردينال والى ما عليه من أدوات الكتابة :

– الأمر في غاية البساطة يا مولاي ، فاجلس هناك ، واطرح هذا السؤال عليها بالذات .

فأمسك الكردينال بفرح يد جانّ ، وقال لها :

– وهل ستسلمينها رسالتي ؟

– إذا لم أسلمها إليها أنا ، من إذن ستكلف بتسليمها ؟

– و ... هل ستحملين إليّ جوابها ؟

– إذا لم تتلق الجواب ، ما جدوى هيامك بها ؟

– أوه ! لا تقدّري كم أحبك أيتها الكونتس !

فابتسمت جانّ ابتسامة رقيقة، وقالت : «أليس كذلك ؟»

وجلس الكردينال وراء مكتبه، وتناول القلم وبدأ يكتب ...

ومع أن قلم الكردينال سيّال ومطواع، فقد مزق عشر أوراق قبل أن ينتهي إلى الرسالة التي ترضيه. فقالت جانّ :

– إن استمريت على هذا المنوال، فلن تصل إلى أهدافك.

– إني أحاول لجم عواطفي أيتها الكونتس، إلا أنها تفيض غصباً عني، وربما أزعج الملكة هذا الأمر.

فقالت جانّ بتهكم :

– إذا كتبت إليها كرجل سياسي، فسيكون جوابها سياسياً. وهذا أمر يعنيك وحدك.

– أنت على حق، وإنك لامرأة حقيقية، قلباً وروحاً. اقتربي أيتها الكونتس، فلماذا أخبئ عليك سراً، أنت مطلعة عليه ؟

فابتسمت الكونتس وقالت :

– الحقيقة، أنه ليس لديك ما تخفيه علي، سوى القليل.

– إقرئي من فوق كتفي، إقرئي أسرع مما أكتب إن استطعت، لأن قلبي يكاد يحترق، وقلمي يلتهم الورق التهاماً.

وفي الواقع، كتب رسالة ملتهبة بالعواطف المجنونة، ومليئة بالعتاب واللوم المحبين شأن العشاق والمتيمين، كذلك بالاحتجاجات الشديدة اللهجة. فما أن انتهى منها، حتى قالت جانّ في نفسها، وقد رافقت أفكاره حتى توقيعه:

«لقد كتب ما لا أجرؤ أنا على نصِّه عليه.»

وبعد أن راجع الكردينال ما كتبه، سأل جانّ قائلاً:

- هل أعجبتك؟

فأجابته تلك المخادعة:

- إذا كانت تحبك فعلاً، فسوف تتلقى جوابها غداً. وما عليك الآن إلا أن تركن إلى الراحة.

- إن كان الانتظار حتى الغد فقط، فلا بأس.

- لا أطلب منك مهلة أطول يا مولاي.

ثم أخذت الرسالة المختومة، مزودة بقبلة من الكردينال في عينها، وعادت إلى منزلها حوالى المساء، حيث نزعت عنها ثيابها، وجلست تفكر في نداوة الليل، أي من الاثنين أفضل أن تختار درعاً لها: الملكة أم الكردينال؟

فلقد أصبح الوضع تماماً كما اشتهت أن يكون منذ البدء، وبات الهدف على بعد خطوتين منها.

فالكردينال، بعد رسالته هذه، لم يعد باستطاعته أن يتهم

السيدة دي لاموت، يوم ستلزمه بأن يدفع المبالغ المستحقة ثمناً للعقد.

ولو سلمنا بأن الكردينال والملكة التقيا كي يتفاهما، كيف سيجرآن على التخلي عن السيدة دي لاموت، وهي مؤتمنة على سرّ مشين إلى هذه الدرجة؟

فالملكة لن تثير فضيحة، وستعتقد بأن الكردينال حاقد عليها. والكردينال بدوره سيعتقد بأن الملكة تتغنج عليه. لكن المشادة، إذا وقعت بينهما، فستكون ضمن أبواب مقفلة، والسيدة دي لاموت المرتابة، ستتخذها ذريعة لتهاجر ومعها ثروة قيمتها مليون ونصف المليون.

ولنفترض بأن الكردينال عرف بأن جانّ قد أخذت معها هذه الماسات، وأن الملكة قد اكتشفت ذلك أيضاً، فكيف يمكنهما إفشاء هذا السر وملاحقتها، وهما مرتبطان ارتباطاً وثيقاً بما جرى في الحدائق والغابات الملكية وحمامات أبولون؟

إلا أن رسالة واحدة ليست بكافية كي تحصّن جانّ خط الدفاع عن نفسها، فالكردينال كاتب لبق وذو قلم سيّال كما ذكرنا، وعليه ان يستتبع رسالته الغرامية الى الملكة بسبع أو ثماني رسائل مماثلة.

وهكذا تكون جانّ قد رسمت الخطة التي يجب أن تتمشى عليها خطوة خطوة. لأن التطورات قد تفاجئها، خصوصاً عندما يستحق المبلغ الأول للصائغين ويبلغان الملكة بهذا الاستحقاق. فالملكة عند ذاك ستتوجه مباشرة إلى الكردينال.

ولكن كيف؟

لا مفرّ هنا من واسطة جانّ. فجانّ هي التي ستخطر الكردينال وتدعوه الى الدفع. وإذا رفض، فستهدده بنشر رسائله الغرامية إلى الملكة. عند ذاك سيدفع، والدفع سيزيد الأمر خطورة، ويكون لهذه الفضيحة دويّ في الرأي العام يجرف الملكة والكردينال معاً.

بعد أن فكرت الكونتس طويلاً وحسبت حساباً لكل التطورات كي تحقق الهدف المنشود من مؤامرتها، وهو الهرب بالماسات الى بلد آمن تنفق فيه ثروتها المسروقة من دون محاسب وتنعم بالعيش الرغيد على هواها، تقدمت من نافذة غرفتها وتطلعت منها فرأت جارتها أوليفا جالسة على الشرفة يتآكلها القلق والفضول، فحيت شريكتها المتواطئة معها برقة، وأشارت اليها الإشارة المتفق عليها فيما بينهما للتلاقي في المساء.

فتلقت أوليفا هذه المخابرة ودخلت الى غرفتها يغمرها الفرح.

أما جان فقد عادت إلى تأملاتها التي خرجت منها بالنتيجة التالية:

إن تحطيم الوسيلة عندما لا يعود بالامكان استعمالها، هي الطريقة التي درج عليها كل أصحاب المؤامرات والدسائس. إلا أن معظمهم فشلوا، سواء في تحطيم هذه الوسيلة، أو في تحطيمها بشكل لا يتيح لها أن تطلق أنيناً وتأوهات تفضح السر.

وأوليفا التي تحب الحياة كثيراً، لن تسمح لأحد بأن يحطمها بسهولة، ومن دون أنين وتأوه وشكوى. لذا رأت جانّ من الضرورة بمكان أن تلفق لها أكذوبة تحملها على الهرب بكل طيبة خاطر، وأن تذلل كل الصعوبات التي قد تعترض تحقيق هذه الفكرة.

فأوليفا التي جعلتها علاقتها بصديقتها الجديدة جدُّ مسرورة، لم يكن سرورها إلا نسبياً. فهي قد صارحت صديقتها بأن النزهات الليلية و «صاحبة الجلالة» الوهمية، لا تشفي غليلها. بل هي تتوق إلى رأد الضحى، والى النزهات تحت أشعة الشمس، والى أن تعيش الحياة على حقيقتها وكما يجب أن تعيشها صبية ساحرة الجمال مثلها.

وحقيقة الحياة بالنسبة إلى أوليفا، هي المال وبوزير.

وجانّ التي درست في العمق هذا المذهب الحياتي الذي تؤمن به أوليفا، عولت على تطبيقه عند أول فرصة.

وبالاختصار، قررت التركيز في لقائها المقبل مع نيكول على ضرورة إبراز الخطر الداهم الذي سببته الخداعات المجرمة التي ارتكبت في حدائق وغابات فرساي.

وعندما أقبل الليل وهبطت أوليفا من شقتها، كانت جانّ في انتظارها عند البوابة.

فسارت الاثنتان صعوداً في شارع سان كلود حتى بلغتا جادّة مقفرة، حيث استقلتا عربة سارت بهما خطوة خطوة كي يتمكنا من التحدث ملياً وهما في طريقهما الى فنسان.

وكانت نيكول متنكرة بثوب بسيط وجان مرتدية فستاناً رمادياً، وكلتاهما في عربة ذات غطاء وتحمل شعارات آل فالوا، فلا مجال للاشتباه بها ولا يجرؤ أي شرطي على إيقافها.

وبعد ان استقرتا داخل العربة وتبادلتا القبلات، استهلت الحديث أوليفا بقولها:

– آه كم أنا ضجرة يا صديقي، فقد طال غيابك عني!

فأجابتها جانّ:

- لم يكن بالإمكان أن أراك، فقد عرّضت نفسي كثيراً للخطر، كذلك أنت !...

فسألت نيكول مرتعبة: كيف ذلك؟

- إنه خطر رهيب أيتها العزيزة، خطر يقضّ مضجعي ويحرمني الرقاد!

- يا إلهي! أسرعي وأخبريني!

- تعلمين كم أنت ضجرة هنا.

- نعم، واحسرتاه!

- وكي تروّحي عن نفسك، تمنيت أن تخرجي من سجنك.

- نعم، ومن اجل ذلك ساعدتني بمحبة فائقة.

- وتعلمين أيضاً بأني كنت قد كلمتك على ذلك الضابط المقرب من الملك، والمجنون قليلاً لكنه لطيف جداً، وكيف أنه هائم بالملكة التي تشبهك بعض الشيء.

فتنهدت أوليفا وقالت: واحسرتاه!

وتابعت جانّ تقول:

- لن أذكرك بالنزهتين الاولين اللتين قمتما بهما ليلاً في حدائق فرساي، وبرفقة ذلك الضابط المسكين.

فعادت أوليفا وتنهدت من جديد، وأكملت جانّ تقول:

- لقد لعبت دورك على أفضل وجه في تلك الليلتين، وعاشقنا أخذ الأمر بجدية ...

فقالت أوليفا بصوت كالهمس:

- قد نكون أسأنا التصرف معه، لأننا في الواقع خدعناه، وهو فارس ظريف لا يستحق هكذا خداع.

- فعلاً إنه لا يستحق، ولكن الشر ليس هنا. فهو قد أعطاك وردة، وأنت سمحت له بأن يدعوك بصاحبة الجلالة، وأعطيته يديك ليقبلهما، وهذه ليست سوى تصرفات ماكرة ... ولكن هذا ليس كل شيء يا صغيرتي!

فقالت نيكول بصوت متلجلج:

- كيف... ليس كل شيء؟

- ليس كل شيء، لأن هناك لقاءً ثالثاً ...

فقالت أوليفا مترددة:

- أجل، وأنت تعرفين ذلك، طالما أنك كنت حاضرة.

- عفواً يا صديقتي العزيزة، فقد كنت كالمرتين السابقتين، أراقب على مسافة منكما، أو أتظاهر بالمراقبة كي أضفي على دورك الطابع الحقيقي. إذن، أنا لا رأيت ولا سمعت ما جرى في ذلك الكهف. وبالتالي لست واقفة على ما قصصته عليّ، لأنك عندما عدت، أخبرتني بأنكما تنزهتما، وتحدثتما، وبأن لعبة الوردة وتقبيل اليدين استمرت،

فظننت أيتها العزيزة بأن ما أخبرتني إياه هو كل ما جرى. ولكن... يبدو أن ذلك العاشق المجنون، قد ادعى بأنك منحته أكثر بكثير مما صرحت به الملكة المزعومة...

- ما الذي ادعاه؟

- يبدو أنه قد زعم متباهياً، بأنه حصل من الملكة على الدليل القاطع بأنها تقاسمه الحب... إنه حتماً مجنون هذا الرجل المسكين.

فتمتمت أوليفا: يا إلهي! يا إلهي!

فقالت جانّ:

- إنه مجنون وكذاب، أليس كذلك؟

فقالت أوليفا متلعثمة:

- طبعاً...

- كان عليك أيتها الصديقة العزيزة، ان لا تعرضّي نفسك لهكذا خطر رهيب، دون ان تقولي لي.

فارتعشت أوليفا من قمة رأسها إلى أخمص قدميها، وأكملت تلك «الصديقة» المرعبة تقول:

- كيف، أنت التي تحبين بوزير، والتي كنت معي كرفيقة، والتي رفضت رعاية الكونت دي كاغليسترو رغم تودده إليك، كيف استسلمت إلى نزواتك، وأعطيت هذا المجنون الحق بأن يقول... لا، إنه حتماً فقد صوابه.

فصاحت أوليفيا تقول وقد نفد صبرها:

- هيا وصارحيني، أين الخطر في الموضوع؟

- الخطر في كوننا مرتبطين برجل مجنون، أي برجل لا يخاف شيئاً، ولا يرعى حرمة لشيء، ولو كانت القضية موقوفة على وردة أُعطيت، ويد قُبّلت، لهان الأمر. إذ إن للملكة وروداً في حدائقها، ولها يدان بتصرف كل رعاياها. لكن، إذا كان صحيحاً أنه في اللقاء الثالث... آهٍ أيتها العزيزة، لقد حُرمت البسمة منذ أن تبادرت هذه الفكرة إلى ذهني.

فشعرت أوليفا بأن أسنانها تصطك من الخوف، وقالت سائلة:

- إذن، ماذا سيحدث أيتها الصديقة الطيبة؟

- ان ما سيحدث أولاً، هو أنك لست الملكة...

- لا.

- ولأنك لست الملكة، وقد انتحلت صفة جلالتها كي ترتكبي... خفة من هذا النوع...

- وبعد؟

- وبعد! هذا يسمونه تحقير في الذات الملكية، وهذه التهمة تذهب بالمتهم إلى البعيد البعيد...

فخبأت أوليفا وجهها بيديها، وأكملت جانّ تقول:

– على كل حال، بما أنك لم ترتكبي ما يتبجح به، ويمكنك أن تثبتي براءتك من هذه الناحية، تبقى الحماقتان السابقتان اللتان ارتكبتا باسم صاحبة الجلالة ... والقصاص الذي تستوجبه هاتان الحماقتان، هو السجن من سنتين إلى أربع سنوات، ثم النفي ...

فصاحت أوليفا وقد جُنَّ جنونها :

– السجن ! النفي !...

– ليس ذلك بمتعذر تحاشيه. ففيما يخصني أنا، أود أن أحترز لنفسي، واتخذ كل الاحتياطات.

– وأنت أيضاً قلقة ؟

– كيف لا، وهل سيعفُّ عن الوشاية بي، هذا الأحمق ؟ آهٍ أيتها العزيزة أوليفا، إنها خديعة ستكلفنا غالياً.

ففاضت الدموع من عيني أوليفا، وصاحت تقول :

– يا لي من تعيسة ! يا لي من شقية !

– لا تيأسي يا عزيزتي، فقط حاولي ان تتجنبي الفضيحة.

– آه ! كم أفضل أن أبقى سجينة لدى حامٍ.

وأكملت تقول بعد أن صمتت قليلاً :

– ما رأيك اذا اعترفت له بكل ما حدث ؟

– فكرة جميلة ... فرجل لم يكن ينتظر منك سوى كلمة كي يعبدك، ومع ذلك تودين مصارحته بأنك ارتكبت هذه

الحماقة مع غيره ، أقول الحماقة كي لا أقول كلمة أفظع ... إن رجلاً كهذا ، سوف يسلخ جلدك !

- يا إلهي ! معك حق .

- وأكثر من ذلك ، فالضجة عند ذاك ستعم كل مكان ، والقضاء سيلاحقك. ومن يدري ؟ فقد يعمد عائلك وحاميك إلى تسليمك ، كي يثبّت أقدامه في البلاط .

- أوه !

- ولنفترض بأنه سيكتفي بطردك ، فماذا سيحل بك ؟

- سوف أصبح شريدة طريدة .

فقالت جانّ بتمهل ، وهي تدرس تأثير كلماتها الأخيرة على أوليفا :

- والسيد بوزير ، ماذا لو عرف بذلك ؟

فدمدمت أوليفا :

- أوه ! لقتلني . ولكن لا ، سوف أقتل نفسي !

ثم استدارت نحو جانّ ، وقالت بيأس :

- ألا يمكنك أن تنقذيني من هذه الورطة ؟

فأجابتها جانّ :

- لدي في عمق مقاطعة بيكاردي مزرعة صغيرة ، فلا أدري إذا كان الحظ سيحالفك ، إن أنا حاولت تهريبك الى هذه المزرعة .

– ولكن تبقين أنت، وهذا المجنون يعرفك جيداً، وباستطاعته العثور عليك بسهولة.

– أوه! عندما تصبحين أنت مختبئة في بيكاردي، ويصبح العثور عليك متعذراً، ينتفي خوفي من ذلك المجنون. فسوف أقول له بصوت مرتفع: أنت مجنون فيما تدعيه، وإلا أثبته! وعندما يعجز عن الإثبات، لأن ذلك مستحيل، سأقول له أيضاً وبصوت منخفض: أنت نذل خسيس!

فقالت أوليفا:

– إني على استعداد للسفر متى تشائين.

فأجابتها جانّ:

– أعتقد أن الحكمة تقضي بذلك.

– هل يمكن أن أسافر فوراً.

– لا، بل انتظري حتى أؤمن كل عناصر النجاح. ولكن كوني متنكرة، حتى لو ظهرت أمام المرآة.

– نعم، نعم، يمكنك أن تعتمدي عليّ أيتها الصديقة العزيزة.

– إذن، لنبدأ بأن تذهب كلّ منا في حال سبيلها، إذ لم يعد لدينا ما نقوله.

– وهو كذلك. كم يلزمك من الوقت كي تؤمني كل شيء؟

- لا أعلم. ولكن من الآن وحتى يوم سفرك، لن أظهر أمام نافذتي. واليوم الذي سأظهر فيه، سيكون اليوم المقرر للسفر، فكوني دوماً مستعدة.

- سأكون، وشكراً يا صديقتي الطيبة.

وقفلتا راجعتين على مهل باتجاه شارع سان كلود. وأثناء العودة، لم تجرؤ أوليفا على متابعة التحدث مع جانّ، فيما كانت هذه الأخيرة، تفكر بعمق في كل كلمة تود أن تقولها إلى أوليفا.

وعندما وصلتا الى نقطة الافتراق، تبادلتا القبل، وطلبت أوليفا العفو من صديقتها عن كل ما سببته لها من بؤس وشقاء بسبب طيشها...

فردت السيدة دي لاموت قائلة:

«إني امرأة، وكل ضعف في المرأة، هو مألوف بالنسبة لي!»

الهرب

★

تقيدت أوليفا بكل ما وعدت به، فاحتجبت كلياً عن الناس، ولم يعد باستطاعة أحد أن يشتبه بأنها ما زالت تقطن ذلك المنزل الواقع في شارع سان كلود.

فدائماً كانت مستترة وراء ستارة أو وراء حاجز واقٍ، وحتى أشعة الشمس التي كانت تتسرب من شقوق نافذتها، قد حرمت نفسها منها بسدّ شقوق النافذة باللباد.

وجان من جهتها، كانت تحضّر كل شيء، وتأخذ كل الاحتياطات استعداداً لاستحقاق المبلغ الاول للصائغين وقيمته خمسماية ألف ليرة، وقد اقترب جداً، وهذه اللحظة الرهيبة التي ستنفجر فيها القنبلة، هي الهدف الأخير لترصداتها.

لذلك حسبت بتعقل كل الحسابات، فوجدت ان قضية هربها سهلة، لكن الهرب سيثبت عليها التهمة بسرقة العقد. وبعد إمعان الفكر، توصلت الى القرار التالي:

«إن ثباتها كثبات المبارز أمام طعنات خصمه، مع احتمال السقوط أرضاً، أفضل من الهرب، لأن هناك احتمالاً أيضاً بقتل هذا الخصم.»

وهذا هو السبب الذي جعل جانّ في اليوم التالي للقائها مع اوليفا، تظهر وراء نافذتها عند الساعة الثانية، وتطلب اليها بالاشارة، أن تكون مستعدة للهرب في المساء.

فاختلط السرور بالخوف لدى أوليفا. فالهرب الذي لا مفرَّ منه محفوف بالخطر، لكنه إذا تيسر، يعني السلام بالنسبة إليها.

لذا بعثت بقبلة في الهواء الى جانّ، وانبرت تهيء حاجاتها للسفر، وقد وضعت بعض الاشياء الثمينة ضمن صرة صغيرة.

أما جانٌ، فبعد أن أشارت إشارتها، تركت منزلها وذهبت تبحث عن عربة تقل «الآنسة العزيزة» أوليفا الى مصيرها المحتوم.

وهكذا أُغلقت النوافذ، وأُسدلت الستائر، وخيّم الصمت على شقتي الجارتين بانتظار ساعة الصفر.

وعندما دقت ساعة سان بول معلنة الحادية عشرة ليلاً، كانت جانّ قد وصلت الى شارع سان كلود مع عربة تجرها ثلاثة جياد، وقد التف حوذيها بمعطف.

وهناك توقفت العربة، وجرّت جانّ ذلك الرجل من معطفه، وأوقفته في زاوية الشارع لتقول له:

- يجب ان تبقى هذه العربة هنا يا عزيزي ريتو. فبعد نصف ساعة، سآتيك بسيدة تركبها، ثم تنقلها الى منزلي الصغير في أميان، بعد أن أنقدك الأجرة مضاعفة.

- بكل رضى يا سيدتي الكونتس.

- وهناك، تسلم هذه السيدة الى وكيلي فونتين، وهو يعرف بقية ما يجب أن يعمله.

- بكل طيبة خاطر يا سيدتي.

- نسيت ان أسألك ... هل أنت مسلح يا عزيزي ريتو؟

- نعم يا سيدتي.

- حسناً، فهذه السيدة مهددة من قبل مجنون ... وربما استوقفوك في الطريق ...

- ماذا علي ان أعمل؟

- تطلق النار على كل من يعترض سبيلك.

- إني على استعداد يا سيدتي.

- لقد كنت طلبت مني عشرين ليرة ذهبية كمكافأة عما تعلمه، فاعلم بأني سأعطيك مئة عوضاً عن العشرين ... وسأدفع لك نفقات سفرك الى لندن حيث سأوافيك بعد أقل من ثلاثة أشهر.

- شكراً يا سيدتي.

- هاك المئة ذهبية . وحتماً لن أراك بعد الآن ، لأنه يتوجب عليك ان تسافر الى سان ڤاليري ، ومن هناك تبحر على جناح السرعة الى انكلترا .

- اتكلي عليَّ يا سيدتي .

- هذا من أجل مصلحتك .

فقال السيد ريتو وهو يقبل يد الكونتس :

- من أجل مصلحتنا نحن الاثنين ... أنا بالانتظار .

- وأنا سأبعث اليك بالسيدة .

ثم صعد ريتو الى العربة ، وأسرعت جان إلى منزلها عبر شارع سان كلود .

في تلك الساعة ، كان كل شيء ساكناً والكل نياماً في تلك المنطقة ، فأضاءت الكونتس الشمعة ، التي رفعها فوق الشرفة ، سيكون العلامة لأوليفا كي تهبط الى الشارع . وقالت في نفسها عندما رأت نافذة صديقتها مظلمة :

«إنها ابنة حذرة وايم الحق .»

ثم رفعت الشمعة وأخفضتها ثلاث مرات ، دون أن يظهر أحد . لكنها تصورت بأنها سمعت ما يشبه التنهد تحت النافذة ، أو كلمة «نعم» انطلقت خافتة في الهواء ، فقالت جانّ في نفسها :

«لقد نزلت دون إضاءة ، وحسناً فعلت .»

ثم نزلت الكونتس بدورها إلى الشارع ، فوجدت البوابة ما زالت مقفلة ، فظنت أن أوليفا منهمكة ببعض الصرر الثقيلة أو المزعجة ، فقالت متذمرة :

«يا لها من حمقاء تضيع الوقت في جمع الخرق !»

ثم اقتربت من البوابة وألصقت أذنها عليها وأخذت تصغي . وبقيت هكذا ربع ساعة دون جدوى ، حتى دقت الساعة معلنة الحادية عشرة والنصف .

عند ذاك ابتعدت عن المكان قليلاً ، لترى من البعيد عما إذا كانت النوافذ مضاءة ، فتراءى لها بصيص ضوء يتراقص وراء الستائر ، فقالت تخاطب ذاتها :

«ماذا تعمل تلك المخلوقة ؟ ماذا تعمل تلك الشقية الصغيرة ؟»

ثم استدركت تقول : «ربما لم تلاحظ الاشارة .»

وعادت الى شقتها لتكرر نفس الاشارة اللاسلكية بواسطة الشمعة ، غير أن إشارتها بقيت دون جواب . فقالت في نفسها وقد استشاطت غيظاً :

«يجب أن تكون تلك المضحكة مريضة لا تستطيع أن تتحرك . ولكن مهما كان وضعها ، وسواء كانت حية أو ميتة ، عليها أن تسافر هذا المساء .»

ثم هبطت درجها مسرعة كأنها لبوة مطاردة، ويدها قابضة على المفتاح الذي بواسطته، حصلت أوليفا عدة مرات على الحرية الليلية.

وفي البرهة التي أولجت فيها ذلك المفتاح في قفل بوابة المنزل المسجونة فيه أوليفا، طرأت على بالها فكرة، فتوقفت وقالت:

«ماذا إذا كان هناك شخص قربها؟ ولكن ذلك غير معقول. على كلٍ، إذا كان لديها شخص سوف أسمع صوته، ويبقى لدي متسع من الوقت كي أهبط الدرج وأتوارى. ولكن... ماذا لو التقيت هذا الشخص على الدرج؟...

ارتعشت جانّ أمام هذه الفكرة ووقفت مترددة. ثم سمعت مراوحة دعسات جيادها على البلاط وكأنها تحثها على الأقدام، فقالت تخاطب نفسها:

«بدون خطر لا تتحقق المطامح الكبيرة. ومع الجرأة ليس من خطر على الاطلاق.»

ثم أدارت المفتاح في القفل، ففتحت البوابة، وصعدت الدرج متلمسة طريقها دون أن ترى أي شخص، أو تسمع أية نأمة، أو ترى أي نور.

وهكذا وصلت إلى فرص الدرج ووقفت أمام باب شقة أوليفا. وهنا رأت شعاعاً متسرباً من تحت الباب، وسمعت وقع أقدام مضطربة وراءه. فأصغت لاهثة، لكنها استطاعت أن تخنق هذا اللهاث.

ولما لم تسمع أي حديث، تأكدت بأن أوليفا وحدها، وأنها ليست مريضة، وان خطواتها المسموعة دليل تحركها. فهي إذن تستكمل ترتيب بعض الحاجات، وليس الأمر سوى مجرد تأخير.

فنقرت الباب نقراً خفيفاً، ونادت: أوليفا! أوليفا!

فسمعت وقع الاقدام يقترب على السجادة، فتابعت تقول: إفتحي يا صديقتي العزيزة، إفتحي!

وعندما فتح الباب، غمر النور جانّ، ووجدت نفسها وجهاً لوجه امام رجل يحمل مشعلاً، فأطلقت صرخة مرعبة وهي تخبئ وجهها ...

فرفع ذلك الرجل بلطف عباءة الكونتس وصاح بدوره، وبلهجة ظاهرها الدهشة الطبيعية جداً:

- سيدتي الكونتس دي لاموت!

فترنحت جانّ ودمدمت وهي تكاد تفقد وعيها:

- سيدي الكونت دي كاغليوسترو!

ومن بين الأخطار التي اعترضت سبيل جانّ، كان ذلك الخطر أشدها. فكاغليوسترو لم يبدُ لها مرعباً لأول وهلة. ولكن عندما فكرت قليلاً، وعندما لاحظت مظهره القاتم، وعمق رياء ذلك الرجل الخطير، بدا لها الخطر الرهيب!

فتراجعت طائشة الرأس، تحدوها الرغبة لأن تلقي بنفسها من أعلى الدرج إلى أسفله.

فمدَّ لها كاغليوسترو يده بأدب، ودعاها إلى ولوج الباب والجلوس.

فقالت تلك المتآمرة بصوت متلجلج، ومن دون أن تتمكن من الكف عن النظر إلى عيني الكونت:

- سيدي... جئت أبحث...

- اسمحي لي يا سيدتي بأن أقرع الجرس كي أعاقب خدمي على إهمالهم الفظيع، بتركهم سيدة مرموقة مثلك تقدم نفسها.

فارتعشت جانّ وأوقفت يد الكونت الذي كان يهمُّ بقرع الجرس، وأكمل هذا الأخير يقول برباطة جأش:

- يجب أن تكوني قد التقيت بذلك الالماني المضحك، الذي هو حاجبي، وأنه لم يعرفك لفرط سكره، لذا فتح لك البوابة دون أن يفوه بكلمة، أو أن يقوم بما يتطلبه منه الواجب. ومما لا شك فيه، بأنه استسلم للرقاد بعد أن فتح لك.

فقالت جانّ وقد استعادت بعض أنفاسها ، ودون أن تدرك الفخ الذي ينصب لها :

- لا تؤنبه يا سيدي ، أرجوك .

- إنه هو من فتح لك ، أليس كذلك؟

- أعتقد ذلك ... ولكنك قد وعدتني بأن لا تؤنبه .

فقال الكونت وهو يبتسم :

- سأفي بوعدي . والآن ، أفصحي يا سيدتي عن الغاية من زيارتك .

فأجابت جانّ بسرعة ، متعمدة أن تضفي على كذبها هالة الجد والصدق :

- جئت يا سيدي الكونت ، أستشيرك بشأن بعض الشائعات الجارية .

- أية شائعات يا سيدي؟

فقالت الكونتس بغنج :

- أرجوك أن لا تستعجلني ، فوضعي دقيق ...

- خذي راحتك يا سيدتي ، فلن استعجلك إطلاقاً .

فقالت جانّ بعد أن غنجت ما فيه الكفاية :

- أنت صديق لنيافة مولاي الكردينال دي روهان ...

فأجاب كاغليوسترو :

- أوه ! أوه ! علاقتي به ممتازة . أكملي ولا تخافي .

فأكملت جانّ تقول :

- وقد جئت استعلم منك عن ...

فقال كاغليوسترو بشيء من السخرية :

- عن !..

لقد قلت لك بأن وضعي دقيق يا سيدي ... فالواقع الذي لا يخفاك ، هو أن الكردينال دي روهان يكن لي بعض المودة ، وأريد أن أعرف إلى أي حدٍ يمكنني أن أعتمد على هذه المودة ... وبما أنك يا سيدي ، كما يقولون ، تقرأ ما في أعماق النفوس والقلوب ، تراني لجأت إليك .

فقال الكونت :

- قليل من الصراحة أيضاً يا سيدتي ، كي أتمكن ، على الوجه الأفضل ، من قراءة ما في غياهب قلبك وروحك .

- يقولون يا سيدي ، بأن نيافة الكردينال يحب سواي ، وأن من يحبها ذات مكانة سامية ... ويقولون أيضاً ...

وهنا حدّق كاغليوسترو في وجه جانّ بعينيه الوامضتين ، حتى كادت تقع مصعوقة ، وقال لها :

- لقد قرأت فعلاً في الغياهب ، ولكن كي أقرأ جيداً ، أنا بحاجة إلى مساعدتك . فتفضلي وأجيبي عن هذه الأسئلة :

- كيف جئت تبحثين عني هنا ، وأنا لا أقطن هنا ؟

فارتعشت جانّ ، وأكمل كاغليوسترو طرح الأسئلة :

- وكيف دخلت إلى هنا، وليس في هذا المنزل أي حاجب ثمل، ولا أي خادم؟ وإذا كنت لست أنا من جئت تبحثين عنه، فعن من جئت تبحثين؟

فازدادت الكونتس ارتعاشاً، وتابع كاغليوسترو يقول:

- ألا تجاوبين؟ إذاً سوف أسعف ذاكرتك.

«أنت دخلت بواسطة مفتاح، أعتقد أنه في جيبك... ها هو. وقد جئت إلى هنا تبحثين عن امرأة شابة، كنت بدافع الرأفة المجردة قد خبأتها في منزلي.»

فترنحت جانّ كالشجرة التي قطعت جذورها، وقالت بصوت كالهمس:

- وإذا... كان ذلك؟ فأي جريمة قد ارتكبتها؟ أليس مسموحاً لامرأة أن تأتي وترى امرأة مثلها؟ استدعها لتقول لك، عما إذا كانت الصداقة التي تشدني إليها، ليست صداقة مخلصة...

فقاطعها كاغليوسترو قائلاً:

- أنت تقولين هذا القول يا سيدتي، لأنك تعلمين جيداً بأنها لم تعد هنا!

فصاحت جانّ مرتعبة:

- لم تعد هنا! أوليفا لم تعد هنا؟

فقال كاغليوسترو ببرودة:

– أوتجهلين بأنها ذهبت، وأنت التي ساعدت في خطفها؟

فصاحت جانّ:

– أنا!.. أنا ساعدت في خطفها! لقد خطفوها وجئت تتهمني؟

فقال كاغليوسترو:

– أكثر من ذلك، إني أفحمك...

فقالت الكونتس بوقاحة:

– أثبت!

فتناول كاغليوسترو ورقة عن الطاولة التي كانت بقربه، وأبرزها لها. وهذا ما جاء في تلك الورقة الموجهة الى كاغليوسترو:

«سيدي وعائلي الكريم،

«سامحني على تركي إياك. فأنا، قبل كل شيء، أحب السيد دي بوزير، الذي جاء واصطحبني، وإني له بكليتي. فالوداع، وتفضل بقبول احترامي وتقديري.»

فقالت جانّ مذهولة:

– بوزير!.. بوزير!.. هو الذي لا يعرف عنوان أوليفا!

فأجابها كاغليوسترو وهو يسحب ورقة ثانية من جيبه:

- أوه ! الأمر واضح جداً يا سيدتي . تفضلي واقرئي ، فقد وجدت هذه الورقة على الدرج ، فيما كنت آتياً إلى هنا ، في زيارتي اليومية . وهذه الورقة يجب أن تكون وقعت من جيوب السيد دي بوزير .

فقرأت الكونتس وهي ترتعش :

«بإمكان السيد دي بوزير أن يجد الآنسة أوليفا في شارع سان كلود ، عند زاوية البوليفار . وبإمكانه أن يصطحبها معه فوراً ، فقد حان الوقت ، ومن تكتب له هذه الأسطر هي صديقة مخلصة لها .»

فقالت الكونتس وهي تدعك الورقة بأصابعها :

- ولكن من كتب هذه الورقة ؟

- يبدو أنك أنت ، فأنت الصديقة المخلصة لأوليفا .

فصاحت جانّ وهي تنظر بغضب إلى محاورها الهادئ الأعصاب :

- ولكن كيف دخل إلى هنا ؟

فقال كاغليوسترو :

- ألا يمكن أن يدخل بمفتاحك ؟

- طالما أن المفتاح معي ، فهذا يعني أنه ليس في حوزة بوزير مفتاح .

فأجاب كاغليوسترو وهو ينظر اليها وجهاً لوجه :

- عندما يكون باليد مفتاح، من السهل الحصول على مفتاح آخر.

فأجابت الكونتس بتمهل:

- من هذه الناحية، لديك أدلة مفحمة. بينما أنا، ليس لدي سوى الشكوك.

- أوه! لدي أيضاً أدلة أقوى بكثير من مبرراتك يا سيدتي.

قال كاغليوسترو هذه الكلمات، وأشار إليها بأن تنصرف.

فأخذت جانّ تهبط الدرج. لكنها وجدت على طول هذا الدرج الذي صعدته، وهو مقفر مظلم، عشرين شمعة وعشرين خادماً على مسافات متساوية... وعلى مسمع من هؤلاء الخدم، ناداها كاغليوسترو عشر مرات، وبصوت مرتفع: «سيدتي الكونتس دي لاموت.»

وعندما خرجت، كانت تنفث الغضب والانتقام، كما تنفث «البازيليك» النار والسم[1]!

---

(١) البازيليك حية أسطورية نسب إليها القدامى قوة خارقة في نظرها، وشبهوها بالملك لسطوتها

الرسالة والايصال

★

كان اليوم الذي تلا ذلك اليوم، آخر مهلة حددتها الملكة بنفسها، لدفع المبلغ المستحق الى الصائغين بوهمير وبوسانج.

ولما كانت رسالة جلالتها توصيهما بالحذر والتيقظ، فقد انتظرا أن يصلهما مبلغ الخمسماية الف ليرة في اليوم المحدد.

وكمثل سائر التجار الذين لا يهمهم إلا تكديس الأموال، كان قبض مبلغ بهذه الضخامة شيء مهم في حياتهما. لذا حضّر الشريكان، باسم محلهما، إيصالاً كتب بخط لا أجمل ولا أبدع.

لكن الايصال بقي بدون فائدة. إذ لم يأت أحد لاستلامه مقابل الخمسماية ألف ليرة!

وقد انقضى على الصائغين ليل شديد الوطأة، وهما بانتظار رسول الملكة، كانا خلاله يعللان النفس بالقول: «ان الملكة ذكية وبعيدة النظر، فكي لا يُكتشف سرها، لن تبعث بالرسول المنتظر إلا بعد انتصاف الليل.»

لكن الفجر عندما انبلج، كشف لبوهمير وبوسانج كم كانا على ضلال في اعتقادهما. فاتخذ ساعتذاك بوهمير

قراره وتوجه إلى فرساي في عربة، جلس شريكه في مقعدها الخلفي.

وهناك ترك شريكه بانتظاره وذهب يطلب مقابلة الملكة، فقيل له بأنه إن لم يكن لديه إذن خطي بالمقابلة، فلن يسمح له.

فساوره القلق والرعب وأخذ يلح في المقابلة. ولما كان يعرف تماماً من أين تؤكل الكتف في ذلك القصر، فقد وزع بعض الأحجار الصغيرة من العقيق على من في يدهم الحل والربط، فسمحوا له بأن يقف حيث ستمرّ الملكة أثناء عودتها من النزهة في قصر تريانون.

وفي الواقع، إن ماري انطوانيت التي كانت رعشة الحب ما زالت تسري في جسدها بعد مغامراتها مع شارني التي جعلت منها عاشقة ولم تجعلها عشيقة، ماري انطوانيت هذه بعد ان قامت بنزهتها المعتادة، رجعت مشرقة الوجه فرحة. وما أن وقع نظرها على وجه بوهمير العابس حتى ابتسمت له ابتسامة دلت على سعادتها، فأسرع بوهمير والتمس منها مقابلة وجيزة، فوعدته بتحقيقها بعد ساعتين، أي بعد الغداء.

فذهب بوهمير وزفّ هذا النبأ السار إلى بوسانج الذي كان

ينتظره في العربة ، والذي بسبب ما كان يعانيه من تورم ، لم يشأ أن يظهر وجهه الشنيع للملكة .

وفسّر الشريكان بأن حركات وكلمات الملكة القليلة ، تدل بأن جلالتها ، من دون شك ، تملك في درجها المبلغ الذي لم يكن متوفراً لها البارحة ، ومن أجل ذلك عيّنت الموعد لبوهمير في الساعة الثانية ، لأنها في مثل هذا الوقت ستكون وحدها .

وأخذا يتساءلان كرفاق في أسطورة ، عما إذا كانت ستدفع لهما المبلغ أوراقاً نقدية ، أم ذهباً ، أم فضة .

وعندما دقت الساعة الثانية ، أُدخل بوهمير الى صالون الملكة الصغير ، حيث استقبلته ماري انطوانيت بقولها ، فور أن لمحته من البعيد :

- ماذا يا سيد بوهمير ، هل تريد أن تكلمني على مجوهرات ؟ إن التعاسة بادية عليك ، فهل تعلم ؟

فاعتقد بوهمير أن هناك شخصاً مختبئاً ، وتخشى الملكة أن يسمعها ، فاستعمل ذكاءه في الجواب ، وقال وهو يلتفت حواليه :

- نعم يا مولاتي .

فقالت الملكة مندهشة :

- عما تبحث ؟ إن لديك سراً ، أليس كذلك ؟

فلم يجاوب بوهمير، وقد جعلته هذه المواربة على شيء من الحنق.

وأكملت الملكة تقول:

- السر هو إياه: حلية برسم البيع، وبعض الماسات النادرة؟ أوه! لا تكن خائفاً هكذا، فليس من أحد هنا كي يسمعنا.

فدمدم بوهمير قائلاً:

- إذن ...

- إذن، ماذا؟

- إذن، يمكنني أن أقول لصاحبة الجلالة ...

- ولكن قل بسرعة يا عزيزي بوهمير.

فتقدم الصائغ وهو يبتسم بلطف، وقال وقد انفرجت شفتاه عن أسنان صفراء:

- أريد أن أقول، بأن جلالة الملكة قد نسيتنا البارحة.

فقالت الملكة مندهشة:

- نسيتكما! بماذا؟

- بأن البارحة ... كان الاستحقاق ...

- الاستحقاق!.. أي استحقاق؟

- عفوك يا مولاتي، إذا سمحت لنفسي ... إني أعلم

جيداً بأن هناك إفشاء سر... ربما تكون جلالتك غير مستعدة... سينجم عن ذلك شرّ كبير... ولكن، أخيراً...

فصاحت الملكة:

- ما الذي تقصده يا سيد بوهمير؟! أوضح، فإني لم أفهم كلمة من كل ما قلته!

- لا عجب أن تكون مشاغل الملكة الكثيرة، قد جعلت الذاكرة تخونها...

- الذاكرة عن أي شيء؟ قلت لك أوضح!

فقال بوهمير بخجل:

- لقد كان البارحة يا مولاتي، يوم استحقاق الدفعة الاولى من ثمن العقد.

فسألته الملكة:

- إذن، لقد بعت العقد؟

فقال بوهمير وهو ينظر الى الملكة بدهشة واستغراب:

- لكن... لكن يبدو لي أن نعم.

فقالت الملكة:

- والذين بعتهم هذا العقد، لم يدفعوا لك أيها المسكين بوهمير. شيء مؤسف! ولكن على هؤلاء الناس ان يعملوا كما عملت أنا، إذا لم يكن باستطاعتهم الدفع، أي أن يردوا لك العقد ويتركوا لك العربون.

فترنح ذلك الصائغ كأن ضربة عصا قوية قد سقطت على رأسه ... وتمتم قائلاً :

- العفو ... ماذا شرفتني جلالتك بقولها ؟!

- قلت يا عزيزي بوهمير ، بأنه لو اشترى عقدك عشرة أشخاص ، ثم ردوه لك وتخلى كل واحد منهم عن مئتي الف ليرة كما فعلت أنا ، لربحت مليونين من الليرات ، وبقي العقد لك .

فصاح بوهمير وقد بلّله العرق :

- جلالتك ... تقول بأنها ردت لي العقد !!

فأجابته الملكة بسكينة واطمئنان :

- نعم ، أقول ذلك . ما الذي أصابك ؟

فقال بوهمير :

- ماذا أسمع !... جلالتك تنكر بأنها اشترت العقد مني ؟!

فقالت الملكة بقساوة :

- أية مهزلة تمثل ؟ هل مرصود هذا العقد اللعين كي يجعل كل من يلمسه يفقد عقله ؟!

فأجاب بوهمير وكل جارحة فيه ترتعش :

- يبدو لي ، بأني سمعت من فم جلالتك بالذات ... أنها ردت لي عقد الماس ... فهل قالت جلالتك هذا القول ؟

فأخذت الملكة تنظر إلى بوهمير وقد شبكت ذراعيها ، ثم قالت له :

– من حسن الحظ أن يكون لدي ما ينعش الذاكرة ، لأنك أنت يا سيد بوهمير ، رجل عديم الذاكرة ، كي لا أقول أكثر من ذلك ...

وتوجهت رأساً إلى خزانتها الصغيرة ، وسحبت منها ورقة . وبعد أن فتحتها وتصفحتها بسرعة ، مدت يدها بتمهل إلى ذلك الشقي بوهمير ، وقالت له :

– تفضل واقرأ ، فالنص واضح لا إبهام فيه ، كما أعتقد .

وجلست كي تراقب الصائغ أفضل ، وهو يقرأ تلك الورقة .

فعبَّر وجه بوهمير ، في بادئ الأمر ، عن الشك والريبة . ثم ما عتَّم أن تحول هذا التعبير ، إلى الخوف والرعب الشديدين . فقالت الملكة :

– وبعد ! هل في هذا الايصال أي شك بأنك استعدت العقد ، وبأن التوقيع الذي يحمله هو توقيعك أيها السيد بوهمير ؟

فصاح بوهمير وهو يكاد يختنق من الغيظ والخوف في آن واحد :

– لكن يا مولاتي ، لست أنا من وقع على هذا الايصال !

فتراجعت الملكة وهي تصعق ذلك الرجل بعينيها المتوقدتين، ثم قالت له:

- أتنكر؟!

- حتماً... ولو كلفني ذلك حريتي، لو كلفني حياتي! فأنا لم أستلم العقد إطلاقاً، ولا أمضيت إطلاقاً هذا الايصال. ولو أُحضرت لي خشبة النطع، وأُحضر معها الجلاد، لبقيت أقول لجلالتك: لا يا صاحبة الجلالة، هذا الايصال ليس مني!

فقالت الملكة، وقد بدت عليها مسحة من الشحوب:

- إذن، أنا سرقتك يا سيدي، وعقدك في حوزتي؟!

ففتش بوهمير في حقيبته، وسحب بدوره رسالة وقدمها إلى الملكة، وقال لها باحترام، ولكن بصوت متأثر:

- أعتقد بأن جلالتك، لو شاءت أن ترد لي العقد، لما كانت كتبت هذا الاقرار.

- ولكن، ما هذه القصاصة؟ أنا لم أكتب هذه الورقة إطلاقاً. هل هو خطي هذا الخط؟

فقال بوهمير بلهجة المنتصر:

- إنها تحمل توقيع: «ماري انطوانيت دي فرانس...»

- ماري انطوانيت دي فرانس... إنك مجنون! هل أنا من فرنسا، أنا! ألست أنا أرشيدوقة النمسا؟ أليس من غير

المعقول أن أكون أنا من كتب هذا؟! هيا إذن يا سيد بوهمير، واذهب الى مزوريك وقل لهم هذا القول، فالفخ كبير جداً!

فكاد الصائغ أن يفقد وعيه بعد سماعه هذا الكلام، وتمتم قائلاً:

- مزوريٍّ... جلالتك تشك بي، أنا، بوهمير؟!

فقالت الملكة بصوت مرتفع:

- وأنت تشك بي، أنا، ماري انطوانيت؟!

فقال بوهمير وهو يشير إلى الورقة التي يحملها:

- وهذه الرسالة!

فأجابته الملكة وهي تشير الى الايصال الذي لم يتركه بوهمير:

- وهذا الايصال!

فتداعى بوهمير على أحد المقاعد، بعد أن انهارت قواه. وأخذت أنفاسه تتسارع، والعرق البارد يتصبب من وجهه الشاحب.

فقالت له الملكة:

- ردَّ لي الايصال، وخذ رسالتك الحاملة توقيع «ماري انطوانيت دي فرانس»، فالنائب العام سيقول لك ما قيمتها.

ورمت له برسالته، بعد أن انتزعت الايصال من بين يديه،

ثم أدارت ظهرها ومشت إلى جناح آخر، تاركة ذلك التعيس وحده، مضعضع الحواس لا يجد ما يقوله!

وبعد عدة دقائق، عاد الى بوهمير روعه، فخرج من جناح الملكة طائش الرأس، وذهب فقص على بوسانج ما حدث له مع الملكة.

فشكك بوسانج في بادئ الامر بشريكه، لكنه بعد أن تأكد من صدق قوله، أخذ هو ينتف شعر رأسه المستعار، وبوهمير ينتف شعر رأسه الطبيعي... فكان مشهدهما في عيون المارة، مشهداً محزناً ومضحكاً في آنٍ معاً.

وبعد ان قضيا ردحاً من الوقت في العربة، وبعد أن اقتلعا شعور رأسيهما المستعارة وغير المستعارة، جلسا يفكران فيما يجب عمله، فاتفقا على فكرة طرق باب الملكة من جديد، إذا كان ذلك ممكناً، ومجتمعين هذه المرة لا منفردين، علهما يحصلان على ما يشبه التوضيح.

فسارا باتجاه قصر فرساي، وهما على حالة تثير الشفقة. وهناك، التقيا أحد ضباط الملكة، فأدخلهما على جلالتها من دون إبطاء، بعد أن استدرا عطفه.

أين العقد يا مولاي؟

★

ما أن وقع بصر الملكة على الصائغين اللذين كانت تنتظرهما نافذة الصبر، حتى قالت بحيوية:

– آه ا هوذا السيد بوسانج أيضاً، حسناً فعل بوهمير في الاستنجاد بك.

أما بوهمير الذي كان يفكر وليس لديه ما يقوله، فقد وجد أن الحركة التمثيلية، هي أفضل من الكلمة في مثل هذا الموقف. لذا ارتمى على قدمي مار انطوانيت، فكانت حركته بليغة التعبير.

واقتدى بوسانج بشريكه، فقالت الملكة:

– أنا الآن هادئة الاعصاب يا سيديَّ، وسوف أحتفظ بهدوئي. فضلاً عن ذلك، لقد وردت على خاطري فكرة ستعدل عواطفي بالنسبة اليكما. فمما لا شك فيه، ان هناك سراً في القضية، لم يعد خافياً عليَّ، وأن كلانا، أنا وأنتما، مخدوعان.

فصاح بوهمير، وقد طيَّب نفسه كلام الملكة هذا:

– آه مولاتي ! إذن لن تشكي بي بعد الآن، وبأني ... آه ! يا للكلمة الفظيعة التي لا أستطيع لفظها، كلمة مزوِّر !

– لا غرو إن لم تتمكن من لفظها، فهي بالنسبة لي أيضاً كلمة معيبة لا أستطيع سماعها. وقد برأتك منها.

– إذن، هل تعتقد جلالتك بأن هناك شخصاً قام بهذا العمل الشائن ؟

– أجب أولاً على هذا السؤال : هل الماسات، كما قلت، لم تعد موجودة لديكما ؟

فأجاب الصائغان سوية :

– بحق السماء، ليس لدينا أية ماسة يا مولاتي.

– اذن، يهمكما أن تعلما، إلى من عهدت بردّ هذه الماسات إليكما. ألم تريا ... الكونتس دي لاموت ؟

فأجاب بوهمير :

– عفواً يا مولاتي، لقد رأيناها ...

– أوَلم تعطكما شيئاً ... من قبلي ؟

– لا يا مولاتي، فكل ما قالته لنا الكونتس : «انتظرا».

– والرسالة التي حمّلتها إليكما ؟

– الرسالة التي أطلعنا جلالتك عليها ؟ إن هذه الرسالة قد حملها إلينا رسول مجهول خلال الليل.

قال بوهمير هذا وسحب الرسالة المزورة من جيبه، فقالت له الملكة:

- هذه الرسالة ليست تلك التي كتبتها، ولا يمكن أن تصدر عني، كما قلت لك.

ثم قرعت الجرس، وقالت بهدوء وسكينة للخادم الذي حضر:

- ليستدعوا لي الكونتس دي لاموت.

وأكملت تقول بنفس الهدوء:

- ألم تريا أحداً؟ ألم تريا السيد دي روهان؟

- السيد دي روهان؟ بلى يا مولاتي، لقد جاء يرد لنا الزيارة، ويستعلم...

فقالت الملكة:

- حسناً للغاية! وعلينا ألا نذهب بعيداً. فاذا ثبت ان الكردينال دي روهان له ضلع بالقضية، لا يبقى هناك داع ليأسكما. فأنا أتنبأ بأن السيدة دي لاموت عندما قالت لكما «انتظرا»، شاءت بهذه الكلمة... ولكن لا، لا أريد أن أتنبأ بشيء... فقط إذهبا وفتشا عن الكردينال ولا تضيعا الوقت، وقصّا عليه كل ما قلتماه لي، وأضيفا بأني أعلم كل شيء.

فانعش هذا القبس من الأمل الصائغين، وتبادلا النظرات المتفائلة.

وشاء بوسانج أن يكون له كلمته في الموضوع، فقال للملكة :

– في هذه الاثناء، بين يدي جلالتك إيصال مزور، والتزوير هو جريمة في نظر القانون .

– هذا صحيح، إذا كنتما فعلاً لم تستلما العقد . ولكن للتأكد من التزوير، لا بدَّ من أن أقابلكما بالشخص الذي كلفته بأن يعيد إليكما الماسات .

فصاح بوسانج :

– نحن على استعداد لهذه المقابلة ساعة تريد جلالتك، لأننا تاجران شريفان، ولا نخشى النور إطلاقاً .

– إذن إذهبا وفتشا عن النور لدى الكردينال . فهو وحده، باستطاعته أن يبدد الظلام الذي يكتنف هذه القضية .

فسأل بوهمير :

– وهل تسمح لنا جلالتك، بأن ننقل إليها جواب الكردينال ؟

فقالت الملكة :

– بالطبع، فالأمر يهمني أكثر مما يهمكما، إذهبا ولا تتباطآ !

وبعد أن صرفت الملكة الصائغين، استسلمت هي، بعد

خروجهما ، إلى القلق الشديد ، فبعثت بالرسول تلو الرسول في طلب السيدة دي لاموت .

ولكن لنترك الملكة تبحث عن الكونتس ، وهي على ما هي عليه من قلق وشكوك ، كي نتابع الصائغين وهما يفتشان عن الحقيقة التي آل اليها عقدهما الماسي ، وما رافق هذه القضية من غموض وتزوير .

في ذلك الوقت ، كان الكردينال في قصره يقرأ في تأثر لا يمكن وصفه رسالة قصيرة كانت السيدة دي لاموت قد بعثت بها إليه من فرساي ، كما تقول .

فالرسالة كانت قاسية بالنسبة للكردينال ، لأنها قضت على كل آماله وأحلامه ، إذ كانت بمثابة إنذار له «كي يمتنع عن الظهور غير المتكلف في فرساي ، وكي لا يحاول إحياء علاقاته بالملكة التي أصبحت مستحيلة».

فما أن قرأ الكردينال هذه الكلمات ، حتى استشاط غضباً ، وأخذ يعدد مساوئ الملكة ويصرخ بيأس :

· «مغناجة ، نَزْوية ، مخادعة ... أوه ! سوف أنتقم لنفسي ، أربع رسائل كتبتها لي ، وكل واحدة منها أكثر ظلماً وأكثر عتواً من الأخرى . لقد أذلتني بسبب نزواتي ، وبات من الصعب علي أن أغفر لها ، إن لم تشبع نهم نفسي مرة جديدة ...»

وفيما هو على هذه الحالة، وصل الصائغان الى قصره وطلبا مقابلته.

وعندما أبلغه الخادم طلبهما، طرده من فرط غضبه. فكرر الخادم تبليغه رغبة الصائغين ثلاث مرات نزولاً عند إلحاحهما الشديد، وكرر هو طرده ثلاث مرات. ولما دخل عليه الخادم في المرة الرابعة وأبلغه بان بوهمير وبوسانج قد صرحا بأنهما لن ينسحبا من قاعة الانتظار إلا بالقوة، فكر متسائلاً: «ماذا يريد هذان اللجوجان؟»

ثم قال للخادم: ليدخلا!

وما ان دخلا بوجهيهما الكالحين، حتى صاح بهما الكردينال قائلاً:

– ما هذه الفظاظة أيها الصائغان! هل لكما أي حق علي؟

فجمّدت هذه اللهجة الشريكين رعباً، وقال بوهمير بيأس، مرفقاً كل مقطع بتنهدة تستصرخ العدل والرأفة:

– عفوك يا مولاي عما نحن عليه من غضب وحنق، ولا تجبرنا على التصرف بخلاف ما يفرضه علينا الواجب من تقديم الاحترام، نحو أمير للكنيسة جليل مثلك!

فقال الكردينال:

– إما لستما مجنونين ، وعندئذ يجب رميكما من النافذة ، وإما أنكما مجنونان ، وعندئذ يجب طردكما لا أكثر ولا أقل ، فأي من الاثنين تفضلان ؟

فأجاب بوهمير :

– نحن لسنا مجنونين يا مولاي ، نحن مسروقين !

– وما علاقتي بالأمر ! هل أنا مدير الشرطة ؟

فقال بوهمير وهو يشهق :

– ولكنك استلمت العقد بيديك يا مولاي ... سوف تذهب وتدلي بشهادتك أمام القضاء ، سوف تذهب ...

فقال الأمير دي روهان :

– لقد استلمت العقد !.. إذن ، المسروق هو العقد ؟!

– نعم يا مولاي .

فصاح الكردينال باهتمام :

– عجباً ! وماذا قالت الملكة ؟

– الملكة أرسلتنا إليك يا مولاي .

– إن جلالتها في غاية اللطف والذوق . ولكن ، ما الذي أستطيع عمله بهذا الخصوص أيها التعيسان ؟

– يمكنك عمل كل شيء يا مولاي ، يمكنك إنصافنا وإعادة الحق إلى أصحابه .

– أنا ؟!

- بدون شك.

- هذا الكلام يا عزيزي بوهمير، باستطاعتك أن تقوله لي، لو كنت واحداً من عصابة اللصوص التي استولت على عقد الملكة.

- ولكن العقد لم تستلمه الملكة.

- ماذا تقول!! من استلمه إذن؟

- إن الملكة تنكر وجوده في حوزتها.

فقال الكردينال:

- كيف يمكنها أن تنكر، طالما أن لديكما إيصالاً منها؟!

- إن الملكة تقول بأن الايصال مزور.

فصاح الكردينال:

- أنتما مجنونان فيما تقولانه! فالملكة قد أنكرت، لأنه كان لديها بعض الأشخاص عندما كلمتماها في الموضوع.

فقال بوهمير:

- لم يكن لديها أحد يا مولاي، وهذا ليس كل شيء...

- ماذا أيضاً؟

- لم تكتف الملكة بأن أنكرت، وبأن الاقرار باستلام العقد مزور، بل أيضاً أطلعتنا على إيصال منا، يثبت بأننا استعدنا العقد!

- إيصال منكما؟ وهذا الايصال؟

- إنه مزور يا صاحب النيافة، مثله مثل الاقرار الذي بين يدينا، وأنت تعلم ذلك جيداً.

فصاح الكردينال غاضباً:

- مزور... إيصال وإقرار مزوران... وتقولان بأني أعلم ذلك جيداً؟!

- بكل تأكيد، طالما أنت الذي جاء وأكّد لنا ما كانت قد قالته لنا الكونتس دي لاموت. وطالما أنك تعلم جيداً بأننا قد بعنا العقد فعلاً، وبأن هذا العقد كان في حوزة الملكة.

فقال الكردينال وهو يمسح جبهته بيده:

- إن الأمر رهيب كما يبدو لي. فلنستعرض سوية ما قمت به معكم من إجراءات تتعلق بهذا العقد.

- نعم يا مولاي.

- أولاً، إن شراء العقد قد تمّ بواسطتي لحساب جلالتها، وقد دفعت لكما مئتين وخمسين الف ليرة.

- هذا صحيح يا مولاي.

- ثم اعترفت الملكة خطياً بهذا الشراء، كما قلتما لي، وحددت جلالتها مواعيد الدفع على مسؤولية توقيعها.

- لقد قلت يا مولاي... على مسؤولية توقيعها... أي أن الملكة وقعت، أليس كذلك؟

- أرني رسالة جلالتها لأتأكد.

فسحب بوهمير الرسالة من حقيبته، وقال:

– هاكها يا مولاي.

فألقى الكردينال عليها نظرة، وصاح قائلاً:

– ما هذا!! إنكما ولدان... «ماري انطوانيت دي فرانس؟» أليست الملكة ابنة العائلة النمساوية الحاكمة؟ إنكما ضحية اللصوص... فالخط والتوقيع كلاهما مزوران!

فصاح الصائغان وقد بلغت بهما المصيبة أوجها:

– يا للمصيبة!! يا للمصيبة!! لكن السيدة دي لاموت يجب أن تعرف المزور والسارق...

فقال الكردينال وقد آلمته الحقيقة وجعلته جدٌ مرتبك:

– سوف أستدعي السيدة دي لاموت.

وقرع الجرس كما سبق أن فعلت الملكة، وطلب إلى خدمه أن يسرعوا في التفتيش عن الكونتس واستدعائها إليه.

في هذه الأثناء، تكور بوهمير وبوسانج كما تتكور الأرانب في مأواها، وأخذا يلطمان وجهيهما ويصيحان:

«أين العقد؟! أين العقد؟!»

فقال الكردينال متبرماً:

لقد أصميتما أذنيّ! هل أعرف أنا أين عقدكما؟ كل ما أعلمه، أني بنفسي سلمته إلى الملكة.

فتابع التاجران صياحهما:

«نريد العقد أو المال! نريد العقد أو المال!»

فقال لهما الكردينال، وقد كاد يرمي بهذين المخلوقين خارجاً من شدة غضبه:

- كفاكما صياحاً أيها الشقيان، فالأمر لا يعنيني إطلاقاً!

فتابع بوهمير وبوسانج صياحهما، وقد بحَّ صوتاهما:

«السيدة دي لاموت! السيدة دي لاموت! إنها هي سبب بلائنا...»

فقال الكردينال:

- إن السيدة دي لاموت امرأة شريفة ومستقيمة. لذا أحظركما من اتهامها، تحت طائلة التعذيب على الدولاب في قصري.

فقال بوهمير بلهجة محزنة:

- الحاصل، أن هناك مجرماً، وأن هناك شخصاً قام بعملية تزوير الرسالة والايصال.

فقال دي روهان بعجرفة:

- هل هو أنا هذا الشخص؟

- إننا لا نريد ان نتهمك يا مولاي.

- ما الذي تريدانه إذن؟

- نريد توضيحاً لما جرى على حسابنا يا مولاي.

- علينا أن ننتظر، فسوف أحصل على هذا التوضيح.

- ولكن، ماذا تريدنا أن نقول للملكة يا مولاي، التي بعثتنا إليك بعد ان ارتفع صوتها عالياً علينا.

- ماذا قالت الملكة؟

- الملكة قالت بأن العقد ليس لديها، وبأنه يجب أن يكون، إما عندك، وإما عند السيدة دي لاموت.

فقال الكردينال وقد احمرَّ من الخجل والغضب:

- عجباً!.. إذهبا وقولا للملكة بأن... لا، لا تقولا لها شيئاً. كفاها فضائح متشابهة. ولكن غداً... سوف أحتفل بالقداس في كنيسة فرساي، فكونا هناك بالقرب مني، واستمعا إلى جواب الملكة، فسوف أسألها عما إذا كان العقد لديها. فإذا أنكرت، بوجودي... عندئذ سأعمل بأصلي كأمير من آل روهان، وأدفع المبلغ.

وبعد أن لفظ الكردينال دي روهان هذه الكلمات بعظمة، صرف الصائغين. فخرجا متقهقرين منحنيين، وقد قال بوهمير بصوت متلجلج:

- إذن، إلى الغد يا مولاي، أليس كذلك؟

فأجاب الكردينال:

- إلى الغد، عند الساعة الحادية عشرة، وفي كنيسة فرساي.

مبارزة ودبلوماسية

★

عند الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي، دخلت إلى باحة قصر فرساي عربة عليها شعار السلاح الخاص بالسيد دي بريتاي.

وكان السيد دي بريتاي، وهو مزاحم وعدو شخصي للكردينال دي روهان، يتحين الفرص منذ أمد طويل، كي يضرب عدوه الضربة القاضية.

في تلك الساعة، كان الملك يلبس ثيابه استعداداً لحضور القداس، وكان دي بريتاي، وهو أحد وزرائه، على موعد معه. فما أن دخل عليه، حتى قال له لويس السادس عشر ومظاهر الفرح بادية على وجهه:

– الطقس رائع هذا اليوم يا بريتاي، فالسماء خالية من أية غيمة.

فأجاب الوزير:

– يؤسفني جداً يا مولاي، أن أعكر طمأنينتكم بغيمة أنقلها إليكم.

فصاح الملك وقد تبدلت سيماء وجهه:

- ها إن نهارنا قد بدأ بالسوء. ما وراءك؟

- إنني في حيرة من أمري يا مولاي، لا أعلم كيف أقصُّ عليك الخبر. فالأمر لا يتعلق بشؤون وزارتي، بل بمدير الشرطة، لأنه نوع من السرقة.

فقال الملك:

- سرقة! إذن تكلم، فأنت وزير العدل، واللصوص ينتهي أمرهم دائماً أمام العدالة.

- حسناً. لا شك يا مولاي، أن جلالتكم قد سمعت بذلك العقد الماسي.

- عقد السيد دي بوهمير؟

- نعم يا مولاي.

- ذلك الذي رفضته الملكة؟

- بالضبط.

فقال الملك وهو يفرك يديه:

- إن رفض الملكة، قد أكسبنا سفينة جميلة: «السيفران».

فقال البارون دي بريتاي، غير حاسب أي حساب للشر الذي سينتج عن كلامه:

- ولكن الغريب يا مولاي، أن هذا العقد قد سرق!

فقال الملك :

– شيء مؤسف ! شيء مؤسف ! فهو عقد ثمين . لكن حبات الماس يصعب إخفاؤها ، لذا سيكتشفها رجال الشرطة ولن يقطف اللصوص ثمرة سرقتهم .

فقاطعه البارون دي بريتاي قائلاً :

– لكن السرقة يا مولاي ، ليست سرقة عادية ، فالضجة كبيرة حولها .

– الضجة ! ماذا تريد أن تقول ؟

– يزعمون يا مولاي ، بأن الملكة قد احتفظت بالعقد .

– ماذا تقول ! احتفظت بالعقد ؟ إن رفضها قد حصل بوجودي أيها البارون ، ولا يمكن أن تكون قد احتفظت به ، لأنها رفضت حتى أن تنظر إليه . إنه لمن الجنون المطبق أيها البارون ، القول بأن الملكة قد احتفظت بالعقد .

– إني يا مولاي لم أستعمل الكلمة الحرفية ، لأن النميمة ليست من شيمي ، ولأن وقعها جارح على آذان الملوك . لذلك لن أقولها ...

فقال الملك مبتسماً :

– أفهم من كلامك يا سيد بريتاي ، بأن الملكة قد سرقت العقد .

فقال دي بريتاي بحيوية :

- يقولون يا مولاي ، بأن الملكة ، رغم إلغاء الصفقة الذي تمّ بحضورك - وهنا أجدني لست بحاجة لأن أكرر أمام جلالتكم كم أكن من تقدير واحترام للملكة يزدريان بمثل هذه الافتراضات السافلة - يقولون بأن الصائغين، بوهمير وبوسانج ، لديهما إيصال من جلالة الملكة ، يثبت بأنها قد احتفظت بالعقد ...

فاصفرّ الملك وردد بقلق :

-يقولون !.. يقولون ! إن الأمر يرعبني !..

ثم صاح بصوت مرتفع وحازم :

«ومع ذلك ، فالملكة لها الحق بأن تشتري حلية راقت لها ، وأنا لا ألومها، فهي امرأة، والعقد قطعة مدهشة ونادرة الوجود . شكراً لله ! فالملكة باستطاعتها أن تنفق على زينتها مليوناً ونصف المليون إذا شاءت ، وعلى الملك ان لا يتدخل في شؤونها الخاصة ، وأن لا يسمح لأي إنسان بأن يتدخل بها ، ولو اغتياباً .

فانحنى البارون أمام كلام الملك هذا ، والتزم الصمت !

لكن حزم لويس السادس عشر ، لم يكن جدياً . فبعد برهة من تظاهره به ، عاوده القلق والحيرة ، فقال :

- ثمّ لنكن منطقيين . لقد حدثتني عن سرقة ، كما

أعتقد ؟ لقد قلت سرقة ... فكيف يكون هناك سرقة ، والعقد في حوزة الملكة ؟!

فقال البارون :

- إن غضب جلالتك يا مولاي ، قد عقل لساني ، فلم أكمل .

- أوه ! غضبي !.. أنا في حالة غضب بسبب ما ذكرت أيها البارون !

وأخذ الملك الطيب يضحك ، ثم قال :

- لا بأس . أكمل وقل لي كل شيء . قل لي حتى بأن الملكة قد باعت العقد الى جماعة من اليهود . يا لها من امرأة مسكينة ! فهي غالباً ما تكون بحاجة الى دراهم ، وأنا لا أفي حاجتها دائماً .

- هذا بالضبط ما كنت أريد أن أتشرف بقوله إلى جلالتك . فالملكة كانت قد طلبت منذ شهرين ، خمسماية الف ليرة بواسطة السيد دي كالون ، وجلالتك رفضت ان توقع ...

- هذا صحيح .

- وهذا المبلغ ، كما يقولون يا مولاي ، كان من المقرر أن تدفعه الملكة كقسط أول من ثمن العقد ، فلما لم تحصل عليه ، رفضت أن تدفع ...

فقال الملك، وقد بدأ يهتم باكتشاف الحقيقة:

- وبعد؟

- هنا يا مولاي، تبدأ القصة التي تدفعني غيرتي إلى قصّها على جلالتكم.

فصاح الملك:

- تقول هنا تبدأ القصة! ما الذي جرى إذن؟

- يقولون يا مولاي، بأن الملكة قد توجهت إلى أحدهم، للحصول على الدراهم المطلوبة.

- إلى من؟ إلى يهودي، أليس كذلك؟

- لا يا مولاي، ليس إلى يهودي.

- هيّا إذن وقل؟ لقد حزرت، هناك مؤامرة خارجية. فالملكة قد طلبت المال من شقيقها، من عائلتها، أي أن للنمسا دخلاً في القضية!

فأجابه دي بريتاي، وهو يعلم كم هو الملك حساس بالنسبة للبلاط في فيينا:

- حبذا، لكان ذلك أفضل!

- تقول لكان ذلك أفضل! إذن، ممن استطاعت الملكة ان تطلب المال؟

- مولاي، لا أجرؤ...

فقال الملك وهو يرفع رأسه ويتخذ لنفسه عظمة الملوك:

– بل يجب ان تجرؤ ا قل بسرعة إذا أردت ، وسمّ لي مقرض المال هذا .

– إنه السيد دي روهان يا مولاي .

– عجبا ! ألا تخجل من أن تسمي لي السيد دي روهان ، وهو أكبر مفلس في هذه المملكة !

فقال دي بريتاي وهو يغضّ الطرف :

– مولاي ...

وأضاف الملك يقول :

– إن مظهرك لا يروق لي ، وعليك الآن أن تشرح مكنونات صدرك يا حضرة وزير العدل .

– أرجوك يا مولاي ، فليس من أحد في العالم ، باستطاعته أن يجبرني على التلفظ بكلمة تلوّث شرف مليكي ، أو شرف مليكتي ...

فقطب الملك حاجبيه وقال :

– لقد قلت بأن السيد دي روهان ، هو من أقرض الملكة المال ، وعليك أن تشرح ذلك بالتفصيل .

– لتكن مشيئتك يا مولاي ، ولسوف تقتنع جلالتك ، بأن السيد دي روهان كان قد دخل في مفاوضات مع الصائغين بوهمير وبوسانج ، وبأن صفقة بيع العقد هو الذي رتبها ، وبأنه هو الذي وضع شروط الدفع .

فصاح الملك وقد عصف به الغضب والغيرة :

- أصحيح ما تقول ؟!

- هذا هو الواقع الذي باستطاعة استجواب بسيط أن يثبته ، وقد تطوعت بنقله إلى جلالتكم .

- تقول بأنك تطوعت بنقله ؟!

- بدون تحفظ ، وعلى مسؤوليتي يا مولاي .

- إنها لأمور رهيبة !.. نعم رهيبة ، ولكني حتى الآن لم أرَ تلك السرقة .

- يقول الصائغان يا مولاي ، بأن لديهما إيصالاً موقعاً من الملكة ، وأن العقد يجب أن يكون لدى جلالتها .

فصاح الملك غاضباً :

- وهي تنكر ! هكذا هي في نظرك يا بريتاي ؟

- عفوك يا مولاي . هل صدر مني ما يدل على أن الملكة ليست بريئة ؟ يشهد الله بأني لا أكن لجلالتها إلا كل احترام وتقدير ، وبأن قلبي مفعم بالحب نحو مليكتي ، التي هي أشرف النساء طراً !

- إذن ، أنت لا تتهم إلا السيد دي روهان ؟

- لكن الظواهر يا مولاي ، تنصح ...

- إنه اتهام خطير أيها البارون !

- اتهام قد يسقط امام التحقيق ، لكن التحقيق ضرورة لا

بدَّ منها. فتأمل يا مولاي بأن الملكة تدعي بأن العقد ليس لديها، وبأن الصائغين يزعمان بأنهما باعا العقد للملكة، وبأن العقد غير موجود، وبأن كلمة «سرقة» قد أصبحت على كل شفة ولسان، وبأن الشعب يلفظها مقرونة باسم السيد دي روهان تارة، وطوراً باسم الملكة المقدس.

فقال الملك وقد ظهر القلق جلياً على وجهه:

– هذا صحيح، هذا صحيح، وإنك على حق يا بريتاي، فيجب ان تتوضح هذه القضية برمتها.

– حتماً يا مولاي.

– الله!.. ما الذي يجري هناك في الرواق؟ أليس السيد دي روهان من يتوجه إلى الكنيسة؟

– لا يمكن أن يكون السيد دي روهان يا مولاي. فالساعة لم تبلغ الحادية عشرة بعد. ثم إن السيد دي روهان الذي سيحتفل بالقداس هذا اليوم، سوف يرتدي ثيابه الحبرية. لا، ليس هو ذلك المارّ، وامام جلالتك أيضاً نصف ساعة من التفكير والاستعداد.

– ماذا علي أن أعمل؟ هل أكلمه؟ هل أستدعيه؟

– لا يا مولاي، واسمح لي أن أقدم نصيحة لجلالتك: لا تدع القضية تتناولها ألسن أهل البلاط، قبل أن تتحدث إلى الملكة.

فقال الملك :

- هذا عين الصواب ، فالملكة ستقول لي الحقيقة .

- علينا أن لا نشك لحظة في ذلك يا مولاي .

- هيا واجلس هناك يا بارون ، وقل لي كل ما تعلمه ، وما سمعته من تعليق وتفسير ، بدون تحفظ ولا تلطيف .

- كل شيء مفصّل في هذه الحقيبة يا مولاي ، بما فيه المستندات الثبوتية .

- إلى العمل إذن . ولكن انتظر قليلاً ، فقد بقي لدي مقابلتان هذا الصباح ، أودّ أن أرجئهما .

وبعد أن أعطى الملك أوامره بغلق باب غرفته ، ألقى نظرة من خلال النافذة وصاح :

«إنه الكردينال هذه المرة ، انظر!»

فنهض بريتاي وتقدم من النافذة ، فرأى من خلال الستارة الشفافة ، الكردينال دي روهان مرتدياً بزته الحبرية ، ومتوجهاً الى الشقة المخصصة لاستراحته ، في كل مرة يأتي إلى فرساي للاحتفال بالقداس الإلهي .

وتابع الملك يقول :

«ها هو أخيراً قد وصل .»

فقال دي بريتاي :

- هذا أفضل ، فالتوضيح لا يقبل أي تأخير .

وأخذ بحمية الرجل الذي يريد القضاء على خصمه ، يطلع الملك على ما لديه من معلومات ، وعلى المستندات والوثائق التي رتبها ونسقها بفن في حقيبته ، وكلها تدين الكردينال دي روهان .

وكان الملك يدقق بهذه الاوراق الثبوتية ويضعها الواحدة فوق الاخرى . وعندما انقضى ربع ساعة ولم يقدم اليه وزيره الدليل على براءة الملكة ، دب اليأس إلى قلبه وأخذ يتبرم ...

وفجأة ، سُمعت صيحة في الرواق المجاور . فأصاخ الملك السمع ، وتوقف دي بريتاي عن القراءة ، وأقدم ضابط وقرع باب الغرفة ودخل بعد السماح ، فسأله الملك وقد وترت أعصابه وثائق السيد دي بريتاي :

– ما وراءك ؟

فعرّف الضابط بنفسه ، وقال :

– مولاي ، صاحبة الجلالة الملكة ، ترجو جلالتك بأن تذهب إليها .

فقال الملك وقد شحب لونه :

– يجب أن يكون هناك من جديد .

فقال دي بريتاي : ربما .

فصاح الملك :

– أنا ذاهب الى الملكة . انتظرني هنا يا سيد دي بريتاي .

فدمدم وزير العدل :

– حسناً ، لقد أدركنا حلَّ العقدة .

شارني والكردينال والملكة

★

في الساعة التي دخل فيها السيد دي بريتاي على الملك ، كان السيد دي شارني يطلب مقابلة الملكة ، وهو شاحب اللون مضطرب البال .

وكانت الملكة ترتدي ثيابها ، فرأت من نافذة صالونها الصغير المشرف على السطيحة ، كيف كان شارني يلح في طلب مقابلتها ، فأصدرت أمرها كي يدخلوه إليها فوراً .

وهي بذلك قد استسلمت الى نداء قلبها ، وقالت في نفسها بأنفة نبيلة : «إن حباً طاهراً ومجرداً كحبه ، له الحق بأن يدخل كل ساعة إلى قصور الملكات» .

فدخل شارني ، وقال بصوت مخنوق ، عندما لامست يده المرتعشة يد الملكة التي قدمتها إليه :

– آه يا مولاتي ، أية مصيبة حلّت عليَّ !

فصاحت الملكة، وقد شحب لونها هي الأخرى عندما لاحظت الشحوب على وجه شارني:

– ماذا دهاك! ما الذي أصابك؟

– مولاتي، هل تعلمين ما الذي علمته؟ هل تعلمين ما الذي يقولونه؟ هل تعلمين ما قد يكون الملك يعلمه، أو ما سوف يعلمه غداً؟

فارتعشت الملكة، إذ فكرت رأساً بتلك الليلة العفيفة الملذات، التي قضتها مع شارني في حدائق وغابات فرساي، وظنت بأنه ربما كانت هناك عين غيورة وعدوة قد شاهدتها، فأجابته بعد أن سندت قلبها بإحدى يديها:

– قل كل شيء، فأنا على استعداد لكل مفاجأة.

– يقولون يا مولاتي، بأنك اشتريت عقداً من بوهمير وبوسانج.

فأجابته الملكة بحدة:

– ولكني أرجعته.

– استمعي إلي. يقولون بأنك تظاهرت بإرجاعه، وبأنك كنت على وشك أن تدفعي ثمنه، وبأن الملك قد منعك بعد أن رفض التوقيع على قرار الصرف الذي قدّمه إليه السيد دي كالون، وبأنك، عند ذاك، توجهت إلى أحدهم كي يمدك بالمال، وكان هذا الشخص... عشيقك!

فصاحت الملكة مع حركة مهيبة :

- أنت ! أنت يا سيدي ! دعهم يقولون ما يقولون هؤلاء ، فكلمة عاشق ليست بالنسبة اليهم سوى شتيمة ، أما بالنسبة الينا ، أنا وأنت ، فهي كلمة مقدسة لا يقدر قدرها إلا من تذوق مثلنا طعم الحب الحقيقي .

فتوقف شارني مرتبكاً أمام هذه البلاغة الوقورة والمتضوعة من الحب المجرد ، كما يتضوع روح العطر من قلب كل امرأة نبيلة ، وأكملت الملكة تقول :

- عن من تريد أن تتكلم يا شارني ؟ إن للنميمة لغة لا أفهمها إطلاقاً ، فهل فهمتها أنت ؟

فقال شارني :

- تفضلي يا مولاتي وأعيريني سمعك جيداً ، فالأمر خطير جداً . البارحة ذهبت مع خالي ، السيد دي سيفران ، إلى مكتب صائغي البلاط ، بوهمير وبوسانج ، كي يقدرا لخالي قيمة بعض الماسات التي جاء بها من الهند ، فجرى الحديث عن كل شي ، وعلى كل شي . لقد روى الصائغان قصة مريعة يتداولها أعداء جلالتك بالتعليق والتفسير . أنا في غم شديد يا مولاتي . فإذا كنت قد اشتريت العقد ، قولي لي . وإذا كنت لم تدفعي ثمنه ، قولي لي أيضاً . ولكن لا تدعيني أصدق بأن السيد دي روهان قد دفع لك ثمن هذا العقد .

فصاحت الملكة :

– السيد دي روهان !

– نعم، السيد دي روهان ! ذاك المعروف بأنه عشيق الملكة، ذاك الذي قرض الملكة مالاً، ذاك الذي رآه شقي تعيس يدعى دي شارني، يبتسم للملكة في حدائق وغابات فرساي، ويركع أمام الملكة، ويقبل يدي الملكة، ذاك ...

فصاحت الملكة مقاطعة :

– إذا كنت ستصدق بأني كنت هناك عندما لم أكن، فهذا يعني بأنك لم تكن تحبني عندما كنت .

– أوه ! إن الخطر مداهم يا مولاتي، وأنا ما جئت لأطلب منك صراحة أو شجاعة، بل جئت أتوسل اليك كي تؤدي لي خدمة .

فقالت الملكة :

– أولاً، أين الخطر، إذا شئت ؟

– إن الأحمق وحده لا يرى هذا الخطر يا مولاتي ! فالكردينال كفل الملكة، والكردينال وقّع عن الملكة، والكردينال أفسد الملكة . لن أكلمك إطلاقاً هنا، على الغم القاتل الذي قد تسببه للسيد دي شارني ثقة شبيهة بتلك التي يوحيها اليك السيد دي روهان . لا، فمثل هذا الغم قد يقتلني، ولكنه لن يحملني على التشكي .

فقالت ماري انطوانيت بغضب :

- أنت مجنون !

- لست مجنوناً يا مولاتي ، بل أنت شقية ، أنت فاسدة ... فأنا بذاتي قد رأيتك في «البارك» ... ولم أكن مخدوعاً . واليوم ، قد ظهرت الحقيقة الشنيعة القاتلة ... وربما كان السيد دي روهان ، يتباهى بها ويعتدّ !

فأمسكت الملكة بيد شارني ، ورددت بيأس لا يوصف .

- مجنون ! مجنون ! صدِّق الحقد ، وصدِّق الأوهام ، وصدِّق المستحيل ، ولكن بحق السماء ، وبعد الذي قلته لك ، لا تصدق بأني أثيمة ... أثيمة ! ومع ... أنا التي لم تفكر بك مرة إلا واستغفرت ربها ، لأنها اعتبرت هذا التفكير بمثابة جريمة ارتكبتها ! آه يا سيد دي شارني ، إذا كنت لا تريد أن أكون اليوم هالكة ، وغداً مائتة ، لا تقل أبداً بأنك تشك بي ، أو بالأحرى ، إذهب بعيداً كي لا تسمع حتى شائعة زلتي ، ساعة موتي .

فأخذ شارني يلوي يديه بيأس ، وقال :

- استمعي إلي ، إذا كنت تريدين أن اؤدي لك خدمة فعَّالة .

فصاحت الملكة :

- خدمة منك ! منك ، وأنت أشد قساوة من أعدائي ...

لأن أعدائي كل ما فعلوه ، أنهم اتهموني ، بينما أنت تشك بي ! خدمة من قبل رجل يحتقرني ؟! أبداً ... أبداً يا سيدي !

فتقدم أوليفيا وأمسك يد الملكة بيديه ، وقال :

- لقد ثبت لك جيداً ، بأني لست الرجل الذي يتأوه ويبكي . إن اللحظات ثمينة ، وهذا المساء ، سيكون قد فات الأوان كي نعمل ما يجب أن نعمله . فهل تريدين إنقاذي من اليأس ، بإنقاذ نفسك من الخزي والعار ؟

- سيدي ...

- آه ! لن أوجز كلامي أمام الموت . فإذا لم تصغي إلي ، كلانا سيكون ميتاً هذا المساء . أنت من الخجل ، وأنا من رؤيتك مائتة . لذا ، اعتبريني يا مولاتي ، أخاً لك ... هل أنت بحاجة الى مال كي تدفعي ثمن العقد ؟

- أنا ؟!

- لا تنكري .

- قلت لك ...

- لا تقولي بأن العقد ليس لديك .

- إني أقسم لك .

- لا تقسمي إن شئت أن استمرَّ في حبك .

- أوليفيا !

– ما زال هناك وسيلة كي تنقذي، في آنٍ معاً، شرفك وحبك. إن قيمة العقد مليون وستماية الف ... خذي، هذا مليون ونصف المليون ...

– ما هذا ؟!

– خذي وادفعي، ولا تتطلعي !

– ممتلكاتك بعتها ! أراضيك وضعتها تحت تصرفي ! جرّدت نفسك من كل شي لأجلي ! إنك صاحب قلب نبيل يا شارني، ولن أساوم على هكذا حب. أوليفيا، إني أحبك !

– إقبلي.

– لا، ولكني أحبك.

– إذن، سيدفع السيد دي روهان؟ فكري بالأمر يا مولاتي، فرفضك لن يكون مأثرة، بل قساوة تذلني ... أوَتقبلين من الكردينال ؟

– أنا !.. ما هذا القول ! أنا الملكة، فاذا منحت رعاياي الحب أو الثروة، لن أقبل إطلاقاً ...

– ماذا ستعملين إذن ؟

– أنت من سيملي عليَّ تصرفي. بماذا تعتقد أن السيد دي روهان يفكر ؟

– يفكر بأنك عشيقته.

– إنك ظالم، يا أوليفيا ...

– أنا أتكلم كما يتكلمون أمام الميت.

– بماذا تعتقد أن الصائغين يفكران؟

– يفكران بأن الملكة لا تستطيع أن تدفع، وبأن السيد دي روهان سيدفع عنها.

والشعب، ما هو اعتقاد الشعب فيما يتعلق بالعقد؟

– الشعب يعتقد بأن العقد لديك، وبأنك قد أخفيته، وبأنك ستصرحين به عندما يُدفع ثمنه، سواء بواسطة الكردينال، بدافع حبه لك، أو بواسطة الملك، بدافع خوفه من الفضيحة.

– حسناً. وأنت بدورك يا شارني، إني أنظر إليك مواجهة وأسألك: ما هو اعتقادك بالمشاهد التي رأيتها في «بارك» فرساي؟

فأجاب شارني بحزم:

– أعتقد يا مولاتي، أنك بحاجة إلى إثبات براءتك.

فمسحت الملكة العرق المنساب من جبهتها... وفي ذات اللحظة، صرخ صوت الحاجب في الرواق:

«الأمير لويس، كردينال دي روهان، ومرشد ملك فرنسا!»

فدمدم شارني:

– هو!..

فقالت الملكة :

- لقد جاء وفق المراد .

- هل ستستقبلينه ؟

- بل سأستدعيه .

- ولكن ، أنا ...

- ادخل إلى بهوي ، ودع الباب مشقوقاً ، كي تسمع جيداً .

- مولاتي !

- أسرع واذهب ، فها هو الكردينال .

ودفعت شارني إلى القاعة التي عينتها له ، وأغلقت الباب بالشكل الموافق ، ثم أدخلت الكردينال .

وعندما ظهر الأمير دي روهان على عتبة الغرفة ، بدا بالبزة الكهنوتية التي كان يلبسها ، مشعاً متألقاً . وقد وقف على مسافة منه ، عدد من أتباعه ، كانت ثيابهم تلتمع كبزة سيدهم . وكان بوهمير وبوسانج في عداد حاشية الكردينال هذه ، وقد ارتديا ثيابهما الاحتفالية .

فتقدمت الملكة من الكردينال وهي تتصنع الابتسام ، وأشارت إلى مقعد لا ظهر له . لكن لويس دي روهان ، بقي واقفاً ، وقد بدا حزيناً رزيناً ، متحلياً بسكينة الرجل الشجاع

المقبل على معركة، وبالنذير غير المحسوس للكاهن الذي باستطاعته أن يغفر الذنوب.

وبعد أن انحنى وهو يرتعش بشكل ظاهر، قال:

– مولاتي، لديَّ عدة أمور هامة يجب أن أطلع جلالتك عليها، برغم أن جلالتك قد أخذت على عاتقها تجنب حضوري.

فقالت الملكة:

– أتقول بأني أتجنب حضورك يا سيادة الكردينال، وأنا من بعث يستدعيك!

فألقى الكردينال نظرة على بهو الملكة، وقال بصوت منخفض:

– هل أنا وحدي مع جلالتك؟ وهل لي الحق بأن أتكلم بصراحة كلية؟

– لك مطلق الحرية يا سيادة الكردينال، فلا تخف، نحن وحدنا.

وبدت الملكة في صوتها الحازم، وفي كل كلمة لفظتها بشجاعة وعظمة وثقة، كأنها تتعمد إيصال كلامها إلى النبيل المختبئ في القاعة المجاورة. ومما لا شك فيه، أن شارني كان يصيخ السمع جيداً.

فاتخذ الكردينال قراره. وقرّب المقعد الذي أشارت إليه الملكة من مقعدها هي، بشكل جعله بعيداً، بقدر المستطاع، عن الباب ذي المصراعين. فقالت الملكة متظاهرة بالبشاشة:

– إنها استهلالة لا بأس بها.

فقال الكردينال:

– ذلك أن ...

فرددت الملكة كلامه مستفهمة:

– ذلك أن ؟...

فسأل دي روهان:

– ألن يأتي الملك؟

فأجابت ماري انطوانيت بحيوية:

– قل، ولا تخف الملك، ولا أي شخص آخر.

فقال الكردينال بصوت متأثر:

– الواقع، أن من أخافه، هو أنت!

– أكثر فأكثر لا مبرر للخوف، لأني لست مخيفة، عدا أني أخت الصراحة أنا. فتكلم بايجاز، وبصوت مرتفع وجليّ. وإذا راعيت جانبي، اعتقدت بأنك لست رجلاً شريفاً. أوه! يكفي حركات، فلقد قالوا لي بأن لك عليَّ مأخذاً، فتكلم وقل، ما الذي تأخذه عليَّ؟ إني أحب الحرب، والدم الذي يجري في عروقي هو دم لا يعرف الخوف!

فأطلق الكردينال تنهدة، ونهض كأنه يريد أن يتنشق هواء الغرفة بشكل أفضل.

وعندما تمالك نفسه، بدأ الكلام...

إيضاحات

★

تركنا الملكة والكردينال وجهاً لوجه، وشارني مختبئاً في بهو الملكة، باستطاعته أن يسمع كل كلمة يتلفظ بها المتخاطبان، اللذان نفد صبرهما، وبات كل واحد منهما على توق شديد لمعرفة مكنونات صدر الآخر.

فانحنى الكردينال احتراماً، وقال:

– أتعلمين يا مولاتي، ما الذي يجري بخصوص عقدنا؟

– لا يا سيدي، لا أعلم. ولكن يسرني أن أعلم ذلك منك.

– لماذا منذ وقت طويل، امتنعت جلالتك عن السماح لي بالاتصال بها، إلا بواسطة وسيط؟ لماذا، إذا كان لديها سبب يدعوها لأن تكرهني، لا تصارحني بهذا السبب مباشرة؟

– لا أعلم ما تقوله يا سيدي الكردينال. فأنا ليس لدي سبب يحملني على كرهك. ولكن هذا، ليس الغاية من اجتماعنا كما أظن. فتفضل إذن، واعطني عن هذا العقد التعيس، إيضاحاً إيجابياً. وقل لي أولاً، أين السيدة دي لاموت؟

– أود أن أسأل جلالتك عنها.

– عفواً، إذا كان هناك شخص باستطاعته معرفة مقرّ السيدة دي لاموت، فهذا الشخص هو أنت، كما أعتقد.

– أنا يا مولاتي! بأية صفة؟

– أوه! أنا لست هنا كي أعرّفك يا سيدي الكردينال. فقد احتجت للتكلم مع السيدة دي لاموت، وبعثت استدعيها، لكن رسلي الذين طرقوا بابها عشر مرات، رجعوا بدون جواب، واختفاؤها أمر غريب!

– وأنا ايضاً يا مولاتي، قد أرعبني هذا الاختفاء. لأني بعثت برسول اليها يرجوها بأن تأتي وتراني، فحدث لرسولي كما حدث لرسل جلالتك، أي أنه عاد بدون جواب!

– إذن، لندع الكونتس جانباً، ونتحدث فيما يعنينا نحن الاثنين.

– أوه! لا يا مولاتي، لنتحدث عنها قبل كل شيء، لأن بعضاً من كلام جلالتك، قد أوقعني في شك أليم. إذ يبدو

لي ، أن جلالتك قد تلفظت بكلام أمام الكونتس ، فيه عتاب عليّ .

– صبراً يا سيدي ، فحتى الآن لم أعتب عليك بشيء .

– إن مثل هذا الشك يا مولاتي ، يبين لي كم هي نفسك عرضة للتأثرات ، ويجعلني أفهم بيأس ، القسوة التي بدرت منك تجاهي ، والتي ما زالت بدون تفسير !

فقالت الملكة :

– كن واقعياً وتكلم في لبّ الموضوع يا سيدي . فأنا لم أطلب منك إيضاحات ، كي تكلمني باسلوب غامض يزيدني تشويشاً .

فشبك الكردينال يديه ، واقترب من الملكة وصاح قائلاً :

– أتوسل إلى مولاتي أن لا تغير الحديث . فكلمتان أيضاً في نفس الموضوع الذي نعالجه الساعة ، كفيلتان بتفاهمنا ...

– في الحقيقة ، إنك تكلمني بلغة لا أفهمها يا سيدي ! فأرجوك ان تجيبني بوضوح عن سؤالي : أين هو ذلك العقد الذي رددته إلى الصائغين ؟

فصاح دي.روهان متعجباً :

– العقد الذي رددته !

– نعم ، ما الذي عملت به ؟

– أنا ! ولكني لا أعلم عنه شيئاً يا مولاتي .

– هيا واسمع : هناك أمر في منتهى البساطة . فالسيدة دي لاموت قد أخذت العقد وردته باسمي إلى الصائغين ، ولدي إيصال يثبت ذلك . لكن الصائغين يزعمان بأنهما لم يستلما العقد ، وبأن الإيصال مزور . فبكلمة واحدة ، تستطيع السيدة دي لاموت ان توضح كل شيء ...

وبما أن السيدة دي لاموت قد اختفت ، دعني افترض ما قد حصل . لقد شاءت السيدة دي لاموت أن ترد العقد كما أمرتها . لكنك أنت الذي كنت على حماسة شديدة ، وعطوفة دون شك ، كي تشتري لي هذا العقد ، أنت الذي حملته إلي مع عرض بأن تدفع ثمنه نيابة عني ، عرض ...

فقال الكردينال متنهداً :

– عرض رفضته جلالتك بقسوة .

– نعم ، واستمريت أنت على تلك الفكرة المتسلطة عليك ، والهادفة بأن أمتلك العقد . لذا لم تشأ أن ترده إلى الصائغين ، بل احتفظت به كي تقدمه إلي في مناسبة ما . والسيدة دي لاموت التي كانت على علم باشمئزازي ، وبعدم مقدرتي على الدفع ، وبالقرار الثابت الذي اتخذته والقاضي بأن لا أمتلك العقد طالما أني لا أمتلك ثمنه ، قد ضعفت وتواطأت معك ، بدافع الحماس من أجلي ، وهي اليوم خائفة من غضبي ، لذا توارت عن الانظار . أليس كذلك ؟ أليست

هذه هي الحقيقة؟ قل نعم، ودعني أؤنبك على هذه الخفة، وهذا التمرد على أوامري القطعية، فنصبح بذلك متعادلين، وينتهي كل شيء.

وأكثر من ذلك، إني أعدك بالصفح عن السيدة دي لاموت، إذا ثبت لي أنها نادمة على ما فعلت. ولكن بحق السماء، أوضح؟ أوضح يا سيدي، فلا أريد في هذه الآونة، أن تحف الظلمات بحياتي. لا أريد، لا أريد، أسمعت؟

تلفظت الملكة بهذه الكلمات بنزق، مشددة على كل مقطع منها، مما جعل الكردينال لا يجرؤ على مقاطعتها. ولكن ما أن توقفت، حتى قال مع تنهدة اختنقت في صدره:

– سوف أرد يا مولاتي، على كل الافتراضات التي عرضتها. لا، أنا لم تلزمني الفكرة الهادفة الى ضرورة امتلاكك العقد، لأني كنت واثقاً بأن العقد موجود لديك. لا، أنا لم أتواطأ مع السيدة دي لاموت بشأن هذا العقد. لا، أنا لا أحتفظ بالعقد، ولا هو موجود لدى الصائغين!

فصاحت الملكة بذهول:

– غير ممكن! العقد ليس لديك؟

– لا يا مولاتي.

– ألم تنصح السيدة دي لاموت بأن تبقى خارج هذه اللعبة كلها؟

– لا يا مولاتي ..

– ألست أنت من يخبئها ؟

– لا يا مولاتي .

– ألا تعلم عنها شيئاً ؟

– لا أعلم أكثر مما تعلمه مولاتي .

– إذن ، كيف تفسر ما حدث ؟

– أنا مجبر بأن أعترف يا مولاتي ، بأني لم أفهم هذا الذي حدث . فضلاً عن ذلك ، ليست هذه هي المرة الاولى التي أتشكى فيها للملكة ، بأنها لم تفهمني .

– متى جرى ذلك يا سيدي ؟ إني لا أتذكر .

فقال الكردينال :

– كوني عطوفة يا مولاتي ، وتفضلي بإعادة قراءة رسائلي بإمعان .

فقالت الملكة مندهشة :

– رسائلك ! وهل كتبت إلي ، أنت ؟

– عدة رسائل ، وقد ضمَّنتها كل ما في قلبي ...

فنهضت الملكة وقالت :

– يبدو لي ، بأن واحدنا يخدع الآخر . فلْننه هذه المهزلة بسرعة. عن أية رسائل تتكلم ؟ وما الموجود في قلبك ، أو على قلبك ؟ إني لم أفهم ما قلته !

– أعتقد يا مولاتي، بأني جاهرت عالياً بسرّ قلبي!

– أي سرّ! هل أنت بكامل وعيك يا سيدي الكردينال؟

– مولاتي!

– كفى مواربة! إنك تتكلم كرجل يريد أن ينصب لي شركاً، أو يريد أن يربكني أمام شهود.

– أقسم لك يا مولاتي، بأني لم أقل شيئاً... أصحيح أن هناك من يسمعنا؟

– لا يا سيدي، والف مرة لا، ما من أحد هنا. أوضح كل ما عندك، وأقم الدليل عليه، إذا كان ذلك يسرك.

– آه يا مولاتي، لو أن صديقتنا السيدة دي لاموت هنا، لأسعفتني، إن لم يكن على إيقاظ الحب، فعلى الأقل على إيقاظ ذاكرة جلالتك.

– صديقتنا؟ حبي؟ ذاكرتي؟ إني أكاد أجن!..

فقال الكردينال وقد أثار العنف في لهجة الملكة غضبه:

– مهلاً يا مولاتي، ولا تغضبي، أرجوك. فأنت حرة بأن لا تحبي بعد الآن.

فصاحت الملكة شاحبة اللون:

– يا إلهي! يا إلهي!... ماذا يقول هذا الرجل؟!

وأكمل الكردينال دي روهان يقول، بعد أن بلغ الغضب من الملكة أشده:

– حسناً يا مولاتي. أعتقد بأني كنت حذراً ومتحفظاً ما فيه الكفاية كي لا تعامليني بهذه القساوة. لكن ما صدر منك، جعلني أؤمن بأن الملكة عندما تقول: «لا أريد بعد»، تكون غير المرأة التي قالت: «أريد»، لأن قول الملكة هو قانون إجباري!

فأطلقت الملكة صيحة شرسة، وأمسكت بالكردينال من «دنتيلا» كمه، وقالت بصوت مرتعش:

«قل بسرعة يا سيدي. لقد قلت أنا: «لا أريد بعد»، وكنت قد قلت: «أريد». فلمن قلت الكلام الاول، ولمن قلت الكلام الثاني؟

– كلا الكلامين، قلتهما لي!

– لك؟

– نعم، لي!

– يا لك من شقيّ! يا لك من كذاب!

– أنا!

– إنك جبان، تنمُّ بحق امرأة.

– أنا!

– إنك خائن، تهين الملكة!

– وأنت، أنت امرأة بلا قلب، وملكة بلا وفاء!

– يا للشقي!

– لقد تدرجت في إغوائي، حتى عصف بي جنون الحب، وبثُّ أعلل النفس برجاء الارتواء...

– رجاء الارتواء! يا إلهي! هل أنا مجنونة؟ هل هو أثيم فاسق؟

– هل أنا الذي تجرأ بطلب اللقاءات الليلية التي حققتها لي؟

فأطلقت الملكة من فرط غضبها، صيحة معولة، قوبلت في البهو بتنهد طويل. وتابع دي روهان يقول:

– هل أنا الذي تجرأ وجاء وحده الى حدائق فرساي، لو لم تبعثي لي بالسيدة دي لاموت؟

– يا إلهي!

– هل أنا الذي تجرأ وسرق المفتاح الذي يفتح بوابة صيد الذئاب في «البارك»؟

– يا إلهي!

– هل أنا الذي تجرأ وطلب تلك الوردة المعبودة! تلك الوردة الملعونة! التي جفت واحترقت من فرط ما قبّلتها شفتاي!..

– يا إلهي!

– هل أنا الذي أجبرك على النزول في اليوم التالي، وعلى

إعطائي يديك اللذين يفوح العطر منهما فأسكرني، وجعلني كالمجنون ؟

- أوه ! كفى ! كفى !

- وأخيراً، هل بغير ملء رضاك، عرفت في اليوم الثالث، تحت السماء الصافية، وفي سكون الليل، متعة الحب الغادر ؟

فصاحت الملكة وهي تتراجع أمام الكردينال :

- سيدي ! سيدي ! إنك تجدف !

فرفع الكردينال عينيه إلى السماء، وقال :

- يا إلهي، أنت تعلم بأني لو استمريت محبوباً من هذه المرأة المخادعة، لكنت فقدت ممتلكاتي، وحريتي، وحياتي !

فقالت الملكة :

- إذا شئت يا سيد دي روهان، أن تحتفظ بكل ذلك، عليك أن تقول هنا بالذات، بأنك تسعى إلى هلاكي، وبأنك قد اختلقت كل هذه القبائح، وبأنك لم تأت الى فرساي ليلاً ...

فأجاب الكردينال بجرأة وحزم :

- بلى، لقد جئت .

- إذا استمريت تقول هذا القول، فأنت مائت !

- إن روهان لا يكذب، لقد جئت .

– باسم السماء يا سيد دي روهان، قل بأنك لم ترني في «بارك» فرساي ...

– إني مستعد لأن أموت، كما كنت تهدديني الآن، ولكني لم أرَ سواك في «بارك» فرساي، حيث قادتني السيدة دي لاموت.

فصاحت الملكة، دكناء اللون مرتعشة:

– مرة أخرى أقول لك: استدرك نفسك!

– لن أستدرك.

– مرة ثانية أدعوك لأن تقول، بأن هذه الفضيحة التي سقتها ضدي، هي من نسج خيالك.

– لن أقول.

– مرة أخيرة أدعوك لأن تعترف، بأنك أنت ذاتك قد تكون مخدوعاً، وبأن ما قلته ليس سوى نميمة، سوى حلم من المستحيل أن يصبح حقيقة، وبأني بريئة، بريئة!

– لن أعترف.

فانتصبت الملكة مرعبة وقورة، وقالت:

– بما أنك ترفض عدالة الله، سوف ترضخ لعدالة الملك.

فانحنى الكردينال دون ان ينبس ببنت شفة.

وقرعت الملكة الجرس بعنف، فأقبل اليها، معاً، عدد من نسائها، فقالت لهنَّ وهي تمسح شفتيها:

– ليبلغوا صاحب الجلالة، بأن الملكة ترجوه بأن يشرفها بحضوره.

فانطلق أحد الضباط لينفذ هذا الأمر، فيما قرر الكردينال بيسالة، أن يبقى في زاوية الغرفة.

واتجهت ماري انطوانيت عشر مرات نحو باب البهو، دون أن تدخل إليه. وكانت في كل مرة كأنها فقدت صوابها، ثم وجدته أمام ذلك الباب.

ولم تمضِ عشر دقائق على هذا المشهد المسرحي المخيف، حتى ظهر الملك في عتبة الباب، واضعاً يده في صدرته المصنوعة من الدنتيلا.

وبين الجمهور المحتشد في قاعة الانتظار، كان بوهمير وبوسانج دائماً حاضرين، بهيئتهما المرعبة، التي تنذر بهبوب العاصفة.

التوقيف

★

ما كاد الملك يظهر في عتبة الغرفة، حتى قالت له الملكة بذلاقة لسان خارقة:

«إن الكردينال دي روهان يا صاحب الجلالة، يقول أشياء من الصعب تصديقها. فتفضل واطلب إليه أن يرددها على مسامعك.»

فشحب لون الكردينال أمام هذا الكلام غير المنتظر، وهذا التأنيب المفاجئ.

وفي الواقع، كان الموقف حرجاً للغاية، فقد الحبر معه معرفة ما إذا كان باستطاعته كعشيق للملكة، أن يردد على مسمع مليكه وزوج عشيقته، كل ما قاله لماري انطوانيت، وأن يفصل له المشاهد التي عاشها معها كامرأة، كما يتصور، في حدائق قصر فرساي.

وفيما هو في حيرة من أمره، استدار الملك نحو الكردينال المستغرق في تفكيره، وقال له:

«بصدد العقد، أليس كذلك يا سيدي؟ أنت لديك أشياء لا تصدق، تود أن تقولها لي، وأنا أيضاً لدي أشياء لا تصدق، أودُّ أن أقولها لك. فتكلم إذن، أنا صاغ.»

فاتخذ دي روهان قراره في الحال. أي أنه اختار أهون الشرين تحاشياً لما يمسُّ شرف الملكة والملك، ودمدم قائلاً كفارس ورجل شجاع:

- نعم يا مولاي، بصدد العقد.

- العقد الذي كنت قد اشتريته؟

- مولاي ...

- نعم، أم لا ؟

فتطلع الكردينال الى الملكة ولم يجاوب. فرددت الملكة قول زوجها:

«نعم، أم لا ؟ الحقيقة يا سيدي، الحقيقة. إننا لا نطلب منك سوى الحقيقة.»

فأدار الكردينال رأسه ولم يجاوب. فقال الملك موجهاً كلامه إلى الملكة:

وبما أن السيد دي روهان لا يريد أن يجاوب، جاوبي أنت يا سيدتي، فلا بدَّ أنك تعرفين الموضوع. هل اشتريت هذا العقد؟ نعم، أم لا ؟

فقالت الملكة بقوة:

- لا.

فارتعد الكردينال، وصاح الملك بوقار:

- هذا كلام ملكة! فحذار يا حضرة الكردينال.

فابتسم الكردينال ابتسامة احتقار، ولم يجاوب. فقال له الملك:

- ألا تقول شيئاً؟

- بماذا يتهمني مولاي؟

– يقول الصائغان بأنهما قد باعا عقداً، لك أو للملكة، وقد أبرزا إيصالاً من جلالتها.

فقالت الملكة:

– إنه إيصال مزور!

وتابع الملك يقول:

– ويقول الصائغان، بأنك عوضاً عن الملكة يا حضرة الكردينال، قد كفلت لهما المبلغ أنت!

فقال دي روهان:

– بما أن الملكة قد سمحت بهذا القول، فيجب أن يكون صحيحاً، وأنا لا أتمنع عن الدفع.

وبنظرة ثانية أكثر احتقاراً من الأولى، انهى عبارته الأخيرة.

فارتعشت الملكة وارتعبت، لأن احتقار الكردينال لها، لم يكن بالنسبة اليها إهانة، وهي لا تستحقها، بل انتقاماً من رجل شريف.

واستأنف الملك يقول:

– ما من شك، بأن في القضية عملية تزوير، تناولت إمضاء ملكة فرنسا.

فصاحت الملكة:

- وهناك تزوير آخر، قد يكون وراءه أحد النبلاء، وهو التزوير الذي يزعم بأن الصائغين قد استردا العقد.

فقال دي روهان:

- للملكة الخيار بأن تنسب لي كلا التزويرين. فأي فرق إن زوَّر الانسان مرة، أو زوَّر مرتين؟

فكادت نقمة الملكة أن تنفجر، لو لم يتداركها الملك بحركة منه، ثم قال موجهاً كلامه إلى الكردينال:

- حذار يا سيدي، فأنت تعرّض بمركزك. وإني أقول لك: برّئ نفسك، بعد أن أصبحت موضع اتهام.

ففكر الكردينال برهة، ثم قال وكأنه رزح تحت عبء هذه الفِرية الغامضة التي تمسُّ شرفه:

- أبرئ نفسي؟ هذا مستحيل!

- هناك صائغان سُرق لهما عقد. وبما أنك أبديت استعدادك لدفع ثمنه، فهذا يعني إقراراً منك بأنك مذنب.

فأجاب الكردينال بازدراء:

- من يعتقد ذلك؟

- إذا كنت تفترض بأن الناس لا يعتقدون ذلك، فهم إذن يعتقدون...

وارتعش الملك وظهر الغضب جلياً على وجهه، فقال الكردينال:

– لا أعلم شيئاً مما يقال يا مولاي، كما أني لا أعلم شيئاً مما جرى. فكل ما أستطيع تأكيده، هو أن العقد ليس في حوزتي، وأن الماسات هي تحت سلطة شخص يجب أن يسمي هو نفسه، ولكنه لا يريد، وهو بذلك يجبرني على أن أقول له القول المأثور: «إن الشر يقع على من يرتكبه».

عند هذا الكلام، قامت الملكة بحركة استنجاد بالملك، الذي قال لها:

– الجدل بينك وبينه يا سيدي، وإني أسألك للمرة الأخيرة: هل العقد لديك؟

فأجابت الملكة بحزم:

– لا، وشرف أمي! لا، وحياة ولدي!

بعد هذا التصريح امتلأ الملك فرحاً، فاستدار نحو الكردينال وقال له:

– إذن، القضية بينك وبين العدالة يا سيدي. إلا إذا كنت تفضل تفويض الأمر لرأفتي.

فأجاب الكردينال:

– إن رأفة الملوك مقصورة على المذنبين يا مولاي، لذا أفضل عدالة البشر.

– ألا تريد أبداً أن تعترف؟

– ليس لديَّ ما أقوله.

فصاحت الملكة :

- لكن صمتك يا سيدي ، يعرّض بشرفي !

فلم يجب الكردينال . وتابعت الملكة تقول :

- حسناً ! أنا لن أصمت ، ولن أعتبر صمتك أريحية منك .

ثم استدارت نحو الملك وقالت :

- ليكن معلوماً لديك يا مولاي ، بأن جريمة الكردينال ليست مقصورة على شراء وسرقة العقد وحسب !

فرفع دي روهان رأسه وشحب لونه . فسأله الملك :

- ماذا تقول ؟

فهمهم الكردينال مرتعباً :

- مولاتي !...

فقالت الملكة :

- لا شيء على الإطلاق ، ولا أحد على الاطلاق ، باستطاعته أن يكمّ فمي . فلديّ هنا في قلبي ، أسباب تدعوني لأن أعلن براءتي في ساحة عامة .

فقال الملك :

- براءتك يا سيدتي !.. يا للعجب ! أي مخلوق يجسر على إجبار جلالتك بأن تفوه بهذه الكلمة ؟!

وقال الكردينال :

– أتوسل إليك يا مولاتي ...

– آه ! لقد ابتدأت ترتعش. إذن، لقد حزرت تماماً أن مؤامرتك تعشق الظلام. أما أنا، فلا أعشق إلا وضح النهار! مولاي، مرْ إذا شئت الكردينال، بأن يقول لك ما قاله لي الساعة، هنا في هذا المكان.

فقال دي روهان:

– مولاتي! مولاتي! احذري، فقد تجاوزت الحدود.

فقال الملك بصوت مرتفع:

– ماذا قلت؟! أيجسر غير الملك بأن يقول هذا القول للملكة؟

وقالت ماري انطوانيت:

– عفوك يا مولاي. فحضرة الكردينال قد قال هذا القول للملكة، لأنه يزعم بأن له عليَّ الحق في ذلك.

فدمدم الملك وقد غدا أدكن اللون:

– أنت يا سيدي!

وصاحت الملكة باحتقار:

– نعم، هو! هو!

فخطا الملك خطوة نحو الأمير دي روهان، وسأله:

– ألدى الكردينال براهين؟

فقالت الملكة:

- لدى السيد دي روهان رسائل، على ما يقول!
فصاح الملك وقد عصف به الغضب:
- رسائل!... رسائل!
فقالت الملكة بحدة:
- نعم، رسائل يا مولاي، رسائل!
فمسح الكردينال بيده جبهته المبللة بالعرق البارد، وبدا كأنه يسأل الله كيف استطاع أن يكون في مخلوق، هكذا جرأة وهكذا فكر. وبقي صامتاً!
وتابعت الملكة تقول:
- وليس هذا كل ما تجود به أريحية الكردينال، فسيادته قد حصلت ايضاً على مواعيد...
فقال الملك:
- بحق الرحمة يا مولاتي!
وقال الكردينال:
- بحق الحشمة يا مولاتي!
واستأنفت الملكة كلامها:
- اخيراً، إن كانت لديك إثباتات على رسائلك ومواعيدك، تفضَّل وقدّمها يا حضرة الكردينال.
فرفع دي روهان رأسه ببطء، وقال:
- لا يا مولاتي، ليست لدي إثباتات.

– إذن، باستطاعتك أن تقدم شاهدك على كل هذه الامور. فسمِّ هذا الشاهد، أو بالأحرى سمِّها ...

فقال الملك: من هي؟

– السيدة دي لاموت!

فقال الملك بلهجة المنتصر، بعد أن وجد تبريراً لأحكامه المسبقة على جانّ:

– إذن، السيدة دي لاموت ... حسناً، علينا أن نستدعي هذه المرأة، أين هي الآن؟

– إسأل الكردينال عنها. فقد اختفت، وليس لسواه مصلحة في اختفائها.

فأجاب الكردينال:

– ليسأل سواي عنها. فسواي له مصلحة أكثر مني باختفائها، خاصة اذا كان لاختفائها صلة باختفاء العقد، الذي أنا منه براء.

فقالت الملكة بغضب:

– طالما أنك بريء، ساعدنا إذن على اكتشاف المذنبين.

فألقى الكردينال دي روهان نظرة أخيرة على الملكة، وأدار ظهره وشبك ذراعيه دون أن يجاوب. فقال الملك المهان:

– سوف تذهب إلى الباستيل أيها الكردينال!

فانحنى الكردينال وقال بلهجة الواثق من نفسه:

- هكذا، بثيابي الحبرية ؟ وأمام أهل البلاط كافة ؟ تفضل وفكر بالأمر يا مولاي، فهو في غاية الخطورة، وفضيحة ما بعدها فضيحة !

فقال الملك باهتياج شديد :

- هكذا أنا أريد .

- إن التنكيل بحبر دون اتهام ولا محاكمة، هو تنكيل غير عادل ولا شرعي .

فأجاب الملك وهو يفتح باب الغرفة ليبحث بعينيه عن واحد ينفذ أمره :

- إن إرادتي يجب أن تنفذ كيفما كانت .

وكان السيد دي بريتاي حاضراً ناظراً، وقد تأكد من هلاك عدوه، بعد ان لاحظت عيناه المفترستان الاثارة والاهتياج على وجهي الملك والملكة، وموقف الكردينال الحرج .

فما أن أبلغه الملك رغبته بصوت منخفض، حتى ضرب عرض الحائط بصلاحيات قائد الحرس، وصاح بصوت رددت أصداؤه في عمق الأروقة :

«أوقفوا الكردينال !»

فاختلج دي روهان وارتعد . والهمهمات التي سمعها هنا

وهناك، وتحريض الممالقين، والوصول المفاجئ للحرس، أضفى على المشهد طابع النذير المشؤوم.

ومرَّ الكردينال امام الملكة دون أن يحييها، مما جعل الدم يغلي في عروق ماري انطوانيت المتعجرفة. لكنه انحنى بخضوع كلي عندما مرَّ أمام الملك. أما عندما اقترب من السيد دي بريتاي، فقد عبَّر بمهارة عن إشفاقه عليه، مما جعل البارون يشعر بأن هذا الانتقام لم يشفِ غليله.

وتقدم أحد ضباط الحرس وسأل الكردينال بخجل، عما إذا كان هو المعنيّ بالأمر الذي سمعه، فأجابه دي روهان:

«نعم يا سيدي، نعم، أنا هو الموقوف.»

وقال الملك وسط ذلك الصمت الرهيب:

«خذوا الكردينال الى شقته، بانتظار ما سأقرره خلال القداس».

وبعد ان ابتعد الكردينال في الرواق، يتقدمه ضابط الحرس الملكي، ممسكاً بيده قبعته، وبقي الملك وحده في غرفة الملكة المشرعة الأبواب، قال لها وهو يلهث:

- سيدتي، بما أنه اتُّهم بصعوبة قصوى، فأنت تعلمين أن ذلك سيؤول الى محاكمة علنية، أي إلى فضيحة سيسقط معها شرف المذنبين...

فصاحت الملكة وهي تضغط باندفاق عاطفي على يدي الملك :

- شكراً يا مولاي ! فقد اخترت الوسيلة الوحيدة التي باستطاعتها أن تبرئني .

- أتشكرينني ؟

- من كل قلبي . وثق بأنك تصرفت كملك ، وأنا أيضاً تصرفت كملكة !

فأجاب الملك وقد غمره الفرح :

- حسناً . وكلي أمل ، بأننا عندما نقيم الدليل على كل هذه الدناءات ، وعندما نسحق مرة واحدة رأس الحية ، سوف نعيش مطمئنين ناعمي البال .

ثم قبّل الملكة في جبهتها ، وعاد إلى جناحه .

في هذه الاثناء ، التقى الكردينال دي روهان ، في آخر الرواق ، الصائغين بوهمير وبوسانج ، وكان الواحد منهما بين ذراعي الآخر ، وكلاهما في نصف إغماءة !

وبعد ان اجتازهما بعدة خطوات ، لمح ساعيه الخاص الذي أخذ يتطلع إلى سيده مشدوهاً من هول المصيبة . فقال الكردينال إلى الضابط الذي كان يقتاده :

- إذا ما قضيت النهار بكامله هنا يا سيدي ، فإن أتباعي

سيساورهم القلق عليَّ . فهل باستطاعتي أن أعلمهم بأني موقوف ؟

فقال الضابط الشاب :

– لك ما تريد يا مولاي ، شرط أن لا يراك أحد .

فشكره الكردينال ، ووجه الكلام إلى ساعيه بالالمانية . ثم كتب عدة كلمات على إحدى صفحات الكتاب المقدس ونزعها . ووراء الضابط الذي كان يقف وقفة المراقب ، دعكها حتى أصبحت كروية الشكل ، ثم ألقى بها أرضاً ، بعد أن تبادل النظرات مع ساعيه ، وقال للضابط :

– أنا رهن إشارتك يا سيدي .

وانقضَّ ساعي الكردينال على تلك الورقة كما ينقضّ العقاب على فريسته ، فالتقطها وخرج من القصر ، فامتطى جواده وانطلق كالسهم باتجاه باريس .

واستطاع الكردينال أن يراه منطلقاً من خلال أحدى نوافذ الدرج الذي كان يهبطه برفقة دليله ، فدمدم قائلاً :

«سأنقذها ، رغم أنها شاءت هلاكي ! وما ذلك إلا من أجلك يا مليكي . ومن أجلك يا إلهي ، أنت الذي أمرت بالعفو عن المسيئين ، سوف أغفر للآخرين ... فاغفر لي !»

المحاضر الرسمية

★

ما أن دخل الملك مسروراً الى جناحه وباشر بكتابة الأمر القاضي بسوق الكردينال الى الباستيل، حتى ظهر شقيقه الكونت دي بروفانس ودخل الغرفة فوراً وهو يشير إشارات ظنها السيد دي بريتاي موجهة إليه، لكنه لم يستطع فهمها رغم إرادته الحسنة.

إلا ان هذه الاشارات لم تكن في الواقع موجهة الى وزير العدل، بل كان الكونت يقصد من ورائها لفت انتباه الملك، الذي كان يتطلع في مرآة أمامه كلما كتب كلمة من أمره.

ولم يفقد هذا التصنع هدفه. فالملك قد لمح هذه الاشارات، وقال لشقيقه بعد أن صرف دي بريتاي.

– لماذا كنت تشير إلى بريتاي؟

– أوه! مولاي...

– هذه الحيوية في الحركات، ومظهرك الذي يدل على انشغال بالك، ألا يعنيان شيئاً؟

– بدون شك، ولكن...

فقال الملك بهيئة عابسة:

– لك الخيار بأن تتكلم أو لا يا أخي.

– مولاي، لقد عرفت لتوي بتوقيف الكردينال دي روهان.

– وأين العجب في الخبر حتى بدا عليك هذا الانفعال؟ ألا يبدو لك السيد دي روهان مذنباً؟ وهل يرتكب الملك خطيئة إن هو عاقب قادراً ذا نفوذ؟

– خطيئة ؟ لا يا أخي، لم ترتكب خطيئة، ولا هذا ما أريد قوله.

– إن ما يدهشني، هو أن أخي، الكونت دي بروفانس، يساند ضدّ الملكة، الشخص الذي سعى لتشويه سمعتها! لقد قابلت الآن الملكة يا أخي، وكلمة واحدة منها كفت ووفت...

– معاذ الله يا اخي أن اتهم الملكة. فجلالتها... أختي، ليس لها من صديق أخلص مني. وكم من مرة دافعت عنها، حتى ضدك أنت!

– ولكنك في الواقع، كثيراً ما غمزت من قناتها...

– يؤسفني يا مولاي، أن يحمل كلامي على غير محمله. فالملكة ذاتها، لا تصدق بأنه قد بدا مني أي شك في براءتها.

– أذن، أنت تشاركني السرور على ما ألحقته من إذلال واحتقار بالكردينال، وعلى إحالته على المحاكمة التي ستضع

حداً لكل التهم التي يجرؤون على إلصاقها بالملكة المنزهة عن كل عيب، ولا يجرؤون على إلصاقها بامرأة عادية في البلاط؟

- نعم يا مولاي، إني أوافق كل الموافقة على تصرف جلالتك، فيما يتعلق بجلاء قضية العقد.

- الأمر في غاية الوضوح يا أخي. فالكردينال الذي يتباهى بصداقته للملكة ودالته عليها، قد أبرم باسمها صفقة العقد الماسي الذي رفضته هي، وادعى بأن الماسات موجودة في حوزة الملكة، فمن يدري إن لم يكن دي روهان شريكاً متواطئاً في سرقة هذا العقد الثمين؟

- مولاي...

- ثم، لا يخفاك يا أخي، بأن النميمة لا تتوقف إطلاقاً في منتصف الطريق، وأن خفة السيد دي روهان، قد تعرّض شرف الملكة وسمعتها للخطر!

- نعم يا أخي، نعم. ففيما يختص بقضية العقد بالذات، أكرر القول بأنك على حق.

فقال الملك مندهشاً:

- هل هناك من قضية أخرى؟

- ولكن يا مولاي... لا شك أن الملكة قد قالت لك...

- قالت لي... ماذا؟

- مولاي...

- آه! ادعاءات السيد دي روهان وتكتمه، ومراسلاته المزعومة؟

- لا يا مولاي، لا.

- ماذا إذن؟ المقابلات التي منحتها الملكة للسيد دي روهان بخصوص قضية العقد التي نحن بصددها؟

- لا يا مولاي، ليس ذلك.

فاستأنف الملك يقول:

- على كلٍ، إن لي ثقة مطلقة بالملكة، وهذه الثقة قد استحقتها بنبل أخلاقها. إذ كان من السهل على جلالتها ان لا تقول كل ما جرى. وكان من السهل عليها أن تدفع، أو أن تدع الآخرين يدفعون. فالملكة بوضعها حداً سريعاً لهذه الألغاز التي كادت تصبح فضائح، أثبتت بالبرهان أنها تصارحني بالحقيقة قبل أي شخص آخر، وانها اعتبرتني عرافاً وقاضياً، فأفضت لي بكل شيء، وبات عليَّ ان أنتقم لشرفها.

فأجاب الكونت دي بروفانس، وقد شدَّد من عزيمته:

- مع هذا يا مولاي، أعتقد ان الملكة لم تطلعك إلا على جانب من الحقيقة، وانا أفضل ان تطلع جلالتك على كل جوانبها كي تأتي براءة الملكة كاملة. من جهتي أنا، أخشى

إن تكلمت ، ان أعتبر عدواً أو واشياً ، أو أن يساء الظن في محبتي واحترامي للملكة ، أختي !

فقال الملك منزعجاً :

– ذلك لأنك ... تبدأ دائماً حديثك بالتلميح لا بالتصريح ، فتجعلني لا أفهم عليك شيئاً ! فالاحتراس في المخاطبة ، عندما يكون الامر خطيراً ، هو اسلوب تعلمته من الخطيب الروماني الشهير ، شيشرون .

– لكن شيشرون لم يكن أبداً مبهماً ، إلا في دفاعه عن القضايا السيئة . فبحق السماء يا أخي ، كن واضحاً وقل لي : ما الذي تعلمه زيادة عما قالته لي الملكة ؟

– لنحدد بدقة أولاً ، ما قالته لك الملكة يا مولاي .

– الملكة قالت لي ، بأن العقد ليس لديها .

– حسناً !

– وقالت لي بأنها لم توقع على الايصال الموجود لدى الصائغين .

– حسناً !

– وقالت لي بأن كل ما قيل عن تنسيق بينها وبين السيد دي روهان ، هو محض كذب واختلاق من قبل أعدائها .

– حسناً جداً !

– وقالت لي أخيراً، بأنها لم تفسح في المجال للسيد دي روهان، في أي يوم من الأيام، لأن يعتبر نفسه اكثر من واحد من رعاياها الذين لا أهمية لهم.

– آه !... لقد قالت هذا القول؟

– وبلهجة لا تقبل أية مناقشة، لأن الكردينال لم يناقش.

– إذن يا مولاي، بما أن الكردينال لم يناقش أبداً، فهو يعترف بأنه كذاب. وبهذا الانكار، يعطي الحق للاشاعات الأخرى الجارية، عن بعض الافضليات التي منحتها الملكة إلى بعض الأشخاص.

فقال الملك بهمة فاترة:

– إيه! وماذا بعد؟

– شيء غير معقول إطلاقاً، كما سترى. ففي الوقت الذي ثبت فيه أن الكردينال دي روهان لم يقم بنزهة مع الملكة...

فصاح الملك:

– كيف!.. يقولون بأن السيد دي روهان قد قام بنزهة مع الملكة؟

– هذه النزهة كذَّبتها الملكة بذاتها يا مولاي، وأنكرها السيد دي روهان. لكن خبث الناس استمرَّ يا مولاي، إذ

أخذوا يتساءلون : كيف حدث أن قامت الملكة بنزهة ليلية في حدائق «البارك» ؟!

- نزهة ليلية في حدائق «البارك» ! الملكة !..

فأكمل الكونت دي بروفانس ببرودة :

- ومع من كانت تتنزه ...

فدمدم الملك : مع من؟

- لا شك أن بعض الأعين لا تخفاها شاردة أو واردة مما تقوم به الملكة ، وأن هذه الأعين ، هي أحدُّ بصراً في الليل ، منها في النهار ، خصوصاً إذا كانت الملكة هي محطُّ هذا البصر ...

- حذار يا أخي ، فأنت تقول أشياء خطيرة !

- ومع ذلك ، سأستمر أقول ، ولو أثرت نقمة جلالتك ، لأن الحقيقة يجب أن تقال .

- أيعقل يا سيدي ، ان تكون الملكة قد قامت بنزهة ليلية في حدائق «البارك» ، وبصحبة ...

- ليس بصحبة يا مولاي ، بل وجهاً لوجه ... أوه ! لو أن الناس لا يقولون الا «بصحبة» ، لهان الأمر ...

فانفجر الملك صارخاً :

- عليك أن تثبت ما تقوله . أن تثبت ما يقوله الناس .

فأجاب الكونت دي بروفانس :

– أوه! الأمر في غاية البساطة. فهناك أربعة شهود.

– من هم؟

– الاول، هو رئيس حاشيتي للصيد، الذي رأى الملكة في يومين متتالين، أو بالأحرى في ليلتين متتاليتين، تخرج من بوابة «اللوفيتري» في «بارك» فرساي. وهذا هو المستند، تفضل واقرأه، إنه يحمل توقيعه.

فتناول الملك الورقة بيد مرتعشة وقرأها، ثم أعادها إلى أخيه الذي أكمل يقول:

– وهناك شخص أكثر فضولاً منه، هو أحد الحراس الليليين الذين يقومون بحراسة قصر التريانون. فقد صرح هذا الحارس، بأنه سمع في إحدى الليالي، وفيما كان كل شيء ساكناً، طلقاً نارياً في غابة ساتوري، ثم شاهد فيما بعد الملكة تتنزه مع نبيل في الحدائق الملكية، وأنها قد أعطته ذراعها. وهذا هو محضر ذلك الحارس، وهو محضر واضح وجليّ.

فقرأ الملك أيضاً وارتعش، ثم تراخت يداه على جانبيه. وأكمل شقيقه يقول برباطة جأش:

– أما الثالث، فهو حاجب البوابة الشرقية. فهذا الحاجب قد رأى الملكة وعرفها، في اللحظة التي كانت تخرج فيها من بوابة «اللوفيتري»، وهو يذكر في محضره ما كانت تلبسه الملكة. انظر يا مولاي. ويذكر ايضاً بأنه لم يتمكن، نظراً

للبعد، من معرفة النبيل الذي بارحته الملكة، لكنه عرف من هيئته أنه ضابط. وأن الملكة لم تكن موضع شك وارتياب، لأن جلالتها كانت مصحوبة بالسيدة دي لاموت، صديقة الملكة.

فصاح الملك غاضباً:

- صديقة الملكة!... هذه المرأة، صديقة الملكة!

- لا تنوِ الشر لهذه الخادمة الشريفة يا مولاي، إذ لا يجوز أن تعتبرها مذنبة بسبب غيرتها الزائدة. فقد كُلفت بالحراسة، فحرست. وكلفت بالمراقبة، فراقبت.

وأكمل الكونت دي بروفانس تعداد الشهود، فقال:

- وآخر الشهود يا مولاي، بدا لي أكثرهم صراحة. إنه رئيس القفالين، المكلف بالتثبت عما إذا كانت كل البوابات مقفلة، بعد انصراف الكل. فهذا الرجل الذي تعرفه جلالتك، يشهد بأنه رأى الملكة تدخل الى حمامات أبولون، بصحبة أحد النبلاء...

فاصفرَّ الملك وكاد يختنق من شدة غيظه. واختطف الورقة التي كانت بين يدي الكونت، وأخذ يقرأها.

وخلال هذه القراءة، أكمل الكونت دي بروفانس يقول:

- صحيح أن السيدة دي لاموت كانت في الخارج، على

بعد عشرين خطوة، وان الملكة لم تمكث في قاعة الحمامات المذكورة سوى ما يقارب الساعة ...

فصاح الملك :

- ولكن، ما هو اسم هذا النبيل؟

- اسم هذا النبيل يا مولاي، غير مذكور في التقرير. ومن أجل معرفته، ينبغي على الملكة ان تطالع هذه الشهادة الأخيرة، وهي من احد حراس الغابات الذي كان يكمن في المكمن الواقع وراء حائط السور، بالقرب من حمامات أبولون.

فقال الملك بعد أن ألقى نظرة عليها :

- إنها بتاريخ البارحة.

- نعم يا مولاي. وقد رأى هذا الحارس الملكة فيما كانت تخرج من «البارك» بواسطة البوابة الصغيرة، وهي متأبطة ذراع السيد دي شارني!

فصاح الملك كالمجنون من فرط غضبه وخجله :

- السيد دي شارني... حسناً... حسناً... انتظرني هنا ايها الكونت، فسوف نعرف الحقيقة أخيراً.

وانطلق الملك خارج غرفته.

إتهام أخير

★

في اللحظة التي ترك فيها الملك غرفة الملكة، أسرعت ماري انطوانيت إلى البهو الصغير حيث كان السيد دي شارني مختبئاً، وقد استطاع أن يسمع كل شيء، ففتحت له الباب، وعادت فأغلقت بنفسها باب غرفتها، ثم ارتمت على مقعد وثير وكأنها قد وهنت ولم يعد باستطاعتها مقاومة هكذا صدمات، وانتظرت بصمت ما سوف يقرره بشأنها قاضيها الرهيب، السيد دي شارني.

لكنها لم تنتظر طويلاً. فقد خرج الكونت من البهو الصغير وولج باب غرفتها، وهو أشد اصفراراً وأكثر حزناً مما كان عليه، فقالت له:

- وبعد؟

فأجاب شارني:

- مولاتي، أنت ترين بأن الكل يعترضون على ان نكون صديقين. واذا لم يكن اعتقادي الراسخ هو الذي يجرحك، فسوف تجرحك، من الآن فصاعداً، الضجة الشعبية. ومع الفضيحة التي حدثت اليوم، يلزمني مزيداً من الراحة، كما

يلزمك مزيداً من المهادنة . فالاعداء ، وقد ازدادوا ضراوة بعد هذا الجرح الذي أصابك ، سوف ينقضون عليك لامتصاص الدم ، كما تنقض الذئاب على الغزال المجروح ...

فقالت الملكة بحزن :

– إنك منذ زمن طويل ، تبحث عن الكلام الذي لا تصنَّع فيه ، فلا تجده .

– أعتقد بأني لم أتح الفرصة إطلاقاً لجلالتك ، كي تريها صراحتي ، واذا كانت هذه الصراحة ، قد تفجرت بكثير من القساوة بعض المرات ، فإني أستمحيك عذراً .

فقالت الملكة بتأثر بالغ :

– اذن ، لم تكفك هذه الضجة ، وهذا الاعتداء المحفوف بالمخاطر على واحد من أكبر أسياد هذه المملكة ، وعداوتي المعلنة مع الكنيسة ، وسمعتي التي باتت عرضة لأهواء أعضاء البرلمان !.. ولن أحدثك عن ثقة الملك التي تزعزعت ، فقد لا يكون الأمر يهمك ، أليس كذلك ، إذ من يكون الملك ... سوى زوجي !

قالت هذا وابتسمت بمرارة وألم ، انفجرت معها الدموع من عينيها ، فصاح شارني قائلاً :

– أوه ! إنك أنبل واكرم امرأة على الاطلاق . وإذا كنت لا أجيبك في الحال ، كما يدعوني قلبي ، فلأني أشعر بأني أقل

الناس، ولأني لا أجرؤ على تدنيس قلبك السامي بطلبي مكاناً فيه.

– مسيو دي شارني، هل تعتبرني مذنبة؟

– مولاتي!...

– مسيو دي شارني، هل وثقت بكلام الكردينال؟

– مولاتي!...

– مسيو دي شارني، إني أدعوك لأن تقول لي: أي انطباع أوحاه لك موقف السيد دي روهان؟

– يتوجب علي أن أقول يا مولاتي، بأن السيد دي روهان لم يكن أحمق فاستوجب تأنيبك، ولا ضعيفاً كما يعتقد البعض. بل هو رجل واثق من نفسه، رجل كان يحبك ولم يزل، وهو الآن ضحية ضلال سوف يؤدي به، هو إلى الهلاك، وأنت...

– أنا؟

– نعم أنت يا مولاتي، إلى عارٍ محتوم.

– يا إلهي!

– إن شبحاً مهدداً ينتصب أمامي، هو شبح تلك المرأة المقيتة، السيدة دي لاموت، التي اختفت عندما أصبح باستطاعة شهادتها أن تريحنا وتجعلنا في أمان ومطمئنين الى المستقبل. هذه المرأة هي القدوة السيئة لشخصك. إنها بلية

المملكة . إنها المرأة التي ارتضيت بتهور أن تقاسميها أسرارك . وربما ، واسفاه ! صداقتك الحميمة !..

فصاحت الملكة :

– أسراري وصداقتي الحميمة !.. أرجوك يا سيدي .

– إن الكردينال يا مولاتي ، قد قال بوضوح كاف ، وأثبت بوضوح كاف ، أنك بالاشتراك معه ، قد دبرت شراء العقد .

فاحمرت الملكة وقالت :

– آه !.. لقد عدت الى هذه القصة يا سيد دي شارني !

– عفواً يا مولاتي ، ثم عفواً . فأنا لا أملك قلباً نبيلاً كقلبك ، كما أني لست أهلاً لأن أعرف أفكارك . وقد سعيت كي ألطّف من لهجتي ، فلم أفلح .

فقالت الملكة ، وقد استعادت غطرستها المشوبة بالغضب :

– باستطاعة الناس أن يصدقوا كل ما يصدقه الملك . وأنا لن أكون اكثر سهولة مع أصدقائي ، مما أنا مع زوجي . ويبدو لي ، أن الرجل لا يمكنه امتلاك امرأة ، إن لم يكنْ لهذه المرأة كل احترام وتقدير .

ثم استدركت تقول بحدة :

– أنا لا أقصدك بكلامي هذا يا سيدي ، فأنا لست امرأة ، بل ملكة . وأنت لست رجلاً ، بل قاضٍ يقاضيني .

فانحنى شارني حتى كاد يلامس الارض ، مما جعل الملكة

تكتفي بهذا القدر من الاذلال لذلك التابع الامين، ثم قالت له فجأة :

- كنت قد نصحتك بالبقاء في أراضيك، ولخيرك قدمت هذه النصيحة، لأنك بعيداً عن البلاط، باستطاعتك ان تقدر بشكل أفضل، الاشخاص الذين يلعبون دورهم على هذا المسرح. بالاضافة الى أنه يجب مراعاة الهيبة الملكية ومظهر الابهة والعظمة لها أمام الجمهور. فأنا كوني ملكة سريعة التنازل، قد أهملت المحافظة على هيبة الملكة البراقة لدى الذين يحبونني. عدا أن الواحدة عندما تكون ملكة يا سيدي، اي صاحبة السلطان والسيادة، ما الجدوى من أن تُحب؟

فأجاب شارني وهو يرتعش بشدة :

- لا أستطيع أن أقول لك، كم عانيت من قسوتك يا مولاتي. فقد استطعت أن أنسى بأنك مليكتي، ولكن اسمحي لي بأن أقول، بأني لم أستطع أن أنسى اطلاقاً، بأنك المرأة الوحيدة بين النساء، التي استحقت احترامي، و ...

فقاطعته الملكة قائلة :

- لا تكمل، فأنا لا أستجدي إطلاقاً. وأكرر قولي بأن غيابك ضروري، لأني أسمع هاتفاً ينبئني، بأنك إن لم تذهب الى أراضيك، ستكون العاقبة وخيمة عليك.

- مولاتي، هذا مستحيل!

– قبل ان تقول مستحيل، فكّر بقدرة أولئك الذين منذ ستة أشهر، يتلاعبون بسمعتي، فهم من القوة بمكان ايها الكونت، بحيث يسهل عليهم إقامة الدليل على أنك تابع غادر بالنسبة للملك، وصديق مخجل بالنسبة لي. فبربك لا تضع الوقت، بل انسحب فوراً إلى أراضيك، واهرب من الفضيحة التي ستنتج عن المحاكمة التي ستنالني، فأنا لا أريد أن أربط مصيرك بمصيري. لا أريد أن أغيّر مجرى حياتك. فيما يتعلق بي، إني بريئة وقوية، ولا يوجد أية لطخة عار في حياتي، لذا قررت أن أصمد، وأن أفتح صدري إلى أعدائي، إذا اقتضى الأمر، كي أظهر لهم طهارة قلبي. أما أنت، فلا ينتظرك سوى الهلاك، وربما السجن أيضاً...

فعذْ بهذا المال الذي قدمته لي بنبل، عذْ به وكن على ثقة، بأنه لم تفتني أية حركة صدرت عن نفسك الأبية، وأنه لم يجرحني أي شك تسرب الى فؤادك، وأنه قد هزني كل ألم تألمته.

إذهب، إني أقول لك، وابحث في غير هذا المكان، عما لم تستطع ملكة فرنسا أن تمنحك إياه: الوفاء، والأمل، والسعادة. فإلى أن تعلم باريس بتوقيف الكردينال، وإلى أن يلتئم البرلمان، وإلى أن يدلي الشهود بشهاداتهم، هناك خمسة عشر يوماً كما أعتقد. إذهب! إن خالك يمتلك

سفينتين جاهزتين في شيربورغ ونانت، فاختر واحدة منهما، وابتعد عني... ابتعد عني، لأني سبب شقائك سأكون! أما أنا، فلم أكن أحرص إلا على شيء واحد في هذه الدنيا، وبما أن هذا الشيء قد فقدته، فإني أشعر بالضياع...

تلفظت الملكة بهذه الكلمات ونهضت فجأة، وبدت كأنها تشير الى شارني بأن المقابلة قد انتهت. فتقدم شارني منها، وأجابها باحترام فائق وبلهجة مؤثرة:

– إن جلالتك تملي علي واجبي. ولكن واجبي ليس في أراضيَّ، ولا خارج باريس، بل في باريس بالذات حيث يكمن الخطر، وفي فرساي بنوع خاص حيث سيحاكمونك. فينبغي ان يزول كل شك يا مولاتي، وان يبرر كل توقيف. وبما أنك لن تتمكني من الحصول على شاهد أخلص مني، وعلى سند أشد عزيمة مني، فسوف أبقى في باريس ولن أبرحها.

إن الذين يعلمون أشياء كثيرة، سيقولونها يا مولاتي. لكننا على الأقل، سنشعر بالسعادة التي لا يقدرها إلا أصحاب القلوب الكبيرة، إذا ما قابلنا أعداءنا سوية، ووجهاً لوجه. وسندع هؤلاء الناس يرتعدون امام جلالة ملكة بريئة، وامام شجاعة رجل هو أفضل منهم. نعم، سوف أبقى يا مولاتي، وثقي جيداً بأن جلالتك ليست بحاجة إلى أن تخفي عني

افكارها اكثر مما أخفتها. فالناس كلهم يعرفون بأني لا أهرب، وجلالتك تعلم جيداً بأني لا أخاف، كما أنها تعلم جيداً، بأنها ليست بحاجة الى نفيي كي لا تراني إطلاقاً. ثم إن خفقات القلوب تُسمع من البعيد يا مولاتي، والتنهدات من البعيد أشد اضطراماً! تريدينني أن أرحل من أجلك، لا من أجلي. فلا تخافي، سوف أكون عوناً لك. سوف أدافع عنك، ولن أسيء إليك أو أساعد على هلاكك. فأنت لم تشاهديني طيلة ثمانية أيام أقمت خلالها على مسافة مئة قامة منك، أرقب كل حركة من حركاتك، وأعدّ كل خطوة من خطواتك، وأعيش معك لحظة فلحظة. وثقي بأني هكذا سأفعل أيضاً هذه المارة، لأني لا أستطيع أن أنفذ رغبتك بالرحيل!

فقالت الملكة بعد أن قامت بحركة أبعدتها قليلاً عن شارني:

– إفعل ما يحلو لك. لكن... أعتقد بأنك فهمتني، إذ يجب أن لا تنخدع أبداً بكلامي. فأنا لست مغناجة يا سيد دي شارني، بل إني أقول ما أفكر به، وأفكر بما أقوله، وهذه هي مزيّة الملكة الحقيقية. فذات يوم يا سيدي، قد اخترتك من بين الجميع، ولا أعلم ما الجاذب الذي جذب قلبي اليك. كنت متعطشة إلى صداقة قوية طاهرة، فكشفت لك عن

مكنونات صدري، أليس كذلك؟ أما اليوم، فقد اختلف الأمر، إذ لم أعدْ أفكر بما كنت أفكر به، وروحك لم تعد شقيقة لروحي. إني أصارحك القول: يجب أن يراعي واحدنا الآخر.

فقاطعها شارني قائلاً:

- حسناً يا مولاتي. فأنا لم أصدق إطلاقاً بأنك كنت قد اخترتني. لم أصدق إطلاقاً... آهٍ مولاتي! لا أحتمل فكرة فقدانك. إني نشوان من الغيرة والخوف يا مولاتي. مولاتي، لن أتحمل انتزاع قلبك مني. فهو لي، لقد منحتني إياه، وليس باستطاعة أحد أن يأخذه مني إلا مع حياتي... فكوني امرأة، كوني عطوفة ولا تستغلي ضعفي، وبما أنك منذ قليل عبث علي ظنوني، فلا تسحقيني هذه اللحظة بظنونك.

فقالت ماري انطوانيت:

- إن قلب المرأة كقلب الطفل. تريدني أن أعتمد عليك!.. يا لنا من مدافعين جميلين عن بعضنا البعض! ضعيف! نعم، أنت ضعيف. وأنا، واأسفاه! لست أقوى منك!

فدمدم شارني قائلاً:

- سوف أكفُّ عن حبك، إذا ما صرت امرأة أخرى!

فقالت الملكة بنبرة مفعمة بالعاطفة:

– ماذا أسمع !.. هذه الملكة الملعونة، هذه الملكة الهالكة، هذه المرأة التي سيقاضيها البرلمان، وسيحكم عليها الرأي العام، وربما طردها زوجها ومليكها... هذه المرأة تجد قلباً يحبها !

– إنه قلب خادم يجلّها وعلى استعداد لأن يقدم لها كل دم قلبه، مقابل دمعة تذرفها الآن عيناها !

فصاحت الملكة :

«هذه المرأة هي مباركة، هي فخورة، هي الاولى بين النساء، وأكثرهن سعادة !

«هذه المرأة سعيدة جداً يا مسيو دي شارني، ولا أدري كيف سمحت لنفسها بأن تتشكى، فاغفر لها !»

فخرّ شارني جاثياً على قدمي ماري انطوانيت، وأخذ يقبلهما بحب المتعبد...

وفي هذه اللحظة، فتح باب الرواق السري، ووقف الملك مرتعشاً وكالمصعوق على عتبته...

لقد فوجئ بالرجل الذي اشتكاه له الكونت دي بروفانس، راكعاً أمام قدمي ماري انطوانيت !!

طلب الزواج

★

أمام هذه المفاجأة غير المنتظرة، تبادلت الملكة وشارني النظرات برعب، لو وقف عليها في تلك اللحظة اشد الاعداء لهما لأشفق عليهما. ثم نهض شارني بتمهل وحيّا الملك باحترام فائق.

فقال لويس السادس عشر بصوت بهيم، فيما كانت خفقات قلبه الشديدة تلاحظ بأم العين من فوق صدرته المصنوعة من الدنتيلا:

«مسيو دي شارني !..»

فكان جواب دي شارني الوحيد، أن جدد التحية للملك. أما الملكة، فقد انعقل لسانها وطاش رأسها...

وأكمل الملك يقول، وقد تعاظم غيظه:

– ليس من الشرف بشيء يا سيد دي شارني، أن يضبط نبيل مثلك متلبساً بجريمة السرقة!

فدمدم شارني:

– السرقة!

وتابع الملك يقول:

– نعم، السرقة! فمن يركع أمام امرأة ليست زوجته، يعد ذلك سرقة. وعندما تكون هذه المرأة ملكة، تكون هذه الجريمة قدحاً في الذات الملكية. وسأجعلك تعترف بذلك يا سيد دي شارني، بواسطة وزير عدلي.

فشاء الكونت دي شارني أن يتكلم كي يؤكد براءته. إلا أن مروءة الملكة، أبت عليها أن ترى الرجل الذي تحبه يتهم بالدناءة، فهبت إلى نجدته وقالت بحدة:

«مولاي، أنت كما يتراءى لي، تسلك طريق الشكوك الخاطئة والافتراضات غير المحققة. إني ألفت انتباهك إلى أن هذه الشكوك والظنون ليست في محلها. وان كان الاحترام الذي يكنه لك الكونت قد عقل لسانه، فأنا التي أعرف أعماق قلبه، لن أدعه عرضة للاتهام من دون دفاع.

وتوقفت بعد هذا الكلام الذي استنفد تأثرها، مرتعبة من الاكذوبة التي كانت تبحث عنها مرغمة، وقد اضطربت أخيراً لأنها لم تجدها.

لكن هذا التوقف الذي بدا لها مقيتاً، وهي الملكة الأبية النفس، وفَّر لها السلامة كامرأة بسهولة كلية. ففي الاتفاقات الكريهة كهذا الاتفاق، التي كثيراً ما تستخف بشرف وبحياة المرأة التي تفاجأ، كثب دقيقة واحدة تكفي لإنقاذها، كما أن ضياع ثانية واحدة تكفي لضياعها.

فالملكة بدافع الغريزة دون سواها، انتهزت فرصة التوقف هذه، كي تفكر في وسيلة تنقذها من هذا المأزق الحرج، وكي تستلهم من شيطان حواء أكذوبة تنطلي على زوجها الملك، وتحد قليلاً من شكوكه، إن لم تقضِ عليها نهائياً.

وفيما هي تفكر، أجابها الملك كزوج، متخلياً عن دوره كملك قلق:

- تريدين القول بأني لم أرَ السيد دي شارني، هنا، راكعاً امام قدميك يا سيدتي؟ والحال أن من يركع ولا ينهض، يجب...

فقالت له الملكة بقساوة:

- يجب أن يكون تابعاً لملكة فرنسا، وقد جاء يطلب منها منّة... وهذا شيء مألوف جداً في البلاط كما أعتقد.

فصاح الملك:

- يطلب منك منّة!

فتابعت الملكة تقول:

- ومنّة حبذا لو أستطيع تحقيقها لنبيل كالسيد دي شارني، أكن له كل احترام وتقدير. أقول حبذا، لأن مطلبه مستحيل!

فتنفس شارني الصعداء، وبدت الحيرة على وجه الملك،

وأخذ غضبه يهدأ شيئاً فشيئاً، ويؤاخذ نفسه على ما بدا منه من تهديد ووعيد.

في هذه الأثناء، كانت ماري انطوانيت في أزمة ضميرية مع نفسها. فهي مضطرة لأن تكذب على زوجها الذي وقف إلى جانبها ضدّ كل أعدائها والمتآمرين عليها، وفي الوقت نفسه تريد إنقاذ الرجل الذي تحبه وإنقاذ شرفها في آن معاً.

وبعد أن ران الصمت قليلاً، انفرجت شفتا الملك عن السؤال الذي انفجر أخيراً:

«هيا وقولي يا سيدتي، ما هي هذه المنّة التي يتوسلها عبثاً السيد دي شارني، والتي حملته على أن يركع أمامك!»

وكي يلطف الملك من قساوة هذا السؤال، أضاف يقول:

«ربما كان تحقيق هذه المنّة يسعدني أكثر منك يا سيدتي، دون أن يضطر السيد دي شارني إلى الركوع أمامي.»

فقالت الملكة:

- قلت لك يا مولاي: بأن ما يطلبه السيد دي شارني، هو شيء مستحيل!

- ما هو هذا الشيء على الأقل؟

فأخذت الملكة تفكر في الشيء الذي يستدعي طلبه الركوع على قدميها، ولا تستطيع تحقيقه!.. ولحظة اهتدت إلى هذا الشيء، بادرها الملك قائلاً:

«هيا! هيا! أنا بالانتظار.»

فأجابته قائلة:

- إن ما يطلبه السيد دي شارني يا مولاي، هو سرّ عائلي!

فقال لويس السادس عشر بوقار ومهابة:

- ليس على الملك من أسرار. فهو سيد المملكة، ورب العائلة المهتم بشرف وأمن رعاياه، الذين هم بمثابة أولاده، حتى ولو أساء هؤلاء الاولاد العاقون إلى شرف وأمن والدهم!

بعد هذا التهديد الخطر والمبطن، قفزت الملكة مضطربة، وصاحت وهي ترتعش:

- إن السيد دي شارني يريد الحصول مني...

- على ماذا يا سيدتي؟

- على إذن بالزواج.

فصاح الملك في بادئ الأمر:

- أصحيح!

ثم ما لبث أن عاوده القلق الغيور، فقال من دون أن يلاحظ كم كانت زوجته المسكينة تتألم عندما تلفظت بهذه الكلمات، وكم كان شارني شاحب اللون بسبب ألم الملكة:

- وأين المستحيل في زواج السيد دي شارني؟ ألا ينتمي إلى أرومة عريقة في النبل؟ ألا يمتلك الثروة الطائلة؟ أليس

باسلاً ووسيماً؟ بلى، إنه نبيل زثريّ وباسل ووسيم، لذا لا أرى إلا سببين إثنين كي ترفضه المرأة التي يريدها: إما أنها أميرة يجري في عروقها الدم الملكي، وإما أنها متزوجة. فتفوهي يا سيدتي باسم هذه المرأه التي يريد أن يتزوجها السيد دي شارني، حتى إذا لم يكن السببان اللذان ذكرتهما متوفرين فيها، ذللت كل الصعوبات... إرضاءً لك!

فأجابت الملكة، والخطر المتزايد يجتذبها، تماماً كما كان شعورها عند أول كذبة:

– لا يا مولاي، لا. فهناك صعوبات لا تستطيع تذليلها!

فقاطعها لويس السادس عشر غاضباً:

– أصبحت الآن اكثر توقاً لمعرفة هذا الشيء المستحيل على الملك! فتفضلي وتلفظي باسم تلك المرأة!

عند ذاك تطلّع شارني إلى الملكة، فرآها ترنح وتكاد تسقط. فخطا خطوة نحوها... لكن جمود الملك أوقفه! فبأي حق يريد أن يقدم يد المساعدة إلى امرأة لا يمت إليها بصلة، فيما زوجها الملك يراها تترنح ولا يبالي؟!.

أما الملكة، فأخذت تتساءل: أية قوة قد يقف الملك عاجزاً أمامها؟ واستنجدت بربها ليعينها مرة ثانية ويهديها إلى الفكرة المنقذة.

وفجأة، ومض بريق في بالها، فدمدمت قائلة:

«آه ! إن الله نفسه قد هبّ لنجدتي . فاللواتي يخصنَّ الله ، لا يستطيع أن يسقطهنَّ في الشرك ، حتى الملك ذاته .»

ثم رفعت رأسها وقالت للملك :

– إن المرأة التي يريد أن يتزوجها شارني يا سيدي ، موجودة في الدير ...

فصاح الملك :

– آه ! إنك على حق . فالواقع أنه من الصعوبة بمكان ان ننزع من الله ما يخصه لنعطيه للناس . لكن هذا الحب الغريب ، قد فاجأني به السيد دي شارني ! إذ لم يطلعني عليه أحد ، حتى عمه الذي باستطاعته الحصول على كل شيء مني . فمن تكون هذه المرأة التي تحبها يا دي شارني ؟ أرجوك أن تسمِّها لي .

فشعرت الملكة بألم حادّ ... إذ انتظرت أن تسمع اسماً يخرج من فم أوليفيا ، يجعلها تتحمل عذاب هذه الكذبة . ومن يدري عما إذا كان شارني لن يبوح باسم يكون صدمة رهيبة لها . فكي تتجنب ماري انطوانيت مثل هذه الصدمة ، صاحت تقول قبل شارني :

– ولكنك تعرف جيداً يا مولاي ، تلك التي اختارها السيد دي شارني كي تكون زوجة له . إنها ... الآنسة أندريه دي تافرني !

فأطلق شارني صيحة موجعة، وخبأ وجهه بين يديه...

وبدورها الملكة، سندت قلبها بيدها، وأوشكت أن تسقط على مقعدها فاقدة الوعي!

وردد الملك بعدها:

«الآنسة دي تافرني! الآنسة دي تافرني التي تركت البلاط وانسحبت الى دير سان دينيس؟

فقالت الملكة بصوت خافت:

- نعم يا مولاي.

- إنها، كما أعتقد، لم تقدم نذوراتها بعد؟

- هذا صحيح يا مولاي، ولكنها ستقدمها.

فقال الملك:

- سنضع شروطاً لذلك.

وأضاف يقول:

- ومع ذلك، لماذا تريد أن تقدم نذوراتها؟

فأجابت ماري انطوانيت:

- لأنها فقيرة، وأنت لم تغدق المال إلا على والدها.

فقال الملك:

- هذا خطأ ارتكبته يا سيدتي، وأنا مستعد لإصلاحه، إذا كان السيد دي شارني يحبها...

فارتعشت الملكة وألقت نظرة نهمة على الشاب ، كأنها تتوسله كي لا ينكر هذا الحب .

فأنعم شارني النظر في ماري انطوانيت ، ولم يجب !

فقال الملك الذي اعتبر هذا الصمت بمثابة اعتراف خجول ، موجهاً كلامه إلى الملكة :

– حسناً ! ومما لا شك فيه ، أن الآنسة دي تافرني تبادل شارني مثل هذا الحب . لذا سوف أنقدها كمهر ، الخمسماية الف ليرة التي حجبتها عنك ، عندما رجاني السيد دي كالون أن أوافق على صرفها .

ثم استدار نحو شارني ، وأكمل يقول :

– عليك أن تشكر الملكة يا سيد دي شارني ، لأنها شاءت بإطلاعي على هذا الحب ، أن تؤمن لك السعادة مدى الحياة !

فتقدم شارني خطوة إلى الامام ، وانحنى كأنه تمثال أصفرَ اللون ، منحه الله الحياة بأعجوبة منه !

فقال الملك بتلك الخفة الفريدة في التهكم المبتذل ، التي كثيراً ما كانت تلطف فيه النبالة التقليدية لأجداده :

– أوه ! إن الموضوع يستأهل بأن يُركع له مرة ثانية ...

فارتعشت الملكة ، ومدت إلى الشاب ، بحركة عفوية ، يديها الاثنتين . فركع شارني أمامها ، وطبع قبلة على يديها الجميلتين ، تمنى لو يستودعها حياته !..

وبعد تلك القبلة، قال له الملك:

- هيّا الآن واتبعني يا سيدي، ولندع الملكة تهتمّ بقضيتك.

ومشى الملك أمامه مسرعاً، بشكل أتاح لشارني أن يستدير وهو على عتبة الباب، ويرى الألم الذي لا يوصف لذلك الوداع الأبدي، الذي ارتسم في عيني ماري انطوانيت!

ثم انغلق الباب بينهما، وغدا حاجزاً متعذر العبور، في وجه حب بريء...

سان دينيس

★

بقيت الملكة وحدها يائسة، تشعر بالضربات تنهال عليها من كل الجهات، ولا تعلم من أية جهة تأتيها الضربة الأشد وجعاً.

وبعد مضي ساعة وهي على هذه الحالة من الحيرة والوهن، اقتنعت بأنه قد حان الوقت كي تبحث عن مخرج لما تعانيه. فالخطر يتفاقم، والملك الفخور بالنصر على المظاهر، سوف يسرع إلى التشييع له، ومن المحتمل أن تستقبل إشاعة النصر المزعوم، بشكل تضيع معه كل فائدة للغش الذي ارتكب.

وكم كانت الملكة تؤنب نفسها على هذا الغش، وتود لو تستعيد ذلك الكلام الذي مرَّ سريعاً على لسانها، وان تنتزع، حتى من أندريه، تلك السعادة الوهمية التي قد ترفضها!

وفي الواقع، هنا كانت تبرز صعوبة أخرى. فاسم اندريه الذي أنقذ كل شيء تجاه الملك، من يستطيع أن يضمن بأن صاحبته ذات المزاج النزْوي، المستقل والحر، التي يسمونها الآنسة دي تافرني، سوف تتنازل عن حريتها، وترهن مستقبلها لمصلحة الملكة، التي تركتها كعدوة منذ أيام قليلة، وهي المرأة الأبية النفس؟

إذن، ما الذي سيحدث؟ فاندريه، على الأرجح، سترفض العرض الذي سيقدم لها، وبرفضها ستنهار صقالة الكذب والخداع، وتغدو الملكة متآمرة محدودة العقل، وشارني مجرد فارس لا أهمية له، وشخص يتقن الكذب. أما التهمة العالقة بالملكة، فستأخذ ساعتذاك حجماً ووزناً لا يعود الشك معهما مقبولاً.

بعد هذه التصورات، شعرت ماري انطوانيت بأنها قد ضلَّت الصواب. وكادت تستسلم الى هذا الاحتمال، فوضعت رأسها المحموم بين يديها، وأخذت تفكر:

على من عليها أن تعتمد؟ من هي صديقة الملكة الوفية؟ السيدة دي لامبال؟ ولكن سيدات الشرف كلهنَّ قد

اختبرتهنَّ، فهنَّ يتزلفن إليها خوفاً من زوال الحظوة، وبقصد العيش المرفَّة ليس إلا ! زدْ على ذلك، أنهنَّ على استعداد لأن يلقنَّ ملكتهن درساً في الاخلاق، إذا ما احتاجت إلى مساعدتهن !

بعد أن استعرضت ماري انطوانيت نساء الشرف كلهنّ، واستبعدتهنَّ الواحدة تلو الأخرى، لم يبق في اعتقادها سوى الآنسة دي تافرني، الكاملة الصفات، وصاحبة القلب الطاهر، التي وحدها، رغم إيمانها الراسخ في الطريق الذي اختطته لنفسها، قد تتعاطف مع آلامها الكبيرة.

إذن على ماري انطوانيت أن تسعى وراء اندريه، وان تطلعها على شقائها، وان تتوسل إليها بأن تضحي بأغلى أمانيها من أجلها. مما لا شك فيه، أن أندريه سوف ترفض مثل هذه التضحية في البدء، لأنها من طينة فريدة، وذات شخصية فذة لا يغريها مال ولا يرهبها سلطان. إلا أنها رويداً رويداً، وبفضل صلواتها، سوف تلين وتقبل. وعندما تهدأ ثائرة الملك ويطمئنُ باله مظهر الرضى المتبادل على وجهي الخطيبين، سيتدبر كل شيء بمجرد تدبير سفرة إلى أندريه وشارني، تبعدهما حتى تخمد نار النميمة. وبهذه الطريقة، يُقضى على كل همس يتناول الملكة في سمعتها، ويعتقد

الناس بأن الود بين الخطيبين، على أتمه، ولن يعرف أحد بأن مشروع الزواج ليس سوى تمثيلية.

وبالتالي لن تكون حرية الآنسة دي تافرني موضع شبهة، كذلك لن يكون شارني، في نظر الناس، قد تنازل عن حريته. ولا يبقى ضمير الملكة يؤنبها على أنانيتها التي جعلتها تضحي بشخصين في سبيل إنقاذ شرفها، خصوصاً وإن شرفها هو شرف زوجها وشرف أولادها الذي يجب أن ينتقل سليماً وغير ملطخ الى ملكة فرنسا المقبلة.

ذاك ما كانت تفكر به ماري انطوانيت.

وبما أن تحقيق هذه الأفكار، حسب اعتقادها، يؤمن مصالح الجميع وفيه منفعة للجميع، فقد رأت من الواجب عليها أن تكون متشددة في ما تراه منطقياً لمجابهة الخطر الرهيب، كما رأت لزاماً عليها أن تتسلح بكل ما ملكت يداها ضد خصم صعب المراس كالآنسة دي تافرني، إذا ما أصغت هذه الأخيرة إلى نداء كبريائها وتجاهلت نداء قلبها.

وبعد أن أصبحت مستعدة للقيام بما عزمت عليه، قررت المباشرة بالعمل. وشاءت أن تحذر شارني من القيام بأي مسعى باطل، لكن اعتقادها بأن الجواسيس يتربصون بها، وأن كل تصرف من قبلها سيساء تفسيره في هذه الآونة، منعها عن ذلك. خصوصاً وان خبرتها الكافية باخلاص

أوليفيا وحزمه، وحسه العادل، جعلها تكون واثقة بأنه سيقرها على ما ترتئيه مناسباً بأن يفعله.

وعندما حان وقت الغداء في ذلك اليوم وتوافد كبار الشخصيات على الوليمة الملكية الفخمة، استقبلت الملكة زوارها بوجه بشوش ولطف متناهٍ، متخلية عن كبريائها التي عُرفت بها. حتى أنها أظهرت أمام من كانت تعتبرهم أعداء لها، ثقة بالنفس ليست مألوفة بالنسبة للمذنبين.

ويمكننا القول إن الحشد الذي شهده البلاط في تلك الوليمة لم يعرف مثله من قبل، كما أنه لم يعرف فضولاً كالفضول الذي ساده، والذي كان يغوص بحثاً في كل قسمة من قسمات وجه ماري انطوانيت، التي كانت تصبُّ نظراتها مواجهة، في كل شخص، فتصعق أعداءها وتثمل أصدقاءها. وقد أحالت اللامبالين إلى متحمسين، والمتحمسين الى مفعمين بالحماسة وهائمين، وبدت في غاية الجمال والعظمة، مما جعل الملك يوجه إليها تهانيه جهاراً.

وما أن انتهت الوليمة، حتى تخلت عن ابتساماتها المتكلفة وعادت إلى ذكرياتها، أي إلى آلامها. ووحدها من دون أي مخلوق آخر، بدَّلت زينتها، واعتمرت قبعة رمادية ذات شرائط وزهرات زرقاء، ثم ارتدت فستاناً من الحرير الرمادي

أيضاً، واستقلت عربتها من دون حراس، واتجهت بصحبة سيدة واحدة فقط الى دير سان دينيس.

فوصلت الى الدير المذكور ساعة كانت الراهبات قد دخلن الى صوامعهن، وخلدن إلى الصمت والتأمل اللذين يسبقان صلاة الغروب.

وعندما استدعت الملكة الى غرفة الاستقبال الآنسة أندريه دي تافرني، كانت هذه راكعة بثوبها الصوفيّ الأبيض أمام النافذة وشاخصة الى القمر فيما هو يرتفع وراء شجرات الزيزفون الكبيرة. وفي هذا الجو الشعري مع ابتداء الليل، كانت أندريه تبتهل إلى الله بصلواتها الحارة، كي يخفف من آلام نفسها المعذبة.

لقد كانت تشرب بجرعات كبيرة، ألم الفراق الطوعي الذي لا يشفى. ومثل هذا التوسل لم تعرفه سوى النفوس القوية. فهو عذاب وفرح في آن واحد. وقد توصلت أندريه مع هذا النوع من العذاب، إلى الشعور بلذة، وحدهم الذين يعرفون كيف يضحون بالسعادة في سبيل كرامتهم، يمكنهم أن يشعروا بمثلها.

فاندريه من تلقاء نفسها قد تركت البلاط، ومن تلقاء نفسها قد قطعت علاقاتها بكل ما يمت إلى حبها بصلة. فكونها أنوفة ككليوباتره، لم تستطع حتى أن تتحمل

التصور، بأن السيد دي شارني قد فكّر بامرأة سواها، وأن هذه المرأة هي الملكة.

فلما جاءت إحدى الراهبات تقول لها بأن الملكة في الدير، وبأن مجلس الكهنة يستقبلها الآن في البهو الكبير، وبأن جلالتها بعد المجاملات الأولى قد سألت عما إذا كان باستطاعتها أن تتكلم مع الآنسة دي تافرني، تمتمت اندريه:

«الملكة!.. الملكة في سان دينيس! الملكة من يستدعيني!»

فأجابتها الراهبة:

- نعم الملكة، وعليك أن تسرعي.

فأسرعت أندريه فعلاً، وارتدت ثوب الرهبنة الطويل والفضفاض، ثم تمنطقت بزنار الصوف، ولحقت بالراهبة البوابة التي جاءت تبحث عنها، دون أن تلقي ولو نظرة خاطفة على مرآتها الصغيرة.

لكنها ما أن خطت بضع خطوات، حتى شعرت بالخجل يعتريها، لأنها شعرت بقدر كبير من الفرح... فأخذت تخاطب نفسها قائلة:

«لماذا ارتعش قلبي هكذا؟ وما همُّ اندريه دي تافرني، من زيارة ملكة فرنسا لدير سان دينيس؟ هل هو الزهو ما أحسه؟ ولكن الملكة ليست هنا من أجلي. هل هي السعادة؟ ولكني لم أعد أحب الملكة.

«هيا واحتفظي برباطة جأشك أيتها الراهبة السيئة، فالتي لا تخص الله ولا العالم، لتحاول على الأقل أن تخصَّ نفسها».

هكذا كانت أندريه تؤنب نفسها فيما هي تهبط الدرج الكبير. وبما أنها سيدة إرادتها، فقد أخمدت احمرار خديها العابر الذي سبَّبه تسرعها، وعدلت في سرعة مشيئها. فكي تصل الى حيث هي مدعوة، أمضت في اجتياز الدرجات الست الأخيرة، وقتاً أطول من الوقت الذي أمضته في اجتياز الدرجات الثلاثين الأولى.

وعندما وصلت الى ما وراء الخورس في قاعة الاحتفالات، حيث كان نور الثريات والشموع في أيدي بعض الراهبات العاملات يزداد تألقاً، شحب لون اندريه وندت جبهتها بالعرق البارد...

وعندما سمعت اسمها يُلفظ بواسطة الراهبة البوابة التي جاءت بها، وعندما لمحت ماري انطوانيت جالسة في المقعد الوثير المخصص لرئيسة الدير، فيما كانت رقاب أعضاء مجلس الكهنة على جانبيها تنحني احتراماً وإجلالاً، أخذ قلب اندريه يخفق بشدة، وتوقفت لعدة ثوانٍ عن متابعة سيرها، فقالت لها الملكة وهي تبتسم نصف ابتسامة:

– آه! لقد جئت: تقدمي يا آنستي كي نتكلم.

فتقدمت أندريه وأحنت رأسها، فاستدارت الملكة نحو رئيسة الدير وقالت لها:

- هل تسمحين يا سيدتي؟

فأجابت الأم الرئيسة بانحناءة معبرة عن احترامها، وخرجت من القاعة متبوعة بكل الراهبات.

فبقيت الملكة وحدها مع أندريه التي كانت دقات قلبها، في تلك اللحظة، أسرع وأشد من دقات رقاص الساعة الجدارية القديمة، التي كانت تتصدر تلك القاعة!

قلب ميت

★

ابتسمت الملكة ابتسامة رقيقة، وافتتحت المحادثة بقولها:

«إنك هنا يا آنستي، وبثوبك الورع، تخلقين في نفسي انطباعاً غريباً.»

فبقيت أندريه صامتة ولم تجاوب. وتابعت الملكة تقول:

«إن رؤيتي لرفيقة قديمة، اعتزلت العالم الذي ما زلنا نحن الآخرون نعيش فيه، لهو بمثابة نصيحة قاسية تُعطى لنا. ألست من رأيي يا آنستي؟

فأجابت أندريه :

– من يسمح لنفسه يا مولاتي ، أن يقدم نصائح لجلالتك ؟ فالموت نفسه ، لن ينذر الملكة الا في آخر يوم من حياتها .

– لماذا ذلك ؟

– لأن الملكة يا مولاتي ، أتاحت لها طبيعة نشأتها ، أن لا تعرف العذاب والألم ، إلا عند الضرورة التي لا مفرَّ منها . فيداها تملكان كل ما تشتهيه وتتمناه . وإن كان لدى الغير شيء يمكنه ان يجعل حياتها أكثر سعادة ، فباستطاعة الملكة سلب هذا الشيء من الغير ...

واستدركت اندريه تقول ، عندما قامت الملكة بحركة دلت على دهشتها :

– وهذا حق من حقوقها ، فالغير بالنسبة للملكة ، هم رعاياها ، ورعايا الملكات وما يملكون ، بما فيه حياتهم وشرفهم ، هم ملك الملكات .

فقالت ماري انطوانيت بتمهل :

– إن مثل هذه المعتقدات تذهلني . فأنت تجعلين من الملكة في هذا البلد ، غولة تلتهم ثروة وسعادة المواطنين البسطاء ، فهل أنا هكذا يا أندريه ؟ هل فعلاً كنتِ تشعرين بما يستوجب الشكوى مني ، عندما كنت في البلاط ؟

فأجابت أندريه :

– إن جلالتك قد تلطفت وطرحت عليَّ مثل هذا السؤال عندما قررت تركها، فكان جوابي كما هو الآن: لا يا مولاتي.

فقالت الملكة:

– ولكن التشكي، وإن لم يكن تعبيراً شخصياً، كثيراً ما يجرحني. فهل ألحقت الأذى بأحد خاصتك، فاستحقيت هذا الكلام توجهينه إليَّ؟ إن العزلة التي اخترتها يا أندريه، هي الملاذ ضدُّ كل شهوات العالم السيئة. فالمسيح قد علمنا التسامح، والغفران، ونسيان الاهانات، هذه الفضائل التي كان المثال الأعلى لها. فهل فُرض عليَّ، أنا التي جئت لأرى أختاً للمسيح هنا، أن لا ألقى إلا وجهاً عابساً، وكلاماً مملوءاً بالضغينة؟ هل فُرض عليَّ، أنا التي سعت وراء صديقة، أن لا ألقى إلا التأنيب، أو الحقد المبطن من عدوة ترفض المصالحة؟

فرفعت أندريه عينيها، مشدوهة من هذه الدعة التي لم تألفها في ماري انطوانيت، إذ كانت متعالية وفظة مع خدمها، وقالت بصوت منخفض:

– جلالتك تعلم جيداً، بأن آل تافرني لا يمكنهم أن يكونوا أعداء لها.

فأجابت الملكة بكل هدوء وسكينة:

– وأعلم بأنك لم تغفري لي برودتي تجاه أخيك. وهو نفسه، قد يكون اتّهمني بالخفة، وربما بالتصرف الكيفي.

فقالت أندريه، وقد أُجهدت نفسها كي تحتفظ بصلابتها:

– حاشا لأخي أن يتّهم الملكة، وهو التابع الذي يكنُّ لها كل احترام.

فرأت الملكة أنها ستثير الظنون حولها، إن هي زادت جرعة العسل اللازمة لتطويع المعتزلة، فتوقفت عند هذا الحد، وقالت:

– لقد جئت الى سان دينيس لأتكلم مع رئيسة الدير، فاغتنمتها فرصة كي أراك وأؤكد لك، بأني سأبقى صديقتك، سواء كنت بعيدة عني أم قريبة مني.

فشعرت أندريه بهذا الفارق في اللهجة، وخشيت بدورها إن هي استمرت في مجافاة من تلاطفها، أن تنكأ جراح قلبها أمام امرأة ذكية وبصيرة، فقالت بحزن:

– إن جلالتك قد شرّفتني وأفعمت قلبي بالفرح.

فأجابت الملكة وهي تضغط على يد أندريه:

– لا تتكلمي هكذا يا أندريه، فأنت تدمين قلبي بما يرتسم على وجهك من حزن. وثقي بأن ماري انطوانيت، هي ملكة شقية، عكس ما تتصورين، وقد استخلصتك من بين كل الصديقات، كي تريح عينيها المتعبتين في عينيك الساحرتين.

وان كانت الملكات يا أندريه، يملكن الذهب، ويملكن وفاء شعوبهن، إلا أن القلب لا !.. القلب ليس باستطاعتهنَّ امتلاكه، بل يجب أن يُعطى لهنَّ.

فقالت أندريه، وقد هزَّ كيانها كلام الملكة هذا:

- أؤكد لك يا مولاتي، بأني أحببت جلالتك أكثر من أي شخص آخر في العالم.

وما أن تلفظت بهذه الكلمات، حتى احمرت وأطرقت برأسها... فانتهزت الملكة الفرصة، وصاحت قائلة:

«لقد... أحببتني ! أما اليوم، فما عدت تحبينني ؟»

- أوه ! مولاتي !

- أنا لا أطلب منك شيئاً. أندريه... ملعون هو الدير الذي يطفئ الذكريات بهذه السرعة في بعض القلوب.

فقالت أندريه بحدة:

- لا تتهمي قلبي، فانه مات !

- قلبك مات ! أنت، أندريه الصبية، الجميلة، تقولين بأن قلبك قد مات ! آه ! لا تتلاعبي بهذه الكلمات الكئيبة. فالقلب عند من تحتفظ بمثل هذه البسمة وهذا الجمال، ليس بمائت. فكفي عن هذا الكلام يا أندريه.

- إني أردد عليك ما قلته يا مولاتي. فكل ما في البلاط، وكل ما في العالم، لم يعد يعنيني. فأنا أعيش هنا كالعشب

والنبتة، لدي مباهج لا يحسها سواي. وكراهبة كرست نفسها للرب، أصبحت سعادتي الوحيدة في عزلتي.

فقالت الملكة:

- عجباً! آأنت مسرورة في الدير؟

- أنا جدُّ سعيدة في حياة العزلة هذه.

- لم يعد في نفسك أي دافع يحثك على التمتع بما في الدنيا من مسرات وملذات؟

- أبداً.

ففكرت الملكة قلقة، وقالت في نفسها: «يا إلهي! هل سأفشل؟».

وتابعت تخاطب نفسها، وقد سرت القشعريرة في كل جارحة من جسدها:

«علي أن أحاول، أن أقوم بتجربة، فإذا فشلت... لا يبقى أمامي إلا الترجي! أوه! أأترجاها من أجل أن تقبل بالزواج من شارني؟! رحماك أيتها السماء، أإلى هذه الدرجة كُتب عليَّ أن أكون شقية!

ثم سيطرت ماري انطوانيت على مشاعرها، وقالت:

- لقد عبرت عن رضاك يا أندريه، بعبارات قضت على الأمل الذي حملته إليك.

- أي أمل يا مولاتي؟

– لم يعد الكلام عليه ذو فائدة، طالما أنك قد اتخذت قرارك بالشكل الذي عرضته ... واأسفاه! لقد كان حلماً ... لكنه تبخر ولم يعد هناك مجال للتفكير فيه.

– ولكن، أوضحي يا مولاتي، فلا بأس من الايضاح.

– لِمَ الايضاح وقد اعتزلت العالم، أليس كذلك؟

– نعم يا مولاتي.

– بطيبة خاطر؟

– أوه! بملء حريتي.

– وما زلت فخورة بما أقدمت عليه؟

– أكثر من أي وقت مضى.

– أرأيت بأنه من غير المجدي حملي على الكلام؟ يشهد الله عليّ، أني كنت مقتنعة بأني سأجعلك سعيدة فيما جئت أقترحه عليك ...

– أنا، سعيدة؟

– نعم، أنت، الكافرة بالنعمة، والتي كنت تتهمينني. لكنك اليوم تستشفين مسرات أخرى، وأنت أدرى مني بما يناسب ذوقك وبما هو دعوتك. لذا سأصرف النظر...

– عن ماذا ستصرفين النظر يا مولاتي؟ شرفيني بالتفاصيل إن شئت.

– أوه ! الامر في غاية البساطة ، كنت أريد إرجاعك إلى البلاط.

فابتسمت أندريه بمرارة ، وصاحت قائلة :

– أنا أعود إلى البلاط؟ يا إلهي ! لا ، لا ، أبداً يا مولاتي !.. ولو اضطررت إلى التمرد على أوامر جلالتك .

فارتعشت الملكة ، إذ شعرت بالفشل ، ودمدمت وقد امتلأ قلبها بحزن لا يمكن وصفه :

– أترفضين ؟!

وكي تخفي ما اعتراها من اضطراب ، أخفت وجهها بيديها .

فاعتقدت اندريه بأن الملكة قد أُرهقت ، فاقتربت منها وركعت أمامها ، وكأنها شاءت باحترامها العميق هذا ، أن تبلسم الجرح الذي سبّبه لها كبرياؤها . ثم قالت لها :

– ماذا سيفيدك وجودي في البلاط يا مولاتي ، أنا الحزينة ، أنا العديمة القيمة ، أنا الفقيرة ، أنا الملعونة ، أنا التي هرب الكل مني ، ومن فرط شقائي لم أعرف حتى أن أوحي للنساء بأني أشكل عليهن أية مزاحمة مألوفة تقلقهن ، وللرجال أي شعور بالاستلطاف كأنثى أتميز عنهم جنسياً ...

آه ! دعي يا مولاتي وسيدتي هذه الراهبة وشأنها ، فهي ليست مقبولة حتى من الله الذي وجد فيها الكثير من

العيوب ، الله الذي يستقبل أصحاب العاهات الجسدية والقلبية . دعيني في شقائي ، ودعيني في عزلتي ، أرجوك !

فقالت الملكة وهي ترفع عينيها :

– آه ! إن ما جئت أقترحه عليك ، كفيل بأن يسفّه كل ما تشكين منه . فالزواج الذي اخترته لك ، سيجعل منك واحدة من أعظم سيدات فرنسا .

فتمتمت أندريه مذهولة :

– زواج !...

فسألتها الملكة وقد ازدادت وهناً :

– أترفضين ؟

– أوه ! نعم ، أرفض ، أرفض !

– أندريه ...

– أرفض يا مولاتي ، أرفض !

عندئذ شعرت الملكة بانقباض في صدرها ، فكفت عن التوسل وتهيأت للإنصراف . إلا أن أندريه ، لحظة وقفت الملكة مرتعشة ، مضعضعة ، ارتمت في طريقها وأمسكت بطرف ثوبها ، وقالت لها :

– على الأقل يا مولاتي ، منّي عليّ قبل أن ترحلي ، بتسمية الرجل الذي يرضى بي رفيقة لحياته . فقد تألمت كثيراً في حياتي ، بحيث يتوجب على هذا الرجل الكريم ...

وابتسمت بتهكم موجع، ثم أكملت تقول:
«أن يكون البلسم الذي سأضعه على كل جروحاتي.»
فترددت الملكة في التسمية. لكنها كانت بحاجة إلى أن تبلغ غايتها، لذا عادت فقالت بلهجة حزينة:
- إنه السيد دي شارني...
فصاحت أندريه من أعماق قلبها:
- دي شارني!.. أوليفيا دي شارني!
فقالت الملكة وهي تنظر إلى الفتاة بذهول:
- نعم، أوليفيا دي شارني.
- ابن شقيقة السيد دي سيفران؟ صاحب الوجنتين الموردتين، والعينين المتألقتين كنجمتين في القبة الزرقاء؟
فأجابت ماري انطوانيت، وقد لاحظت التبدل الذي طرأ على قسمات وجه أندريه:
- إنه بذاته، ابن شقيقة السيد دي سيفران.
- بربك قولي يا مولاتي، هل من السيد أوليفيا تودين تزويجي؟
- منه بالذات.
- و... هل يرضى؟
- إنه يدعوك الى الزواج.
فقالت أندريه وقد عصف بها جنون الفرح:

– أوه ! أقبل، أقبل ... إذن هي أنا من يحبها !.. أنا التي تعبده !

فتراجعت الملكة مرتعشة، وقد دكن لونها وتأوهت بصمت... ثم ارتمت متهالكة على أحد المقاعد، فيما أخذت أندريه تقبل، بلا وعي، ركبتيها وثوبها، وتبلل يديها بالدموع المنهمرة من عينيها ...

وأخيراً قالت بصوت تخنقه التنهدات المتلاحقة :

– متى سنذهب يا مولاتي ؟

فدمدمت الملكة التي شعرت بأن روحها ستزهق، والتي كانت تريد إنقاذ شرفها قبل أن تموت :

– تعالي !

ثم نهضت واستندت على أندريه، التي كانت شفتاها المحرقتان تبحثان عن خدي الملكة المثلجين. وفيما كانت الفتاة تتهيأ للإنطلاق، قالت الملكة المنكودة الحظ وهي تشهق بمرارة، رغم أنها كانت تملك حق التصرف بحياة وشرف ثلاثين مليوناً من رعاياها :

«هل كفى قلبي عذاباً يا إلهي ؟»

ثم أضافت تقول :

«ومع ذلك، شكراً لك يا إلهي، لأنك أنقذت أولادي من الخزي والعار، ويسرت لي أن أموت في مهابتي الملكية !»

سرّ السمنة لدى البارون

★

بينما كانت الملكة تعمل بفرح على إخراج الآنسة دي تافرني من دير سان دينيس، كان فيليب دي تافرني، شقيق أندريه المفتّت القلب بسبب ما علمه وما اكتشفه، يستعد للرحيل عن فرساي.

فجندي مثله اعتاد أن يطوّف في العالم، لا يحتاج إلى طويل وقت كي يعدّ حقائبه ويلبس معطف السفر. لكن فيليب كانت لديه، هذه المرة، دوافع أقوى بكثير من دوافع السفر التي ألفها كي يبتعد عن فرساي بسرعة. فهو لا يريد أن يكون شاهداً على العار المحتمل والوشيك أن يلحق بالملكة، وهو مبتغاه الوحيد.

لذلك شوهد أكثر حمية من أي وقت مضى، وهو يسرج جياده، ويُلقم سلاحه، ويضع في حقائبه أعزّ الاشياء لديه كي يعيش في ترحاله حسبما اعتاد أن يعيش. وعندما انتهى من كل هذا، أبلغ والده بأنه بحاجة إلى التحدث إليه.

وكان البارون دي تافرني الشيخ، قد عاد لتوّه من فرساي، وكرشه الذي ازداد سمنة منذ عدة أشهر، يهزهز

ويرتج أمامه كأنه أليّة خروف معلوف. عاد مشروح الصدر بعد أن قام بنزهة في القصر الملكي، ابتسم خلالها للسيد دي بريتاي ضدَّ السيد دي روهان، وللسيدين دي سويز ودي غامينه ضدَّ السيد دي بروفانس، ولمئة شخص غيرهم ضدَّ مئة شخص آخرين. الخلاصة أنه مارس هوايته في الدس والنميمة والخبث، ورجع الى قصره مفعم القلب بالسرور.

وعندما أبلغه الخادم بأن ولده يريد التحدث إليه، عوضاً عن أن ينتظر زيارة فيليب، ذهب هو بنفسه إلى غرفته، فوجد أشياءها مبعثرة ككل غرفة قبل سفر ساكنها.

لم يكن فيليب يتوقع من والده أن يبلغ به التأثر حداً كبيراً عندما يعلمه بقراره. كما أنه لم يكن يتوقع منه أن يكون غير مبالٍ. ففي الواقع، عندما تركت أندريه المنزل الوالدي إلى الدير، شعر البارون بفراغ. فإذا ما بلغ هذا الفراغ أشده بغياب آخر ضحية، سيكون البارون شبيه الولد الذي يفقد كلبه أو عصفوره، فيبكي، لكن بكاءه سيكون بدافع الانانية وحب الذات.

لكن فيليب دُهش، عندما رأى البارون يضحك بابتهاج ويصرخ قائلاً:

«آه! يا للعجب! سيسافر، سيسافر...»

وتابع يقول وابنه ينظر إليه مذهولاً:

«كنت واثقاً من ذلك، لقد أجدت التمثيل يا فيليب، لقد أجدت التمثيل.»

فقال الشاب:

– ماذا قلت يا سيدي؟ من الذي أجاد التمثيل، أرجوك؟

فأخذ الشيخ يغني وينطنط على رجل واحدة، داعماً مقدمة كرشه بيديه الاثنتين. كما أخذ في الوقت نفسه يشير إلى فيليب بعينيه غمزاً كي يصرف خادم غرفته.

ففهم فيليب المقصود ووافق على مشيئة والده، الذي أسرع ودفع «شامبانيون» خارج الباب وأغلقه وراءه. ثم عاد الى قرب ابنه وقال له بصوت منخفض:

– رائع!.. رائع!

فأجاب فيليب ببرودة:

– إنك تكيل لي المديح يا سيدي، دون أن أعلم لما استحقيت هذا المديح!

فقال الشيخ مترنحاً: «آه! آه! آه!»

وأكمل فيليب يقول:

– إلا إذا كان مرحك هذا يا سيدي، سببه رحيلي الذي سيريحك مني.

فضحك البارون الشيخ وقال بنغمة مختلفة:

– أوه! أوه! أوه!.. رويدك، فلا حاجة لأن تخفي عليّ

ما في نفسك ، فأنا لست مغفلاً الى هذه الدرجة ... آه ! آه ! آه !

فشبك فيليب ذراعيه وتساءل عما إذا كان والده قد أُصيب بمسٍّ، ثم سأله :

- مغفل عن ماذا ؟

- بالتأكيد عن رحيلك. هل تتوهم بأني مقتنع بهذا الرحيل ؟

- لست مقتنعاً ؟!

- شامبانيو لم يعد هنا. لذا أردد عليك قولي : لا حاجة لأن تخفي عليَّ ما في نفسك. مع ذلك ، أعترف بأنه ليس أمامك سوى هذا الخيار، ولقد اتخذت قرارك ، فحسناً فعلت .

- أنت تدهشني فيما تقول يا سيدي ، إلى درجة ...

- نعم ، إنه لمدهش فعلاً أن أحزر ذلك . ولكن ماذا تنتظر غير ذلك يا فيليب ، فأنا أكثر الناس فضولاً ، وبما أني فضوليّ ، يطيب لي أن أفتش وأبحث ، وهكذا اكتشفت بأنك تتظاهر بالسفر . إني أهنئك على تظاهرك هذا .

فصاح فيليب قلقاً :

- أنا أتظاهر ؟

فتقدم الشيخ ولمس صدر الشاب بأصابعه العظمية ، وقال باسلوب أكثر غموضاً :

– كلام شرف أقوله لك . أنا أكيد بأن كل شيء قد اكتشف . إنك تتدبر الأمور في الوقت المناسب. فاذهب حالاً يا ولدي ، إذهب حالاً ، لأن غداً سيكون متأخراً جداً .

فقال فيليب بلهجة باردة :

– أؤكد لك يا سيدي ، بأني لم أفهم كلمة واحدة من كل ما شرفتني بقوله !

فلم يجاوب الشيخ مباشرة ، بل أكمل يقول :

– أين ستخبئ جيادك ؟ لديك فرس معروفة جداً ، فخذ حذرك من أن يرونها هنا ، عندما يعتقدون بأنك في ... بالمناسبة ، إلى أين ستظاهر بأنك ذهبت ؟

– أنا ذاهب إلى «تافرني – مازون – روج» ، يا سيدي .

– حسناً ... حسناً جداً ... فاذا ما تظاهرت بأنك ذاهب الى «مازون – روج» ، لن يستفهم أحد عن السبب ... ومع ذلك ، كن محترساً ، فهناك عيون كثيرة تلاحقكما ، أنتما الإثنان .

– نحن الإثنان ؟!

فتابع البارون الشيخ يقول :

– خذ حذرك وكن أكثر تعقلاً منها ... فهي طائشة ومتهورة ، وبسبب ما هي عليه ، قد يضيع كل شيء .

فصاح فيليب بغضب :

– ما هذا الكلام يا أبي ! في الحقيقة ، أتصور بأنك تتلهى على حسابي ، وهذا تصرف غير محق . إني أقسم لك ، بأنك فيما تقوله لي ، وأنا على ما أنا عليه من غمّ وسخط ، تحملني على أن أفقد احترامي لك .

– فيما يخص احترامك لي ، أعترف بأنك كنت دائماً توحي إلي بهذا الاحترام ، ولا بأس إن تزعزعت ثقتي بك اليوم . على كل ، أعطني عنوانك حيث ستستقر ، حتى إذا ما حدث شيء عاجل ، تمكنت من إعلامك .

فقال فيليب ، معتقداً بأن والده الشيخ قد عاد أخيراً الى جادة الصواب :

– في «تافرني» يا سيدي .

– ايه ! في «تافرني» ، على بعد ثمانين فرسخاً ! أتعتقد بأنه لو كان لدي نصيحة هامة ومستعجلة أود أن أنفذها اليك ، سألهو بقتل عدة رسل على طريق تافرني دون العثور عليك ؟ هيا وكن واقعياً ، فأنا لا أطلب منك عنوان منزلك قرب «البارك» ، حيث يستطيعون تتبع رسلي ، أو معرفة كسوة خدمي ، ولكن إختر عنواناً ثالثاً لا يبعد أكثر من ربع ساعة .

إن لك مخيلة شيطانية ! فالذي يعمل من أجل غرامياته ، كما تعمل أنت الآن ، تباً له من رجل داهية !

– منزلي قرب البارك ، غراميات ، مخيلة شيطانية ! إننا نلعب لعبة الألغاز يا سيدي ، فاحتفظ بهذه الكلمات لنفسك .

فصاح الأب مغتاظاً :

– أنا لم أعرف حيواناً أكثر كتماناً منك ! كما أني لا أرى في تحفظاتك إلا ما يسيء إلي . ألن يقول الناس بأنك خشيت أن أخونك ؟ إن أمرك لغريب حقاً !

فقال فيليب ساخطاً :

– سيدي !..

– حسناً ! حسناً ! احتفظ بأسرارك لنفسك . احتفظ بسر منزلك الذي استأجرته وكان قديماً مخصصاً لصيد الذئاب .

– أنا استأجرت منزل صيد الذئاب ؟!

– احتفظ بسرّ النزهات الليلية التي قمت بها برفقة صديقتين معبودتين ...

فشحب لون فيليب ودمدم قائلاً :

– أنا !... قمت بنزهة !

– احتفظ بسرّ تلك القبلات التي طعمها أشهى من طعم العسل ...

فزمجر فيليب غضباً وصاح قائلاً :

– سيدي ! سيدي ! هل تريد أن تصمت ؟

– أوَلا تودُّ أن أقول لك كل ما أعرفه عنك ؟ إني أعرف كل شيء ، هل ما زال لديك شك ؟ أنا عالم بما بينك وبين الملكة من صداقة حميمة ، وبمشاريعك المفضلة ، وبنزهاتك في حمامات أبولون ... فلا تخفِ عني يا فيليب ، بل ضع ثقتك بي ، طالما أن مصلحتنا مشتركة .

فصاح فيليب وهو يخبئ وجهه بيديه :

– إنك ترعبني يا سيدي !

وما كان يعانيه فيليب ، كان في الحقيقة مرعباً . فلم يكفه ما هو عليه من شقاء وعذاب ، حتى جاء والده ينسب إليه السعادة التي ينعم بها سواه . فكان مثله في ذلك ، مثل من يعتقد بأنه يدلل ولده ، فيما هو يجلده بسوط مزاحمه على قلب حبيبته !

فكل ما علمه الأب ، وكل ما تنبأ به ، وكل ما نسبه سيئو النية الى الكردينال دي روهان ، بالإضافة الى الأخبار الطيبة عن الكونت دي شارني ، نسبه البارون الشيخ إلى ولده . فبالنسبة إليه ، هو فيليب من تحبُّ الملكة وتدفعه في السر شيئاً فشيئاً إلى أعلى مراتب المحسوبية ، وهذا هو سبب الانشراح

التام الذي جعل كرش البارون دي تافرني يتضخم باستمرار منذ عدة أسابيع.

فعندما اكتشف فيليب هذا المستنقع الجديد من العار، ارتعش إذ رأى نفسه غائصاً فيه بواسطة الكائن الوحيد الذي يتوجب عليه ان يشاركه مصالحه حفاظاً على الشرف. لكن الصدمة كانت من العنف بحيث سمّرته في مكانه طائش الرأس صامتاً، فيما كان البارون يثرثر ويقول بوحي مخيلته الخصبة:

«لقد قمت هناك بعمل رائع، ضلّلت به كل الناس. فهذا المساء، خمسون شخصاً قالوا لي: إنه روهان. وخمسون آخرون قالوا: إنه شارني. ومئتان قالوا: إنهما روهان وشارني. لكن واحداً لم يقل: إنه تافرني. لذا أكرر عليك بأنك قمت بعمل رائع، وهذا أقل كلام أجاملك به... فضلاً عن ذلك، هذا شيء يشرفك كما يشرفها يا عزيزي. يشرفها لأنها أسقطتك في شركها، ويشرفك لأنك ملكتها.

في تلك اللحظة، وفيما كان فيليب يرمق والده بنظرة صاعقة تنذر بهبوب العاصفة، بعد أن أثار هذا الأخير ثائرة غضبه، سُمعت ضجة عربة في فناء القصر، وحدثت حركة ذهاب وإياب غريبة، حملت فيليب على الإصغاء إلى ما يجري خارجاً، فسمع الخادم شامبانيو يصيح:

«الآنسة ! هذه هي الآنسة !»

ورددت بعده عدة أصوات : «الآنسة ! الآنسة !»

فقال تافرني الأب :

- الآنسة !... أية آنسة ؟

فدمدم فيليب مندهشاً ، إذ رأى أندريه تهبط من العربة ، والحاجب ينير لها الطريق بمشعله :

- إنها شقيقتي !...

فصاح الشيخ :

- شقيقتك !... أندريه ؟ هل هذا ممكن ؟

وجاء شامبانيو ليؤكد الخبر بقوله إلى فيليب :

- سيدي ، إن الآنسة شقيقتك في البهو الصغير قرب قاعة الاستقبال ، وهي تنتظر سيدي كي تتحدث إليه .

ثم همهم البارون منذهلاً :

- إيه ! من جاء أيضاً ؟

وصرخ الحاجب منبهاً الخدم المختصين بالضيوف :

- حضرة الكونت أوليفيا دي شارني !

فقال فيليب إلى شامبانيو :

- اذهب بالكونت إلى قاعة الاستقبال ، حيث سيستقبله البارون. أما أنا ، فإني ذاهب إلى البهو الصغير للتحدث مع شقيقتي .

وفيما كان الرجلان يهبطان الدرج بتمهل، كان فيليب يتساءل: «ماذا جاء يعمل الكونت هنا؟» والبارون يتساءل: «ماذا جاءت تعمل أندريه هنا؟»

الأب والخطيبة

★

كانت قاعة الاستقبال الكبرى في قصر البارون دي تافرني، تقع في الطابق الأول، وإلى شمالها الصالون الصغير، ومنه درج يفضي إلى شقة أندريه. وإلى يمين القاعة الكبرى، كانت هناك قاعة صغيرة منها يدخلون إلى الاولى.

فما أن وصل فيليب إلى الصالون الصغير حيث تنتظره أندريه وفتح بابه، حتى ارتمت شقيقته عليه وطوقت عنقه بذراعيها وأخذت تقبله بسرور ما اعتاد هذا الأخ الشقيّ والعاشق الحزين أن يراه على وجه أخته منذ زمن طويل، فسألها قائلاً:

- بحق السماء! ما الذي جرى لك؟

- أوه! شيء سعيد... سعيد جداً يا أخي!

- ورجعت كي تطلعيني عليه؟

فصاحت أندريه بفرح طاغٍ:

- رجعت بصورة نهائية !..

فقال فيليب :

- اخفضي صوتك، اخفضي صوتك أيتها الشقية الصغيرة، فزخارف هذا القصر غير متعودة على الفرح. عدا أن هناك شخصاً في القاعة المجاورة باستطاعته أن يسمعك.

فقالت أندريه :

- شخص !.. ومن يكون هذا الشخص ؟

فأَجاب فيليب :

- اسمعي !..

وأعلن صوت أحد الخدم فيما هو يُدخل أوليفيا من القاعة الصغيرة إلى القاعة الكبيرة :

- حضرة الكونت دي شارني !

فصاحت أندريه وهي تضاعف من تحببها لأخيها :

- هو ! هو ! أوه ! إني أعرف جيداً ماذا جاء يفعل هنا ...

- أوتعرفينه ؟

- كيف لا ! أعرفه كما أعرف نفسي، وأني أتوقع الفرصة التي يتوجب عليَّ فيها أن أدخل بدوري الى القاعة الكبيرة كي أسمع بأذنيَّ ما جاء يقوله الكونت دي شارني ...

- أأنت جادة فيما تقولين أيتها العزيزة أندريه؟

- أصغ، أصغ يا فيليب، ودعني أصعد إلى شقتي. فالملكة

أرجعتني بسرعة ، لذا أريد أن أستبدل ثوب الدير بآخر ، وأن أتزين بما يليق ... بخطيبة !!

لفظت أندريه كلمة «خطيبة» بصوت منخفض ، وأتبعتها بقبلة مرحة على وجنة شقيقها . ثم توارت وراء الدرج المؤدي إلى شقتها ، بعد أن صعدت الدرج المذكور بخفة ورشاقة الغزال !

أما فيليب الذي بقي وحده ، فقد ألصق خده بالباب الذي يفضي من الصالون الصغير الى قاعة الاستقبال ، وأخذ يتنصت .

وكان الكونت دي شارني قد دخل القاعة وأخذ يذرع صحنها الواسع بتمهل ، وبدا أنه يتفكر أكثر مما ينتظر .

وبدوره السيد دي تافرني الأب ، دخل وحيّا الكونت بأدب متكلّف ، أكثر مما هو واجب اجتماعي ، وقال له بعد أن جلس الاثنان :

– ما وراء هذه الزيارة غير المرتقبة التي شرفني بها حضرة الكونت ؟ على كل ، ثق بأنها أفعمت قلبي فرحاً .

– لقد جئت يا سيدي بالثياب الاحتفالية ، كما ترى ، وأرجو المعذرة منك لأني لم أصطحب معي خالي ، القاضي الملكي دي سيفران ، كما كان يتوجب عليّ أن أفعل .

فقال البارون :

- ولِمَ لم تفعل؟ على كل، إني أعذرك يا عزيزي دي شارني.

- في الحقيقة، كان من اللاَّئق حضوره، بالنسبة للطلب الذي أتهيأ لطلبه منك.

فسأله البارون:

- أي طلب؟

فقال شارني بصوت غلب عليه التأثر:

- لي الشرف بأن أطلب يد ابنتك، الآنسة أندريه دي تافرني...

فانتفض البارون في مقعده، وفتح عينيه كأنه يريد أن يلتهم كل كلمة من الكلمات التي تلفظ بها الكونت دي شارني، ثم دمدم قائلاً:

- ابنتي!... تطلب مني أندريه للزواج؟!

- نعم يا سيدي البارون.

ففكر الشيخ في نفسه قائلاً:

«هل من صالح فيليب يا ترى، أن يتزوج شقيقته من كان مزاحماً له في الأمس؟ في اعتقادي أنها صفقة رابحة مع السيد دي شارني».

ثم ابتسم وقال بصوت مرتفع:

- إن هذا الطلب يشرف أسرتنا أيها الكونت، لذا لا

يسعني ، فيما يخصني ، إلا أن أوافق عليه بسرور . ولكن كي تكون الموافقة تامة ، علي أن أُخطر ابنتي ، وأن أقف على رأيها ...

فقاطعه الكونت ببرودة :

– لا حاجة إلى إزعاج نفسك يا سيدي ، فالملكة قد استوضحت الآنسة دي تافرني بهذا الموضوع ، وكان جوابها مطابقاً لرغبتي .

فقال البارون وقد ازدادت دهشته :

– أوه ! إنها الملكة ...

– التي تحملت مشاقّ السفر الى سان دينيس . نعم يا سيدي .

فنهض البارون وقال :

– لم يبق عليَّ يا سيدي الكونت ، إلا أن أطلعك على وضع الآنسة دي تافرني . لدي في الطابق العلوي السندات المتعلقة بثروة أمها ، وأنت حتماً ، لن تتزوج من فتاة غنية قبل أن تتثبت ...

فقال شارني بجفاء :

– لا جدوى من ذلك يا سيدي البارون ، فلدي من الثروة ما يكفيني ويكفيها . والآنسة دي تافرني ليست من النساء

اللواتي يساومون عليهنّ. لكن هذا الموضوع الذي تريد بحثه من أجل حساباتك، لا بدَّ من بحثه أيضاً من أجل حساباتي.

وما كاد شارني يفوه بهذه الكلمات، حتى فُتح باب الصالون الصغير، وبدا فيليب في إطاره شاحب اللون مهزوماً، واضعاً إحدى يديه في سترته، والأخرى مطبقة بتشنج.

فحياه شارني إحتفالياً، فرد عليه فيليب التحية بمثلها، ثم قال له:

- إن والدي على حق بأن يعرض عليك نفقة على حساب العائلة، وكلانا لديه ما يوضحه لك. ففي الوقت الذي يستغرقه صعود والدي إلى مكتبه ليبحث عن الأوراق التي كلمك عليها، سيكون لي الشرف بأن أبحث الموضوع معك بتفاصيل أوفى.

وبعد أن رمق فيليب والده بنظرة آمرة لا مجال للاعتراض عليها، خرج البارون متضايقاً، ومتوقعاً بعض العقبات.

وقد اصطحب فيليب والده حتى الباب الخارجي للقاعة الصغيرة، كي يكون واثقاً من أن هذا المكان سيكون خالياً. ثم ذهب فتأكد من الشيء نفسه في الصالون الصغير الذي قابل فيه شقيقته. ولما اطمأن إلى أن أحداً لن يسمعه، عاد الى الكونت دي شارني، فوقف أمامه شابكاً ذراعيه، وقال له:

- كيف تجرأت يا سيد دي شارني ، وجئت تطلب الزواج من شقيقتي ؟

فاحمرّ أوليفيا ورجع إلى الوراء ، وأكمل فيليب يقول :

- ألكي تخفي بصورة أفضل علاقاتك الغرامية بتلك المرأة التي تلاحقها ، تلك المرأة التي تحبك ؟ ألكي لا يبقى هناك مجال للقول بأن لك عشيقة ، بعد أن تصبح في نظر الناس رجلاً متزوجاً ؟

فقال شارني وهو يترنح :

- في الواقع يا سيدي ...

وأضاف فيليب يقول :

- أتريد أن تتزوج من امرأة يتحتم عليها أن تكون بصورة دائمة قريبة من عشيقتك ، كي يصبح من السهل عليك اكثر ، رؤية هذه العشيقة المعبودة ؟

- سيدي ، لقد تجاوزت الحدود !

فاقترب فيليب من شارني وأكمل يقول :

- وربما كان هدفك من أن تصبح صهري ، وهذا ما أرجحه ، هو أن لا أفضح ما أعرفه عن غرامياتك السابقة .

فصاح شارني مرتعباً :

- ما تعرفه !... حذار ، حذار !

فقال فيليب بانتعاش :

– نعم ، منزل «لوفاتييه» الذي استأجرته ... نزهاتك السرية والليلية في بارك «فرساي» ... يداك المضغوطتان ... تنهداتك ... وبالأخص تلك النظرات الحنونة عند بوابة «البارك» الصغيرة ...

سيدي ، سيدي ، بحق السماء ! أنت لا تعرف شيئاً ، قل بأنك لا تعرف شيئاً ...

فصاح فيليب بتهكم جارح :

– لا أعرف شيئاً !.. كيف لا أعرف شيئاً ، أنا الذي كنت مختبئاً في العليقة وراء بوابة حمامات أبولون ، عندما خرجت والملكة متأبطة ذراعك ؟

فمشى شارني خطوتين ، كان خلالهما كمن ضُرب على رأسه ضربة قاتلة ، فأخذ يبحث عن متكأ حوله ...

فنظر إليه فيليب بصمت وتركه يتألم . تركه يكفِّر بهذا العذاب العابر عن ساعات الملذات الفائقة الوصف التي نسبها إليه وكان يؤنبه عليها .

لكن شارني استعاد حيويته وقال لفيليب :

– بالرغم مما قلته لي ، فأنا ما زلت مصراً على طلب يد شقيقتك الآنسة دي تافرني . فإذا لم أكن سوى مخطط خسيس ، كما افترضت منذ برهة ، ولو تزوجت من أجل نفسي ، سأبقى مع ذلك تعيساً وخائفاً من الرجل الواقف على

سري وسرّ الملكة . لكن يجب إنقاذ الملكة يا سيدي ، يجب إنقاذها من الهلاك !

فقال فيليب :

– وما الذي جعل الملكة هالكة تستوجب الإنقاذ ؟ هل لأن السيد دي تافرني قد شاهدها تتأبط ذراع السيد دي شارني ، وهي تنظر إلى السماء بعينين تفيضان بالسعادة ؟ أم هي هالكة لأني علمت بأنها تحبك ؟ أوه ! إن هذا لا يستأهل تضحية شقيقتي يا سيدي ، ولن أدعها تضحي بنفسها .

فأجاب شارني :

– هل تعلم يا سيدي لماذا ستكون الملكة هالكة إن لم يتمّ هذا الزواج ؟ السبب هو أنه في هذا الصباح بالذات ، وفيما كانوا يوقفون الكردينال دي روهان ، فاجأني الملك راكعاً على قدمي الملكة ...

– يا إلهي !

– وإن الملكة عندما سألها الملك الغيور عن سبب ما كنت عليه ، أجابته بأني جئت أطلب موافقتها على زواجي من شقيقتك . لهذا يا سيدي ، إن لم أتزوج شقيقتك ، ستكون الملكة هالكة ، هل فهمت الآن ؟

هنا قطعت عبارة أوليفيا الأخيرة صرخة وتنهدة ، انطلقتا من الصالون الصغير وقاعة الاستقبال الصغيرة .

فأسرع أوليفيا إلى مصدر التنهدة، فرأى في الصالون الصغير أندريه دي تافرني مرتدية ثوب الخطبة الأبيض، وقد أُغمي عليها بعد أن سمعت كل شيء...

وبدوره فيليب أسرع الى مصدر الصرخة في قاعة الاستقبال الصغيرة، فرأى البارون دي تافرني جثة بلا حياة... فقد صرعه القهر بعد أن تبخرت كل آماله باكتشافه أن من تحبه الملكة هو دي شارني وليس ولده فيليب...

لقد أُصيب البارون بسكتة قلبية مفاجئة، وتحققت بموته نبوءة كاغليوسترو!

وفيليب المطلع على كل شيء والمدرك لمقدار الخجل من هذه الميتة، ترك جثة والده وذهب الى الصالون الصغير، حيث كان شارني يتأمل مرتعشاً تلك الصبية الجميلة الباردة والفاقدة الوعي، دون أن يجرؤ على لمسها...

ورغم قلبه الفائر وعينيه المنتفختين، كان له الجرأة لأن يقول لشارني:

«لقد مات البارون دي تافرني، وبموته أصبحت أنا رب أسرتي. لذا أقول لك: إذا نجت الآنسة دي تافرني من الموت، سوف أوافق على زواجها منك.»

وكان بابا الصالون وقاعة الاستقبال قد تركا مشرعين، مما يتيح للناظر رؤية الجسدين المطروحين أرضاً بتناسق وبشكل

موازٍ، فنظر شارني إلى جثة البارون برعب، وإلى جسد أندريه بيأس... وفيليب الذي كان ينتف شعر رأسه بيديه الاثنتين، أطلق إلى السماء نداءً من الاعماق استهدف بواسطته إثارة الشفقة في قلب الله الجالس على عرشه السرمدي. ثم قال بعد أن هدأت العاصفة في نفسه:

باسم شقيقتي التي لا تسمع، أقطع عهداً على نفسي أيها الكونت دي شارني، بأنها ستهب السعادة للملكة. وأنا أيضاً، ربما جاء يوم كنت فيه سعيداً بأن أهبها حياتي. والآن، وداعاً يا سيد دي شارني... وداعاً يا صهري!

قال فيليب هذا وحيّا أوليفيا، الذي وقف محتاراً لا يدري من أين يخرج كي يتحاشى المرور بالقرب من إحدى الضحيتين... فرفع فيليب شقيقته عن الأرض وأدفأها بين ذراعيه، وهكذا أتاح للكونت المرور، فتوارى عبر الصالون الصغير.

الأفعى، بعد التنين

★

والآن، حان الوقت كي نرجع إلى أشخاص روايتنا الذين قضت الضرورة والحبكة، بالإضافة الى الحقيقة التاريخية، بتنحيتهم قليلاً عن مسرح الاحداث.

لقد تركنا أوليفا، أو نيكول، تستعد للهرب لحساب جانّ. لكن عشيقها بوزير الذي نُبِّه للأمر بصورة مغفلة، أسرع وأنقذها من المنزل الذي سجنها فيه كاغليوسترو، فيما كان الصحافي ريتو ينتظر عبثاً في طرف شارع «روا دوريه».

ولما كان أمر العثور على العاشقين السعيدين يهم كثيراً مدير الشرطة السيد دي غروسن، فقد وضعت السيدة دي لاموت التي شعرت بأنها قد خُدعت، كل ثقلها في القضية، وجنَّدت لها جواسيسها وكل الاشخاص الذين تأتمنهم. رغم أنها كانت تفضل أن تحتفظ لنفسها بسرّ هذه المرأة الشبيهة بالملكة، عوضاً عن أن تشرك الآخرين في هذا السر.

وبعد التنظيم الجيد لعملية البحث الذي أعدَّته جانّ، كان لا بدَّ من العثور على نيكول. ولكن عندما عاد أحد

جواسيسها وأخبرها بأن البحث لم يسفر عن أية نتيجة، اعتراها يأس لا يمكن وصفه...

في تلك البرهة بالذات، بلغتها وهي متخفية، أوامر الملكة المتكررة بوجوب مثولها أمام جلالتها لتبرير سلوكها في قضية العقد.

فسافرت تحت ستار الليل الى بلدة «بار-سير-أوب» حيث كان لها استراحة هناك، فوصلتها دون أن يعرفها أحد، رغم الصعوبات التي اعترضت طريقها. وفي هذه الاستراحة كان لديها متّسع من الوقت كي تتبصر ملياً في وضعها، إذ أمضت فيها يومين وجهاً لوجه مع نفسها، استمدت في خلالهما القوة لتوطيد صرح النميمة والخداع في ذاتها.

فيومان من العزلة بالنسبة لهكذا امرأة غامضة ورهيبة، يعنيان الصراع الذي سينتهي بترويض الجسد والروح، فلا يبقى بعد هذا الترويض مجال ليقظة ضميرية تكون أداة خطرة عليها، وفي الوقت نفسه يعتاد الدم ان يدور دورته في القلب من دون أن يصعد إلى الوجه تعبيراً عن الخجل أو نتيجة للمفاجأة.

ولم يعلم الملك والملكة اللذان كانا يبحثان عن جانّ، بأنها موجودة في «بار-سير-أوب»، إلا في الوقت الذي كانت قد

استعدت هذه الأخيرة لشهر الحرب، فبعثا برسول خاص لجلبها على وجه السرعة.

وكانت جانّ قد علمت بتوقيف الكردينال وزجّه في السجن، وبانفجار الغضب لدى ماري انطوانيت، فقدرت بأن الملكة قد صممت على عدم التراجع، وأن العودة الى الماضي أصبحت مستحيلة، بعد ان غامرت الملكة بكل شيء، برفضها التراضي مع الكردينال ودفع المال الى الصائغين، لذا أعدت لحربها أسلحة جديدة تتناسب مع التطورات الجديدة.

وفيما هي تعدُّ الخطة لحربها المقبلة، وقف فجأة أمامها رجل، نصفه يدل على أنه ضابط شرطة ونصفه الآخر يدل على أنه رسول، وقف وأبلغها بأنه كلف باقتيادها إلى البلاط.

وعندما يُكلف رسول باقتياد شخص إلى البلاط، فهذا يعني بأنه سيذهب به مباشرة إلى الملك. لذا قالت له جان بذلك الدهاء المعروف عنها:

– سيدي، إنك ولا شك تحب الملكة، أليس كذلك؟

فأجابها الرسول:

– وهل تشكين في ذلك يا سيدتي الكونتس؟

– إذن، باسم هذا الحب الملكي والاحترام الذي تكنُّه للملكة، أستحلفك بأن تقودني إليها أولاً.

ولما شاء الضابط الرسول أن يعترض، استأنفت الكونتس كلامها قائلة:

- أنت تعلم بالتأكيد، وأفضل مني، ما هو الأنسب. لذلك لا يخفاك أن لقاءً سرياً بين الملكة وبيني، هو ضرورة لا بدَّ منها.

ونظراً لجوِّ فرساي الذي كان مشحوناً بالدسائس والمؤامرات في ذلك العهد، فقد اعتقد الرسول صادقاً بأنه سيؤدي خدمة للملكة إن هو قاد السيدة دي لاموت اليها قبل أن يذهب بها إلى الملك، وهكذا صار.

ولنتصور الآن ماري انطوانيت الشديدة الحزن على حبها الذي حرمت منه والذي تحوّل إلى فضيحة. ماري انطوانيت المسحوقة بالاتهامات التي لا تستطيع دحضها. لنتصورها بعدما عانت الكثير من العذابات، وهي تتأهب لأن تدوس بقدمها رأس الأفعى التي عضتها!

فالاحتقار البالغ الذروة، والحقد المتفجر، وكره المرأة للمرأة، والشعور بالرفعة التي لا تضاهى في المقام، هذه الامور كلها كانت تشكل سلاح الملكة ضدَّ عدوتها...

وقد بدأت ماري انطوانيت بأن أدخلت إثنتين من نسائها كشاهدتين، ما أن لمحتهما السيدة دي لاموت، حتى قالت في نفسها:

«حسناً ! هاهما شاهدتان ستطردان بعد قليل.»

وبعد أن كانت قد انحنت احتراماً للملكة من دون ان تكلمها هذه الأخيرة، صاحت بها ماري انطوانيت بعد دخول الشاهدتين:

«آه ! ها أنت ! لقد وجدوك أخيراً !»

فانحنت جانّ مرة ثانية، وأكملت الملكة تقول بنفاد صبر:

- إذن، كنت متخفية؟

فأجابت جان بصوت رخيم، بالكاد سُمعت رنته:

- متخفية ! لا يا مولاتي، لو كنت متخفية لما عثروا علي.

- إذن، هربت؟

- إذا كان المقصود بهربي أني تركت باريس، فهذا صحيح يا مولاتي.

- وبدون إذن مني ؟!

- خفت أن لا تمنحني جلالتك الفرصة الصغيرة التي كنت بحاجة إليها كي أتدبر أموري في «بار - سير - أوب»، حيث كنت منذ ستة أيام، وقد بلغني خلالها الأمر بواجب المثول أمام جلالتك. من جهة أخرى، لم أكن أعتقد أنه من الضرورة بمكان أن أكون ملزمة باستئذان جلالتك من أجل غياب مدته ثمانية أيام.

– قد تكونين على حق يا سيدتي. ولكن لمَ الخوف من أن أرفض فرصتك؟ بل أية فرصة لك كي تطلبيها مني؟ وأية فرصة عليَّ أن أمنحك إياها؟ هل أنت تشغلين وظيفة في البلاط؟

فحملت هذه الكلمات الكثير من الاحتقار إلى جانّ، وشعرت بأنها قد جرحت في الصميم. إلا أنها بقيت محافظة على رباطة جأشها كالنمرة التي تصاب بسهم، وقالت بخضوع:

– لا يا مولاتي، الصحيح أني لا أشغل وظيفة معينة في البلاط، لكن جلالتك شرفتني بثقتها الغالية جداً، مما جعلني مرهونة بها بدافع عرفان الجميل، أكثر من ارتهان الآخرين بها بدافع الواجب.

فأجابت الملكة، وقد ضاعفت كلمة «ثقة» ما كانت عليه من احتقار في بداية تأنيبها:

– هذه الثقة، سوف نصفي حسابها. هل رأيت الملك؟

– لا يا مولاتي.

– سوف ترينه.

فحيَّت جان وقالت:

– سيكون ذلك شرفاً كبيراً لي.

وهنا حاولت الملكة أن تستعيد قليلاً من سكينتها، كي تبدأ بطرح أسئلتها بشموخ وغلبة.

فاغتنمت جان هذا التوقف كي تقول:

- ولكن، عجباً يا مولاتي! إنك تبدين قاسية جداً بالنسبة لي، فتجعلينني أرتعش كلياً!

فقالت الملكة بخشونة:

- ما زلت في الرقراق ... هل بلغك أن السيد دي روهان هو الآن نزيل الباستيل؟

- لقد سمعت ذلك يا مولاتي.

- وهل تعرفين لماذا؟

فأنعمت جانّ النظر في الملكة، ثم استدارت نحو المرأتين اللتين كان حضورهما يزعجها، كما يبدو، وقالت:

- لا يا مولاتي، لا أعرف.

- أنت تعرفين، مع ذلك، بأنك كنت قد كلمتني على عقد... أليس كذلك؟

- عقد من الماس، نعم يا مولاتي.

- وأنك اقترحت علي، من قبل الكردينال، ترتيباً لدفع ثمنه؟

- هذا صحيح يا مولاتي.

- هل قبلتُ أم رفضتُ هذا الترتيب؟

- لقد رفضته جلالتك .

وبعد أن قالت الملكة برضى ممزوج بالدهشة : آه ! أضافت جانّ :

- وأيضاً وهبت جلالتك عربوناً قدره مئتا ألف ليرة .

- حسناً ... وبعد ذلك ؟

- بعد ذلك ، لم تتمكن جلالتك من الدفع لأن السيد دي كالون لم يؤمن لها المبلغ المطلوب ، فردت علبة المجوهرات الى الصائغين بوهمير وبوسانج .

- بواسطة من رددتها ؟

- بواسطتي .

- وأنت ، ماذا عملت بها ؟

فقالت جانّ بتوان ، شاعرة بتبعة كل كلمة ستتلفظ بها :

- أنا ، سلمت الماسات إلى الكردينال .

فصاحت الملكة .

- إلى الكردينال !.. ولماذا إلى الكردينال وليس إلى الصائغين؟

- لأن السيد دي روهان يا مولاتي ، معنيٌ بهذه الصفقة التي كانت جلالتك جدُّ مرتاحة لها ، فان لم أُتح له الفرصة كي ينهيها هو كما يشاء ، أكون قد طعنت كرامته .

- ولكن كيف حدث أن جئتني بايصال من الصائغين ؟

- لأن السيد دي روهان قد سلمني هذا الايصال .

- والرسالة التي سُلمت إلى الصائغين ، على أنها صادرة عني ؟

- لقد رجاني السيد دي روهان أن أسلمها إليهما .

فصاحت الملكة .

- إذن ، هو دائماً السيد دي روهان الذي اهتمّ بذلك !

فأجابت جانّ وهي شاردة الذهن :

- لا أعلم ما الذي تريد قوله جلالتك ، ولا بما اهتمّ به السيد دي روهان .

- أريد القول بأن إيصال الصائغين المبعوث بواسطتك ، هو مزور !

فقالت جانّ متظاهرة بالبراءة :

- مزور ! أوه ! مولاتي !

- أريد القول بأن الرسالة المزعومة بالموافقة على شراء العقد ، والموقعة مني ، كما ظن الصائغان ، هي مزورة أيضاً !

فصاحت جانّ وقد تظاهرت بالدهشة :

- آه !

وتابعت الملكة تقول :

- وأخيراً ، أريد القول بأن مواجهتك بالسيد دي روهان ، هي أكثر من ضرورية لتوضيح هذه القضية .

فقالت جانّ :

- مواجهة!.. ولكن أية حاجة تستوجب مواجهتي بالكردينال يا مولاتي؟

- هو نفسه يطلب هذه المواجهة.

- هو؟

- وقد بحث عنك في كل مكان.

- ولكن، هذا مستحيل يا مولاتي.

- يريد أن يثبت لك، كما كان يقول، بأنك قد خدعته.

- أوه! إذا كان الأمر كذلك، فأنا أطلب مواجهته.

- ثقي بأن طلبك سيتحقق. إذن، أنت تنكرين معرفتك أين هو العقد؟

- كيف يمكنني أن أعرف أين هو؟

- أوتنكرين بأنك اشتركت مع الكردينال في بعض الدسائس؟

- لجلالتك ملء الحق بأن تسقط الحظوة عني، ولكن ليس لها أي حق بأن تهينني. فأنا من عائلة فالوا يا مولاتي.

- إن الكردينال قد أصرَّ أمام الملك على فضائح، ظنَّ بأنها تستند إلى أُسس جدية.

- لم أفهم يا مولاتي.

- صرَّح الكردينال بأنه كان يراسلني!

فنظرت جانّ إلى الملكة مواجهة ولم تجاوب. فقالت لها الملكة:

- ألم تسمعيني؟

- بلى، أسمعك يا مولاتي.

- وما هو جوابك؟

- سأجيب عندما أتواجه مع الكردينال.

- حتى ذاك الوقت، إذا كنت تعرفين الحقيقة، ساعدينا!

- الحقيقة يا مولاتي، هو أن جلالتك تهينني بدون سبب، وتسيء معاملتي بدون حق.

- هذا ليس جواباً!

- مع ذلك يا مولاتي، لن أقول هنا إلا الذي قلته.

وتطلعت جان إلى المرأتين مرة أخرى، ففهمت الملكة قصدها، لكنها أبت إلا الامعان في إذلالها، فقالت:

- السيد دي روهان أُودع في الباستيل لأنه شاء أن يتكلم كثيراً، فخذي حذرك يا سيدتي من أن تستحقي نفس المصير، لأنك شئت أن تصمتي!

فغرزت جانّ أظافرها في لحم يديها، لكنها ابتسمت وقالت:

- وهل بإمكان الباستيل أن يرغمني على الاعتراف بجريمة لم أرتكبها؟

فألقت ماري انطوانيت على جانّ نظرة غضب، وسألتها:

- ألن تتكلمي؟

- ليس لدي ما أقوله يا مولاتي، إن لم يكن لك.

- لي؟ عجباً! ألست معي أنت الآن تتكلمين؟

- ليس معك وحدك.

فصاحت الملكة قائلة:

- آه! أنت تريدين الأبواب مغلقة. أنت تخشين الفضيحة العلنية، بعد أن سببت لي فضيحة الشك العلني!

- أرجو عدم التحدث بهذا الموضوع يا مولاتي، فما عملته أنا، كان من أجلك أنت.

- يا للوقاحة!

فقالت جانّ دون أن يتغير لونها:

- لقد تحملت باحترام إهانات ملكتي.

فردت عليها الملكة قائلة:

- سوف تباتين في الباستيل هذا المساء، يا سيدة دي لاموت!

فأجابت المتهمة:

- ليكن يا مولاتي. ولكن قبل أن أبات، وكما هي عادتي، أسأل الله ان يديم العزة والبهجة لجلالتك.

فنهضت الملكة غاضبة، وتوجهت الى الغرفة المجاورة وهي تصفق الأبواب بعنف، ثم قالت في نفسها:

«بعد أن تغلبت على التنين، سوف أسحق رأس الافعى؟ فقد بتُّ أعرف ألاعيبها عن ظهر قلب، وأعتقد بأني ربحت الجولة.»

قصد الصيد ... فاصطادوه!

★

وهكذا تم اعتقال السيدة دي لاموت كما شاءت الملكة، وكانت فرحة الملك لا تضاهى، لأنه كان يكره هذه المرأة كرهاً شديداً وبصورة فطرية.

وجرت المحاكمة بقضية العقد بكل الحماس الذي يمكن أن يثيره تاجران على وشك الافلاس أملاً بالتخلص من الورطة التي وقعا فيها، ومتهمون يريدون أن يدفعوا التهمة عنهم، وقضاة وُضع شرف وحياة الملكة بين أيديهم، بالإضافة إلى التحزب لصالح هذا الفريق أو ذاك.

لقد كانت هذه المحاكمة بمثابة صرخة مدوية في كل فرنسا، استطاعت معها الملكة أن تتعرف إلى أنصارها وأعدائها، وأن تقوم بعملية إحصاء لهم.

واستمرّ الكردينال دي روهان منذ أن اعتقل، يطالب بمقابلة مع السيدة دي لاموت، إلى أن تحققت رغبته. وقد كان الأمير يعيش في الباستيل كسيد كبير. فخلا الحرية، كانت تتأمن له كل طلباته.

والمحاكمة منذ البدء، قد قوبلت باشمئزاز كبير، مراعاة لنوعية الاشخاص المتهمين. فالناس قد اندهشوا واستفظعوا ان يتهم أمير من آل روهان بالسرقة. كذلك كان الضباط وحاكم الباستيل يظهرون كل احترام للكردينال السيء الحظ. فبالنسبة إليهم، لم يكن متهماً، بل رجلاً زالت الحظوة عنه.

وعندما انتشرت الشائعات في الأوساط الشعبية بأن الأمير دي روهان هو ضحية الدسائس في البلاط، انقلب عطف الشعب عليه إلى حماس له.

والامير دي روهان الذي هو واحد من أنبل نبلاء المملكة الفرنسية، لم يكن يعلم بأن حب الشعب له سببه الظلم الذي لحقه ممن هو أنبل منه. فالكردينال الذي كان آخر ضحايا الطغيان، كان في الواقع من أوائل الثائرين في فرنسا.

ومقابلته مع السيدة دي لاموت تميزت بحدث جدير بالملاحظة. فالكونتس التي سمحوا لها بأن تتكلم بصوت منخفض كلما كان الموضوع يتعلق بالملكة، تمكنت من ان تقول للكردينال:

«أبعد كل الناس، وأنا مستعدة لإعطائك كل الايضاحات التي تطلبها.»

عندئذ أبدى الكردينال رغبته بأن يبقى وحده معها، فرفض طلبه. لكنهم سمحوا لمستشاره بأن يطرح ما يشاء من الاسئلة على الكونتس، ففعل. وقد أجابته عن سؤال يتعلق بالعقد:

«إني أجهل مصيره، ولكن كان من الحق أن يُعطى لي!»

وفيما كان المستشار يصيح غاضباً، وقد أذهلته جرأة هذه المرأة، سألته عما إذا كانت الخدمة التي أدتها الى الملكة والكردينال لا تساوي مليوناً...

فكرر المحامي هذا القول على الكردينال، مما جعله يشحب ويخفض رأسه، إذ ثبت له أنه قد سقط في فخ هذا القناص الجهنمي الذي يدعى الكونتس دي لاموت!

وعمد الى التفكير في طريقة يخنق معها الضجة التي ستؤدي بالملكة إلى الهلاك، إلا أن أصدقاءه أخذوا يحرضونه كي لا يقطع حبل الضغينة.

ودعموا اعتراضهم بأن شرفه معرض للخطر، لأن الموضوع يتعلق بشرفه، وبدون قرار يتخذه البرلمان ستبقى براءته غير ثابتة.

فكي تثبت براءة الكردينال، يجب والحالة هذه أن تثبت علاقته بالملكة، وبالتالي أن تثبت جريمة هذه الأخيرة.

عند هذا التروي، أجابت جانّ بأنها لا تتهم الملكة ابداً، كما أنها لا تتهم الكردينال. ولكن إذا أصرّا على اتهامها بأنها هي المسؤولة عن العقد، فستضطر إلى قول ما لا تريد أن تقوله. أي أنها ستثبت بأن للملكة والكردينال مصلحة في اتهامها بالكذب.

فعندما أُبلغت هذه الخلاصة إلى الكردينال، أظهر الأمير كل احتقاره لتلك المرأة التي تود التضحية به بهذه الطريقة. وأضاف بأنه يفهم إلى حد ما سلوك جانّ، لكنه لا يفهم إطلاقاً سلوك الملكة!

هذه الكلمات التي نقلت إلى الملكة وفُسِّرت، جعلتها تنتفض وتقفز من مكانها مهتاجة، وتطلب إجراء استنطاق خاص لاستجلاء الجوانب الغامضة لهذه المحاكمة.

وعندئذ قامت القيامة في طول البلاد وعرضها على اللقاءات الليلية، وقد غذّى الضجة حولها النمامون ومختلقو الأخبار، فوجدت الملكة نفسها مهددة بخطر جسيم!

أما جانّ، فأمام خاصة الملكة كانت تقول بأنها لا تعرف شيئاً عما يتحدث به الناس. ولكنها لم تكن هكذا متكتمة امام خاصة الكردينال، بل كانت تردد دائماً:

«ليتركوني وشأني، وإلا سأتكلم!..»

هذا التكتم، وهذا التواضع، جعلا منها بطلة، وعرقلا مسيرة العدالة. حتى أن أجرأ المدققين في الملفات، كانوا يرتعشون وهم يراجعون الاضبارات الخاصة بهذه الدعوى. ولم يجرؤ أي محقق على متابعة استجواب الكونتس!

فهل ازداد الكردينال وهناً، فازداد صراحة؟ هل اعترف لأحد أصدقائه بما كان يعتبره سرَّ حبه؟ لا أحد يعلم، ولا يجوز لأحد أن يصدق ذلك، لأن الكردينال كان وفياً وذا قلب نبيل يليق بأمير من آل روهان. ولكن بقدر ما كان ملكياً في صمته، بقدر ما عمت الضجة حول محاورته للملكة. فكل ما كان قد قاله الكونت دي بروفانس، وكل ما كان قد عرفه أو شاهده شارني وفيليب، وكل هذه الألغاز المبهمة لأكثر من طامع في العرش، كشقيق الملك، وكل سرّ هذه الغراميات العفيفة التي لحقها الكثير من الافتراء، كل هذا قد تبخر كما العطر، وشاع في كل مكان، وأصبح على كل شفة ولسان!

وأخذ الناس يفكرون عما إذا كانت الملكة قد وجدت مدافعين عنها متحمسين، وعما إذا كان الكردينال قد وجد هو الآخر مدافعين عنه غيورين.

والسؤال لم يكن: «هل الملكة سرقت العقد أم لا ؟» فمع أنه سؤال مخزٍ في حدِّ ذاته، إلا أنه لم يكن كافياً. لذا السؤال المطروح كان:

«هل اضطرت الملكة أن تسمح لواحد اكتشف سرّ غرامياتها الخيانية، بأن يسرق العقد؟»

وهكذا استطاعت جان أن تتجنب الحرج، وأن تؤلب الرأي العام ضدَّ الملكة، فوجدت ماري انطوانيت نفسها تسير في طريق لا يوصل إلا إلى الخزي والعار. مع ذلك، ما انهارت ولا وهنت عزيمتها، بل قررت أن تناضل، وقد دعمها الملك في نضالها، كذلك دعمها الوزراء بكل قواهم.

وتذكرت ماري انطوانيت بأن الامير دي روهان كان رجلاً شريفاً، وان تصرفاته لا تنم عن استعداده لأن يودي بامرأة الى الهلاك، وهذا ما أثبته في كل مرة زار بها قصر فرساي.

وانتهت الى الاعتقاد بأن الكردينال ليس عدوها المباشر، وأنه مثلها يهمه قبل كل شيء أن يخرج من هذه القضية وشرفه مصان.

فانصبَّ عندئذ جهدها في هذه الدعوى على الكونتس، وتضاعف النشاط في البحث عن العقد من خلال استنطاقها وحملها على قول الحقيقة.

والملكة التي قبلت الجدل في اتهامها السخيف بالخيانة الزوجية، قد ألقت على جانّ بالتهمة المرعبة في سرقة العقد بالطرق الاحتيالية.

وغدا حديث الناس كلهم ضدٌّ مصلحة الكونتس. فسوابقها، وحياة البؤس التي سبق أن عاشتها، ورفعة مقامها المستهجنة، والنبالة التي لا يمكنها أن تقبل فجأة هكذا أميرة، كل هذه الأمور كانت موضع شك من قبل الشعب. لكن الشعب الذي يكره المغامرين بالغريزة، ولا يغفر لهم حتى نجاحاتهم، لم يكن باستطاعته أن يطالب الكونتس.

وتبين لجانّ بأنها سارت في طريق الضلال، وبأن الملكة، بتحملها للتهمة وعدم استسلامها للخوف من الضجة، تدعو الكردينال للاقتداء بها، وبأنه لا بدّ لها في النهاية من أن تلقى آذاناً صاغية وتبصر النور. وحتى إن سقطت، فهي ستسقط في هوة رهيبة تنسحق معها تلك الاميرة «الفالوازية» المسكينة، ساعة لا يبقى لديها من المليون الذي سرقته، حتى ما يكفي لرشوة قضاتها.

وفيما كان الوضع هكذا، جرت واقعة غيرت مجرى الأمور. فبوزير الذي كان يعيش مع أوليفا عيشة سعيدة في منزل ريفي، عنَّ له يوماً أن يذهب لاصطياد الأرانب البرية. ولكن ما أن ترك أوليفا وحدها في المنزل وخرج، حتى سار

في إثره إثنان من عملاء السيد دي غروسن، مدير الشرطة، الذي كان قد زرع جواسيسه في كل أنحاء فرنسا، كي يصل الى خاتمة لهذه المؤامرة على الملكة بإلقاء القبض على المرأة التي تشبهها وتجيِّر لها كل تصرفاتها.

وكان العاشقان يجهلان كل ما يجري في باريس، ولا يفكران إلا بنفسيهما. فالآنسة أوليفا قد سمنت حتى أصبحت كالشرعوب العائش في مخزن الغلال، وبوزير غمرته السعادة وزايله كل قلق.

وفيما كان بوزير يبحث عن الأرانب البرية، طار على مسافة منه رفُّ حجال، فاجتاز إحدى الطرق ليلحق به. وهكذا فيما هو يسعى وراء الشيء الذي كان يقصده، التقى ما لم يكن يقصده... فرجلا الشرطة اللذان كانا يبحثان عن أوليفا، وجدا أمامهما بوزير.

وكان أحد هذين الجاسوسين رجلاً نبيهاً، فعندما عرف بوزير جيداً، عوضاً عن أن يلقي القبض عليه بعنف، وهذه طريقة غير مجدية، وضع الخطة التالية التي عرضها على رفيقه بقوله:

«طالما أن بوزير يصطاد، فهذا يعني أنه حرٌّ وأنه ثريّ. قد يكون في جيبه الآن خمس أو ست ليرات ذهبية، ولكن من المحتمل أن يكون لديه في منزله مئتان او ثلاث مئة ذهبية.

فلندعه يعود الى منزله، ثم نلجه ونعرض عليه فدية. لأننا إذا عدنا به إلى باريس، لن نحصل سوى على مكافأة عادية قدرها مئة ذهبية. وفوق ذلك سينالنا التأنيب لأننا تسببنا في زجِّ شخص في السجن له بعض الاعتبار.»

وأخذا يصطادان الحجال والأرانب كما كان يفعل السيد بوزير. فعندما يكون هناك أرنب يطلقون الكلاب في إثره، وعندما يكون هناك حجل يحوشانه خلال نبات الفصَّة والبرسيم.

فعندما رأى بوزير هذين الغريبين يتدخلان في شؤونه ويزاحمانه على الصيد، أدهشه ذلك كثيراً بادئ الأمر، ثم استشاط غضباً فيما بعد.

ولكنه عوضاً عن أن يسأل هو نفسه هذين «الرفيقين» عن الدافع الذي جعلهما يزاحمانه في صيده، اندفع مباشرة باتجاه حارس لحه في السهل، وكلفه بأن يذهب ويسأل هذين السيدين لماذا يصطادان في هذه البقعة من الأرض. فذهب اليهما الحارس وفي نيته أن يمنعهما من الصيد، على اعتبار أنهما من غير سكان المنطقة. لكن الغريبين قالا له بأنهما يصطادان بمعية صديق لهما، وأشارا إلى بوزير على أنه ذلك الصديق!

عندئذ ذهب بهما الحارس إلى بوزير، وقال له:

«إن هذين السيدين يزعمان بأنهما يصطادان برفقتك يا سيد دي لانفيل.»

فصاح بوزير غاضباً:

- برفقتي... أنا!

وقال له أحد الجاسوسين بصوت منخفض:

- عجباً يا عزيزي بوزير! إذن أنت تدعي أيضاً السيد دي لانفيل؟

فارتعش بوزير، لأنه كان دائماً يخفي اسمه الحقيقي في ذلك الريف. ثم نظر إلى أحد الجاسوسين، وانتقل بالفطرة إلى الآخر، فارتعب إذ تخيل له بصورة غير أكيدة أنه يعرف هذين الوجهين... وكي لا تتفاقم الامور، صرف بوزير الحارس آخذاً على عاتقه مسؤولية هذين السيدين. فقال له الحارس:

- إذن، أنت تعرفهما؟

فأجابه أحد الجاسوسين:

- نعم، تعرفنا إلى بعضنا البعض.

عندئذ وجد بوزير نفسه بحضور هذين السيدين، مرتبكاً في التحدث إليهما من دون أن يعرّض نفسه للخطر. فقال له من كان أكثر لباقة وظرفاً من الجاسوسين:

– يسرنا أن تدعونا إلى الغداء على مائدتك يا سيد بوزير !

فصاح بوزير :

– على مائدتي ! ولكن...

– ونرجو المعذرة عن هذه الوقاحة يا سيد بوزير.

فطاش رأس بوزير وانقاد إلى ما لا يريده، وتوجه الثلاثة الى منزله. وما أن لمح رجلا الشرطة البيت الصغير الذي يقطنه عشيق أوليفا، حتى أخذا يمتدحان أناقته، وموقعه، وفنه الهندسي، والأشجار التي تحيط به، وذوق من اختاره ليكون مكاناً لإقامته.

وفعلاً كان بوزير قد اختار مكاناً فتاناً ليكون عشاً لغرامياته، هو كناية عن وادٍ صغير مشجَّر يتوسطه نهر صغير، وقد شُيِّد المنزل على منحدر منه الى الشرق. وكان لهذا المنزل مرقب، هو نوع من القبة الصغيرة بدون جرس، كان بوزير يستعمله كمرصد يشرف منه على الريف أيام السأم، عندما تخبو أفكاره الجميلة ويصبح في نظره، كل فلاح يحنو على محراثه مفوضاً للشرطة !

وكان هذا المسكن يبدو ضاحكاً للأعين من جهة واحدة. أما الجهات الباقية منه، فكانت مغمورة بالأشجار والثنيات الأرضية. فقال أحد الجاسوسين بإعجاب :

«يا للمخبأ الجميل في هذا المكان!»

فارتعش بوزير من هذه الدعابة، ودخل الأول إلى منزله على نباح الكلاب في الفناء.

ثم لحق به الشرطيان، بعد أن تبادلا المجاملات في من يجب أن يدخل أولاً...

العاشقان يقعان في الفخ

★

بعد أن دخل بوزير من بوابة الفناء، تعمد الضجة الكافية كي يلفت نظر أوليفا إلى واجب الاحتراس، دون أن يكون على علم بشيء من قضية العقد، إلا أنه كان يعرف أشياء عما جرى في حفلة الاوبرا الراقصة، وعما جرى أيضاً في عيادة الدكتور ميسمار، وهذا كافٍ لأن يجعله يخاف على أوليفا من الظهور أمام شخصين غريبين.

وكان تصرفه محقاً، لأن أوليفا كانت تقرأ إحدى الروايات الخلاعية وهي مسترخية على أريكة في صالونها الصغير، فما أن سمعت نباح الكلاب ونظرت إلى الفناء، حتى رأت بوزير برفقة شخصين، مما جعلها تمتنع عن ملاقاته كما تعودت أن تفعل.

ولسوء الحظ، لم يكن هذان العاشقان خارج مخالب النسر. فعندما طلب بوزير من أحد الخدم أن يهيئ الغداء، سأله هذا الخادم الساذج مرتين أو ثلاث، عما إذا كان يتوجب عليه أن يأخذ أوامر سيدته. مما جعل الجاسوسين يصيخان السمع، ويسخران من بوزير بتحجب على هذه الزوجة المتخفية. لكن بوزير فضَّل هذه السخرية على أن يظهر زوجته.

وأثناء المأدبة السخية التي مُدَّت على شرف الجاسوسين، شرب هذان عدة مرات نخب السيدة الغائبة!

وبعد أن أفرغا في جوفيهما عدة زجاجات من الخمر، ارتأى رجلا الشرطة بأنه من غير الجائز «انسانياً» أن يطيلا عذاب مضيفهما، فدخلا معه مباشرة في حديث مؤاده: كم يسرّ أصحاب القلوب الطيبة، بأن يلتقوا أصدقاءهم القدماء...

عند ذاك، سأل بوزير المجهولين فيما هو ينزع سدادة قنينة خمر معتقة:

– في أي مكان، وفي أية مناسبة، كان لي شرف التعرف إليكما؟

فأجابه أحدهما:

- لقد كنا صديقين لأحد شركائك، أثناء صفقة صغيرة قمت بها معهم... صفقة السفارة البرتغالية!

فشحب لون بوزير، وشعر كأن حبلاً يلتف حول عنقه... ثم قال في حيرة وهو يرتعش:

- آه! صحيح، لقد جئتما تطالباني بالنيابة عن صديقكما...

فقال احد الجاسوسين لرفيقه همساً:

- في الواقع، إنها فكرة، ومدخل يتسم بالشرف. فالمطالبة بحق صديق لنا غائب، هو عمل أخلاقي!

فأجاب رفيق ذلك الأخلاقي، مع ابتسامة مبطّنة جعلت بوزير يرتعش من قمة رأسه إلى أخمص قدميه:

- وفوق ذلك، تبقى جميع حقوقنا الباقية محفوظة.

ثم استدار الشرطي الاخلاقي نحو بوزير، وقال له:

- إذن، يسرنا يا عزيزي بوزير أن ترد لأحدنا حصة صديقنا، وهي عشرة آلاف ليرة، كما أعتقد.

وأكمل الرفيق الايجابي:

- على الأقل، مع العلم بأننا لن نطالب بالفوائد المستحقة!

فأجاب بوزير وقد ضيّق أنفاسه هذا المطلب:

– ولكن في الريف يا سيديَّ، ما من أحد يملك في منزله عشرة آلاف ليرة.

– ذلك أمر مفهوم يا عزيزي، ونحن لن نطلب المستحيل. كم باستطاعتك أن تدفع الآن؟

– لدي خمسون أو ستون ذهبية، لا أكثر ولا أقل.

– حسناً، سنأخذ المتيسر الآن، مع شكرنا على اللطف الذي بدر منك.

فقال بوزير في نفسه:

«يبدو أن معاشرتهما سهلة. ومما لا شك فيه أنهما سيكونان راضيين كل الرضى، ويلوذان بالصمت المطلق.»

ومن فرط ثقته فيما اعتقد، ندم لأنه لم يعرض عليهما ثلاثين ذهبية بدلاً من ستين. لكنه أمَّل بأن يتخلص منهما بسرعة بواسطة هذا المبلغ، فقال لهما وقد خشي أن يسترسلا في شرب الخمرة فتزداد دالتهما عليه:

– سأجيئكم بهذا المبلغ فوراً...

فصاح الاثنان سوية:

– لسنا مستعجلين! لسنا مستعجلين!

فقال بوزير:

– مع ذلك، أفضل الدفع الآن، لأن ضميري لن يرتاح إلا بعد الدفع!

وشاء ان يتركهما ويصعد الى الطابق العلوي لجلب المال. لكن رجلي الشرطة اللذين اعتادا، عملا بمقتضيات الوظيفة، ان لا ينفصلا عن الغريم عندما يصبح تحت رحمتهما، تماماً كما يفعل كلب الصيد مع الحجل المجروح، إذ إنه لا يتركه إلا بعد ان يسلّمه الى الصياد، أسرعا إلى الإمساك بأهداب ثوبه الجوخي الأخضر، وصاحا قائلين:

- أيها العزيز بوزير! أيها العزيز بوزير!

فسألهما بوزير:

- ما بكما؟

فقالا وهما يرغمانه بلطف على الجلوس:

- من فضلك، لا تتركنا!

- ولكن كيف تريدان ان أعطيكما مالكما، إذا لم تتركاني أصعد؟

فأجابه الشرطي الايجابي برقة مخيفة:

- سوف نصعد معك!

فقال بوزير باستغراب:

- ولكنها... غرفة زوجتي!

وهذه العبارة التي كانت حجة قوية في نظر بوزير لمنعهما من اصطحابه، كانت بالنسبة للجاسوسين كالشرارة النارية التي تلهب البارود، إذ صاح أحدهما قائلاً:

- ولماذا تخبئ زوجتك ؟

وأكمل رفيقه :

- نعم ، لماذا تخبئها ؟ ألسنا لائقين لأن تقدمنا إليها ؟

ثم عاد الاول ليقول :

- لو كنت تعلم ما نقوم به من أجلك ، لكنت أكثر لياقة معنا .

وأضاف الثاني :

- ولما ضننت علينا بشي مما نطلبه منك .

فقال بوزير :

- آه ! بخصوص ما تطلبانه ، سوف تنالانه بكل طيبة خاطر .

فأجاب الشرطي الايجابي :

- لقد قررنا أن نرى زوجتك أولاً !

فصاح بوزير وقد فقد صوابه :

- وأنا قررت أن أضعكما خارجاً !

فردّ عليه الشرطيان بضحكة مدوية لم تعده إلى صوابه ، بل زادته تصلباً ، فقال :

- والمال الذي وعدتكما به لن تحصلا عليه ، وسوف ترحلان من منزلي .

فضاعف الشرطيان ضحكهما، مما جعل بوزير يرتعش من شدة الغضب ويقول بصوت مخنوق:

– حذار من التمادي في الهزء والسخرية، وإلا ...

لكن الشرطيين استمرا يضحكان، إذ طابت لهما السخرية فكانت جوابهما الوحيد.

وظن بوزير أنه سيرعبهما إذا ما تظاهر بالبأس والقوة. فأسرع متجهاً نحو الدرج، لا بهيئة الرجل الذي يود جلب الليرات الذهبية، بل كغاضب يود استحضار سلاحه.

عندئذ نهض الشرطيان عن الطاولة، وجريا وراء بوزير، وأطبقا بقبضات أيديهما عليه.

وفيما كان ذلك المسكين يصيح ويصرخ، فُتح أحد الأبواب وظهرت في إطاره امرأة مضطربة، ما أن رآها الشرطيان حتى تركا بوزير وشأنه وأطلقا صيحة فرح وانتصار ودهشة... لقد عرفا فيها المرأة التي تشبه شبهاً كبيراً ملكة فرنسا!

فاعتقد بوزير لحظة أن الغريبين قد رميا سلاحهما أمام أوليفا، لكن ظنه ما لبث أن خاب.

إذ تقدم الشرطي الايجابي من الآنسة أوليفا، وألقى على شبيهة الملكة نظرة، ثم قال بلهجة خالية من التهذيب تقريباً:

– آه! آه! إني ألقي القبض عليك!

فصاح بوزير :

- تلقي القبض عليها ! ولماذا ؟

فأجاب الشرطي الآخر :

- لأن السيد دي غروسن قد أمرنا ، ونحن في خدمة السيد دي غروسن .

ولو أن الصاعقة قد انقضت بين العاشقين ، لما أرعبتهما بقدر ما أرعبهما هذا التصريح ...

ثم قال الشرطي الايجابي إلى بوزير :

- لهذا السبب ، لم نتمكن أن نكون لطيفين معك ، كما كنت معنا .

فاستدرك رفيقه قائلاً :

- أنت غلطان يا لوغرينيه ، فلو أن السيد بوزير كان لطيفاً معنا ، لما حجب عنا زوجته . مهما يكن من أمر ، فإننا سنقبض على السيدة .

وكان بوزير قد أسند رأسه المحموم بكلتا يديه وأخذ يفكر ، وإذ بفكرة تلتمع في رأسه ، فيبتسم لها بشيء من الاطمئنان ويسأل الشرطيين :

- لقد جئتما لإلقاء القبض عليّ أنا ، أليس كذلك ؟

فأجاب الاثنان بسذاجة :

- لا ، إنها الصدفة فقط !

- لا بأس، يمكنكما توقيفي، طالما أنكما قد وافقتما على إطلاق سراحي بستين ذهبية.

فقال له أحد الشرطيين:

- أوه! لا، كان في نيتنا أن نطلب ستين ذهبية أخرى.

وأكمل الثاني يقول:

- ونحن عند كلامنا. فمقابل مئة وعشرين ذهبية، سوف نطلق سراحك.

فقال بوزير مرتعشاً:

- لكن... السيدة؟

فأجاب الشرطي الايجابي:

- أوه! فيما يتعلق بالسيدة الأمر يختلف!

فأسرع بوزير الى القول:

- لقد فهمت. إن إطلاق حرية السيدة، يكلف مئتي ذهبية، أليس كذلك؟

فأخذ الشرطيان يضحكان ضحكاً مرعباً، مما جعل بوزير يدرك الحقيقة المرة... فقال والحسرة تتآكله:

- ثلاث مئة... أربع مئة... ألف ليرة ذهبية! فقط اتركاها حرة.

فبقي الشرطيان صامتين، وأكمل بوزير يقول والشرر يتطاير من عينيه:

– ألا تجيبان !.. أنتما تعلمان بأني ثريّ، وتريدان أن أدفع لكما، ومطلبكما عادل جداً. لذا سأعطيكما ألفي ذهبية، وهذا المبلغ يؤمن ثروة لكل منكما، فقط اتركاها حرة !

فسأله الشرطي الايجابي :

– ألهذه الدرجة، تحب هذه المرأة ؟!

فجاء هذه المرة دور بوزير بالضحك، لكنه كان ضحكاً مرعباً يعكس الحب البائس الذي يفترس قلبه، مما أخاف الشرطين وجعلهما يحذران من انفجار اليأس الذي كانا يقرآنه في عيني بوزير التائهتين.

فسحب كل منهما مسدسه من جيبه ووضع فوّهته على صدر بوزير، وقال له أحدهما :

– لو دفعت لنا مئة ألف ريال، لما تخلينا عن هذه المرأة. فالأمير دي روهان سيدفع لنا خمسماية الف ليرة، والملكة مليوناً.

فرفع بوزير عينيه إلى السماء، وتعابير الألم المرتسمة على وجهه تثير شفقة الوحش المفترس، إلا أنها لم تثر شفقة رجلي الشرطة، بل قال له الايجابي منهما :

– هيا، وسر أمامنا ! يتوجب عليك تدبير عربة للسيدة !

وقال له الآخر :

– وبما أننا لسنا سوى شيطانين طيبين، سنترفق بك. أي أننا سنصطحبك معنا شكلياً، وفي الطريق نغضّ الطرف، فتقفز أنت من العربة إلى الأرض، ولا نلتفت نحن إليك إلا بعد أن تكون قد ابتعدت مئة خطوة. وهذه معاملة حسنة، أليس كذلك؟

فأجاب بوزير:

– أينما تذهب، سأذهب. فلن أتركها إطلاقاً في هذه الحياة.

وأضافت أوليفا وقد جمّدها الرعب:

– ولا في الحياة الآخرة.

فقاطعها الشرطي الايجابي قائلاً:

– حسناً، وذلك أفضل. فعوضاً عن أن نسوق أسيراً واحداً إلى السيد دي غروسن، نسوق أسيرين، فنفرّح قلبه أكثر!

وبعد ربع ساعة، انطلقت عربة بوزير من باحة عشّ غرامه، تقل العاشقين الأسيرين وحارسيهما.

في مكتبة الملكة

★

لنستعرض الآن نتائج هذه العملية، بالنسبة للشرطيين وللسيد دي غروسن. فبالنسبة للشرطيين، من المحتمل أن لا يكونا قد قبضا مليون ليرة، كما كانا يأملان، ولكن مما لا شك فيه، أنهما قد حصلا على ترضية.

اما بالنسبة للسيد دي غروسن، فإنه بعد أن فرك يديه دلالة على انشراح صدره، استقل عربة وانطلق بها إلى فرساي، وقد لحقت به عربة أخرى مغلقة بإحكام ومقفلة.

وكان ذلك في اليوم التالي لتسلمه نيكول أو أوليفا، من الشرطي «الايجابي» ورفيقه.

أدخل مدير الشرطة العربتين الى باحة قصر التريانون، وهبط هو من تلك التي كان يستقلها، وترك الثانية بحراسة كبير أمنائه.

وكان قد طلب مقابلة الملكة في القصر المذكور، فأدخل عليها فوراً. وما أن لاحظت الملكة إشراقة وجهه، حتى استنتجت بأنه يحمل إليها أخباراً سارة.

مسكينة هذه المرأة! فإنها منذ مدة طويلة لم ترَ حولها إلا وجوهاً كالحة ومتحفظة، لذا خفق قلبها بالفرح لأول مرة، بعد أن قاسى العذاب طيلة ثلاثين يوماً.

وبعد أن قبّل السيد دي غروسن يد الملكة، سألها قائلاً:

- مولاتي، هل لدى جلالتك قاعة باستطاعتك أن تنظري منها كل ما يجري، دون أن يراك أحد؟

فأجابت الملكة:

- لدي مكتبتي. فوراء خزائنها الجدارية، أمضيت أياماً في قاعتي المخصصة للوجبات الخفيفة، كنت في خلالها بعض المرات، وأثناء تناولي الطعام، ألهو مع السيدة دي لامبال أو الآنسة دي تافرني، عندما كانت هذه الأخيرة في خدمتي، بالنظر إلى تكشيرة الأب فيرمون[1] المضحكة، عندما يقع بصره على مقالة هجائية تتعلق به.

فقال السيد دي غروسن:

- حسناً جداً يا مولاتي. لدي عربة أريد إدخالها إلى القصر دون أن يرى أحد ما في داخلها، إلا جلالتك.

فأجابت الملكة:

- الأمر في منتهى السهولة. أين هي عربتك؟

---

(١) الأب فيرمون كان مؤدب ماري انطوانيت في فينا.

- في الفناء الاول يا مولاتي.

فقرعت الملكة جرساً، وقالت لمن جاء يتلقى أوامرها:

- أدخل العربة التي يدلك عليها السيد دي غروسن إلى الرواق الكبير، وأغلق البابين كي تعمَّ الظلمة، وكي لا يرى أحد قبلي المفاجأة التي يحملها إلي السيد دي غروسن.

فنُفِّذ أمر الملكة بكل دقة. وبعد أن دخلت العربة تحت القبة قرب مركز الحرس، وأفرغت حمولتها في الدهليز المظلم، قال السيد دي غروسن:

- أما الآن يا مولاتي، فتفضلي معي إلى قاعة الوجبات الخفيفة، واعطي الأمر كي يدخل كبير أمنائي إلى المكتبة، مع ما سينقله إليها.

وبعد أن مضى على الملكة عشر دقائق وهي تراقب خافقة القلب، رأت شكلاً مغطى يدخلونه إلى المكتبة. وما أن رفع كبير أمناء مدير الشرطة الغطاء عن الشكل، وعرفت الملكة ما تحته، حتى أطلقت صيحة رعب... فهذا الشكل كان أوليفا، وقد كانت ترتدي ثوباً من أحب الأثواب على قلب ماري انطوانيت!

لقد كان ثوبها أخضر اللون ذا أشرطة سوداء عريضة ومتموجة، وشعرها مرفوعاً إلى أعلى كما كانت تسرح الملكة شعرها، وفي أصابعها خواتم شبيهة بخواتمها، وتنتعل مثلها

بابوجاً من الساتان الأخضر ذا كعب ضخم. إنها ماري انطوانيت بذاتها !!

فاعتقدت الملكة بأنها ترى نفسها في مرآة قبالتها ، فأخذت تحملق في هذا الخيال ...

عندئذ قال لها السيد دي غروسن، وهو فخور بهذا الانتصار :

- ماذا تقول جلالتك بهذا التشابه .

فتمتمت الملكة بتأثر بالغ :

- أقول ... أقول ... سيدي ...

ثم أكملت في نفسها : آه شارني ! لماذا لست هنا ؟

- ماذا تريد جلالتك .

- لا شيء يا سيدي ، لا شيء، سوى أن يعرف الملك جيداً ...

- وأن يرى الكونت دي بروفانس، أليس كذلك يا مولاتي ؟

- أوه ! شكراً يا سيد دي غروسن ، شكراً. لكن ماذا ستفعلون بهذه المرأة ؟

فسأل السيد دي غروسن :

- أليس لهذه المرأة ، يُنسب كل الذي حدث ؟

- أنت واثق بأنك أمسكت بخيوط المؤامرة ؟

- تقريباً يا مولاتي.

- والكردينال دي روهان؟

- الكردينال دي روهان، لم يعلم شيئاً حتى الآن.

فقالت الملكة وهي تخبئ رأسها بيديها:

- هذه المرأة يا سيدي، هي كما أرى، سبب كل الضلال الذي وقع فيه الكردينال!

- ربما يا مولاتي. ولكن إذا كانت هي من أضلَّ الكردينال، فغيرها من ارتكب الجريمة!

- إبحث جيداً يا سيدي، فإن شرف العائلة المالكة في فرنسا، هو بين يديك.

فأجاب مدير الشرطة:

- وثقي يا مولاتي، بأنه بين يدين أمينتين.

فقالت الملكة:

- ومتى المحاكمة؟

- إنها في الطريق. الكل ينكرون الآن، لكنني سأنتظر الفرصة المناسبة، كي أقدم هذه الوثائق الثبوتية الموجودة لديك، هنا في مكتبتك.

- والسيدة دي لاموت؟

- إنها تجهل بأني قد عثرت على هذه المرأة، وهي تتهم

السيد دي كاغليوسترو بأنه أثار الكردينال إلى درجة جعلته يفقد صوابه.

- والسيد دي كاغليوسترو؟

- السيد دي كاغليوسترو طرحت عليه بعض الأسئلة، وقد وعدني بأنه سيأتي إلى مكتبي هذا الصباح بالذات.

- إنه رجل خطير!

- سيكون رجلاً نافعاً. فالملسوع من أفعى كالسيدة دي لاموت، سوف يمتص السم ليرده لنا ترياقاً.

- هل تأمل باكتشافات؟

- بل أنا واثق.

- كيف ذلك يا سيدي؟ أوه! قل لي كل ما يمكنه أن يطمئنني.

- إليك براهيني يا مولاتي: إن السيدة دي لاموت كانت تقطن في شارع سان كلود...

فقالت الملكة وقد احمرت وجنتاها:

- أعلم، أعلم.

- نعم، وجلالتك شرّفت هذه المرأة بالاحسان إليها.

- وقد ردت إلي هذا الاحسان، أليس كذلك؟ إذن، كانت تقطن شارع سان كلود.

- والسيد دي كاغليوسترو، يقطن بالضبط تجاهها.

- وهل تفترض؟..

- أنه إذا كان هناك سرّ يخص واحداً من هذين الجارين، فالسر يجب أن يكون مشتركاً بينهما. لكن، عفواً يا مولاتي، فقد حان وقت استقبالي لكاغليوسترو في باريس، ولا أريد تأخير هذه التوضيحات إطلاقاً.

- إذهب يا سيدي، إذهب. ومرة ثانية، ثق بأني قادرة لك فضلك.

وبعد أن ذهب السيد دي غروسن، صاحت ماري انطوانيت وهي تذرف الدموع:

«ها قد بدأت تظهر براءتي، ولسوف أقرأ انتصاري على كل الوجوه. لكن الصديق الوحيد الذي يهمني أن أثبت له براءتي، لن أراه!»

وهكذا انطلق مدير الشرطة مسرعاً إلى باريس، ودخل إلى مكتبه حيث كان السيد دي كاغليوسترو بانتظاره.

وكان كاغليوسترو واقفاً على كل شيء، منذ العشية. ففيما كان قاصداً منزل بوزير في الريف كي يحثه على مغادرة فرنسا، إذا به يراه في الطريق داخل العربة وبين الشرطيين، فيما كانت أوليفا مختبئة في قعرها من فرط خجلها، والدموع تنساب من عينيها.

فما أن رأى بوزير الكونت الذي اعترضهم بعربته، حتى

عرفه، وأوحى اليه هذا السيد الغامض والقدير بفكرة غيرت كل أفكاره التي كانت قائمة على عدم التخلي إطلاقاً عن أوليفا.

فجدد العرض الذي كان قد اقترحه على الشرطيين كي يتملص منهما، فقبل هذان بالمئتي ذهبية التي كانت في حوزته، وتركاه وشأنه رغم دموع أوليفا.

غير أن بوزير، وهو يقبّل عشيقته قبلة الوداع، همس في أذنها قائلاً:

«لا تيأسي، سوف أعمل على إنقاذك!»

وانطلق بخطى سريعة في الاتجاه ذاته الذي سار به كاغليوسترو.

وكان كاغليوسترو قد أوقف عربته بعد ان سار مسافة غير طويلة، إذ وجد من المناسب أن ينتظر بوزير مدة تكفي لأن يلحق به على قدميه، إن كان قد جرى وراءه.

وبعد نصف ساعة من الانتظار على منعطف الطريق، أقبل عاشق أوليفا المسكين، لاهثاً متقطع الأنفاس، شاحب اللون كالأموات!

فما أن رأى عربة كاغليوسترو واقفة، حتى أطلق صرخة فرح كأنه غريق لامس خشبة الإنقاذ.

فقال له الكونت، وهو يساعده على الصعود إلى قربه:

- ما بك يا بني؟

فقصَّ عليه بوزير قصته المحزنة، فيما كان كاغليوسترو يصغي إليه صامتاً. ثم قال له:

- لقد قضي الأمر!

فصاح بوزير:

- كيف ذلك؟!

فأخبره كاغليوسترو بما لا يعرفه عن مغامرة شارع سان كلود، ومغامرة فرساي...

فانهار بوزير وكاد يغمى عليه. وركع في العربة على رجليه الاثنتين وأخذ يصيح:

- أنقذها... أنقذها، وسوف أعطيك إياها إذا كنت ما زلت تحبها.

فأجابه كاغليوسترو:

- أنت على ضلال يا صديقي، فأنا عمري ما أحببت الآنسة أوليفا، ولم يكن لي سوى هدف واحد، هو أن أنقذها من عيشة الفسق التي كنت تقاسمها إياها.

فقال بوزير مندهشاً:

- لكن...

- ذاك يرعبك؟ فاعلم إذن بأني واحد من رواد الاصلاح الخلقي، وهدفي هو أن انتزع من حمأة الرذيلة كل من

باستطاعتي أن أوفر له مجالات الحظ للشقاء. وقد شفيت أوليفا بانتزاعها منك، ولهذا السبب انتزعتها. ولتقل إذا كانت قد سمعت مرة من فمي كلمة غزل، أو إذا لم تكن كل خدماتي لها نزيهة ومترفعة!

- هذا دافع إضافي يا سيدي، كي تنقذها. أرجوك، أنقذها!

- سوف أحاول، لكن ذلك يتوقف عليك يا سيد بوزير.

- أطلب مني حياتي!

- لن أصل في طلبي إلى هذا الحد. إرجع معي إلى باريس، وإذا تقيدت بتعليماتي، من المحتمل أن نخلص عشيقتك. ولا أضع لذلك سوى شرط واحد.

- ما هو هذا الشرط يا سيدي؟

- سوف أطلعك عليه عندما نعود إلى منزلي في باريس.

- أوه! لقد وافقت على هذا الشرط مسبقاً، ولكنني أريد رؤيتها! أريد رؤيتها!

- هذا بالضبط ما أفكر به. قبل ساعتين، سوف تراها.

- وهل سأقبلها؟

- هذا ما أرجحه. بالإضافة إلى ذلك، ستقول لها ما سأقوله لك.

واتخذ كاغليوسترو وبوزير طريقهما إلى باريس.

وبعد مضي ساعتين، لحقا بالعربة التي تقل أوليفا وحارسها، وكان الوقت قد أصبح مساءً.

وبعد نصف ساعة أخرى، كان بوزير يشتري خمسين ذهبية للشرطيين، مقابل أن يسمحا له بتقبيل أوليفا، وأن يهمس لها بتوصيات الكونت دي كاغليوسترو.

والشرطيان اللذان أُعجبا بهذا الحب المشبوب العاطفة، وعدا نفسيهما بخمسين ذهبية كتلك التي قبضاها، عند كل محطة ثانية.

لكن بوزير لم يظهر عليهما ثانية، فقد نقلته عربة كاغليوسترو بسرعة إلى باريس، حيث كانت تهيأ أحداث كثيرة.

هذه الأمور كان من الضروري أن يعرفها القارئ، قبل أن نريه السيد كاغليوسترو وهو في حديث مع السيد دي غروسن عن القضايا الطارئة.

وأصبح بإمكاننا الآن، أن ندخل إلى غرفة مدير الشرطة.

في غرفة مدير الشرطة

★

كان السيد دي غروسن يعرف عن كاغليوسترو كل ما باستطاعة مدير فطن للشرطة أن يعرفه عن رجل يقطن باريس. لقد كان يعرف كل أسمائه الماضية وكل أسراره الكيمائية القديمة، والمغناطيسية، والتنجيمية، وكل ادعاءاته في استحضار الأرواح والاشخاص، وفي البعث والتجدد. وبالاختصار، كان ينظر إليه كسيد من اسياد الشعوذة.

لذلك كان من المستحيل على كاغليوسترو أن يخدع واحداً كالسيد دي غروسن، أو الكردينال دي روهان، بشعوذات كان معظم الناس في ذلك العصر يظنونها أعمالاً خارقة للطبيعة وحقائق لا غبار عليها.

ولهذا السبب، عوضاً عن أن ينتظر الكونت دي كاغليوسترو تطور الأحداث، رأى من الواجب أن يطلب مقابلة مدير الشرطة ويؤدي ما عليه من حساب.

وقد شعر دي غروسن بقوة مركزه، فعزم على ممارسة هذه القوة. بينما كاغليوسترو شعر بحيرة في نفسه، فأخذ يتهيأ للتخلص منها.

هذه المباراة المكشوفة في لعبة الشطرنج، لم يكن أحد اللاعبين يشك بأنها موضع رهان، ويجب الاعتراف بأن هذا اللاعب لم يكن السيد دي غروسن.

فمدير الشرطة كان ينتظر من كاغليوسترو أن يقدم له إيضاحات حول العقد، وحول تجارة السيدة دي لاموت المشبوهة، لذا ما أن دخل مكتبه ووجد كاغليوسترو بانتظاره، حتى بادره بقوله:

– لقد طلبت مقابلتي يا سيدي، وها أنا آتٍ خصيصاً من فرساي، كي أمنحك هذه المقابلة.

فأجابه كاغليوسترو:

– اعتقدت يا سيدي بأنه من الفائدة لك أن تسألني عما يجري. وكرجل يعرف جدارتك حق المعرفة، كما يعرف المهمة الملقاة على عاتقك، جئت اليك كما ترى.

فقال مدير الشرطة مندهشاً:

– أن أسألك؟! عن ماذا يا سيدي؟ وبأية صفة؟

فأجابه كاغليوسترو بصراحة:

– أنت مهتم جداً بأمر السيدة دي لاموت، وبقضية اختفاء العقد...

فسأله دي غروسن بما يشبه التهكم:

– هلاّ وجدته؟

فقال الكونت بوقار:

- لا، ولكني إن لم أجد العقد، فأنا على الأقل أعرف بأن السيدة دي لاموت تقطن في شارع سان كلود.

فأجابه دي غروسن:

- وأنا أعرف كذلك، فهي تقطن تجاه منزلك.

- إذن، لا شك يا سيدي، أنك واقف على ما تقوم به السيدة دي لاموت... فلا لزوم للكلام.

فأجابه مدير الشرطة متكلفاً اللامبالاة.

- بالعكس، علينا أن نتكلم.

فقال كاغليوسترو:

- أوه! الموضوع يتعلق بتلك الصغيرة أوليفا. ولكن بما أنك تعلم كل شيء عن السيدة دي لاموت، فلم يعد لدي ما أُطلعك عليه.

فارتعش دي غروسن عندما تلفظ كاغليوسترو باسم أوليفا، وسأله قائلاً:

- أوليفا؟ من تكون أوليفا هذه؟

- آه! ألا تعرفها يا سيدي؟ إنه لأمر غريب أن أُفاجأ بذلك! تصوّر أنها فتاة رائعة الجمال... ذات قدّ مياس، وعينين زرقاوين، ووجه لا عيب في استدارته... وباختصار،

إن جمالها من النوع الذي يشابه جمال صاحبة الجلالة الملكة ...

فقال دي غروسن:

- آه ! آه ! وبعد؟

- وبعد ! هذه الفتاة التي وصفتها لك، كانت تعيش عيشة شقاء، جعلتني أنغمّ عليها، إذ كانت تقوم بخدمة صديق لي طاعن في السن، هو السيد دي تافرني ...

- البارون الذي مات منذ عدة أيام؟

- بالضبط، هو إياه. وبعد موته، انتقلت إلى خدمة آخر، إلى خدمة رجل عالم لا يعرفه سيدي مدير الشرطة. وكان هذا العالم ... ولكني أرى نفسي، وقد تشعبت في الحديث، قد بدأت في إزعاجك.

- بالعكس، أرجوك أن تكمل يا سيدي. إذن، قلت إن هذه الأوليفا؟..

- كانت تعيش عيشة شقاء، كما تشرفت بأن ذكرت لك. وازدادت عذاباً نتيجة غرامها برجل غريب الأطوار، كان يسلبها كل ما تملك، ولا يتورع عن ضربها ... وهذا العشيق يا سيدي، هو نصّاب ومحتال لا يليق بك التعرف إليه ...

فقال مدير الشرطة وقد سرّه أن يكون قد عرفه، كما بدا له:

- إنه يدعى بوزير، كما أظن؟

فقال كاغليوسترو بإعجاب:

- آه! إنه لمدهش أن تكون تعرفه! إنك وايم الحق يا سيدي، باستطاعتك اكتشاف الغيب أفضل مني!.. إذن، بعد أن أمعن بوزير في سلب أوليفا وضربها، حسب عادته، لجأت هذه الفتاة المسكينة إليّ وطلبت حمايتي. وبما أني رجل طيب القلب، فقد وهبتها غرفة لم أعد أذكرها، في واحد من أجنحة قصوري...

فصاح مدير الشرطة مندهشاً:

- في أحد قصورك!.. لقد كانت عندك؟

فأجابه كاغليوسترو متعمداً الدهشة بدوره:

- بدون شك. ولماذا لا أقبل لجوءها إليّ، طالما أني رجل عازب؟

وأخذ يضحك بسذاجة بارعة، مما جعل السيد دي غروسن يقع في الشرك، ويقول له:

- في قصرك!.. إذن هذا هو السبب الذي جعل رجالي يكثرون البحث للعثور عليها.

فقال كاغليوسترو:

- تقول يكثرون البحث! هل كانوا يبحثون عن تلك الصغيرة؟ أي ذنب ارتكبته وأنا لست على علم به؟

– لا شيء، لا شيء يا سيدي . أكمل ، أرجوك !

– ولكنني أكملت . لقد أويتها عندي ، وهذا كل شيء .

– لا ، لا يا سيدي الكونت ، أنت لم تكمل ، طالما أنك الساعة أشركت اسم اوليفا باسم السيدة دي لاموت .

فقال كاغليوسترو :

– آه ! كان ذلك بحكم الجوار .

– هناك أمر آخر يا حضرة الكونت ... فأنت لم تقل بأن السيدة دي لاموت وأوليفا كانتا جارتين ، من أجل لا شيء .

– ولكني لا أعتقد أنه من المفيد عرض هكذا موضوع عليك . إذ لا يجوز أن نشغل وقت الحاكم الاول في المملكة بترهات لا قيمة لها .

– الموضوع يهمني أكثر مما تتصور يا سيدي ، لأن هذه الأوليفا التي ذكرت بأنها كانت تقطن منزلك ، قد عثرنا عليها في الريف .

– عثرتم عليها !..

– برفقة السيد دي بوزير ...

فصاح كاغليوسترو :

– عجباً !.. إني أشك في ذلك ! كانت برفقة بوزير ؟ عظيم ! عظيم ! إن في ذلك ترضية للسيدة دي لاموت .

– ماذا تريد أن تقول ؟

– أريد أن أقول يا سيدي، بأني بعد أن ظننت برهة بالسيدة دي لاموت، سوف أعوض عليها تعويضاً كاملاً.

– وما الذي جعلك تظن بها؟

– يبدو يا سيدي أنك تصغي بجلد إلى كل ثرثرة؟ حسناً! إعلم أنه في الوقت الذي كان الأمل يراودني بإصلاح أوليفا المذكورة، وبحملها على العمل المشرّف، إذ إني اهتمُّ كثيراً بالأخلاق يا سيدي، في هذا الوقت بالذات، جاء من اختطفها مني!

– اختطفها من منزلك؟

– نعم، من منزلي.

– غريب!

– أليس كذلك؟ وقد اعتقدت بما لا يقبل الشك، أن السيدة دي لاموت وراء هذا الاختطاف، لذا استحقت لعنتي ونقمتي.

فاقترب السيد دي غروسن من كاغليوسترو، وقال له:

– تفضل وأوضح إذا أردت.

– أوه! بعد أن وجدت أوليفا برفقة بوزير يا سيدي، لم يعد هناك ما يدفعني إلى التفكير بالسيدة دي لاموت، ولا في ملاطفاتها، ولا في إشاراتها، ولا في مراسلاتها...

– مع أوليفا؟

- نعم .

- السيدة دي لاموت وأوليفا ، كانتا تتفاهمان ؟

- كل التفاهم .

- وكانتا تلتقيان ؟

- لقد وجدت السيدة دي لاموت وسيلة ، كانت تُخرج بواسطتها أوليفا كل ليلة .

- كل ليلة ! وهل أنت أكيد ؟

- بمقدار ما يستطيع الإنسان أن يكون أكيداً مما يراه ويسمعه .

- أوه ! إنك تفصح لي عن أمور هامة يا سيدي ، وأنا على استعداد لدفع ألف ليرة عن كل كلمة تقولها ، فكلامك من ذهب !

- هذا ثمن لا أستحقه يا سيدي .

- قل لي ، هل الكردينال دي روهان صديقك ؟

- أعتقد ذلك .

- إذن ، ينبغي عليك أن تعلم ، كم هو كبير دور هذه الدسَّاسة التي يدعونها السيدة دي لاموت ، في الفضيحة التي يتخبط بها صديقك .

- لا ، لا أريد أن أعلم .

- ولكنك ربما كنت تعلم، نتائج تلك النزهات التي تمت بواسطة أوليفا والسيدة دي لاموت؟

فقال كاغليوسترو باسلوب الرجل الحكيم:

- إن الانسان العاقل يا سيدي، ينبغي عليه ان يتجاهل معرفة هكذا أمور.

فقال دي غروسن:

- حسناً، سأختصر أسئلتي بواحد: هل لديك براهين بأن السيدة دي لاموت قد تبادلت الرسائل مع أوليفا؟

- مئة برهان.

- ما هي؟

- بطاقات من السيدة دي لاموت كانت تقذفها إلى أوليفا بواسطة قوس قديمة لا شك انها ما زالت في منزلها. وعدة بطاقات من هذه البطاقات الملفوفة حول قطعة من الرصاص، لم تصل إلى هدفها، فسقطت في الشارع، مما أتاح لخدمي، أو لي، أن نلتقط بعضها.

- وهل ستقدمها للعدالة يا سيدي؟

- لن أتردد يا سيدي، لأنها تشكل دليل براءة. وأعتقد بأني لن أستحق اللوم على ذلك من قبل السيدة دي لاموت.

- و... البراهين على التواطؤ، على المواعيد؟

- إنها ألف.

- برهان واحد يكفيني، أرجوك !

- أفضل البراهين، هو أن السيدة دي لاموت، كما يبدو، قد سهل عليها الدخول الى منزلي لمشاهدة أوليفا، لأني شاهدتها فيه بنفسي، في ذات اليوم الذي اختفت فيه المرأة الشابة.

- في ذات اليوم؟

- كل خدمي رأوها كما رأيتها أنا.

- وماذا جاءت تفعل، طالما أن أوليفا كانت قد اختفت؟

- هذا ما سألت عنه نفسي في بادئ الأمر، ولم أجد له تفسيراً. فقد رأيت السيدة دي لاموت تهبط من عربة في شارع «روا دوريه»، وكان خدمي قد شاهدوا هذه العربة تقف طويلاً في الشارع المذكور، فظننت بأن السيدة دي لاموت تود الانضمام إلى أوليفا.

- وهل تركتها تفعل؟

- لمَ لا؟ إن السيدة دي لاموت امرأة محسنة ومحظية. وطالما أنها قد استُقبلت على الرحب والسعة في البلاط، لماذا تريدني أن أمنعها من انتزاع أوليفا مني؟ فأنا لو فعلت، لكنت ارتكبت خطأ، كما ترى، لأن آخراً اختطفها مني كي يهلكها.

ففكر السيد دي غروسن ملياً، ثم قال:

– اذن ، الآنسة أوليفا كانت تقطن عندك ؟

– نعم يا سيدي .

– والسيدة دي لاموت ، شوهدت عندك يوم اختطاف أوليفا ؟

– نعم يا سيدي .

– هل خطر على بالك ان الكونتس كانت تود الارتباط بهذه الإبنة ؟

– أعليّ أن أفكر بغير ذلك ؟

– ولكن ، ماذا قالت السيدة دي لاموت عندما لم تجد أوليفا في منزلك ؟

– لقد بدت لي مضطربة .

– هل تعتقد بأن بوزير هو الذي اختطفها ؟

– أعتقد ذلك فقط لأنك قلت لي بأنه هو في الواقع من اختطفها ، وإلا لما ظننت به إطلاقاً . فهذا الرجل لم يكن يعرف مكان إقامة أوليفا ، ولا أدري من هو الشخص الذي دلّه عليه ؟

– أوليفا ذاتها .

– لا أعتقد . لأنه عوضاً عن أن يخطفها من منزلي ، هُرّبت من منزلي إلى منزله . وأرجوك أن تتأكد ، بأنه ليس

باستطاعة بوزير أن يدخل منزلي ، إلا إذا أعطته مفتاحه السيدة دي لاموت .

– وهل لديها هذا المفتاح ؟

– لا شك في ذلك .

فقال دي غروسن وقد استنار فجأة بالمشعل الذي مدّه به كاغليوسترو بمهارة :

– في أي يوم تمّ اختطافها ؟

– أوه ! إن هذا اليوم يا سيدي لا يقبل الخطأ ، إذ كان ذلك عشية عيد القديس سان لويس .

فصاح مدير الشرطة :

– وهو كذلك ! وهو كذلك ! فقد أسديت الدولة خدمة لا تجازى يا سيدي .

– أنا سعيد بذلك يا سيدي .

– وسوف تُشكر كما يليق بك .

فقال الكونت :

– يكفيني أن يكون ضميري مطمئناً .

فحياه دي غروسن ، وقال له :

– هل باستطاعتي تزويد المحكمة بهذه الأدلة التي تكلمنا عليها ؟

– أنا يا سيدي بتصرف العدالة في كل شيء .

– حسناً ! سوف أحتفظ بكلامك يا سيدي ، حتى يكون لي شرف الاجتماع بك من جديد .

وأذن مدير الشرطة لكاغليوسترو بالانصراف ، فخرج هذا وهو يقول في نفسه :

«إيه أيتها الكونتس ! إيه أيتها الأفعى ! لقد شئتِ اتهامي ، وها أنت ، كما أعتقد ، قد عضضت على المبرد ... فحذارِ أسنانك !»

الاستجوابات

★

فيما كان السيد دي غروسن يجري هذا الحديث مع كاغليوسترو ، كان وزير العدل السيد دي بريتاي يتوجه إلى الباستيل ، من قبل الملك ، لاستجواب الكردينال دي روهان .

ومما لا شك فيه ، أن المقابلة بين هذين العدوين ستكون عاصفة . فالسيد دي بريتاي يعرف عنجهية دي روهان ، لذا قرر أن ينتقم منه انتقاماً رهيباً بإخضاعه الى تحقيقات بوليسية ! لكن هذا الاسلوب لم يجد نفعاً ، فالكردينال رفض أن يجيب عن اسئلة بريتاي ، وكان أكثر من مهذب !

وعندما ألحف وزير العدل في طرح الأسئلة، صرح دي روهان بأنه على استعداد للقبول بأي تدبير يتخذه البرلمان وقضاته.

وأمام إرادة المتهم الحديدية هذه، اضطر دي بريتاي ان ينسحب!

انسحب واستدعى الى مكتبه السيدة دي لاموت التي كانت منهمكة في كتابة مذكراتها، فجاءته على جناح السرعة.

وبصراحة، حدثها السيد دي بريتاي عن وضعها الحرج، وقد كانت هي أكثر المطلعين عليه، فأجابته بأن لديها من الدلائل ما يثبت براءتها، وأنها ستقدم هذه الدلائل عندما تدعو الحاجة. فأفهمها دي بريتاي بأن الوقت ليس في مصلحتها، وأنها الآن في أشد الحاجة الى تقديم هذه الدلائل.

فروت جانّ كل الحكاية التي لفقتها، وحملت على الناس الذين طالوها بألسنتهم، مؤكدة زور وبهتان اللوم والتأنيب الموجهين إليها!

وتابعت تقول:

– طالما أن البرلمان قد وضع يده على القضية، فإني لست

مستعدة لقول شيء عن الحقيقة الا بحضور الكردينال، وبعد أن أعرف منه مقدار المسؤولية التي يحملني إياها.

فقال لها السيد دي بريتاي:

- إن الكردينال يحملك كل المسؤولية!

فصاحت جانّ:

- كلها ؟! حتى السرقة ؟!

- حتى السرقة!

فقالت جان ببرودة:

- إذن، تفضل وقل للكردينال بأني لم أعد مستعدة لأن أتحمل أكثر مما تحملت، هذا الاسلوب السيء في الدفاع عن نفسي!

واكتفت جانّ بهذا القول الذي لم يرضِ السيد دي بريتاي، إذ كان يطمح الى الحصول على بعض التفاصيل الحميمة، وبخاصة تلك التي تكشف اللثام بوضوح عن الاسباب التي جعلت الكردينال يجازف في اندفاعه العاطفي نحو الملكة، مع أن الملكة تضمر له حقداً كبيراً. كان بحاجة الى شرح مستوفٍ عن كل المحاضر التي جمعها الكونت دي بروفانس، والتي وصل خبرها الى الدولة عبر الضجة العامة.

ووزير العدل الذي كان رجلاً ذكياً، كان ملماً بنفسية المرأة ويعرف الطريقة الفضلى في التصرف معها، لذا وعد

السيدة دي لاموت بكل شيء إن هي اتهمت شخصاً معيناً وبشكل صريح. ومما قاله لها كي يدفعها الى هذا التصرف:

- حذار يا سيدتي، حذار! فأنت بتمنعك عن قول أي شيء، تتهمين الملكة مباشرة!.. أي أنك باصرارك على الصمت، ستقدمين للمحاكمة بتهمة القدح والذم في الذات الملكية. ولن تكون النتيجة سوى العار الذي يجللك، وسوى حبل المشنقة الذي يلفّ عنقك!

فصاحت جانّ:

- ولكنني لم أتّهم الملكة، فلماذا تتهمونني؟!

فقال بريتاي بإصرار وعناد:

- كي لا تُتهمي، عليك ان تتهمي أحداً. فهذه هي الطريقة الوحيدة لإنقاذ نفسك!

مع هذا، التزمت جانّ الصمت المطلق، ولم تعطِ هذه المقابلة الاولى بينها وبين وزير العدل أية نتيجة.

في هذه الأثناء، انتشرت شائعة تقول بأن حبات الماس قد بيعت في انكلترا، حيث أُوقف السيد دي فيئّات من قبل عملاء السيد دي فارجان، الذي كان وزيراً للخارجية.

وكان الهجوم الاول المرعب على جانّ، عندما قوبلت بالسيد ريتو الذي اعتقدت بأنه سيكون حليفها حتى الموت، فإذا به يعترف أمامها بحقارة أنه كان مزوراً... لقد اعترف

بأنه هو من زوّر إيصالاً بالعقد، وهو من زوّر رسالة من الملكة، وفي الوقت نفسه هو من قلّد توقيعي الصائغين وتوقيع الملكة !!

وعندما سُئل عن السبب الذي دعاه لارتكاب هذه الجرائم، أجاب بأنه فعل ما فعل نزولاً عند رغبة السيدة دي لاموت !

فثارت ثائرة دي لاموت وجُنَّ جنونها، وانكرت ادعاءه ودافعت عن نفسها كلبوة، زاعمة بأنها لم ترَ قط السيد ريتو ولا سبق لها أن تعرفت إليه !

ولكنها هنا أيضاً، تعرضت لخيبتين مريرتين، لشهادتين حطمتاها تحطيماً.

الشهادة الأولى قدمها حوذيّ اكتشفه السيد دي غروسن، وقد صرح بأنه أقل في عربته إلى شارع مونمارتر، وفي يوم وساعة حددهما السيد ريتو، سيدة ترتدي ثياباً شبيهة بثياب «هذه السيدة».

فهذه السيدة المحاطة بكثير من الألغاز، والتي جاء بها الحوذي من حي دي ماريه، من يمكنها أن تكون إن لم تكن السيدة دي لاموت التي تقطن شارع سان كلود؟

ومن جهة الدالة التي كانت سائدة بين هذين الشريكين المتواطئين، كيف يمكن إنكارها بعد أن أكد شاهد آخر بأنه

رأى السيدة دي لاموت عشية عيد سان لويس، تخرج من عربة كان يجلس على مقعدها السيد ريتو دي فيئات، المميز بمظهره الشاحب والقلق!

وكان هذا الشاهد هو أحد الخدم الرئيسيين لدى السيد دي كاغليوسترو.

فعندما سمعت جانّ باسمه، قفزت من مكانها وأطلقت صرخة مدوية، وأخذت تكيل الشتائم لكاغليوسترو وتتهمه بأنه، بسحره وشعوذته، قد خلب لبَّ الكردينال دي روهان وأوحى إليه بأفكار شيطانية أثيمة ضدّ صاحبة الجلالة الملكة.

وهنا ابتدأت الحلقة الاولى من الاتهام بالخيانة والزنا...

فدافع الكردينال دي روهان عن نفسه بدفاعه عن كاغليوسترو، منكراً التهمة بصلابة وعناد، مما جعل جانّ الحانقة الساخطة، تتكلم بوضوح، ولأول مرة، عن غرام الكردينال الأخرق بالملكة!!

وبدوره كاغليوسترو، طلب أن يُعتقل كي يتاح له إظهار براءته أمام الناس، فاستجيب إلى طلبه، وأثار بما أقدم عليه الحماس والحمية في نفوس القضاة والمتهمين على السواء. وأخذ الرأي العام، بعد أن تكشفت له خيوط الحقيقة، كما تصور، ينحاز بعاطفته نحو الكردينال وكاغليوسترو ضدَّ الملكة.

عندئذ، وكي تبرهن هذه الملكة العاثرة الحظ على انها ستبقى صامدة ومثابرة على ملاحقة المحاكمة، سمحت بنشر التقارير المقدمة إلى الملك عن النزهات الليلية، وطلبت الاذن للسيد دي غروسن كي يدلي بمعلوماته.

فكان لهذه الضربة الماهرة وقع الصاعقة على جانّ، مما جعلها تفقد نهائياً كل قدرة على المناورة والخداع.

وفي جلسة رسمية لهيئة المحققين، طلب المستنطق من الكردينال دي روهان أن يصرح بما يعلمه عن تلك النزهات التي شهدها «بارك» فرساي. فأجاب الكردينال بأنه شخصياً لا يعرف الكذب، لذا فهو يطلب شهادة السيدة دي لاموت بهذا الخصوص.

فأنكرت دي لاموت أن تكون على علم بأية نزهات تمت برضاها أو بمعرفتها، وكذّبت التقارير التي تقول بأنها شوهدت في الحدائق الملكية، تارة برفقة الملكة وطوراً برفقة الكردينال.

فكان باستطاعة هذا التصريح أن يبرئ ساحة الملكة، لو كان بالإمكان الوثوق بكلام امرأة متهمة بالتزوير والسرقة. ولكن بما ان مصدره لا يوحي بالثقة، فقد بدا التبرير وكأن المقصود منه المجاملة والمراعاة، وأبت الملكة أن تتبرأ بهذه الطريقة.

وفيما كانت جانّ تعلن بأعلى صوتها أنها لم تظهر إطلاقاً أثناء الليل في «بارك» فرساي، وأنها لم تلاحظ إطلاقاً أية علاقات خاصة بين الملكة والكردينال، ولا سمعت بهكذا علاقات، في تلك اللحظة بالذات، ظهرت أوليفا ... الشاهد الحي الذي قلب الرأي العام وهدم صقالة الحجج والأكاذيب التي بنتها الكونتس!

ويا للهول الذي شعر به الكردينال عندما وقع نظره على أوليفا!! فقد ثبت له أنه كان ألعوبة دنيئة ... فهذا الرجل ذو الرقة واللطف المتناهيين والأهواء النبيلة، قد اكتشف فجأة مغامِرة، هي شريكة محتالة ماكرة دفعته لأن يلعب دوراً دنيئاً ألحق العار والشنار بملكة فرنسا، تلك المرأة التي أحبها بكل جوارحه والتي لم تكن أبداً مذنبة أو مسؤولة عن هذا الحب!

ومما لا شك فيه، أن اكتشاف دي روهان لهذه الحقيقة، كان المشهد الأكثر مأسوية والأكثر أهمية في هذه القضية. فقد ذكّرته هذه الملكة المزيفة بالوردة الحمراء، وبيده التي كانت تضغط على يدها، وبحمامات أبولون ... فشحب لونه، وتمنى لو تكون ماري انطوانيت في تلك اللحظة الى جانبها، كي يريق كل دمه على قدميها تكفيراً عن إساءته إليها ...

وكم طلب العفو والمغفرة من ربه! وكم عذبه ضميره! وكم شاء لو يستطيع أن يحمل دموع عينيه ويذهب ليطهر بها آخر درجة من درجات ذلك العرش الذي دنّسه بحبه الحقير!

ولكن هذه الترضية لنفسه المعذبة، كانت ممنوعة عليه! فهو لا يستطيع الاقرار بشخصية أوليفا كما توهمها، من دون الاعتراف بأنه كان يحب الملكة الحقيقية. فالاعتراف بضلاله هو اتهام وعار في حدّ ذاته. لذلك لزم الصمت، وترك جانّ تنكر كل شيء.

وعندما شاء دي بريتاي، بالمشاركة مع دي غروسن، أن يجبرا جانّ على مزيد من التوضيح، قالت:

«إن أفضل وسيلة للاثبات بأن الملكة لم تقم بأية نزهة في «البارك» أثناء الليل، هو اكتشاف امرأة تشبه الملكة وتزعم بأنها كانت في «البارك». ومن حسن الحظ أن تكون هذه المرأة أمامنا الآن!»

فقوبل هذا التلميح الفاضح الذي كشفت به جانّ الحقيقة مرة ثانية، بالاستحسان والرضى.

وبما أن أوليفا، في قلقها الساذج، قد أعطت كل التفاصيل والبراهين دون أن تهمل شيئاً، وبما أن قولها قابل للتصديق أكثر من قول الكونتس، فقد لجأت جانّ إلى وسيلة يائسة... لقد اعترفت!

اعترفت بأنها قادت الكردينال إلى فرساي، وبأن الكردينال شاء رؤية الملكة بأي ثمن، كي يثبت لها عظيم حبه واحترامه. اعترفت لأنها شعرت بأن السلبية لن تجديها نفعاً، وبأن توجيه التهمة الى الملكة سيجعلها شريكة وعوناً لكل أعدائها، وكان عددهم كبيراً!

إذن، وللمرة العاشرة في هذه الدعوى الجهنمية، تبدّلت الأدوار. فالكردينال لعب دور المغفّل، وأوليفا دور البغيّ دون إدراك منها، وجانّ دور المتآمرة، إذ لم تستطع أن تختار دوراً أفضل.

وكي يتوفر النجاح لهذا المشروع الخسيس، كان على الملكة أن تلعب هي أيضاً دوراً، فأُعطيت الدور الأكثر سفالة وحقارة، والأكثر تعريضاً ومساساً بالكرامة الملكية. هو دور المغناج الطائشة، والشابة المرحة التي تحيك الخدع وتهوى المخاتلة.

لقد صرحت جانّ بأن النزهات التي شهدتها الحدائق في «بارك» فرساي، قد تمت برضى وموافقة ماري انطوانيت، التي كانت تختبئ وراء أشجار الخميلة، لتستمع وهي تضحك، إلى الأحاديث الولهى للعاشق المتيم الكردينال دي روهان!!

هذا ما اختارته، كخاتمة لهجومها، تلك اللعينة التي لم

تعرف أين تخبئ سرقتها، فاختارت لها المعطف الملكي الذي يمثل شرف ملكة فرنسا ماري انطوانيت.

فانهارت الملكة عند هذه التهمة الأخيرة، لأنها لم تستطع إثبات زيفها. لم تستطع، لأن الحنق أعمى بصيرتها، بعد أن صرحت جانّ بأنها ستنشر كل الرسائل الغرامية المكتوبة بخط الكردينال دي روهان، والموجهة إلى الملكة! وهي في الواقع، كانت تمتلك هذه الرسائل الملتهبة بالغرام الجنوني...

لم تستطع إثبات هذا الزيف، لأن الآنسة أوليفا التي أكدت بأن جانّ هي التي دفعتها الى «بارك» فرساي، لم يكن لديها البرهان بأن أحداً كان يسترق السمع وراء أشجار الخميلة، ولا البرهان المعاكس.

وأخيراً، لم تستطع الملكة إثبات براءتها، لأن كثيرين من الناس، كان يهمهم بأن تؤخذ هذه الأكاذيب السافلة على أنها حقائق!!

ضاع الأمل الأخير

★

بعد أن دفعت جانّ القضية بهذا الاتجاه، بات كشف الحقيقة مستحيلاً!

وهي ، بعد أن أفحمها عشرون شاهداً من أهل الثقة ، لم يعد بإمكانها التملص من اختلاس العقد الماسي ، وفي الوقت نفسه لا تريد أن تستسلم كسارقة عادية ، بل تريد أن يكون إلى جانبها شخص آخر ذو أهمية يقاسمها الفضيحة والعار .

فهي قد اقتنعت ، بأن فضيحة فرساي ستكشف جريمتها ، لكنها إذا ما أدينت ، فإن الادانة ستلحق بالملكة أيضاً ، مما يخفف من هول جريمتها .

لكنها أخطأت التقدير . فالملكة بقبولها المناقشة الصريحة حول القضية بشقيها ، والكردينال بتحمله الاستنطاق والفضيحة ، قد انتزعا هالة البراءة من عدوتهما التي استنفدت كل ما لديها من مكر ورياء كي تحيط بها نفسها .

لكن الغريب في الأمر ، أن الرأي العام لم يكن مستعداً أن يبرئ أحداً في هذه المحاكمة ، حتى أولئك الذين ستبرئهم العدالة !

وبقي موقف الرأي العام هو إياه من دون تبديل ولا تعديل ، كذلك موقف القضاة ، حتى بعد مقابلات.لا حصر لها ، استمر الكردينال خلالها محافظاً على هدوئه وتهذيبه ، كما استمر كذلك أثناء المقابلة التي جرت بينه وبين جانّ ، وبدت فيها هذه الأخيرة عنيفة وعازمة على إلحاق الأذية بالكل !

وبعد أن أُفشيت كل الأسرار، وغدا الطعن بالتزوير غير ممكن تقريباً. وبعد أن لمست جانّ عدم تأثيرها على القضاة، أطبق الصمت في زنزانتها على كل قواها وكل آمالها.

ومن كل المقربين الى السيد دي بريتاي، وكل القائمين على خدمته، جاءت النصيحة إلى جانّ كي تراعي جانب الملكة ولا تتعرض لها، وكي تتهم الكردينال من دون شفقة ولا رحمة.

ومن كل المتأثرين بالكردينال والغيارى عليه: من عائلته القوية النفوذ، ومن القضاة المنحازين إلى الرأي العام الحاقد على الملكة، ومن رجال الدين ذوي التأثير المتعدد الوسائل، جاءت النصيحة إلى السيدة دي لاموت كي تقول الحقيقة كلها، وكي تفضح مؤامرات البلاط، وكي تدفع بالضجة إلى النقطة التي تؤدي إلى إحداث ذهول قاتل في الرؤوس المتوجة.

وهذا الفريق، الذي كان يسعى إلى إرهاب جانّ، حذّرها مما كانت تعلمه جيداً، وهو أن القضاة بأكثريتهم يعطفون على الكردينال، وأنها ستسحق سحقاً ولن تنال أية فائدة في صراعها معه، وأنه من الأفضل لها أن تُدان بقضية العقد من أن تثير السخط عليها لارتكابها جرائم قدح وذمّ في الذات

الملكية ، خاصة وإن القانون صريح بهذه الأمور ، وهو لن يقي رأسها سالماً .

وبدا لهذا الفريق أنه سيكون المنتصر حتماً ، وكان له ما توقع . فالشعب أظهر كل حماس معه لمصلحة الكردينال الذي نال إعجاب الرجال بصبره ، وإعجاب النساء برصانته . فالرجال اعتبروه ضحية خدعة دنيئة ، والنساء أبينَ تصديق التهمة الموجهة إليه .

فأخذت جانّ تفكر في كل ذلك ، بعد أن تخلى عنها محاموها ، ولم يُخف القضاة اشمئزازهم منها ، وحمل عليها آل روهان بقساوة ، واحتقرها الرأي العام . ثم قررت أن تضرب ضربتها الاخيرة في محاولة لإرباك القضاة ، وترهيب أصدقاء الكردينال ، وحقن الرأي العام بالحقد والكراهية ضدَّ ماري انطوانيت .

وكانت خطتها تقضي بحمل البلاط على الاعتقاد بأنها راعت جانب الملكة باستمرار ، وأنها ستضطر إلى كشف كل شيء ، إذا ما أخرجوها عن طورها ودفعوها إلى نفاد صبرها .

ومن جهة الكردينال ، قضت خطتها بحمله على الاعتقاد بأنها لم تلتزم الصمت حتى الآن ، إلا مراعاة له واقتداء بلياقته ولطفه . أما لحظة يتكلم هو ، فستصبح هي محررة من هذه

المثالية، وستتكلم مثله ايضاً، وستكشف الحقيقة التي تظهر براءتها.

وفي الواقع. لم يكن ما أعلنته سوى القليل مما ستقدمْ عليه خلال التحقيق في الدعوى. لكن ما يجب قوله، هو أن كل طعام معروف، باستطاعته ان يجدد الشباب بفضل التوابل الحديثة. وما رجته الكونتس مما استنبطته مخيلتها، هو إعطاء دفع جديد لمناورتها المزدوجة، والقائمة على المكر والخداع.

لذلك كتبت إلى الملكة هذه الرسالة، التي تكشف كلماتها وحدها، عن مغزاها ومضامينها:

«مولاتي،

«إن ما أنا عليه من شقاء وعناء، لم يحل دون تقديم هذه الشكوى الوحيدة. إن كل الأساليب الملتوية التي استعملوها كي ينتزعوا مني اعترافات محددة، لم تؤدِ إلا إلى تقوية إصراري على عدم تلويث شرف مليكتي.

«مع هذا، لدي بعض القناعة بأن تصبُّري ومثابرتي على الكتمان، سيوفران لي الوسائل الكفيلة بإنقاذي من الورطة التي أتخبط فيها. أعترف لك بأن المجهودات التي قامت بها عائلة «العبد»، (هكذا كانت الملكة تسمي الكردينال أيام الصلحة بينهما) جعلتني خائفة من أن أصبح ضحيته. فإطالة مكوثي في السجن، والمقابلات التي لا تنتهي، واليأس،

والخجل من أن أجد نفسي متهمة بجريمة لم ارتكبها، قد أضعف شجاعتي. وأخشى ما أخشاه أن تنهار مقاومتي تحت وابل من الضربات توجّه إليّ دفعة واحدة!

«إن كلمة واحدة يا مولاتي، باستطاعتها أن تضع حداً لهذه المأساة. وذلك بتدخل السيد دي بريتاي لدى الملك، واقتراحه عليه إخراجاً يمليه ذكاؤه ولا يطال مولاتي بأية شبهة.

«إن ضرورة القيام بهذا المسعى الذي أقترحه، يفرضها خوفي من أن أضطر للكشف عن كل شيء. وإني لمقتنعة بأن مولاتي ستقدر الأسباب التي أجبرتني على اللجوء إليها، وبأنها ستصدر أوامرها لإنقاذي من حالة البؤس والشقاء التي أعانيها.

«وسأبقى، مع عميق احترامي، الخادمة المطيعة لمشيئة مولاتي!

«الكونتس دي فالوا دي لاموت»

وكما نرى، فقد عملت جانّ كل الحسابات. قد تكون شاءت أن تصل رسالتها الى الملكة، فترغمها لهجتها والصلابة المتجلية فيها، وهي المتعبة من صراعها مع الذين يضمرون لها الشر، على الاستسلام والموافقة على إطلاق

سراحها، على اعتبار أن سجنها ومحاكمتها لن يؤديا إلى أية نتيجة.

وقد تكون، وهذا محتمل جداً وثابت في آخر الرسالة، أنها لم تكن تهدف إلى ذلك إطلاقاً، بل كان هدفها أن يتفشى مضمون الرسالة بين القضاة الذين يحاكمونها، فلا يعود بإمكان الملكة أن تعمل لإخفائها دون أن تدين نفسها.

فجان كانت تعلم أن حراسها كلهم أوفياء لحاكم الباستيل، أي للسيد دي بريتاي. وأن الفرنسيين بأجمعهم ينظرون إلى القضية نظرة بحث سياسية، وهذا ما لم يحدث في فرنسا منذ أمدٍ طويل. وكانت متأكدة بأن الرسول الذي ستكلفه بنقل رسالتها، إن لم يسلمها إلى الحاكم، فهو سيحتفظ بها لنفسه، أو أنه سيسلمها إلى القضاة الذين هم من رأيه.

وعلى افتراض أن الرسالة قد وقعت في يدي كائن من كان، فهي قد تعمّدت نصَّها بشكل يشحن النفوس بالحقد والكراهية والاحتقار ضدَّ الملكة!

وفي ذات الوقت الذي كتبت فيه جانّ هذه الرسالة إلى ماري انطوانيت، كتبت رسالة أخرى إلى الكردينال، هذا ما جاء فيها:

«لا أستطيع أن أتصور يا مولاي، أنك ستبقى مصراً على

عدم التكلم بوضوح . ويبدو لي ، أن أطيب شيء إلى نفسك ، هو أن تمنح قضاتنا ثقة غير محدودة ، فيكون مصيرنا أسعد حظاً . أما من جهتي ، فأنا قد قررت الصمت إذا لم تشأ أن تساعدني . ولكن لماذا لا تتكلم ؟! اشرح كل الظروف التي رافقت هذه القضية الغامضة ، وأقسم لك بأني سأثبت كل ما تقوله . فكِّر جيداً يا سيدي الكردينال . فأنا إن بادرت الى التكلم قبلك ، وأنكرتَ أنت ما باستطاعتي قوله ، سأكون هالكة ، ولا يعود أمامي مجال للتفلت من انتقام «تلك» التي تريد التضحية بنا نحن الاثنين . أما أنت ، وقد خبرت إخلاصي ووفائي ، فليس لديك إطلاقاً مثل هذا الخوف من جهتي . وإذا استمرت «هي» في عنادها ، فإن قضيتك هي قضيتي ، ولن أوفر أية تضحية في سبيل إنقاذك من حقدها ، وإلا كانت مصيبتنا مشتركة .»

«ملاحظة : لقد كتبت «إليها» رسالة ، سترغمها كما أرجو ، إن لم يكن على قول الحقيقة ، فعلى الأقل على عدم تجنيها علينا ، نحن اللذين لم نرتكب جريمة نلام عليها ، سوى جريمة ضلالنا وصمتنا .»

هذه الرسالة الماكرة ، سلمتها جانّ بنفسها إلى الكردينال أثناء المقابلة الأخيرة التي جرت بينهما في ردهة الباستيل

الكبرى . مما جعله أمام هذه الوقاحة ، يحمرُّ ويصفرُّ ويرتعش ، ويخرج إلى الشرفة كي يستعيد أنفاسه !

أما رسالة الملكة ، فقد قدمتها الكونتس بنفسها أيضاً ، وفي ذات اللحظة ، إلى الأب لوكيل المعروف بغيرته على مصالح آل روهان ، ومرشد الباستيل الذي رافق الكردينال الى الردهة . قدمتها إليه قائلة له :

«بإمكانك يا سيدي ، إذا ما قمت بهذه المهمة ، أن تغير مصير الأمير دي روهان ومصيري . خذ علماً بما تتضمنه هذه الرسالة . فأنت رجل ملزم بالسر بحكم واجباتك ، وأنا قد قرعت الباب الوحيد الذي باستطاعتنا ، أنا والكردينال ، أن نلجأ إليه طالبين النجدة .»

فرفض مرشد الباستيل تسلمها ، قائلاً :

«ألم تجدي سواي ، أنا رجل الدين ! إن جلالتها ستظن بأنك كتبتها بعد أخذ نصائحي ، وأنك اعترفت لي بكل شيء . لذا ، لا يمكنني القبول بما سيوقعني في التهلكة .»

فقالت جانّ وقد يئست من نجاح حيلتها ، فلجأت إلى التهديد والوعيد :

– حسناً ! قل لنيافة الكردينال إذن ، بأنه لم يبق لدي سوى وسيلة واحدة لإثبات براءتي ، هي أن أفضح سرّ الرسائل التي سبق له أن كتبها للملكة . إني أنفر من هذه الوسيلة ،

ولكن من أجل مصلحتنا المشتركة، سوف أضطر إلى اللجوء إليها.

وهنا، لاحظت أن المرشد قد أرعبته هذه التهديدات، فحاولت للمرة الأخيرة، أن تضع بين يديه رسالتها الرهيبة إلى الملكة، وهي تقول في نفسها:

«إذا أخذ الرسالة، فأنا ناجية. لأني عندئذ، سأطلب منه بكل جرأة، أن يفعل ما يهمني أن يفعله.»

لكن الأب لوكيل، ما كادت الرسالة تلامس يديه، حتى ردّها وكأنها حرقت أصابعه.

فقالت جانّ وقد اصفرت غضباً:

- لا يفتك بأنك لا تجازف بشيء، لأن نسخة عن رسالة الملكة هذه، قد أودعتها ظرفاً يحمل عنوان السيدة دي ميزاري.

فصاح الأب لوكيل:

- هذه حجة إضافية. فإن شخصين يقفان على السر، يشكلان سببين لغيظ الملكة. لا، لا، إني أرفض!

فقالت له الكونتس:

- انتبه! فأنت تدفعني كي استخدم رسائل الكردينال!

فأجابها الأب المرشد:

- لا بأس، استخدميها يا سيدتي!

فقالت جانّ وهي ترتعش من الغضب :

- ولكن، لا تنس أن مراسلات سرية مع جلالتها، ستجعل من رأس الكردينال طعماً للمقصلة ... والآن، أنت حرّ بأن تقول «لا بأس»، فأنا قد حذرتك!

وفي هذه اللحظة، فُتح الباب وظهر الكردينال في إطاره ... فبدا على عتبته مهيب الطلعة عاصف الوجه من شدة الغضب، وقال :

«إن تقديم رأس من آل روهان للمقصلة يا سيدتي، هو مشهد ليس الأول في الباستيل. ولكن طالما أنك لهذا تعملين، فثقي بأني لن أعتب على المقصلة التي ستفصل رأسي عن جسدي، شرط أن أرى رأسك أولاً، ذاوياً كلصة ومزورة! تعال أيها الأب، تعال!»

وبعد هذا الكلام الصاعق، أدار ظهره لجانّ، وخرج مع المرشد تاركاً تلك المخلوقة الشقية في يأس وغضب شديدين، لم يعد بإمكانها معهما أن تقوم بأية حركة، دون أن ترتسم أمام عينيها حمأة الفسق والفجور التي ستسقط فيها قريباً.

عمادة بوزير الصغير

★

كل الحسابات التي عملتها السيدة دي لاموت لم تؤدِ بها إلا إلى الضلال، وكاغليوسترو لم يؤخذ بأي منها.

فهو ما كاد يدخل الباستيل، حتى تبين له أن الحجة قد توفرت أخيراً كي يعمل جهاراً على تهديم النظام الملكي، هذا النظام الذي، منذ سنوات، كان يقوّض أركانه سراً بالإشراقية (١) والأعمال السحرية.

ولما كان واثقاً بأن أي شيء لن يفحمه، وأن الجريمة التي وقعت ستكون جدُّ ملائمة لنظرياته، فقد برَّ بوعده الجازم للناس كلهم، بأن هيأ الماديات الحسية الداعمة لذلك الكتاب الشهير الذي بعث به من لندن، والذي يبدو، أنه قبل شهر من ذلك الوقت الذي نحن فيه، كان بمثابة طلقة المنجنيق الاولى على جدران الباستيل القديمة، وأول انتفاضة للثورة، واول اصطدام مادي سبق ثورة الرابع من تموز عام ١٧٨٩ .

---

(١) مذهب يقول بظهور الأنوار العقلية وفيضانها بالاشراقات على النفوس عند تجردها.

في هذه الرسالة، كان كاغليوسترو، بعد أن أهلك الملك والملكة، والكردينال، والمضاربين بالاسهم المالية، يود ان يهلك السيد دي بريتاي، الذي يجسد الاستبداد والطغيان الوزاري. وقد عبَّر هذا المقوض الهدام عن أفكاره بقوله:

«نعم، إني أردد هذا بحرية، بعد أن قلته وأنا أسير. ليس هناك من جريمة، إن لم يكفر عنها ستة أشهر في الباستيل. لقد سألني أحدهم عما إذا كنت سأعود يوماً ما إلى فرنسا، فكان جوابي: بالتأكيد، شرط أن يصبح الباستيل متنزهاً عمومياً. فليحفظكم الله أيها الفرنسيون. إن لديكم كل ما يلزم كي تكونوا سعداء: الأرض الخصبة، والمناخ الجيد، والقلب الطيب، والبشاشة، والظرافة، والعبقرية، والأناقة المميزة وسواها، مما يجعلني أقول لكم أيها الأصدقاء الطيبون، بأن لا شيء ينقصكم سوى أمر يسير، هو أن تكونوا واثقين من النوم على أسرتكم عندما لا يكون هناك مأخذ عليكم.»

وقد برّ كاغليوسترو بكلامه أيضاً تجاه أوليفا. وهذه من جهتها، كانت وفية لنصائحه. فلم تتلفظ بكلمة تثير الشبهة حول حمايته لها، ولم تعترف بواقعها المشؤوم سوى للسيدة دي لاموت، وكان اعترافها باشتراكها البريء في الخداع الموجه، حسب اعتقادها، ضدَّ نبيل مجهول يطلقون عليه اسم لويس، اعترافاً صريحاً لا يقبل الاعتراض.

وخلال الوقت الذي استغرقه وجود الموقوفين في السجن رهن التحقيق، لم ترَ أوليفا حبيبها بوزير، لكنها مع ذلك، لم تكن مهملة كلياً من قبله. فكما سنرى، كانت تحتفظ من عشيقها بذكرى كانت تتمناها ديدون [1] عندما كانت تقول حالمة: «آه! لو يتاح لي أن أرى اسكانيوس صغيراً يلهو على ركبتي!»

وفي شهر أيار من العام ١٧٨٦، كان هناك رجل وسط الفقراء الواقفين على الدرج امام بوابة كاتدرائية سان بول، في شارع سان انطوان، وكان هذا الرجل قلقاً لاهثاً ينظر دون انقطاع ناحية الباستيل.

ثم ما لبث أن جاء رجل ذو لحية طويلة ووقف بالقرب منه، وكان هذا الرجل المانياً ومن خدم كاغليوسترو، وقد سبق لهذا الاخير ان اتخذه حاجباً له في الاستقبالات المغمورة بالأسرار التي أجراها في منزله القديم في شارع سان كلود.

فتقدم هذا الرجل من بوزير الذي كان قد عيل صبره، وقال له بصوت منخفض:

---

(١) ديدون هي اميرة صور ومؤسسة مدينة قرطاجة. وقد جعلها الشاعر فيرجيل في عصر أفنوس، البطل الطروادي الذي شُغفت به. ولكن، واحسرتاه! كان أفنوس متزوجاً، وكان اسكانيوس ابنه.

– مهلاً، مهلاً، فإنهم سيأتون!

فصاح بوزير القلق:

– آه! هذا أنت!

ولما بدا للرجل الألماني، أن الرجل القلق لم ترضه عبارة «إنهم سيأتون»، همس في أذنه قائلاً:

– إن موقفك هذا يا سيد بوزير، قد يثير ضجة تلفت إلينا أنظار الشرطة... لقد وعدك سيدي بأخبار سارة، وها أنا قد جئتك بها.

– هات ما عندك! هات ما عندك يا صديقي!

– إخفض صوتك. إن الأم والطفل بصحة جيدة...

فصاح بوزير بفرح لا يمكن وصفه:

– أوه! أوه! لقد ولدت؟! لقد خلّصت بالسلامة؟!

– نعم يا سيدي. ولكن تنحَّى جانباً، أرجوك!

– إنها إبنة؟

– لا يا سيدي، صبي!

– أوه! هذا أفضل يا صديقي. فكم أنا سعيد! أرجوك أن تقدم شكري لسيدك، وأن تقول له بأن حياتي، وكل ما أملك، رهن مشيئته...

– نعم يا سيد بوزير، نعم، سوف أقول له ذلك عندما أراه.

– ولكن لماذا منذ قليل، قلت لي يا صديقي ... خذ، خذ هاتين الذهبيتين.

– أرجوك، أنا لا أقبل شيئاً إلا من سيدي.

– عفواً، فأنا لم أقصد الإساءة إليك.

– هذا ما أعتقده يا سيدي. ولكن، ألم تقل لي؟..

– آه! لقد شئت أن أسألك، لماذا قلت لي منذ قليل، «إنهم سيأتون»، فمن هم الذين سيأتون؟

– إنهم يا سيدي الجراح والقابلة القانونية السيدة شوبان، اللذين ولّدا الآنسة أوليفا.

– ولكن لماذا سيأتيان إلى هنا؟

– كي يعمّدا الطفل.

فصاح بوزير وهو يقفز كالمجنون:

– ماذا قلت؟ سأرى ولدي! سأرى ابن أوليفا! هنا بعد قليل؟!

– نعم، هنا بعد قليل. ولكن أتوسل إليك أن تخفف من غلوائك. وإلا، فإن اثنين أو ثلاثة من عملاء السيد دي غروسن المتسترين بأسمال كأسمال هؤلاء المتسولين، سوف يكتشفونك ويعلمون بأنك على اتصال بسجين الباستيل. وعندئذ، ستهلك نفسك، وستعرّض سيدي للهلاك.

فصاح بوزير باحترام يمليه عرفان الجميل:

- أفضل الموت على أن أتلفظ بكلمة قد تسبب الأذى لمن أحسن إلي. سوف أخنق صوتي في حنجرتي إذا لزم الأمر، ولكن لن أقول أبداً، إنهم لن يأتوا...

- صبراً يا صديقي، صبراً!

فسأله بوزير وهو يضمّ يديه:

- هل هي على شيء من السعادة هناك؟

- إنها في منتهى السعادة. أوه! ها هي عربة تقبل!

- نعم، نعم!

- وها هي قد توقفت...

- إني أرى بياضاً، أرى دانتيلا!..

- إنه ثوب العماد.

- يا إلهي!

وهنا أضطرَّ بوزير أن يستند إلى أحد الأعمدة كي لا يتهادى، وذلك عندما رأى القابلة والجراح وحامل مفاتيح الباستيل، يخرجون من العربة ليكونوا شهوداً في هذا اللقاء.

وما أن مرَّ هؤلاء الثلاثة، حتى هرع إليهم المتسولون يستدرون عطفهم. وهنا حدث شيء غريب! لقد مرَّ العراب والعرابة وهما يدفعان هؤلاء البؤساء بأكواعهم، فيما أخذ غريب يوزع عليهم نقوده ودموع الفرح تتساقط من عينيه!

ثم دخل الموكب الصغير الكنيسة، ودخل وراءه بوزير وأخذ، مع الكهنة والمؤمنين الفضوليين، يبحث عن أفضل مكان في السكرستية، حيث سيتمّ سرّ العماد.

وبعد أن حيّا الكاهن الجراح والقابلة تحية خاطفة مرفقة بابتسامة، إذ عرفهما لأنه سبق له أن استعان بهما في ظروف مماثلة، وحذا بوزير حذوه، أُغلق باب السكرستية وأمسك الكاهن بقلم وشرع يكتب في سجله العبارات التي تثبت حدوث العماد وفق المبادئ والتعاليم الكنسية. ولما وصل إلى السؤال: ما اسم المولود وما اسم والديه؟ أجابه الجراح:

– إنه صبي، وهذا كل ما أعلمه!

وأكدت هذا القول أربع ضحكات، مما أزعج بوزير وأغضبه. وأضاف الكاهن يقول:

– ولكن حتماً سيكون له اسم، فهل تريدون له اسم قديس؟

– نعم، الآنسة تريد أن تسميه «توسان» (جميع القديسين)

فقال الكاهن وهو يضحك:

– إذن، كل القديسين هنا!

فأعاد قول الكاهن جوّ المرح والضحك إلى السكرستية، مما جعل صبر بوزير على وشك النفاد. إلا أن الالماني الذي كان يمسك به، حمله على أن يتمالك نفسه.

ثم أردف الكاهن يقول :

– حسناً ! مع هذا الاسم «توسان» يمكننا أن نضرب صفحاً عن اسم الأب .

وأكب على التسجيل ، فكتب : «اليوم ، قُدِّم إلينا مولود ذكر ، ولد أمس في الباستيل . هو ابن نيكول – أوليفا ليغاي ، من ... أب مجهول !»

فوثب بوزير غاضباً جهة الكاهن ، وأمسك قبضة يده بقوة ، وصاح به :

– إن «توسان» له أب ، كما له أم ! له أب حنون لن ينكر أبداً صُلبه . أرجوك ، إن «توسان» الذي ولد البارحة من الآنسة نيكول – أوليفا ليغاي ، هو ابن جان بابتيست توسان دي بوزير ، الحاضر هنا !

فاستولت الدهشة على الكاهن ، وعلى العراب والعرابة ! فسقط القلم من يد الأول ، وكاد الصبي أن يسقط من يد القابلة ، لو لم يسرع بوزير ويتلقفه بذراعيه ، ويغمره بالقبلات الملتهبة ...

وتساقطت الدموع الأبوية على جبهة الطفل المسكين ، فكانت عماده الاول والأكثر قدسية في العالم ، بعد العماد الذي سيباركه الله ...

ورغم أن الحضور قد ألفوا المشاهد المأسوية والشكوكية

المتفشية لدى الفولتيريين[1] في ذلك العصر، فقد هزَّ هذا المشهد كيانهم وأثار عاطفتهم. وحده الكاهن حافظ على رباطة جأشه وشكك في هذه الأبوة. وربما كان السبب غيظه من اضطراره إلى إعادة الكتابة من جديد، وفي ذلك ما فيه من صعوبة بالنسبة للسجل.

لكن بوزير قدر هذه الصعوبة، فوضع ثلاث ليرات ذهبية في جرن العماد، ثبّتت حقه كأب صادق النية بشكل أفضل من دموعه التي تساقطت على جبهة ولده!! إذ إن الكاهن التقط الذهبيات بارتياح ظاهر، وشطب ما كان قد كتبه بسخرية على سجله، وقال لبوزير:

- فقط يا سيدي، بما أن تصريح جراح الباستيل والسيدة شوبان هو تصريح قاطع، اكتب، إذا شئت، وأكّد بنفسك أنك والد هذا الطفل.

فصاح بوزير بفرح طاغٍ:

- أنا!.. ولكني سأكتب بدم قلبي!

وأمسك القلم بغبطة وهمّ بأن يكتب، فقال له غيون، حامل مفاتيح السجن، الذي لم ينسَ دوره كرجل مدقق:

- ولكن حذار يا سيدي! فأنا اعتقد بأن اسمك له صداه

---

(١) نسبة الى المفكر الفرنسي فولتير الذي أثارت فلسفته الشكوك الدينية.

المشؤوم في بعض الأماكن، لذلك من الخطر عليك أن يُدوَّن في السجلات العمومية، مع تاريخ يعطي الدليل في آن واحد على وجودك، وعلى مشاركتك التجارة امرأة متهمة.

فأجاب بوزير بأنفة:

- شكراً على نصيحتك يا صديقي. إنك رجل نبيل يستحق أن أقدم له هاتين الذهبيتين... أما أن أنكر زوجتي...

فصاح الجراح:

- وهل هي زوجتك؟

وصاح الكاهن:

- الشرعية!

فقال بوزير وهو يرتعش سروراً:

- أعاد الله إليها حريتها. فغداً ستحمل نيكول ليفاي اسم بوزير، الذي يحمله ولدها وزوجها!

فقال غيبون:

- ولكن إلى أن يتحقق ذلك، أنت تجازف بنفسك، إذ أعتقد بأنهم يبحثون عنك!

فقال الجراح:

- لن أكون أنا الذي سيغدر بك!

وقالت القابلة:

- ولا أنا!

وقال الكاهن :

- ولا أنا !

وأكمل بوزير بلهجة الشهيد امام حبل المشنقة :

- وعندما يغدرون بي ، كم سأتعذب إلى أن أحظى بالتعزية في إلقاء النظرة الأخيرة على ولدي !

فقال غيبون إلى القابلة هازئاً وبصوت منخفض :

- لا بأس إن عُذّب على الدولاب ، مقابل أن يقال عنه ، إنه والد «توسان» الصغير !

فابتسمت السيدة شوبان لهذا المزاح الذي نشأ عن الشكليات التي رافقت تسجيل بوزير الطفل في سجل المعمودية ، وانتهى بالتصريح الخطي الذي كتبه بوزير الأب بعبارات رائعة ، كأنه أديب يحرص على أن تكون كل كلمة في مؤلفه معبرة أصدق تعبير عن مشاعره وأحاسيسه !

وبعد أن أعاد قراءة ما كتبه ووضع علامات الوقْف حيث يجب أن تكون ، وقَّع على السجل ، كذلك فعل الاشخاص الاربعة الحاضرون .

ثم قبّل ولده الذي أصبحت معموديته مكتملة الشروط ، ودسّ تحت النسيج الذي قُدم عليه للمعمودية دزينة من الليرات الذهبية ، وألبسه طوقاً في عنقه كما هي العادة بالنسبة للمنذورين . وبفخر وزهو فتح باب السكرستية ، عازماً أن لا

يلجأ إلى أية حيلة للهرب من رجال الشرطة إذا ما استغلوا المناسبة للقبض عليه.

ولو أن بوزير استطاع أن يركز نظره في المتسولين الذين لم يبرحوا مكانهم أمام الكنيسة، لربما شاهد بينهم ذلك الشرطي «الايجابي» الذي كان سبب نكبته، مع أنه لم تبدر من أحد أية حركة سوى قولهم: «الله يحرسه!» بعد أن وزّع بوزير الحسنات على هؤلاء الفقراء بسخاء.

وهكذا غادر الأب السعيد كنيسة سان بول محفوفاً بمظاهر الرجل النبيل المحترم، وأدعية فقراء رعيته. أما شهداء العماد، فقد انسحبوا نحو عربتهم منذهلين من هذه الحادثة الغريبة.

وكان بوزير قد تربص في زاوية شارع القديسة كاترين، فلما رآهم يمرون بعربتهم، بعث في الهواء بعدة قبلات إلى ولده من قلبه الخافق... ولما توقف قلبه عن الخفقان بعد أن توارت العربة عن عينيه، قرر أن لا يمتحن الله ولا الشرطة، فلجأ الى ملاذٍ غير معروف إلا منه، ومن كاغليوسترو والسيد دي غروسن.

وهذا يعني أن السيد دي غروسن، هو أيضاً، قد برّ بوعده لكاغليوسترو ولم يزعج بوزير.

ولما أُعيد الصبي إلى الباستيل وأطلعت السيدة شوبان أوليفا

على ما حدث في الكنيسة ، لامست هذه بإبهامها وسبابتها الطوق في عنق ولدها ، وأخذت تقبّله وتبكي ...

وعندما دار البحث عن وجوب تأمين مرضعة له ، قالت هي :

«إن الأم الصالحة ، كما قال جيلبار ، تلميذ روسو ، هي التي تُرضع طفلها . لذلك سوف أُرضع طفلي لأني أريد ، على الأقل ، أن أكون أماً صالحة !»

في قفص الاتهام

★

بعد نقاش مستفيض في محكمة البرلمان اختتم بمطالعة النائب العام ، نُقل المتهمون ، باستثناء الكردينال روهان ، إلى سجن الكونسيارجيري في قصر العدل ، كي يكونوا أقرب إلى قاعة المحكمة التي ستفتح في الساعة السابعة من كل صباح .

وأمام هيئة القضاة التي ترأسها الرئيس الاول آليغر ، استمرت سيماء المتهمين على ما كانت عليه أثناء التحقيق .

فأوليفا بقيت صريحة وخائفة ، والكردينال بقي مطمئناً وغير قلق ، وبدت أحياناً على وجهه تلك الاشراقية الروحية التي كان يطيب له أن يتصنعها .

أما ريتو فيبّات، فاستمر يبكي بخجل وخساسة. واستمرت جانّ على وقاحتها، تهدد وتتوعد ويقدح الشرر من عينيها كأنها أفعى سامة!

وعكس الكردينال الذي كان دائماً ساهماً شارد الفكر وقد بدا عليه الوهن والانحطاط، اعتادت جانّ بسرعة على اسلوب الحياة في سجن الكونسيارجيري، وأسرت بغنجها ودلالها المعسولين وما تنطوي عليه من أسرار زوجة حارس السجن، فحظيت برعايتها وعطفها، كما حظيت برعاية وعطف زوجها وولدها. وهكذا عاد إليها شيء من حلاوة الحياة، بعد أن توفر لها مزيد من الحرية للاتصال بالخارج.

أما المناقشات في فرنسا، فلم يطرأ عليها جديد، إذ بقيت كلها تدور حول قضية العقد الذي تمت سرقته بجرأة من قبل واحد من الاثنين اللذين يتهمها الشعب، ويلقي كلٌ منهما التهمة على الآخر.

وكان همُّ القضاة في هذه الدعوى، معرفة أي منهما هو السارق الحقيقي.

وهذا ما شغل الفرنسيين أيضاً. فاكتشاف السارق الحقيقي كان يهمهم بنوع خاص، لمعرفة عما إذا كانت الملكة على حق في اعتقال الكردينال واتهامه بالتهور وقلة الأدب.

فكل من كان يهتم بالسياسة في فرنسا، كان يرى في

التهمة الشنيعة الموجهة الى الكردينال، المحور الأساسي لهذه الدعوى. وكان السؤال المطروح: هل كان دي روهان مقتنعاً بأن ما قاله للملكة يجوز له ان يقوله، وان يتصرف باسمها، كما فعل؟ وهل كان عميلاً سرياً لماري انطوانيت، عميلاً تنصَّل من ارتباطه بها بعد أن أُثيرت الضجة حول الصفقة؟

وبالاختصار، هل الكردينال المتهم في هذه القضية، قد تصرف بحسن نية كصديق حميم للملكة ومؤتمن على سرها؟

إذا كان تصرفه عن حسن نية، فالملكة تصبح عندئذ مذنبة بسبب هذه الصداقة الحميمة التي أشارت إليها السيدة دي لاموت وأنكرتها هي، حتى وإنْ كانت صداقة بريئة. ثم، هل معقول أن تكون هذه الصداقة الحميمة بريئة في نظر الرأي العام الذي لا يرحم، وقد أنكرتها الملكة على زوجها، وعلى وزرائها، وعلى رعاياها؟!

تلك هي النقطة الهامة التي عالجها النائب العام في مطالعته باسلوب يبعد الشبهة عن الملكة. فهو قد تكلم باسم البلاط وكغيور على الكرامة الملكية، فأخذ بمجموع الأدلة التي تطال الكردينال، ولم يشأ ان يسجل مأخذاً على الملكة إلا في قضية العقد -هذا إذا كان هناك من مأخذ وإذا اعترفت الملكة به- وإلا وقعت المسؤولية كلها على رأس الكردينال.

واختتم مطالعته مطالباً بإصرار، بما يلي:

اولاً: بسجن ريتو فيتّات مدى الحياة مع الاشغال الشاقة.

ثانياً: بالحكم على جانّ دي لاموت بالجلد، وبالسجن مدى الحياة مع الاشغال الشاقة في أحد المصحات.

ثالثاً: بردّ الدعوى ضدّ كاغليوسترو.

رابعاً: بتبرئه أوليفا دون قيد ولا شرط.

خامساً: بإلزام الكردينال على الاعتراف بأنه قام بعمل متهور أساء إلى صاحبة الجلالة، وبإبعاده عن كل مكان فيه وجود للملك أو الملكة، وبتجريده من ألقابه ورتبه الأسقفية.

فأوقع قرار الاتهام هذا البرلمان في حيرة، وأوقع الرعب في قلوب المتهمين! فالمشيئة الملكية التي برّر سلوكها بهذه القوة كأنما العصر قد رجع ربع قرن الى الوراء، في الوقت الذي كان فيه البرلمان قد بدأ يخلع عنه نير الطاعة، أظهر النائب العام الملكي أكثر حماسة من القضاة للمبدأ الذي كان لم يزل محترماً، والقاضي بتجنب المسّ بالجلالة الملكية وبعصمة العرش.

لكن أربعة عشر نائباً فقط تبنوا رأي النائب العام بمجمله، فأوقع هذا التأييد الانقسام في البرلمان.

وكان العرف يقضي بأن يجلس المتهم امام القضاة على مقعد خشبي صغير وواطئ، كي يلامس بخجل ما لامسه

متهمون قبله، جلسوا على ذات المقعد قبل أن تفصل المقصلة رؤوسهم عن أجسادهم.

وعلى هذا المقعد أجلسوا المزور ريتو فييّات الذي طلب العفو متوسلاً والدموع تتساقط من عينيه، بعد أن اعترف بكل ما نسب إليه. لقد اعترف بذنبه كمزور، واعترف بذنبه كمتواطئ مع جانّ دي لاموت، وأعطى الدليل على ندمه وتبكيت ضميره وعذاب نفسه، بدموعه السخية الخليقة بأن تجرد القضاة من سلاحهم!

لكن، بما أن ريتو لم يكن سوى نذل منبوذ من قبل القضاة، فقد أُعيد إلى زنزانته في الكونسيارجيري، دون أن يكترث له أحد.

وظهرت بعده على مدخل القاعة السيدة دي لاموت، التي جاءت مسوقة بكاتب المحكمة. وكانت ترتدي دثاراً بلا كمين وقميصاً من الشيت القطني، وتعتمر طاقية بيضاء من دون أشرطة، وتغطي معظم وجهها بنوع من آلشاش الابيض، وقد تركت شعرها على سجيته، فخلق منظرها إحساساً قوياً في نفوس أعضاء مجلس النواب.

لقد جاءت تتحمل أول إهانة من الإهانات التي كانت تنتظرها، إذ إنهم أدخلوها الى قاعة المحكمة عبر الدرج الصغير كأنها مجرمة من عامة الشعب لا من آل فالوا!

وتكدرت جانّ قليلاً من حرارة القاعة، وهمهمات الحضور، وحركة الرؤوس التي كانت تتلفت اليها من كل جهة، فزاغ بصرها لحظة وتوقفت لكنها ما لبثت أن اعتادت على التطلع إلى هكذا جمهور.

عندئذ، ذات الكاتب الذي كان يمسك بها من يدها، قادها تواً الى حيث المقعد الخشبي الصغير وسط دائرة نصفية كأنه خشبة النطع... فما أن وقع نظرها على هذا المقعد المشؤوم الذي خصصوها به، وهي الفخورة بأنها من آل فالوا وبأن مصير الملكة بين يديها، حتى اصفرت وألقت نظرة حانقة على من حولها، كأنها تريد أن ترهب القضاة الذين أجازوا لأنفسهم هذه الاهانة!

لكن الارادة الحازمة التي قوبلت بها من قبلهم، كبحت ثورة غضبها، فجلست كي لا يبدو عليها بأنها سقطت سقطاً على المقعد الخشبي.

ولاحظ الحضور بأنها، خلال الاستنطاق، قد أضفت على أجوبتها طابع الغموض الذي يسمح لأعداء الملكة بأن يستخلصوا من هذه الأجوبة ما يعزز رأيهم. فهي لم تحرص إلا على التأكيد بأنها بريئة، وقد ألزمت الرئيس بدهاء ما بعده دهاء، على أن يطرح عليها سؤالاً حول الرسائل الغرامية المتبادلة بين الكردينال والملكة. أما جوابها عن هذا السؤال،

فقد نفثت معه كل سمها، كأنها صلٌّ لم يجد إلا هذه الوسيلة للدفاع عن نفسه!..

فقد بدأت جانّ جوابها بالاعتراض عليه وإظهار رغبتها بعدم التعرض للملكة! وأضافت بأن ليس هناك من يستطيع الإجابة عن هذا السؤال أفضل من الكردينال...

وأردفت تقول:

«حثّوه كي يبرز هذه الرسائل أو نسخاً عنها، لتقرأ على مسامعكم وترضي فضولكم... أما أنا، فلا أستطيع التأكيد عما اذا كانت هذه الرسائل موجهة من الكردينال الى الملكة، أو من الملكة الى الكردينال. فقد وجدت في بعضها كثيراً من المصارحة والدالة بالنسبة الى ملكة تكتب الى تابع... ووجدت في البعض الآخر كثيراً من الوقاحة وعدم الاحترام بالنسبة إلى تابع يكتب الى ملكة...»

فخيّم على قاعة المحكمة صمت مطبق مخيف، أثبت لجانّ بأنها أوقعت الرعب في قلوب أعدائها، وخلقت ذعراً لدى أنصارها، وحذراً لدى قضاتها المتجردين. ولم تترك المقعد الخشبي الصغير، إلا مع الأمل بأن الكردينال سيجلس عليه كما جلست هي، وذلك يكفيها ويرضيها تقريباً.

لكنها بعد أن استدارت لتلقي نظرة أخيرة على ذلك المقعد المشين الذي ستجبر واحداً من آل روهان على أن يجلس عليه

بعدها، تساءلت عما سيحدث. فهل يا ترى، ستأمر المحكمة الحجاب بإخفائه واستبداله بمقعد لائق ومريح، فلا تعود تراه مرة ثانية؟

أمام هذا التصور، عصف الغضب الشديد في صدرها، فقفزت خارج القاعة وأخذت تعضض يديها وقد اهتاجت كالمجانين!!

وهنا ابتدأ عذابها... إذ رأت الكردينال وقد جاء الى المحكمة في عربة، ورأته يهبط منها ليدخل من الباب الكبير الذي فُتح له... ثم رأت حاجبين وكاتبين يرافقانه، وقد مشى إلى جانبه حاكم الباستيل!

وعند دخوله، انطلقت من مقاعد القاعة تمتمات التعاطف والاحترام، تبعها هتاف قوي في الخارج. إنه هتاف الشعب، وقد كان يحيي المتهم ويوصي به قضاته.

لقد كان الأمير لويس دي روهان، اصفر اللون شديد التأثر. وكان يرتدي بدلته الكهنوتية المخصصة للاحتفالات الرسمية. وقد تقدم للوقوف امام القضاة بالاحترام المفروض في هكذا مكان، وبكل ثقة بعدل القضاء وحكمه.

فقدموا إليه مقعداً لائقاً ومريحاً، بعد أن اشرأبت الاعناق واجفة من أن يوضع في قفص الاتهام. وبعد أن حيّاه رئيس

المحكمة ووجه إليه كلاماً مشجعاً، رجته هيئة المحكمة كلها بأن يتفضل ويجلس، فضاعف هذا الرجاء اصفراره وتأثره ...

وعندما بدأ الكلام بصوته المرتعش، وتنهداته المتقطعة، وعينيه القلقتين، ومظهره المتواضع، حرك الحنوّ والشفقة في أعماق قلوب المستمعين. فقد برر الكردينال سلوكه بتؤدة، وقدم اعتذارات اكثر مما قدم براهين، وابتهالات اكثر من حجج. وتوقف فجأة، وهو الرجل البليغ والفصيح اللسان، فكان لشلل فكره وشجاعته هذا، تأثير أقوى من كل المرافعات، وكل الحجج والبراهين!

وعندئذ ظهرت أوليفا، فسيقت تلك الابنة المسكينة الى المقعد الخشبي الصغير. وعندما رأى الحضور تلك الصورة الحية للملكة تجلس على مقعد الخزي والعار، ارتعش الكثيرون منهم واهتزت كياناتهم! فطيف ماري انطوانيت، ملكة فرنسا، على مقعد السارقات والمزورات، قد أرعب أشد الناقمين على النظام الملكي. والمشهد نفسه ايضاً، أثار شهية الانتقام لدى البعض، كما يثير الدم الشهية لدى النمر إذا ما أذاقوه إياه!

الا أن الكل في قرارة أنفسهم، أجمعوا على القول بأن هذه المسكينة أوليفا، قد اضطرت في مثولها أمام المحكمة،

إلى ترك طفلها الذي ترضعه ثدييها . وعندما فُتح باب القاعة ، انبثق منه صراخ ابن بوزير بألم ، فكان أروع مرافعة عن أمه !

وبعد أوليفا ، جاء دور كاغليوسترو ، الأقل ذنباً من الجميع . فلم يُفرض عليه الجلوس ، مع أن المقعد الذي جلس عليه الكردينال ، كان لم يزل محفوظاً قرب المقعد الخشبي الصغير . فهيئة المحكمة خشيت دفاع كاغليوسترو . واستنطاقه الذي قطعه الرئيس أليغر بقوله : «حسناً !...» كان كافياً لما تتطلبه الشكليات ، فأعلنت هيئة المحكمة اختتام المرافعات والبدء بالمذاكرة .

وعلى الأثر خرج الحضور ليسيروا يبطء في الشوارع وعلى الأرصفة ، عازمين على العودة في الليل ، ليستمعوا إلى الحكم الذي قدروا ، بأن لفظه لن يتأخر !

سهلوا هربها .. فلم تقع في الفخ!

★

بعد انتهاء المرافعة وزوال تأثيراتها من قاعة المحكمة ، ذهبوا بالمساجين كلهم الى الكونسيارجيري ليباتوا ليلتهم في هذا السجن الصغير بانتظار صدور الحكم عليهم .

أما الجمهور، فكما وعد نفسه وقلنا، عاد في المساء ليتوزع جماعات صامتة في ساحة قصر العدل، ولكنها على مثل الجمر لمعرفة ما ستقرره المحكمة.

والغريب في الأمر، أن باريس كلها كانت تترقب ما كان يترقبه الجمهور المنتظر من نتائج لهذه المحاكمة، فيما كان يتلذذ بشراب عرق السوس المعطر بالأنسون، الذي كان الباعة المتجولون في ذلك الطقس الحار يحضرونه ويبيعونه تحت القنطرة الاولى من جسر القصابين.

وفيما كان الكردينال دي روهان، وقد منح حق التنزه على السطيحات التي تتصل بالأبراج الرئيسية في ذلك القصر، يتحادث مع كاغليوسترو في النجاح المرجح لدفاعهما المتبادل، كانت اوليفا في حجرتها الضيقة تداعب طفلها وتهدهده بين ذراعيها. وكان ريتو في حجرته المماثلة وقد فقدت عيناه الضياء، يعدُّ في مخيلته وهو يقضم أظافر يديه بأسنانه، الريالات التي وعده بها السيد دي غروسن مدير الشرطة، ويقارن بينها وبين سنوات الحبس التي تنتظره.

أما جانّ دي لاموت، فقد كانت في ذلك الوقت، وبعد أن انزوت في غرفة السيدة إيبار، زوجة حارس الكونسيارجيري، تحاول أن تسلو واقعها المؤلم بقليل من الضجة وقليل من الحركة.

تلك الغرفة كانت عالية السقف وواسعة ومبلطة كأنها رواق، ومضاءة بنافذة كبيرة تطل على الرصيف. لكن مربعات الزجاج الصغيرة فيها، كانت تحجب نور النهار ولا تسمح إلا للقليل منه بأن ينساب اليها. ومع ان هذه الغرفة بالذات، كان يقطنها أناس أحرار، فقد كانت الحرية محرمة عليهم، إذ كانت القضبان الحديدية المتشابكة خارج النافذة، تضاعف الظلمة داخل الغرفة.

فضلاً عن ذلك، فالنور الضئيل الذي كان يتسلل كاللص في نظر السجناء، لم يكن فيه أي أثر لأشعة الشمس. وهو والحالة هذه، لم يكن إهانة توجه إلى المحرومين منه، بقدر ما كان إهانة توجه الى الله الذي جعل النور واسطة بينه وبين الانسان، وفاصلاً دقيقاً بين الألم والبسمة.

في هذه الغرفة، كانت السيدة دي لاموت منذ عزلتها في الكونسيارجيري، تعيش مع حارس السجن وزوجته وابنهما. ولقد سبق وقلنا، بأنها باسلوبها المغري، قد جعلت هؤلاء الناس يحبونها ويعطفون عليها. فاستغلت هذين العطف والمحبة وأقنعتهم بأن الملكة مذنبة كبيرة.

وكانت السيدة دي لاموت، كما صرحت هي بنفسها، قد أنساها العيش مع هذه العائلة الطيبة أفكارها الحزينة، وأخذت تستلطف مزاحهم وتطيب نفسها لمجاملاتهم. لكنها

عندما عادت في ذلك اليوم، يوم اختتام الجلسات، الى غرفة أولئك الناس الطيبين، وجدتهم مهمومين وقلقين!

فحاولت هذه المرأة المحتالة، التي كان باستطاعتها أن تبكي مع الباكين وتضحك مع الضاحكين، أن تنتزع الحقيقة من قلب السيدة إيبار، لكنها هي وزوجها وولدها، التزموا الصمت المطبق!

وفي ذلك اليوم، لمحت جان في ركن المدخنة راهباً، اعتاد على زيارة البيت ومشاركة ساكنيه مأكلهم ومشربهم، وقد كان سابقاً كاتباً لدى مؤدب الكونت دي بروفنس. وكان هذا الراهب رجلاً بسيط المظهر، هجّاءً لاذع الكلام، ابتعد مدة طويلة عن منزل السيدة إيبار، ثم عاد يواظب على زيارته منذ وصول السيدة دي لاموت إلى الكونسيارجيري.

وكان هناك إثنان أو ثلاثة من كبار الموظفين في قصر العدل، يتطلعون كثيراً الى السيدة دي لاموت ويتكلمون قليلاً، فبادرتهم هي بقولها:

«أنا أكيدة بأنهم فوق، يتكلمون بحرارة أشد مما نتكلم نحن هنا.»

فصدرت عن حارس السجن وزوجته همهمة خفيفة تدل على موافقتهما على هذا الكلام. وقال الراهب متظاهراً بالجهل:

«فوق؟ أين تقصدين يا سيدتي الكونتس؟»

فأجابت جانّ:

- في القاعة، حيث قضاتي يتذاكرون.

فقال الراهب:

- أوه! نعم، نعم!

وبعد ان ساد الصمت قليلاً، قالت جانّ دي لاموت:

- اعتقد أن موقفي اليوم قد أعطى نتيجة حسنة، وأن ما قلته، كان من الواجب أن تعرفوه. أليس كذلك؟

فقال الحارس بتهيب:

- نعم يا سيدتي.

ونهض كأنه يريد تغيير الحديث، فقالت جانّ:

- ما هو رأيك يا سيدي الكاهن؟ أولم تتوضح مشكلتي جيداً؟ تصور إذا لم يُفصَّل الواقع كما هو!

فقال الكاهن:

- هذا صحيح يا سيدتي، فأنت ما زال لديك الكثير من الأمل والرجاء.

فصاحت جانّ: أليس كذلك؟

وتابع الكاهن يقول:

- ومع ذلك، افترضي أن الملك...

فقالت جانّ بحدة:

– الملك !.. ماذا سيعمل الملك ؟

– إن الملك يا سيدتي ، باستطاعته أن يرفض تكذيب أحد له !

– اذن ، فهو سيحكم على الكردينال ، وهذا مستحيل !

فجاءها الجواب من كل الجهات :

– فعلاً ، هذا صعب !

فأسرعت جان الى القول :

– لأن في هذه القضية ، ما يقوله الأمير دي روهان ، أقوله أنا !

فقال الكاهن :

– لا ، لا ، أنت واهمة يا سيدتي ! في القضية متهم بريء... وأنا أعتقد بأن هذا المتهم هو أنت ، كما أرجو وآمل . لكن حتماً ، هناك واحد مذنب ومسيء للملك ، وإلا ماذا سيحل بالملكة ؟

فقالت جانّ وقد ألمها ان تلقى معارضة ، حتى في الأمل الذي كانت تتصنعه :

– هذا صحيح ، يجب أن يكون هناك مذنب بحق الملك ، لذلك دي روهان أحق بالذنب مني .

وبعد هذا الكلام ، خيّم صمت مرعب على الكونتس ، قطعه الكاهن بقوله :

- إن الملك يا سيدتي، لا يضمر حقداً ولا ضغينة. فالغضب الأول الذي شفى غُلّته، لن يعود الى التفكير به.

فقالت جانّ بسخرية:

- ماذا تقصد بالغضب الذي شفى غُلّته؟ فكما كان يغضب نيرون، كان يغضب تيتوس[1].

فأسرع الكاهن إلى القول:

- إن الحكم على شخص، أياً كان هذا الشخص... هو مجلبة للرضى والارتياح!

فصاحت جانّ:

- أياً كان هذا الشخص... يا سيدي! إنها لكلمة مخيفة... «أياً كان!» كلمة مبهمة جداً... هكذا، أياً كان!

فقال الكاهن ببرودة:

- أوه! أنا لا أقصد سوى الحكم بالانزواء في دير. هذه هي الفكرة التي سيعتمدها الملك، كما يشاع ويقال، وذلك مراعاة لك...

فأخذت جانّ تتفرس هذا الرجل وهي ترتجف من شدة رعبها، ثم قالت:

---

(١) تلميح الى طبع لويس السادس عشر الهادئ. فتيتوس، الأكثر بشاشة بين الأباطرة الرومان، كان كنيرون الأكثر قساوة، يغضب بعض الأحيان.

– الانزواء في الدير!.. اي الموت البطيء الشائن!.. الموت في سجن الدير جوعاً وبرداً!.. لا، كفى عذاباً! وكفى خجلاً، وكفى شقاء لبريئة، فيما المذنبة الحقيقية حرة مكرمة، لا لسبب إلا لكونها قادرة وصاحبة سلطان! إني أريد الموت فوراً لنفسي، لكني أريد الموت الذي أختاره أنا، الموت الذي يكون عقاباً لي لأني ولدت في هذا العالم المقيت السافل!

لقد نجح هؤلاء الثلاثة في إثارتها وإخراجها عن طورها، فانتفضت كالنمرة التي أزعجها الصيادون ولم يخيفوها، وأطلقت صيحة غاضبة هي أشبه بالعواء، ثمّ وثبت الى غرفة مجاورة لتلك التي كانت فيها، وهناك أمسكت إناءً خزفياً ضخماً نبتت فيه وردة ذابلة، وضربت به رأسها عدة ضربات...

فتحطّم الإناء وما بقي منه في يد تلك المرأة الشريرة سوى قطعة صغيرة! وسال الدم على جبهتها من جلدها الذي مزّقته الجروحات، فأسرعت زوجة الحارس وارتمت بين ذراعيها باكية. وبعد أن أجلسوها على مقعد مريح وغسلوا جروحاتها بالماء العطر الممزوج بالخل، انتابتها اختلاجات وتشنجات مريعة، فقدت على أثرها وعيها!

وعندما استفاقت، تراءت للكاهن كأنها تختنق، فقال:

– إن هذه الشعرية بقضبانها الحديدية تحجب النور وتمنع تسرب الهواء، أليس بالإمكان السماح لهذه المرأة المسكينة بأن تتنفس الصعداء؟

عندئذ، نسيت السيدة إيار كل شيء، فأسرعت الى خزانة تقع قرب المدخنة وسحبت من درجها مفتاحاً فتحت به الشعرية المذكورة، فتدفقت موجات الهواء والحياة الى الشقة، وقال الكاهن:

– آه! لم أكن أعلم بأن هذه الشعرية يمكن فتحها بمفتاح. وإني لأتساءل: لماذا كل هذا الحذر؟

فأجابت زوجة الحارس:

– إنه الأمر يا سيدي!

فأضاف الكاهن يقول بقصد محدد:

– ولكن هذه النافذة لا تبعد عن الطريق العام سوى سبع خطوات تقريباً، وهي تفضي الى الرصيف. فاذا حدث أن هرب بعض السجناء من داخل الكونسيارجيري عبر هذه النافذة، فإنهم سيجدون أنفسهم أحراراً دون أن يلتقوا حامل مفاتيح السجن ولا أي حارس!

فقالت زوجة الحارس:

– هذا صحيح!

ولاحظ الكاهن بطرف عينه أن السيدة دي لاموت قد

سمعت كلامه ووعته ، وارتعشت ... وأنها بعد هذا اللام ، رفعت عينيها باتجاه الخزانة التي أودعت فيها زوجة الحارس مفتاح الشعرية ، والتي كانت مغلقة فقط بأكرة نحاسية !

فكان ذلك كافياً بالنسبة إليه فاستأذن ، إذ رأى أن حضوره لم يعد بذي جدوى .

غير أنه قال وهو يعود من حيث أتى كأشخاص المسرحية وقد ضلوا المخرج .

«كم من الناس في الساحة ! فها هي الجموع تترك مسرعة هذه الجهة من القصر ، ولم يعد هناك أحد على الرصيف !»

فأطل الحارس برأسه وقال :

– صحيح ، لم يعد من أحد على الرصيف :

وتابع الكاهن يقول ، ودائماً كأن السيدة دي لاموت لا يمكنها سماعه ، بينما هي تسمعه جيداً :

– أتعتقدون بأن الحكم سيصدر هذه الليلة ؟

فردَّ الحارس قائلاً :

– لا أعتقد بأنه سيصدر قبل صباح غد .

فقال الكاهن :

– حسناً ! حاول أن توفر قليلاً من الراحة لهذه المسكينة السيدة دي لاموت . فهي بعد الصدمات التي تلقتها ، بحاجة ماسة إلى الراحة .

فقال الحارس إلى زوجته :

– علينا أن ننسحب إلى غرفتنا ، وان نترك السيدة هنا على هذا المقعد المريح ، على الأقل إذا لم تشأ الانتقال إلى السرير .

فرفعت جان رأسها ، ولاحظت أن عين الكاهن تترقب جوابها ، فتظاهرت بأنها تود أن تنام .

عندئذ ، توارى الكاهن ، وذهب الحارس وزوجته أيضاً ، بعد أن أغلقوا الشعرية برفق ووضعوا المفتاح مكانه .

فما أن أصبحت جانّ وحدها ، حتى فتحت عينيها وأخذت تفكر قائلة في نفسها :

«إن الكاهن نصحني بالهرب ، إذ دلني على الوسيلة بطريقة ولا أسهل . وتخويفي من الحكم قبل أن يصدر قرار المحكمة ، لا بدَّ أنه صادر عن صديق يدفعني نحو الحرية ، لا عن عدوّ يبغي تحقيري وإهانتي .

«وكي أهرب ، ما عليّ إلا أن أخطو الخطوة الأُولى . أن أفتح هذه الخزانة ، ثم هذه الشعرية ، فأغدو على الرصيف المقفر .

«نعم ، إنه رصيف مقفر خالٍ من أي إنسان ، وحتى القمر ذاته تحجبه غيوم السماء .

«الهرب !.. أوه ! يعني الحرية ! يعني عودتي للتمتع بثروتي ، يعني سعادتي بأن أردَّ الى أعدائي كل الشر الذي يضمرونه لي !»

واندفعت نحو الخزانة وأمسكت بالمفتاح، ثم اقتربت من قفل الشعرية... وفجأة، اعتقدت بأنها رأت على الخط الأسود من درابزين الجسر، شكلاً أسود متناسق الهيئة، فقالت في نفسها:

«إنه رجل في ذلك الظلام!.. قد يكون الكاهن متربصاً هربي ليقدم لي مساعدته... ولكن، ماذا لو كان فخاً... حتى إذا ما أصبحت على الرصيف، أطبق علي، وتلبستني جريمة جديدة هي جريمة الهرب، عدا ان الهرب بحد ذاته اعتراف مني بالجريمة التي أحاكم من أجلها؟.. من أين جاء هذا الرجل؟.. يبدو أنه مرتبط بالكونت دي بروفنس... ومن يدري، فربما كان رسول الملكة أو آل روهان؟!

«إن حملي على الهرب قبل ساعات من صدور الحكم، ألم يكن بالامكان تقديمه، لو كانوا حقاً يريدون خدمتي؟ يا إلهي! من يدري إذا لم يكن خبر براءتي من قبل مجلس القضاء قد وصل الآن الى أعدائي، فشاؤوا من وراء هذا الضرب المرعب إعطاء الدليل للملكة على إني مجرمة، والا لما هربت؟ لا، لن أهرب، بل سأبقى هنا، لأن هربي هو اعتراف مني بما اقترفته يداي!»

وبعد ان اتخذت جانّ قرارها هذا وأيقنت أنها أفلتت من الفخ،ابتسمت وشمخت برأسها الماكر الجسور، وبخطوات

واثقة مشت وأعادت مفتاح الشعرية الى الخزانة الصغيرة قرب المدخنة .

ثم ، وفيما هي جالسة على المقعد المريح بين الضوء والنافذة ، ومتظاهرة بالنوم ، رأت ظل ذلك الرجل الذي كان يتربص قد نهض ، بعد أن تعب من الانتظار ولا شك ، وتوارى مع خيوط الفجر الاولى ، اي عند الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل ، وبعد أن أصبح باستطاعة العين أن تميز الماء من ضفافه .

الحكم

★

في الصباح ، وبعد ان استيقظت الضجة في كل مكان وأستأنفت باريس حياتها العادية ، راود الأمل الكونتس بأَنها ستفاجأ بنبأ تبرئتها يدخل سجنها مع الفرح وتهاني الأصدقاء .

ولكن ، هل لديها أصدقاء؟ واحسرتاه! فمع أن المال مجلبة للأصدقاء ، فإن جانّ التي أصبحت ثرية وقادرة ، لم

تستطع بما وهبته من مال أن تخلق لنفسها صديقاً واحداً تراه إلى جانبها في محنتها، صديقاً ولو تافهاً كذلك الذي جاملها في العشية!

إلا أن جانّ، بعد الانتصار الذي ترتقبه، سيكون لها أنصار ومعجبون، وسيكون لها حسّاد أيضاً!

لكنها عبثاً انتظرت تدفق الناس على قاعة الحارس إيبار، بوجوههم الضاحكة وأيديهم المبسوطة للتهنئة، فأخذ الأمل يتبخر ليحل مكانه القلق واليأس.

ومع أن حالة القلق في هكذا وضع، لا يستطيع المرء إخفاءها بسهولة، فلم تجد هي أية صعوبة في إخفاء مشاعرها عن حراسها.

ولما لم يكن مسموحاً لها بالخروج كي تستعلم، فقد مدت رأسها عبر كوة صغيرة، وأصغت بقلق إلى الضوضاء في الساحة المجاورة، فاذا بها ضوضاء هامسة يسودها الغموض. وما هي لحظات، حتى اخترقت أنباءُ قصر سان لويس جدرانه العتيقة، فتحولت هذه الهمسات إلى ما يشبه الانفجار، إذ دوّى التصفيق وعلا الصياح والهتاف الذي لم تفهم منه جانّ سوى كلمة «برافو»، فانتابها الخوف ورُوِّعت لأنها لم تكن تعلم عما إذا كانت هذه التظاهرة معها أو ضدها.

وللفور تكاثر عدد المارة على الرصيف، كأن جموع الساحة قد بارحتها وتفرقت جماعات جماعات، ثم ارتفع صوت رجل دين يقول بعد أن قفز الى البلاط قرب الدرابزين:

«إنه يوم الكردينال هذا اليوم!»

فقالت جانّ في نفسها: «يوم الكردينال!.. إذن هناك نبأ بأن الكردينال قد بُرّئ!»

وللحال سقطت من جبهتها قطرة عرق، بل قطرة حقد وضغينة!.. وعادت لتوها الى الغرفة الفسيحة لتقول للسيدة إيبار:

- سيدتي، سيدتي، لقد سمعتهم يقولون: «إنه يوم الكردينال هذا اليوم» فما معنى ذلك، إذا شئت؟

فأجابتها زوجة الحارس:

- لا أدري:

فصبت جانّ نظراتها في وجه السيدة إيبار، وأضافت قائلة:

- أرجوك أن تسألي زوجك.

فأطاعت المرأة مراعاة لخاطرها، وجاء جواب السيد إيبار من الخارج كجواب زوجته:

- لا أدري!

فنفد صبر جانّ، ووقفت لحظة وسط الغرفة مرتعشة، ثم قالت:

– لا شك أن هؤلاء المارة يتكلمون على المحاكمة، فهل ما يقولونه إيحاءات صادقة؟

فقال إيار الرؤوف:

– ربما هم يريدون القول، بأنه إذا بُرِّئت ساحة الكردينال، فسيكون هذا اليوم يومه.

فصاحت جانّ وقد تشنجت أصابع يديها:

– أوَتعتقد بأنه سيبرأ؟

– ذلك محتمل.

– وأنا، ماذا سيحل بي؟..

– أوه! أنت يا سيدتي... أنت ستبرئين مثله. لماذا لا؟

فهمهمت جانّ:

– يا للفرضية الغريبة!

وعادت تلصق وجهها بالكوة الصغيرة. فقال لها الحارس:

– أعتقد يا سيدتي، بأنك تأخرت في استجلاء الحقيقة من مشاعر غير واضحة تأتيك من الخارج. فهدئي من روعك بانتظار أن يأتي محاميك، أو السيد فرامين، فيقرأ عليك...

– ماذا؟.. الحكم... لا، لا!

وصمتت منصتة ... لقد كانت هناك امرأة تمرّ مع صديقاتها وعلى رؤوسهن قبعات العيد، وفي أيديهن باقات الورود، فتصاعدت الرائحة العطرة نحو حاسة الشمّ لدى جانّ، فتنشقتها مع التحسر وإطلاق الزفرات.

ثم سمعت هذه المرأة تقول:

- حبذا لو أستطيع أن أقبّل هذا الرجل المعبود، بعد أن أقدم له ورودي!

وقالت أخرى: وأنا أيضاً، أتمنى ما تتمنينه!

وقالت ثالثة: أما أنا، فأريده أن يقبلني!

فقالت جانّ في نفسها:

«عمن يتكلمون يا ترى؟ ومن يكون هذا الرجل المعبود؟ آه! إنه الكردينال ... لقد بُرّئَ! لقد بُرّئَ!»

تلفظت بهذه الكلمات وانهارت ... فأسرع إليها الحارس وزوجته محاولين تجنب ما حدث لها العشية. وبعد أن طيّبا خاطرها بلطف الكلام، سألاها قائلين:

- عجباً منك يا سيدتي! لماذا لا تريدين التبرئة والحرية لهذا السجين المسكين؟

فشعرت جانّ كأن طعنة سُددت الى صدرها. وشعرت بنوع خاص أن مضيفيها قد تغيرا بالنسبة إليها، فقالت محاولة الاحتفاظ بعطفهما:

– أوه ! إنكما لم تفهماني. أتظنان بأنني شديدة الحسد وشريرة إلى درجة أني أتمنى الشر لرفاقي في التعاسة ؟ يا إلهي ! أتوسل اليك بأن تمنّ بالتبرئة على الكردينال ! نعم، بالتبرئة ! ولكن أنا، أنا آخر من يعلم !.. صدّقاني أيها الصديقان، بأن نفاد الصبر هو الذي جعلني على ما أنا عليه.

فتناظر إيار وزوجته كأنهما يقدران ما بإمكانهما أن يفعلاه. لكن بريقاً وحشياً التمع في عيني جانّ، رغماً عنها، أوقفهما عن اتخاذ أي قرار. فصاحت بهما جانّ وقد شعرت بخطإها :

– ألا تقولان لي شيئاً؟

فأجاباها معاً وبصوت منخفض :

– ليس لدينا ما نقوله.

وفي هذه اللحظة، تلقى إيار أمراً بالخروج من شقته، ففعل وبقيت زوجته وحدها مع جانّ تحاول عبثاً تسليتها. لأنها كانت منجذبة الى الخارج بفعل الضجيج والصفير اللذين خدشا أذنيها، فجعلاها تتأثر وتنفعل إلى أقصى حدود التأثر والانفعال.

ولما لم يعد بإمكان زوجة الحارس أن تمنعها من التطلع والإصغاء، استسلمت لمشيئتها وخضعت لرغباتها.

وفجأة، تعاظمت الضجة وتكاثرت الحركة في الساحة،

وأخذت الجموع تخلي الجسر باتجاه الرصيف وهي تطلق صيحات متناسقة ومتكررة، مما جعل جانّ ترتعش في مرقبها.

هذه الصيحات لم تنقطع إطلاقاً، ومطلقوها اتجهوا نحو عربة مكشوفة كان حوذيُّها يمسك بأعنة جيادها والجموع تحيط بها من كل جانب، مما جعل الجياد بالكاد تنقل خطواتها.

فتقدمت الحشود اللجوجة المتراكمة ووضعت اكتافها وأذرعها، وحملت الجياد والعربة والشخصين اللذين كانت تحتويهما!!

ومع بزوغ أشعة الشمس، وتحت غيث من الزهور، وقبة من أغصان الأشجار كانت الف يد تلوح بها فوق رأسيهما، عرفت الكونتس هذين الرجلين اللذين أسكر منظرهما الشعب فألهبه حماسة!

لقد كان الاول شاحب اللون، مهيباً ووقوراً، ومذهولاً من شعبيته!.. وكانت النسوة تجازفن في الصعود الى إطارات العربة لتخطفن يديه وتلتهمنهما بالقبل! كما كن يتبادلن اللطمات العنيفة في المنافسة على تزيين دنتيلاً كميه بالزهور الندية النادرة!

وغيرهن، أكثر منهن حماسة، كن قد صعدن إلى مؤخرة العربة، وبدافع لاشعوري، أزلنا العوائق التي تحول بينهن وبين

التعبير عن محبتهن، وأخذن يتوالين على الامساك برأس الشخصية الهامة وطبع قبلات الاجلال والتقديس عليه... ولم تكن هذه الشخصية المعبودة سوى الكردينال دي روهان!

أما رفيقه، الذي كان متألقاً ومسروراً، فإن يكن لم يحظ بمثل ما حظي به الكردينال، إلا أنه استقبل أيضاً بحماس وحفاوة، وتوزع هتاف الجمع بحياة الشخصين بين النساء والرجال. فالنساء كن يهتفن: عاش الكردينال! والرجال كانوا يهتفون: عاش كاغليوسترو!

هذه النشوة من الفرح العارم دامت، الى ان اجتازت الجماهير جسر القصابين، نصف ساعة. وقد شاهدت جانّ المنتصرين ولم تفتها أية تفاصيل من هذا الاستقبال المنقطع النظير.

وهذه التظاهرة الشعبية ضدّ جرائم الملكة - لأنها هكذا اعتبرت - قد أفرحت جانّ لبعض الوقت، لكنها تساءلت بعدها قائلة:

«وبعد؟! لقد أصبحا هما حرين، واكتملت كل الاجراءات المتعلقة بهما. أما أنا... أنا التي أجهل كل شيء، لماذا لا يقولون لي شيئاً عما يخصني؟!»

قالت هذا القول في نفسها وارتعشت ... ثم انتبهت الى أن السيدة إيبار تقف الى جنبها صامتة ومصغية الى كل ما يجري، فهي إذن عالمة بمضمون الحكم ولا تريد ان تفصح عن شيء. فانبرت جانّ لتحثها على الايضاح، وإذا بضجة جديدة تلفت انتباهها ... لقد كانت هناك عربة يحيط بها أناس، ترتقي بدورها منحدر جسر القصابين.

فعرفت جانّ في هذه العربة أوليفا ... أوليفا التي كانت تنطلق حرة وتبتسم لطفلها، وقد جُنَّت فرحاً بالمزاح الصريح تقريباً، وبالقبلات التي كانت تبعث اليها في الهواء ...

وفي وسط الجسر، كانت تنتظرها محفة اختبأ فيها بوزير وراء أحد أصدقائه، ووحده تجرأ وانكشف للجمهور المعجب وأشار إلى أوليفا، فهبطت هذه من عربتها وسط الصراخ الذي لم يكن يخلو من السخرية، وانتقلت الى المحفة حيث احتضنها بوزير وأخذ يشدها الى صدره ويقبلها، فيما الدموع تتساقط من عينيه، ولم يتركها ويلتقط أنفاسه إلا بعد أن وصلت المحفة بهم الى سان دينيس، حيث استبدلوها بعربة جياد دون أن يستوقفها احد من رجال الشرطة.

في هذه الاثناء، كانت جانّ تتساءل، وقد رأت كل هؤلاء الناس أحراراً وفرحين كأنهم في عيد:

«لماذا أنا وحدي لم أتلقَّ أي خبر!»

ثم رفعت صوتها وقالت بغضب :

– لماذا أنا، أنا وحدي، خصصوني بهذا التفنن في القسوة، ولم يصارحوني بواقع الحكم الذي يعنيني ؟!

وكان إيبار قد دخل، فقال لها :

– هدئي من روعك يا سيدتي، هدئي من روعك !

فصاحت به قائلة :

– من غير المعقول أن لا تكون على علم بشيء. أنت تعرف ! أنت تعرف ! أخبرني ! أخبرني !

– سيدتي ...

– أخبرني إذا لم تكن بربرياً، فأنت ترى كم أتألم !

– إنه لممنوع علينا، نحن مآمير السجن، أن نعلن الأحكام يا سيدتي. فهذا الأمر يتعلق بكتّاب المحكمة.

فصاحت جان في فورة من الغضب العارم :

– إذن، هناك ما هو خطير ومرعب، فلا تتجرأ على البوح به !

فأرعب منظرها حارس السجن، فقال لها وقد تصور مشهدها في العشية :

– لا ... تمالكي أعصابك يا سيدتي، تمالكي أعصابك !

– إذن، تكلم !

– أتعدينني بالصبر، وعدم النقمة علي ؟

– أعدك وأقسم لك، فقط تكلم!

– حسناً!.. إن الكردينال قد بُرِّئَ!

– أعرف ذلك!

– والسيد دي كاغليوسترو وضع خارج البلاط.

– أعرف! أعرف!

– والآنسة أوليفا لم تثبت عليها التهمة.

– أكمل... أكمل!

– اما السيد ريتو دي فيلّات، فقد حكم عليه بالسجن المؤبد مع الاشغال الشاقة!

فارتعشت جانّ وصاحت غاضبة:

– وأنا؟.. أنا؟..

– صبراً يا سيدتي، صبراً! ألم تعديني بذلك؟

– إني صابرة، هيّا، تكلم!... وأنا؟

فحوّل الحارس عينيه عنها، وقال بصوت منخفض:

– أنت... حكم عليك بالنفي!

فالتمع وميض السرور في عيني الكونتس، لكنه انطفأ بأسرع مما التمع!

ثم أطلقت صرخة مدوية، وارتمت بين أذرع مضيفيها متظاهرة بأنه قد أُغمي عليها!

فهمس إيبار في أذن زوجته:

- ماذا كانت النتيجة، لو أني قلت لها الحقيقة؟

أما جان التي تظاهرت بأنها أصيبت بنوبة عصبية، فقد كانت تقول في نفسها:

«النفي، يعني الحرية، يعني الثروة، يعني الانتقام، وهذا ما حلمت به... لقد انتصرت!»

التنفيذ

★

أخذت جانّ تترقب بأن يطل عليها كاتب المحكمة، الذي وعدها به حارس السجن، كي يبلغها نتيجة الحكم بحقها.

ولم يكن يخامرها الشك إطلاقاً بأن الحكم بالنفي هو كل عقوبتها. أما لماذا بُرِّئَ الكردينال ولم تبرأ هي، فقد تساءلت عنه بكبرياء:

«لماذا اعتبروا الكردينال أقل ذنباً مني؟ هل كان عقابي نتيجة لذنب ارتكبته؟ لا، فلو كنت في نظر الكل وبموجب القانون والشرع واحدة من آل فالوا، ولو أُتيح لي أن أظهر عند مرور القضاة محاطة بالأمراء وأصحاب المراتب والمقامات الرفيعة كما أُتيح للكردينال، لما كان بالتأكيد لحق بي وبآل فالوا عار الجلوس على المقعد الخشبي المخصص لكبار المجرمين.

«ولكن لماذا التفكير بكل هذه الامور وقد أصبحت في عالم الأموات، بعد ان انتهت تلك المشكلة الخطيرة التي اعترضت سبيل حياتي؟ عليَّ الآن أن أتكيف مع الواقع. فبقائي غامضة المقام في نظر الشعب وفي نظر أهل البلاط، قد يعيدني الى ما كنت عليه من شقاء أساساً، أي إلى ذلك الشقاء الذي كان التدرج المؤلم لحياتي. إن الحاضر عكس الماضي تماماً. فالحكم بالنفي، يعني بأن لي حق التصرّف بالمليون من الليرات الموجودة في صندوقي، وبالعيش تحت أشجار البرتقال في مدينة سيفيل الاسبانية خلال فصل الشتاء، وفي المانيا أو انكلترا خلال فصل الصيف. أي لا شيء يمنعني، وانا الصبية الجميلة الذائعة الصيت، من أن أعيش كما أشتهي وأتمنى، سواء مع زوجي الذي هو طليق، كما اعتقد، أو مع أصدقاء يعرفون كيف يوفرون لي السعادة التي يتطلبها شبابي!

وأضافت تقول وهي مضعضعة الأفكار:

«ليأتوا فوراً ويبلغوني الحكم! أريد أن أعلم كيف سيطلعونني على قرار المحكمة، وكيف سيقودونني إلى خارج المملكة. فهل سينتقمون من امرأة بفرض عقوبات صارمة عليها؟ هل سيعهدون بي الى النبالين كي يوصلوني الى

الحدود؟ هل سيقولون لي بتفخيم: «أيتها الساقطة، إن الملك ينفيك من مملكته؟»

ثم ابتسمت وأكملت:

«لا، فأسيادي هم طيبو القلب، ولا يتمنون لي اكثر من النفي. فالأكثر يتمنونه لهذا الشعب الباريسي الطيب الذي يصيح تحت شرفاتهم: «عاش الكردينال! عاش كاغليوسترو! عاش البرلمان!»

«أوه! نعم، الشعب، فهو عدوهم المباشر! لأني أنا، اعتمدت على الدعم المعنوي للرأي العام، وقد نجحت!»

وأخذت جانّ، وهي في وضعها هذا، تجري حساباتها، وترسم الخطط لمستقبل حياتها. وفيما كانت تفكر بالطريقة التي ستعتمدها لنقل مأساتها من محل إقامتها الى لندن – وقد كان الوقت صيفاً يومذاك – إذا بها تتذكر ذلك المسكين ريتو دي فيلّات، فابتسمت وقالت بخبث ومن دون أية شفقة:

«يا للولد المسكين البائس هذا الريتو! فهو يدفع اليوم ثمن مقالاته الهجائية ضدُّ الملكة، ومؤامرات قلمه. فالله الذي قسم الحصص على البشر، شاء أن يخصه بضربات من العصا، وببعض الليرات الذهبية أحياناً، ثم بكمائن ومخابئ، وأخيراً بالسجن مع الاشغال الشاقة... وهذه هي حال من

يعتمد الحذق عوضاً عن الذكاء، والسخرية عوضاً عن الخبث، ومبدأ الهجوم من دون المثابرة والقوة.»

ثم تناولت جانّ وجبة طعامها مع حارس السجن وعائلته، وكان السرور بادياً عليها، فيما كان الحارس وعائلته عكسها، وقد ظهر الانزعاج جلياً على وجوههم، فنسبت جان ذلك الى الحكم الذي كانت هدفاً له. ولما أبدت لهم ملاحظتها، أجابوها: لا شيء يؤلمنا اكثر من منظر الموقوفين بعد صدور الاحكام عليهم.

كان فرح جانّ صادراً من أعماق قلبها، ولم يكن بوسعها إخفاءه إلا إذا انفردت وحدها مع أفكارها، فوعدت نفسها بأن تطلب بعد الغداء إعادتها إلى غرفتها.

وفوجئت بإيبار يقول لها وقت التحلية، وبجدية ما اعتاد أن يعتمدها في علاقته معها:

«سيدتي، لدينا أمر بأن لا نحتفظ في السجن بالاشخاص الذين بتَّ البرلمان في مصيرهم.»

فقالت جانّ في نفسها: «حسناً، هذا جلُّ ما أتمناه!»

ثم نهضت وأجابت:

- أنا لا أريد أن أعرِّضك للمخالفة، فأكون غير مقدرة لحسن معاملتك لي... إذن، عليَّ أن أعود إلى غرفتي.

وتطلعت كي ترى ما لكلامها من تأثير، فاذا بإيبار يدير

مفتاحاً بإصبعه ، واذا بزوجته تدير وجهها كأنها تريد إخفاء ما ارتسم عليه من تأثيرات جديدة .

فأضافت الكونتس قائلة :

– لكن ، أين سيتلون عليّ الحكم ، ومتى سيتمّ ذلك ؟

فأسرع إيبار إلى القول :

– ربما هم ينتظرون عودة سيدتي الى غرفتها .

فقالت جانّ في نفسها : «إنه حتماً يريد إبعادي !»

وارتعشت ، إذ ساورها شعور بالقلق لم يدم سوى لحظة ، ثم صعدت الدرجات الثلاث التي تفضي الى ممشى قلم المحكمة .

فما أن رأتها السيدة إيبار ذاهبة ، حتى أسرعت إليها وأمسكت بيدها ، ليس باحترام ، ولا بمحبة حقيقية ، ولا بذلك التأثر الذي يشرّف صاحبه كما يشرف مسببّه ، بل بدافع الشفقة التي لم تخف على الكونتس الذكية .

فتأثرت جانّ هذه المرة بصدق ، حتى أنها شعرت برعب !.. لكن تلك المخلوقة المغمورة نفسها بالفرح والأمل ، طرحت عنها الرعب الذي شعرت به ، بنفس السرعة التي طرحت بها القلق !

ومع ذلك ، شاءت جانّ أن تستوضح السيدة إيبار سبب شفقتها ، فانفرجت شفتاها لتطرحا السؤال ... لكن الوقت لم

يسمح لها، لأن إيبار أمسك يدها بشيء من التهذيب، وفتح الباب...

فرأت الكونتس نفسها في الممشى، حيث كان بانتظارها ثمانية نبالين من الشرطة العسكرية. فما أن لمحتهم جانّ حتى تساءلت: من ينتظرون يا ترى؟

وكان في مقدمة النبالة حامل مفاتيح السجن، ذاك الذي كان كل مساء، يقود الكونتس إلى غرفتها.

فتقدم هذا الرجل جانّ، وكأنه يدلها على الطريق. فقالت الكونتس بلهجة المرأة التي تريد إظهار نفسها بأنها واثقة مما تقوله، ولكن بشك:

– هل أنا ذاهبة إلى غرفتي؟

فأجابها حامل المفاتيح:

– نعم يا سيدتي.

فأمسكت جان بحديد الدرابزين وصعدت وراء الرجل، وقد سمعت النبالة على بعد خطوات منها يتهامسون، دون أن يتحركوا من مكانهم.

وعندما بلغت غرفتها، شكرت حامل المفاتيح، ثم انسحب هذا الأخير. وإذ ذاك، وما أن شعرت جانّ بأنها غدت حرة وبعيدة عن أعين الرقباء، حتى انفجر سرورها

المكبوت بشكل غريب، ذلك السرور الذي أخفته طويلاً عن الحارس، بعد أن قنّعت وجهها بقناع المكر والنفاق!

وعندما أرخى الليل سدوله وانتفت كل حركة، مما جعل السجينة تطمئن إلى أن حراسها نيام. وعندما سكن كل ما حولها، تيقظت في تلك المرأة طبيعتها الوحشية، فأخذت تَثِب وتصرخ نشوانة، وتقوم بحركات متنوعة بهدف تليين كل عضو وكل مفصل في جسدها، استعداداً للانطلاق نحو الحرية التي تنتظرها...

وفجأة، سمعت وقع خطوات في الممشى، تلتها خشخشة مفاتيح. ثم سمعت صرير القفل الضخم... فانتصبت مصغية وصامتة، وقالت في نفسها: «ماذا يريدون مني؟»

ودخل حامل المفاتيح... فسألته الكونتس بصوتها العذب غير المبالي:

– ما وراءك يا جان؟

فأجابها:

– هل تريد سيدتي أن تتبعني؟

– إلى أين؟

– إلى أسفل يا سيدتي.

– لماذا إلى أسفل؟!

- إلى قلم المحكمة .

- من أجل ماذا ؟ أرجوك !

- سيدتي ...

فتقدمت جانّ نحو هذا الرجل المتردد ، فلمحت في نهاية الممشى نبالة الشرطة العسكرية الذين التقتهم في الطبقة السفلى ، فصاحت بانفعال :

- قل لي بربك ، ماذا يريدون مني في قلم المحكمة ؟

- سيدتي ، إن محاميك السيد دوالو ، يريد ان يتحدث إليك .

- في قلم المحكمة ؟! لماذا ليس هنا ، طالما أنه عدة مرات نال الإذن بالمجيء إلى هنا ؟!

- القضية يا سيدتي ، أن السيد دوالو قد تلقى رسائل من فرساي ، وهو يريد أن يطلعك عليها .

فلم تلاحظ جانّ إطلاقاً كم كان غير منطقي هذا الجواب . لأن ما استرعى انتباهها فقط ، هو عبارة «رسائل من فرساي ...» ، وهي بدون شك ، رسائل من البلاط جلبها المحامي نفسه ، فأخذت تتساءل :

«هل الملكة قد التمست الرحمة بعد صدور الحكم؟ هل ...»

وهنا بدرت من حامل المفاتيح حركة إلحاح، إذ أخذ يهزهز المفاتيح في يديه كأنه أستاذ، وقد استاء من عدم مثول تلميذته لأوامره، فقالت له جانّ:

- قليلاً من الصبر، فأنت ترى بأني قد نزعت ثيابي لأستريح قليلاً، بعد أن أنهكتني الأيام الأخيرة.

- إني صابر يا سيدتي، ولكني أرجوك، فالسيد دوالو مستعجل!

فأغلقت جانّ الباب، وفي برهة لم تتعدَّ الدقائق الخمس، لبست ثيابها ورتبت شعرها، لأن قلبها كان ينبئها بأن السيد دوالو يحمل إليها أمر الإخلاء الفوري، والوسيلة التي ستجتاز بموجبها الأراضي الفرنسية، بطريقة سرية ومريحة في آنٍ واحد.

نعم، لا بدّ أن تكون الملكة قد فكرت بوجوب إبعاد عدوتها في أسرع وقت ممكن. فهي بعد صدور الحكم، ستعمل جهدها كي تخفف قدر المستطاع نقمة هذه العدوة. لأنه، إن كانت النمرة خطرة وهي مقيدة بالسلاسل، فكم ستكون خطرة إذا ما أصبحت حرة؟

هذه الأفكار السعيدة التي هدهدت جانّ، جعلتها تطير فرحاً وهي تسرع وراء حامل مفاتيح السجن، الذي أنزلها من الدرج الصغير الذي منه كانوا يأخذونها الى قاعة

المواجهات . لكنه عوضاً عن أن يسير بها باتجاه هذه القاعة ، وعوضاً عن أن يستدير الى الشمال كي يدخل قلم المحكمة ، استدار هذا السجان نحو الباب الواقع الى اليمين ، فسألته عندئذ جانّ :

- إلى أين تذهب بي ؟ فقلم المحكمة هنا !

فقال السجان بلهجة معسولة :

- تعالي ، تعالي يا سيدتي ، فهنا السيد دوالو ينتظرك .

ودخل هو اولاً ، ثم جذب السجينة ، التي ما أن أصبحت داخل الباب ، حتى سمعت قرقعة المزاليج التي أوصدوا بواسطتها ذلك الباب الضخم من الخارج ...

فاندهلت جانّ ، إذ إنها لم تر أحداً في تلك الظلمة ، ولا تجرأت أن تطرح مزيداً من الأسئلة على حارسها ؛ وبعد أن تقدمت خطوتين أو ثلاثاً ، توقفت ... فالضوء المائل إلى الزرقة في تلك الغرفة التي وجدت نفسها فيها ، جعل منظرها أشبه بمنظر القبر من الداخل ! فهو ضوء ضئيل كانت أشعته تنسلّ من شعرية قديمة ، وعبر بيوت العنكبوت والغبار المتكاثف على قضبانها الحديدية .

وفجأة ، شعرت جان بالبرد والرطوبة في تلك الزنزانة ، واستشفت شيئاً مخيفاً في عيني السجان المتوقدتين ، الذي وجدت نفسها معه وحده داخل تلك الجدران الاربعة التي

كستها المياه المتسرّبة من السقائف بلون زنجاري عفن، لأن أشعة الشمس لم تلامسها بدفئها. فقالت له مرتعشة من الخوف الذي سيطر عليها:

- سيدي، ماذا نعمل هنا نحن الاثنان؟ أين السيد دوالو الذي وعدتني بأن أراه؟

فلم يجاوب حامل المفاتيح، بل استدار ليتأكد عما إذا كان الباب الذي دخلا منه مغلقاً بإحكام. فلاحقت جانّ حركته تلك برعب وهلع، لأنها في تلك الساعة تذكرت الروايات التي تدور أحداثها في عصور الظلم والبربرية، وتصورت نفسها بأنها ستواجه واحداً من أولئك السجانين المتوحشين والهائمين بسجيناتهم، الذين كانوا يوم يرون أن إحدى السجينات الجميلات سيطلق سراحها، يتحولون الى مغتصبين، فيقترحون عليها ممارسة الحب مقابل حريتها!

ولكن جانّ القوية لم تكن تخشى المفاجآت، ولا كانت نفسها على شيء من الحشمة. لذا اتجهت رأساً إلى السجان وقالت له بابتسامة فيها عطف وحنان:

- ماذا تطلب مني يا صديقي؟ هل لديك شيء تقوله لي؟ إن وقت السجينة، وهي على قاب قوسين من الحرية، لهو وقت ثمين. ويبدو لي أنك اخترت وقتاً مشؤوماً للتحدث إلي!

فلم يجاوبها حامل المفاتيح بشيء، لأنه لم يدرك معنى كلامها. بل جلس على زاوية المدخنة، وأخذ ينتظر. فقالت له جانّ بخشية، وقد ظنته مجنوناً:

- أكرر عليك قولي، ماذا تعمل هنا؟

فأجابها الحارس:

- ننتظر المحامي دوالو!

فقالت له:

- ليس من المعقول أن يأتي المحامي دوالو إلى هنا، كي يطلعني على رسائل وردته من فرساي. فهناك شيء آخر!

وما كادت تنهي كلماتها هذه، حتى فُتح أمامها باب لم تلحظه من قبل. وكان هذا الباب قلاباً مستديراً، كأنه أثر تاريخي مصنوع من الخشب والحديد، لم يلجه إلا السحرة والجن!

وكان وراء هذا الباب درجات تفضي الى رواق سيء الإضاءة، لمحت جانّ وراءه في لحظة خاطفة كالبرق، وبعد أن وقفت على رؤوس أصابع رجليها، فسحة شبيهة بالساحة، ولمحت في هذه الفسحة جمهرة من الرجال والنساء يتطاير الشرر من عيونهم!

فلم يتح الوقت لها كي تعلل هذا المشهد الذي كان بالنسبة إليها كرؤيا، أكثر مما هو نظرة واقعية. ثم ظهر أمامها

وعلى مسافة أقرب من تلك الساحة ، ثلاثة اشخاص يصعدون الدرجة الاخيرة ، وقد التمعت وراءهم ، وعلى الدرجات الداخلية حتماً ، أربع حراب بيضاء صقيلة ، كأنها أربع شمعات شؤم تنير المكان !

لكن الباب المستدير انغلق ، والرجال الثلاثة وحدهم دخلوا الزنزانة التي كانت فيها ، فحولت هذه المفاجآت المتلاحقة قلقها إلى رعب ! وقد دفعها هذا الرعب الى السجان الذي كانت منذ لحظة تخافه ، كي تطلب حمايته من هؤلاء المجهولين .

لكن السجان التصق بحائط الزنزانة ، تعبيراً عن مشيئته بأنه سيبقى مشاهداً سلبياً لما سيجري .

وقبل أن يتاح لجانّ التفكير بما يجب قوله ، بدأ أصغر الرجال الثلاثة استجوابها . وكان هذا الرجل المجهول يلبس ثياباً سوداء ، ويعتمر قبعة ، ويمسك بيده أوراقاً ملفوفة . فسألها بعد أن وقف رفيقاه موقف السجان ، فتواريا عن الانظار في الجزء الأكثر ظلمة من تلك الزنزانة الواسعة :

- هل أنت يا سيدتي ، جانّ دي سان ريمي دي ڤالوا ، زوجة انطوان نيكولا ، كونت دي لاموت ؟

فأجابته جانّ :

- نعم يا سيدي .

- أنت المولودة في فونتات، في الثاني والعشرين من تموز عام ١٧٥٦؟

- نعم يا سيدي.

- وتقطنين في باريس، شارع سان جيل؟

- نعم يا سيدي... ولكن لماذا توجه إليَّ كل هذه الأسئلة؟!

- أنا آسف يا سيدتي، لأني لم أعرّفك بنفسي. لي الشرف بأن أكون كاتب المحكمة.

- إني أعرفك!

- إذن، هل باستطاعتي يا سيدتي أن أكمل مهمتي، بالصفة التي عرفتني بها؟

- أرجوك يا سيدي، أية مهمة أنت مكلف بها؟

- إني مكلف يا سيدتي: بأن أقرأ عليك نصَّ الحكم الذي أصدرته المحكمة بحقك، في جلستها المنعقدة بتاريخ الواحد والثلاثين من أيار عام ١٧٨٦.

فارتعشت جانّ... ثم سرّحت نظرها فيما حولها بيأس وارتياب، وقالت:

- أنت كاتب المحكمة بريتون. ولكن من هما هذان السيدان، رفيقاك؟

وقبل أن يجاوب كاتب المحكمة، أسرع إليه السجان وهمس في أذنه هذه الكلمات: «لا تعرّفها بهما!»

فسمعت جانّ ما قاله السجان، وتطلعت إلى الرجلين بانتباه أكثر مما فعلت قبلاً، ثم ارتجفت عندما لاحظت أن أحدهما يلبس درعاً حديدية وذات أزرار حديدية، والآخر سترة وقلبقاً. ولفت نظرها بنوع خاص الصِدار الجلدي الغريب الذي كسا صدر هذا الأخير، إذ بدا محروقاً في أكثر من موضع، وملطخاً بالدم والزيت في مواضع أخرى!..

فتراجعت إلى الوراء وكأنها حية رقطاء قد انطوت على نفسها استعداداً لوثبة قوية ...

فتقدم منها كاتب المحكمة، وقال لها:

- اركعي يا سيدتي، إذا شئت!

فصاحت جانّ:

- أركع! أركع! أنا!.. أنا جانّ دي فالوا، أركع!

- إنه الأمر يا سيدتي.

فاعترضت جانّ مع ابتسامة مشؤومة:

- ولكنك لا تفكر فيما تقول يا سيدي، وعليّ أن أعلّمك القانون! فلا يجوز إركاع إلا من يقرّ بذنبه، ويتوجب عليه أن يعتذر جهاراً.

- حسناً يا سيدتي!

- حسناً!.. إن الاعتذار جهاراً لا يكون إلا نتيجة حكم بالقصاص الشائن. والنفي كما أعلم، ليس قصاصاً شائناً في عرف القانون الفرنسي.

فقال كاتب المحكمة برزانة حزينة:

- أنا لم أقل لك بأن المحكمة حكمت عليك بالنفي يا سيدتي!

فصاحت جانّ وقد تفجرت غضباً:

- إذن، بماذا حكمت عليّ؟

- ستعرفين يا سيدتي إذا ما أصغيت للحكم. وكي تصغي إليه، عليك اولاً، إذا شئت، أن تركعي...

- أبداً!.. أبداً!

- ان الحكم يا سيدتي، يتضمن عبارة تقول: إن رفضت المحكومة أن تركع...

- ماذا؟

- ماذا؟ يجب إجبارها بالقوة!

- بالقوة!.. ضدّ امرأة!

- إن المرأة تتساوى بالرجل، إذا ما أخلت بالاحترام الواجب للملك والعدالة.

فصاحت جانّ بغضب شديد:

- والملكة! أليس كذلك؟ لأني أعرف جيداً، بأن وراء هذه المشيئة امرأة عدوة!

- لقد تجنيت كثيراً على الملكة يا سيدتي! فجلالتها لا علاقة لها إطلاقاً بنصّ الأحكام التي أصدرتها المحكمة. هيا يا سيدتي واركعي، ولا تجبرينا على استعمال القوة!

- أبداً! أبداً! أبداً!

فلفّ كاتب المحكمة الاوراق التي كان يمسك بها، وسحب من جيبه الواسع قضيباً من الشريط الفولاذي المبروم كان يحتفظ به احتياطاً لما قد يحدث، وقرأ الأمر الصريح الصادر عن النائب العام والموجه الى الشرطة، والقاضي بإرغام المتهمة المتمردة على أن تركع استجابة لرغبة العدالة.

فثبّتت جانّ قدميها في إحدى زوايا الزنزانة، خوفاً من الشرطة التي تمثلت لها في الحراب التي رأتها، والتي تصورتها منتصبة على الدرج وراء الباب.

لكن كاتب المحكمة لم يفتح هذا الباب. بل أشار إلى الرجلين اللذين تكلمنا عليهما، فتقدما بهدوء ووضعا ذراعيهما القويتين تحت كتفي جانّ، وجرّاها إلى وسط الزنزانة رغم صراخها وعويلها!

وجلس كاتب المحكمة ينتظر وهو هادئ الأعصاب.

فلم تدر جانّ بأنها كي تجرّ بهذه الطريقة، ستجبر على أن

تركع غصباً عنها. لكنها تنبهت إلى ذلك عندما قال كاتب المحكمة: «حسن هكذا!»

ثم حرك القضيب الفولاذي بيده، فقفزت جانّ برجليها الاثنتين وتعلقت بالرجلين وأخذت تصرخ... فقال لها كاتب المحكمة:

– لا فائدة من الصراخ، لأنه لن يسمعك أحد في الخارج، وبالتالي لا يعود بإمكانك أن تسمعي نصَّ الحكم المتوجب عليَّ أن أقرأه عليك.

فقالت جانّ لاهثة ومتوسلة:

– إسمح لي أن أسمعه وأنا واقفة، سوف أسمعه صامتة!

فأجابها كاتب المحكمة:

– إن المذنب الذي يعاقب بالجلد... يتوجب عليه أن يركع كي يستمع الى قصاصه الشائن!

فصرخت جانّ عاوية:

– الجلد!.. الجلد! آه! يا لي من شقية! تقول الجلد؟!

وتضاعف صراخها وزعيقها إلى درجة أذهلت السجان، وكاتب المحكمة، والمساعدين، فأضاعوا رشدهم وأقبلوا كالسكارى يقومون بعملية الترويض.

لقد ارتموا على جانّ وطرحوها أرضاً، لكنها قاومت

بضراوة ! فشاؤوا أن يلووا ركبتيها ، فصلَّبت عضلاتها حتى غدت كأنها شفار من الفولاذ !

وأخذت ، وهي معلقة في الهواء بين أيدي هؤلاء الرجال ، تقاوم بشراسة برجليها ويديها ، مما سبَّب لهم جروحات مؤلمة ! عندئذ تقاسموا المهمة ، فأمسك أحدهم برجليها كما الملزمة ، ورفعها الآخران بزنديهما ، وصاحوا بكاتب المحكمة :

«إقرأ ! إقرأ الحكم بلا انقطاع يا حضرة الكاتب ، فبغير هذه الطريقة لن ننتهي من هذه الكلبة !»

فصاحت جانّ وهي تتخبط بقوة غير طبيعية :

– لن أدعكم تقرأون حكماً يصفني بالعار !

وقد طغى صراخها وزمجرتها على صوت كاتب المحكمة ، فلم تسمع أية كلمة مما قرأه !

ولما أكمل القراءة ، طوى الاوراق ووضعها في جيبه . فاعتقدت جانّ بأنه انتهى فصمتت ، وحاولت أن تستعيد أنفاسها كي تتصدى مجدداً لهؤلاء الرجال . ثم أطلقت قهقهات أكثر وحشية من صراخها وزمجرتها ...

واستأنف كاتب المحكمة يقول بهدوء وسكينة ، كأن ما يقوله هو إجراء عادي :

«إن الحكم سينفذ في ساحة قصر العدل !»

فصرخت التعسة عاوية :

- أوه !.. على مرأى من الجميع !

واستدار كاتب المحكمة نحو الرجل ذي الصدار الجلدي، وقال له :

- «مسيو دي باري[1]» ، إني أسلمك هذه المرأة !

فصاحت جانّ وهي في ذروة الخوف والغضب :

- من يكون هذا الرجل ؟!

فانحنى كاتب المحكمة وأجابها :

- إنه الجلاد !..

وما كاد يلفظ كلمة «جلاد» ، حتى أطبق الجلادان على جانّ وحملاها ليذهبا بها من جهة الرواق الذي تحته ، كي يمنعاها من متابعة مقاومتها بالشكل الذي وصفناه . فهذه المرأة التي كان يغمى عليها إذا ما مُسّت كرامتها في الحياة العادية ، قد تحملت خلال ما يقرب الساعة اللطمات والمعاملة السيئة من هذين الجلادين ، وجُرّت حتى الباب الخارجي دون أن تتوقف لحظة عن الصراخ المرعب المخيف !

بعد ذلك الباب ، بدت الساحة التي سُميت بساحة قصر العدل ، حيث كان الجنود يحيطون بأكثر من ثلاثة آلاف

---

(١) مسيو دي باري: اسم كانوا يطلقونه على الجلاد (سيد باريس).

مشاهد، أقبلوا بدافع الفضول إلى هذه الساحة، بعد أن رأوا الاستعدادات قائمة لنصب المقصلة.

وعلى منصة بلغ ارتفاعها ثمانية أقدام تقريباً، انتصب عمود أسود مجهَّز بحلقات حديدية، وتعلوه لافتة حاول كاتب المحكمة، بناء لأمر دون شك، أن يجعلها غير مقروءة.

هذه المنصة لم يكن لها أي درابزين، وكانوا يصعدون إليها بواسطة سلم يخلو من الدرابزين ايضاً. فالدرابزين الوحيد الذي لوحظ عليها، هو حراب النبّالة التي بدت كأنها سور منيع من القضبان الحديدية ذات الرؤوس اللامعة والمسنونة.

وما أن رأى الجمهور أبواب القصر تفتح، ومفوضي الشرطة يقبلون مع هراواتهم، وكاتب المحكمة يسير حاملاً بيده أوراقه، حتى بدأ يموج كالبحر وقد هزته الرياح!

ومن كل الجهات انطلقت الصيحات: «ها هي! ها هي!» فترددت أصداؤها بشكل لا يخلو من الاحترام للمحكوم عليها، ومن الملاحظات القاسية ضدّ القضاة. لأن حجة جانّ القوية، قد جعلت منها فريقاً عند صدور الحكم عليها. فالذين كانوا منذ شهرين يحتقرونها، قد بدّلوا نظرتهم منها وردوا إليها اعتبارها بعد ان اتخذ موقفها موقف الخصام مع الملكة.

لكن السيد دي غروسن، كان قد احتاط للأمر، فأحلّ في الصفوف الامامية من تلك الساحة، وبالقرب من رجال الشرطة ذوي الاكتاف العريضة، أكثر النساء حماسة للكردينال دي روهان. وبهذه الطريقة، حولوا لمصلحة الملكة الغضب المتفجر ضدها. فالذين صفقوا تصفيقاً حاداً للكردينال دي روهان كرهاً بماري انطوانيت، جاؤوا ليصفروا أو يصيحوا ساخرين من السيدة دي لاموت كي يفصلوا بين قضيتها، كامرأة طائشة مستهترة، وبين قضية الكردينال.

فالذي حصل، هو أنه ما أن ظهرت على الفسحة الصغيرة، حتى استقبلت بالهتاف الغاضب المنطلق من أقوى الصدور والحناجر: «لتسقط لاموت! الموت للمزورة!» فطغا هذا الهتاف على كل ما عداه!

وحدث أيضاً، ان الذين حاولوا التعبير عن عطفهم على جانّ، أو عن سخطهم على الحكم الذي تناولها، اعتبروا كأعداء للكردينال من قبل السيدات المتحمسات له، كما اعتبروا أعداءً للملكة من قبل رجال الشرطة. وبهاتين الصفتين عوملوا معاملة سيئة من قبل الجنسين اللذين كان يهمهما تحقير المدانة وإذلالها.

وكانت قوى جانّ قد تلاشت، فكفت عن الصراخ. لكن

غضبها المتأجج في صدرها بقي على ما كان عليه، فأطلقت بصوتها الجليّ، المرنّ، الرنان، عدة كلمات كان لها وقع السحر على كل المهمهمين، إذ قالت:

«هل تعلمون من أنا؟ هل تعلمون أن دمي من دم ملوككم؟ هل تعلمون أن ما أنزلوه بي، لم ينزلوه بي كمذنبة، بل كمنافسة، وأكثر من منافسة، كشريكة متواطئة؟»

فقوطعت هنا بصخب وضجيج من قبل العناصر الأكثر نباهة في رجال السيد دي غروسن. لكنها إن لم تكن قد أثارت الاهتمام، فهي قد أثارت الفضول على الأقل، وفضول الشعب هو عطش بحاجة إلى ارتواء. فالصمت الذي لاحظته جانّ، أثبت لها أن الشعب يريد الإصغاء كي يروي هذا العطش، فكررت قولها:

«نعم، إني شريكة متواطئة! وقد عاقبوا فيَّ تلك التي تعرف أسرار...»

فقاطعها كاتب المحكمة بأن همس في أذنها: خذي حذرك!

فاستدارت، واذا بالجلاد يمسك السوط بيده...

أمام هذا المشهد، نسيت جانّ ما تودُّ أن تقوله، كما نسيت حقدها ورغبتها في استمالة الجمهور، ولم تعد ترى إلا

الخزي والعار، والألم الذي كانت تخافه، فصاحت بصوت ممزّق :

«العفو !.. العفو !»

فطغا الهزء والسخرية على رجائها... وتشبثت جانّ مترنحة بركبتي الجلاد، وتمكنت من الامساك بيده.

لكن الجلاد رفع اليد الثانية، وسقط بالسوط على كتفي الكونتس...

وبشكل لا يصدق ! هذه المرأة التي طرحها الألم الجسدي أرضاً، مروضة ومقهورة، استجمعت قواها وانتصبت، وأسرعت إلى مساعد الجلاد محاولة قذفه الى الساحة خارج المقصلة...

لكنها فجأة تراجعت... فهذا الرجل كان يمسك بيده قضيباً حديدياً محمراً، كان قد سحبه لتوّه من الجمر المتوقد. فوخز بحرارته الملتهبة جسدها الندي، ففاحت رائحة اللحم منه... وقفزت كالمجنونة إلى الوراء مطلقة صرخة وحشية :

«وسموني !.. وسموني !»

فأجاب كل الحاضرين على صرختها، بصرخة انطلقت مزمجرة من ثلاثة آلاف فم :

«نعم، نعم، لقد وسموك !»

فصاحت جانّ التي ضعضعها الألم والعار اللذين وسمت

بهما، وهي تحاول أن تقطع المرسة التي جاؤوا بها لتقييد يديها :

«النجدة !.. النجدة !»

وفي ذات الوقت، انبرى الجلاد يمزق ثوبها الذي لم يستطع نزعه. وفيما هو يبعد بيده المرتعشة القماش الممزق، حاول أن يأخذ القضيب المحميّ الذي قدمه له مساعده. لكن جانّ وثبت على هذا الرجل وأجبرته على التقهقر، لأنه لم يجرؤ على لمسها، بحيث أن الجلاد، وقد يئس من أخذ الأداة المشؤومة، شرع يصغي بدافع من قلقه الداخلي، عما إذا كانت ستنطلق من صفوف الجمع بعض اللعنات عليه.

والواقع أن الجمع المعجب بالدفاع القوي الذي أبدته تلك المرأة، كان يرتعش صامتاً نافد الصبر. وكان كاتب المحكمة قد أنزل السلم، والجنود قد اصطفوا ينظرون الى المشهد مسخرين لا مخيرين.

وفيما البلبلة قائمة والفوضى سائدة بسبب هذا المشهد المخيف، انطلق صوت من الصف الاول يقول :

«خلصونا منها !»

وكان صوتاً حاسماً لا شك أن الجلاد عرفه، لأنه وثب على جانّ بقوة وطواها فوق بعضها ولوى رأسها بيده اليسرى.

ومع هذا، انتصبت واقفة وأكثر التهاباً من الحديد الذي كانوا يهددونها به، وصاحت بصوت سيطر على كل الجلبة المتصاعدة من الساحة، وعلى كل اللعنات المنصبة عليها من الجلادين.

«جبناء أنتم أيها الفرنسيون! جبناء لأنكم لا تدافعون عني، بل تتركونني أتعذب!»

فصاح بها كاتب المحكمة:

- اصمتي!

وصاح بها مفوض الشرطة:

- اصمتي!

فقالت جان:

- أصمت!.. آه! أجل، يجب أن أتحمل هذا العار، فالغلطة غلطتي! ماذا ستفعلون بي؟

فصاح الشعب مسيئاً فهم هذا الاعتراف: آه! آه! آه!

واكملت جانّ تقول وهي دائماً تتلوى:

- نعم، إنها غلطتي، لأني لو شئت أن أقول...

فصاح الكتاب والمفوضون والجلادون بصوت هادر:

- اصمتي!

لكن جانّ لم تصمت! بل أكملت تقول:

– لو شئت أن أقول كل ما أعرفه عن الملكة، إذن... لكنت قضيت دون أن أتسربل بالعار!

وما استطاعت أن تقول أكثر من ذلك، لأن المفوض وثب إلى المقصلة متبوعاً بعناصر من رجاله، فكمموا الشقية وهي راجفة، مرضضة، متورمة الوجه، دكناء اللون، مدماة!..

ثم لوى أحد الجلادين رأس ضحيته من جديد، وفي ذات الوقت، أمسك بالقضيب الحديدي المحمي الذي نجح مساعده بأن يعطيه إياه...

لكن جانّ استفادت من عجز تلك اليد التي كانت تضغط على قذالها، فقفزت كالحِفْث[1] مرة أخيرة، واستدارت بفرح هذياني، وشرّعت صدرها للجلاد وهي تنظر إليه بتحد... بحيث أن الأداة المشؤومة الساقطة على كتفها، قد أصابت ثديها الأيمن عوضاً عنه، فشقت باللحم الحي ثلماً مدخناً... وانتزعت من الضحية، رغم الكمامة، صرخة ذات نبرة فريدة لم ينطلق بمثلها أي صوت بشري!!

وبعد هذه الصرخة، انهارت جانّ تحت وطأة الألم والخجل. لقد غلبت على أمرها... فما عادت تفلتت من

---

(١) حية عظيمة لا تؤذي.

شفتيها أية أنة ، ولا اختلجت أعضاؤها بأية خلجة ، بل أُغمي عليها تماماً هذه المرة !..

فحملها الجلاد وطواها على كتفه ، وهبط بها بخطوات متعثرة سلّم الخزي والعار !

أما الشعب الذي كان صامتاً ، سواء أكان مستحسناً أم منذهلاً، فلم ينسحب من مخارج الساحة الأربعة ، إلا بعد أن رأى أبواب الكونسيارجيري قد انغلقت على جانّ ، وبعد أن رأى المقصلة تفكك قطعة قطعة ببطء ، وبعد أن ثبت له بأن ليس هناك خاتمة للمأساة المرعبة التي عرضها البرلمان على أنظاره !

وبقي رجال الشرطة يراقبون انطباعات الحضور حتى اللحظة الأخيرة . وكانت الأوامر الصادرة إليهم واضحة تماماً ، وهي تقضي باستعمال هراواتهم إذا ما بدر أي اعتراض من الشعب .

وقد يكون بدر مثل هذا الاعتراض ، إلا أنه بقي اعتراضاً هادئاً ، وفي داخلية المعترضين . ورويداً رويداً ، استعادت ساحة قصر العدل هدوءها العادي . إلا أنه عند نهاية الجسر ، وبعد أن تفرق الجموع ، دار الحوار التالي بين شابين نزقين ، كانا من جملة الذين انسحبوا من الساحة :

- هل تعتقد يا مكسيميليان، بأن التي وسمها الجلاد بالعار، هي السيدة دي لاموت؟

- فأجابه الثاني، وكان أكبر منه سناً:

- هكذا يقولون، لكني أنا، لا أعتقد...

أضاف الأول، وكان رجلاً قصيراً وضيع المظهر، له عينان مستديرتان كعيني العصفور:

- إذن، بحسب رأيك، ليست هي، أليس كذلك؟ لا، ليست السيدة دي لاموت التي وسموها، أليس كذلك؟ إن عملاء هؤلاء الطغاة قد أجادوا التمثيل... فكي تُبرأ ماري انطوانيت من التهم الموجهة إليها، وجدوا الآنسة أوليفا، وأغروها كي تعترف بأنها زانية... واستطاعوا أن يجدوا دي لاموت مزوَّرة، لتعترف بأنها مزوَّرة... والقصة كلها، قصة مسرحية هزلية كلفت غالياً، ووزعت تكاليفها على الجلاد، وعلى الضحية!..

وكان رفيق هذا الرجل يستمع إليه ويهزّ رأسه، ويبتسم ولا يجاوب! فقال له الرجل القصير الوضيع:

- لماذا لا تجاوب؟ ألا توافقني الرأي؟

فأجابه الآخر:

- من الصعب أن تقبل امرأة بأن توسم في ثديها! فالمسرحية الهزلية التي كلمتني عليها، تبدو لي غير واقعية.

على كل، أنت أعلم مني بالطب، ويجب أن تكون قد اشتميت رائحة اللحم المحروق، إنها لذكرى كريهة!

- قلت لك بأن القضية قضية مال. فهم يدفعون لمدانة كي يدمغوها بوصمة العار افتداءً لغيرها، ويدفعون لها كي تقول ثلاث أو أربع عبارات طنانة، ثم يكممونها عندما يلاحظون بأنها على وشك العدول...

فقال الشخص الذي يدعى مكسيميليان ببرودة:

- رويدك! رويدك! فأنا لن أسلك معك هذه الطريق الوعرة!

فقال الآخر:

- إجِم! إذن، أنت ستعمل كالمتسكعين الآخرين! ستنتهي إلى القول بأنك شاهدت السيدة دي لاموت وقد دمغوها بوصمة العار؟ عجباً منك كم أنت متقلب! فمنذ قليل كنت إيجابياً وعبرت عن رأي مخالف، عندما قلت: «لا أعتقد بأنها هي السيدة دي لاموت من وسموها!»

فأجابه الرجل الشاب مبتسماً:

- وما زلت أعتقد ذلك. لكن البديلة، ليست واحدة من المحكوم عليهن كما تقول أنت.

- إذن، هيا بنا وقل، من هي المرأة التي سربلوها بالعار في ساحة قصر العدل، عوضاً عن السيدة دي لاموت؟

فأجابه الرجل الشاب بصوت مرتفع، وقد أكَّد على كل كلمة قالها بابتسامة عريضة:

- إنها الملكة!..

فتراجع الآخر مقهقهاً ومصفقاً لهذا المزاح، ثم نظر إلى ما حوله وقال:

- إلى اللقاء يا روبسبيار...

فأجابه الآخر:

- إلى اللقاء يا مارات...

وافترقا...[1]

الزواج

★

ظهر ذلك اليوم الذي تمّ فيه تنفيذ حكم المحكمة، خرج الملك من غرفته في قصر فرساي، وقال لأخيه الكونت دي بروفنس بجفاء:

---

(١) مكسيمليان روبسبيار وجان بول مارات، من أبرز قادة الثورة الفرنسية الكبرى التي قضت على ماري انطوانيت بقطع رأسها تحت شفرة المقصلة!

«سأحضر اليوم يا سيدي صلاة عرس، فأرجوك أن لا تكلمني إطلاقاً على الأمور العائلية، سواء أكانت حسنة أم سيئة، لأن ذلك نذير شؤم للعروسين الجديدين اللذين أحبهما وأشملهما برعايتي.»

فقطب الكونت دي بروفنس حاجبيه مبتسماً، ثم انحنى محيياً أخاه، وعاد إلى جناحه.

وأكمل الملك طريقه وسط الممالقين المنتشرين في الأروقة، مبتسماً إلى البعض منهم ومتطلعاً إلى البعض الآخر بجفاء، وفقاً لما رآه من مواقفهم، المؤيدة أو المعارضة، للقضية التي أعطى البرلمان حكمه فيها.

وهكذا وصل الى القاعة المربعة حيث كانت الملكة بانتظاره في أكمل زينتها، يحيط بها النبلاء وسيدات الشرف.

وكانت الملكة، البادي الشحوب عليها تحت الطلاء الأحمر الذي خضبت به وجنتيها، تصغي بانتباه كئيب إلى الأسئلة اللطيفة التي كانت توجّه إليها من قبل السيدة دي لامبال والسيد دي كالون حول صحتها.

لكنها كانت دائماً تختلس النظرات نحو الباب، كأنها تبحث عن شيء تتحرق لرؤيته، ثم تستدير كمثل من يرتعش عند رؤيته شيئاً ما...

وفجأة صاح أحد حجاب غرفة الملك:

- الملك !..

وفي موجة من المطرزات والدنتيلا والأضواء، رأت ماري انطوانيت لويس السادس عشر، الذي ألقى أول نظرة عليها عندما وطأت قدمه عتبة الباب.

فنهضت ماري انطوانيت وتقدمت ثلاث خطوات نحو الملك، الذي قبّل يدها بأناقة وقال لها:

«إنك تبدين جميلة اليوم يا سيدتي، جميلة جداً!»

فابتسمت الملكة بحزن، ومرة أخرى فتشت عيناها التائهتان عن ذلك المجهول الذي قلنا بأنها كانت تبحث عنه، فسألها الملك:

- إن عروسينا الشابين ليسا هنا؟! ويبدو لي أن الظهر قد أوشك!

فأجهدت الملكة نفسها لدرجة جعلت الطلاء الأحمر يتشقق على خديها وتتساقط ذريراته على الأرض، وأجابت:

- لقد وصل السيد دي شارني وحده يا مولاي، وهو ينتظر في الرواق أوامر جلالتك كي يدخل.

فأجاب الملك دون أن يلاحظ الصمت المطبق الذي أعقب كلام الملكة:

- شارني هنا؟! ليأت! ليأت!

فانفصل عدة نبلاء وساروا باتجاه شارني . وضغطت الملكة بأصابع يدها على قلبها بحركة عصبية ، وجلست مديرة ظهرها إلى الباب . فقال الملك مردداً كلامها :

– فعلاً قد أصبح الوقت ظهراً ، ويتوجب على العروس أن تحضر .

وفيما كان الملك يتلفظ بهذه الكلمات ، بدا شارني في مدخل القاعة ، وقد سمع كلمات الملك الأخيرة ، فأجابه معقباً عليها :

«لتتفضل جلالتك وتقدر تأخر الآنسة تافرني غير المقصود ، فهي منذ وفاة والدها لم تفارق السرير ، واليوم فقط نهضت للمرة الاولى ، وهي ستكون رهن أوامر جلالتك .»

فقال الملك بصوت مرتفع :

– لقد كانت هذه الابنة العزيزة تحب والدها كثيراً ! ولكن بما أنها حظيت بزوج طيب ، فكلنا أمل بأنها ستجد فيه سلوتها وتعزيتها .

فأصغت الملكة ، أو بالأحرى سمعت ولم تقم بأية حركة . والذي لاحقها بعينيه فيما كان شارني يتكلم ، رأى كيف انحسر الدم من جبهتها إلى قلبها ...

والملك الذي لاحظ أن القاعة قد اكتظت بالنبلاء ورجال الدين ، رفع رأسه فجأة وقال :

- هل أنجزت يا سيد دي بريتاي، قرار النفي بحق كاغليوسترو؟

فأجاب الوزير دي بريتاي باحترام:

- نعم يا مولاي.

وأكمل الملك يقول بصوت قوي، وبعد أن عكرت الصمت المطبق في القاعة تنهدة مكبوتة:

- وهذه اللاموت، التي تدعي الانتساب لآل فالوا، ألن توسم اليوم؟

فأجاب وزير العدل:

- يجب أن يكون وسمها قد تمَّ في هذه الآونة يا مولاي.

فقدح الشرر من عيني الملكة، وجرت في القاعة همهمة قد تكون همهمة استحسان، وتابع لويس السادس عشر يقول بصلابة لم تُعهد فيه من قبل:

- إن الكردينال سيغتاظ عندما يعلم بأننا وسمنا شريكته!

وهذه الكلمة «شريكة» تُوجَّه الى متهم برَّأه البرلمان، والى شخص يجله الباريسيون، هذه الكلمة التي تحكم على أمير من أمراء الكنيسة ومن خيرة الأمراء الفرنسيين بأنه لص ومزور، قد أطلقها الملك كتحذير رسمي الى رجال الدين، والى النبلاء، والى أعضاء البرلمان، والى الشعب، كي يدعم بها شرف زوجته. ثم أجال طرفه فيما حوله، بعينيه المتوقدتين

بالغضب والمهابة اللتين لم يشعر بمثلهما أحد في فرنسا منذ أن أطبق لويس الرابع عشر عينيه إطباقتهما الأخيرة.

وهذا الكلام الذي هدف الملك من ورائه إلى الانتقام من كل الذين تآمروا لإلحاق الخزي والعار بالعائلة المالكة، لم يقابل بأية نأمة أو أية كلمة تدل على الموافقة والاستحسان. عندئذ، تقدم الملك من الملكة التي مدت له يديها الاثنتين تعبيراً عن امتنانها العميق.

وفي تلك اللحظة، ظهرت في نهاية الرواق الآنسة دي تافرني بثوبها الابيض كخطيبة، وبوجهها الناصع كزنبق الحقول. وكان شقيقها، فيليب دي تافرني، يمسك بيدها.

فابتسم المالقون عند مرور الخطيبة، وكل السيدات اتخذن أماكن لهنّ وراء الملكة، واصطف الرجال كلهم وراء الملك.

فتقدم القاضي الملكي سيفران، ممسكاً بيد أوليفيا دي شارني، إلى أمام اندريه وشقيقها وحيّاهما، واختلطا بجمهور الأقارب والاصدقاء الأخصاء.

وأكمل فيليب طريقه دون أن تلتقي عيناه عيني أوليفيا، ودون أن ينبه أندريه بالضغط على أصابع يديها، بأنه يتوجب عليها أن ترفع رأسها. فقط عندما وصل الى امام الملك، ضغط على يد شقيقته التي كانت كميتة مكهربة، ففتحت

عينيها الواسعتين ورأت لويس السادس عشر الذي ابتسم لها بطيبة.

ثم حيّت وسط همهمة الحضور الذين صفقوا لجمالها، وقال الملك بعد أن أخذ بيدها:

«لقد اضطررت يا آنستي أن تنتظري نهاية الحداد كي تتزوجي من السيد دي شارني. ولو أني لم أطلب منك الإسراع بهذا الزواج، لربما منحك خطيبك، رغم نفاد صبره، شهراً آخر قبل تحقيق أمنيته. لأنك ما زلت تتألمين كما بلغني، وأنا محزون لحزنك. لكني مضطر لتأمين السعادة إلى النبلاء الطيبين الذين خدموني باخلاص كالسيد دي شارني، واذا لم تتزوجيه اليوم، لن يتاح لي أن أحضر زواجكما، لأني ذاهب في رحلة طويلة مع الملكة. لذلك، يسرني أن أوقع عقد زواجكما اليوم، وأن يتم هذا الزواج في كنيستي الخاصة. هيا وقدمي احترامك للملكة يا آنستي واشكريها، لأن جلالتها كانت جدّ عطوف عليك.»

وفي ذات الوقت، أمسك الملك بيد أندريه، وقادها بنفسه الى ماري انطوانيت.

كانت الملكة منتصبة راجفة الركبتين، جامدة اليدين، فلم تجرؤ أن ترفع عينيها! لكنها رأت شيئاً أبيض يقترب وينحني

أمامها ، وكان هذا الشيء الابيض فستان العرس الذي ارتدته أندريه .

وبعد أن أعاد الملك يد الخطيبة إلى شقيقها فيليب ، وأعطى هو يده الى ماري انطوانيت ، قال بصوت عال :

«هيا إلى الكنيسة أيها السادة !»

فسار الجمع كله بصمت وراء صاحبي الجلالة ، ليَحتل كل واحد مكانه على مقاعد الكنيسة الملكية .

وعندما بدأ القداس ، كانت الملكة تصغي حانية على مركع الصلاة ، ورأسها مدفون بين يديها ... لقد صلّت من كل قلبها ، وصعّدت الى السماء ابتهالات أشدّ حرارة من نفثات شفتيها التي التهمت دموع عينيها ...

أما شارني ، الذي بدا شاحب اللون بهياً ، فقد شعر بثقل النظرات المنصبة عليه ، ومع هذا بقي محافظاً على هدوئه وشجاعته اللتين عُرف بهما عندما كان على متن سفينته ، يجابه الأعاصير وقذائف السفن الحربية الانكليزية . لكن الألم كان يحزّ في أعماق قلبه !

وكانت عين فيليب لا تفارق أخته ، التي رآها ترتعش وتترنح ، فتهيأ لينجدها عند الحاجة بكلمة ، أو بحركة عطف وتعزية .

لكن أندريه لم تكذب نفسها . فبقي رأسها مرفوعاً ،

وبقيت واقفة بقوة إرادتها، رغم أنها كانت كالشمعة التي يتذبذب نورها وتذوب من أجل غيرها.

ولم تصعِّد أندريه أية صلاة نحو السماء، ولا تمنت شيئاً لمستقبلها، لأنها لم تكن تأمل شيئاً أو تخاف على شيء. فهي لا تمت بصلة الى البشر، ولا إلى الله!

وعندما قرع جرس الكنيسة وابتدأ الكاهن صلاته، وشعرت بالسر الإلهي يحيق بها، قالت في نفسها متسائلة:

«ولكن هل أنا مسيحية؟ هل أنا كائن كبقية الكوائن، ومخلوقة كبقية المخلوقات؟ هل خلقتني من أجل الرأفة والشفقة، أنت الذي يدعونك الله القادر على كل شيء، والسيد المطلق على كل شيء؟ أنت الذي يسبحون بعدلك، والذي عاقبتني من دون أن ارتكب أية خطيئة؟ أنت الذي يدعونك إله السلام والمحبة، الذي من أجله علي أن أعيش في جو الاضطراب، والغضب، والثأر الدامي! أنت الذي من أجله، علي أن أتزوج عدوي اللدود، لأنك جعلتني لا أقوى إلا على حب هذا الرجل من دون سواه!»

وتابعت تقول:

«لا، لا، إن أمور الدنيا وشرائع الله لا تعنيني! فأنا بدون شك ملعونة قبل أن أولد، وولادتي جاءت خارج الشريعة والانسانية!»

ثم عادت إلى ماضيها المؤلم، فدمدمت قائلة:

«غريب! غريب! هناك، بالقرب مني، رجل يكفي أن يُلفظ اسمه أمامي كي يمتلئ قلبي سعادة! ولو جاء هذا الرجل وطلب يدي بنفسه، لأجبرت على الارتماء على قدميه وطلب المغفرة منه على غلطتي السابقة، على غلطتك يا إلهي! وهذا الرجل الذي أعبده، وربما هو يرفضني، قد جاء اليوم يتزوجني، وهو الذي سيطلب مني العفو جاثياً على ركبتيه! غريب! نعم، نعم، بل في منتهى الغرابة!»

وفي هذه اللحظة، طرق صوت الكاهن أذنها بقوله:

«جاك أوليفيا دي شارني، هل تودُّ أن تتخذ ماري أندريه دي تافرني، زوجة شرعية لك امام الله والناس؟»

فأجاب أوليفيا بصوت حازم:

– نعم!..

وأكمل الكاهن يقول:

«وأنت يا ماري–أندريه دي تافرني، هل تودين أن تتخذي جاك أوليفيا دي شارني، زوجاً شرعياً لك أمام الله والناس؟»

فأجابت أندريه بنعم... ولكن بلهجة فظة تقريباً، جعلت الملكة ترتعش وتختلج أكثر من أية امرأة في الحفل!

وعندئذ، أدخل شارني المحبس الذهبي في إصبع زوجته، فانزلق من دون أن تشعر اندريه باليد التي قدمته لها!

وبعد برهة قصيرة، انتهت مراسم الزفاف ونهض الملك، فأقبل كل المالقين الى الرواق يهنئون العروسين ويتمنون لهما زواجاً سعيداً.

وأثناء عودته، أمسك القاضي الملكي دي سيفران بيد أندريه، وتمنّى لها باسم أوليفيا السعادة التي تستحقها.

فشكرت أندريه القاضي الملكي من دون أن تنبسط أساريرها. لكنها رجت خال زوجها بأن يقودها الى الملك بسرعة كي تشكره، لأنها تشعر بضعف ووهن!

وفي ذات الوقت، غزا وجهها شحوب مخيف!.. فرآها شارني من بعيد ولم يجرؤ أن يتقدم نحوها.

واجتاز القاضي الملكي القاعة الكبرى قائداً أندريه إلى الملك، الذي قبلها في جبهتها وقال لها:

«اذهبي إلى الملكة يا سيدتي الكونتس، فجلالتها تود أن تشاركك فرحة العرس.»

وبعد هذه الكلمات التي اعتقدها الملك مفعمة بالملاطفة والرقة، انسحب متبوعاً بكل أهل البلاط، تاركاً الزوجة الجديدة بين ذراعي فيليب، مضطربة، مشتتة الافكار! ثم دمدمت قائلة:

– آه! هذا كثير! هذا كثير يا فيليب! ويبدو لي أني تحملت فوق طاقتي!..

فقال لها شقيقها بصوت منخفض :

– تشجعي يا أختي ، فلم يعد أمامك سوى هذه التجربة .

فأجابت أندريه :

– لا ، لا ، لا أستطيع أن أتحمل ، فقوة المرأة محدودة ، قد أعمل ما يطلبونه مني ، ولكن ثق يا فيليب بأني سوف أموت إن هي كلمتني أو جاملتني !!

فقال لها فيليب :

– تموتين إذا اقتضى الأمر بأن تموتي يا شقيقتي العزيزة ، وعندئذ ستكونين أكثر سعادة مني . لأني أنا ، أودّ لو كنت مائتاً !

تلفظ فيليب دي تافرني بهذه الكلمات بلهجة حزينة وكئيبة ، مما جعل أندريه الممزقة القلب ، تندفع إلى الأمام وتدخل غرفة الملكة .

وعندما رآها أوليفيا تمرّ ، سوّى طول السجادات كي لا تلامس فستانها ، وبقي وحده في القاعة مع فيليب ، خافضاً رأسه كصهره ، ومنتظراً نتيجة هذه المقابلة بين الملكة وأندريه .

★

كانت الملكة في غرفتها الواسعة عندما أقبلت عليها أندريه . ورغم أن الشهر كان شهر حزيران ، فالملكة كانت

تصطلي النار وهي جالسة على مقعدها الوثير، ورأسها مقلوب الى الوراء، وعيناها مغمضتان، ويداها مضمومتان كأنها ميتة!

والسيدة دي ميزاري التي أدخلت أندريه، أرخت الستائر، وأغلقت الأبواب، وخرجت من جناح الملكة.

فوقفت أندريه مرتعشة من التأثر والغضب، ومرتعشة أيضاً من ضعفها، وأخذت تنتظر خافضة العينين أن تسمع كلاماً يتناول قلبها... كانت تنتظر صوت الملكة كما ينتظر المحكوم عليه بالاعدام الفأس التي ستفصل رأسه عن جسده!

وبالتأكيد، لو أن ماري انطوانيت حركت شفتيها في تلك اللحظة، لكانت أندريه المنهوكة القوى قد سقطت أرضاً قبل أن تفهم أو تسمع.

ومرت دقيقة، كانت بمثابة قرن من العذاب الرهيب، لم تبدر من الملكة خلالها أية حركة.

وأخيراً، نهضت ماري انطوانيت مستندة بيديها الاثنتين إلى ذراعي مقعدها، وتناولت عن الطاولة ورقة تفلتت عدة مرات من بين أصابع يديها المرتعشتين...

وكان الكلام بين هذين القلبين غير ضروري. فالملكة ليست بحاجة لأن تثير ذكاء أندريه، وأندريه لا يمكنها أن تشك لحظة بكبر نفس الملكة.

واية امرأة سوى أندريه، كانت افترضت بأن ماري انطوانيت ستقدم لها مهراً عظيماً، او توقيعاً على صك ملكية، أو عقداً رسمياً لاحتلال مركز مرموق في البلاط.

أما أندريه، فقد حزرت بأن الورقة تحتوي على شيء آخر. فتناولتها، ومن دون ان تتحرك من مكانها، أخذت تقرأها، بعد أن هبطت يد ماري انطوانيت، ورفعت عينيها ببطء نحو أندريه.

وهذا ما جاء في تلك الورقة:

«أندريه، أنت من أنقذني. فشرفي هو هبة منك، وحياتي هي لك. فباسم هذا الشرف الذي كلفك غالياً، أقسم لك أن باستطاعتك مناداتي باسم شقيقتك. جرّبي، ولن تريني احمريت أبداً...

«وإني إذ أضع هذه الرسالة بين يديك، أضعها كعربون تقدير لجميلك، وهي المهر الذي أهبك إياه.

«إن قلبك هو أنبل القلوب كلها، وكم يسعدني أن أقدم لك الآن هذا العرض!»

«الامضاء: ماري انطوانيت دي لورين دوتريش»

فتطلعت اندريه بدورها إلى الملكة، فرأتها تنتظر الجواب مثقلة الرأس، والدموع تترقرق في عينيها...

فاجتازت الغرفة بتمهل نحو النار التي أوشكت على

الانطفاء، وحرقت على لهيبها المتبقي رسالة الملكة ... ثم عادت فحيتها باحترام عميق دون أن تتلفظ بكلمة، وخرجت من الغرفة الملكية ...

فتقدمت ماري أنطوانيت خطوة كي توقفها، كي تلحق بها، لكن الكونتس العنيدة، تركت الباب مفتوحاً، وذهبت لتنضم الى شقيقها في القاعة المجاورة.

واستدعى فيليب شارني اليه وأخذ بيده ووضعها بيد أندريه، فيما كانت الملكة على عتبة غرفتها، تشق بيدها سجف الباب لتراقب هذا المشهد المؤلم.

لقد ذهب شارني كأنه خطيب الموت الذي جاءته به خطيبته الدكناء. ذهب وهو يتلفت الى الوراء ليرنو الى وجه ماري انطوانيت الشاحب، وجه الملكة التي أحبته وأحبها. وخطوة بعد خطوة، توارى نهائياً عن أنظارها ...

وكانت هناك عربتان تنتظران على باب القصر، فصعدت أندريه إلى الاولى. وفيما كان شارني يهم لأن يلحق بها، قالت له الكونتس الجديدة:

– أعتقد يا سيدي، بأنك ستسافر إلى بيكاردي!

فأجابها شارني:

– نعم يا سيدتي.

فقالت له:

– وأنا يا سيدي الكونت، سأسافر إلى البلد الذي ضمّ رفات والدتي ... نوداعاً!

فانحنى شارني دون أن يجاوب، وانطلقت خيول العربة بأندريه وحدها!..

عندئذ، قال أوليفيا إلى فيليب:

– هل ستبقى معي لتدلل لي بأنك عدوي؟

فأجابه فيليب:

– لا يا سيدي الكونت، أنت لست عدوي، أنت صهري!

فمدّ له أوليفيا يده مصافحاً، ثم صعد بدوره الى العربة الثانية وانطلق.

وبقي فيليب وحده صامتاً ساهماً... ثم قال بصوت مخنوق:

«هل احتفظت يا إلهي، بقليل من الفرح في السماء، من أجل الذين أدوا واجبهم على الارض؟»

ثم ألقى وهو مكفهرُّ الوجه، نظرة أخيرة على القصر الملكي، وتابع يقول:

«أتكلم على الفرح!.. وما جدوى ذلك!.. وحدهم يحق لهم أن يأملوا بحياة جديدة، أولئك الذين سيجدون في الأعالي القلوب التي كانت تحبهم. أما أنا، فما أحبني

شخص على هذه البسيطة! أنا، ليس لي ما لهم، حتى حلاوة الاشتياق إلى الموت!»

ثم نظر الى السماء نظرة لا حقد فيها ولا ضغينة، نظرة تبكيت من مسيحي مزعزع الايمان، وتوارى كما أندريه وشارني، في الزوبعة الأخيرة لذلك الإعصار الذي هبّ ليقتلع عرشاً، بسحقه الكثير من الامجاد والكثير من الحب!!

عِقدُ الملكة

تُعدُّ رواية «عقد الملكة» من أشهر الروايات التاريخية والغرامية. فأحداث هذه الرواية الشيّقة جداً، تدور حول عصر وحياة الملكة الفاتنة ماري انطوانيت التي قطعت الثورة الفرنسية رأسها الجميل بواسطة المقصلة. أما قصة العقد فيها، فهي قصة غرام جنوني بالملكة ماري انطوانيت من قبل أمير كردينال... وكانت وراء هذا العقد والغرام كونتس مخادعة من العائلة المالكة. أما الملكة التي وقعت في خديعة الكونتس المذكورة، فقد أُغرمت هي الأخرى بأحد فرسان الملك الذي بادلها الغرام بأشد منه، لكن الملكة بقيت محافظة على مكانتها كملكة فرنسا، والفارس بقي متهيباً الموقف كأحد رعايا زوجها لويس السادس عشر.

لذلك كانت العلاقة الغرامية بين الملكة والفارس علاقة مأساوية مثيرة، نترك للقارئ ان يكتشف تفاصيلها، كما نترك له ان يكتشف سرّ «عقد الملكة» وما رافقه من محاكمات أقامت فرنسا وأقعدتها في ذلك العصر...